كارل صبّاغ

فلسطين : تاريخ شخصى

ترجمة : محمد سعد الدين زيدان

مراجعة : محمد شاهين

2364
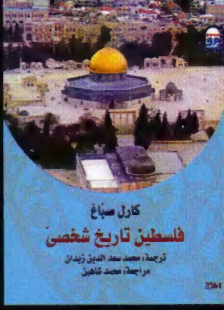
يسعى هذا الكتاب إلى إيضاح أن تأسيس دولة إسرائيل قد ألحق ظلمًا فادحًا بالفلسطينيين، ما كان له أن يقع إلا بنشر سلسلة من الأكاذيب الرسمية إلى بقية العالم، وهي عملية لم تنقطع إلى الآن.

كارل صبّاغ، مؤلف الكتاب، هو ابن عيسى خليل صباغ الذي غادر فلسطين للدراسة في بريطانيا، وصار أشهر المذيعين العرب في الإذاعة البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، ويحكي هذا الكتاب قصة عائلة صباغ ذات التاريخ الطويل في فلسطين، فيركز المؤلف على تاريخ 400 سنة خلت، وهي مدة فيها من الأدلة الموثقة ما يثبت الوجود المتواصل للفلسطينيين، ومنهم أفراد عائلة صباغ، وأنهم الغالبية العظمى على أرض فلسطين.

تصميم الغلاف: هاني الشناوي

فلسطين: تاريخ شخصى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2364
- فلسطين: تاريخ شخصى
- كارل صبّاغ
- محمد سعد الدين زيدان
- محمد شاهين
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

PALESTINE: A Personal History
By: Karl Sabbagh

First published in the UK by Atlantic Books Ltd.

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

فلسطين: تاريخ شخصى

تأليف : كـــارل صبـّاغ

ترجمة: محمد سعد الدين زيدان

مراجعة: محمد شـــاهين

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

صباغ ، كارل.
فلسطين: تاريخ شخصي / تأليف كارل صباغ ؛ ترجمة: محمد سعد الدين زيدان، مراجعة: محمد شاهين.
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٤٥٦ ص، ٢٤ سم
١- فلسطين – تاريخ.
٢- كارل ، صباغ (مؤلف)
(أ) زيدان، محمد سعد الدين (مترجم).
(ب) شاهين ، محمد (مراجعة)
(جـ) العنوان ٩٥٦,٩

رقم الإيداع: ١٩٣١٠ /٢٠١٤
الترقيم الدولي 2 - 856 - 718 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

نـــداء

اقطعِ الضجيج كيما تجدُني

ولتصمتِ الدبابةُ والبندقية

ولتَخرَسْ أوامرُ الصراخ

وصرخاتُ التحدّي والعويل والنحيب...

وألقِ السمع هنا!

•

صوتي جدُّ ضعيفٌ

لعلّك تسمَعُه...

أو علّك تحتاجُ لتدنو أكثر

وتلقي تلك الحجارةَ عني بعيدًا.

لكنْ ارفقْ وتلطّفْ..

إنْ وجدتَني أنقذني..

ساعدني أتنفّس

واجبرْ كسر ضلوعي
ولا تخدعني بحياة أوهى من قشة.

أحتاج قوتًا وشرابًا
وبيتًا أفني فيه حياتي.
عافيةً أريد وأملاً وعملاً.
أريدُ الحبَّ.

فخذْني في أحضانك
وضمّني إلى قلبك...
أنا السلام.

سو صبّاغ، حزيران ٢٠٠٢.

المحتويات

تقدير وعرفان

ساعدني أشخاصٌ كثيرونَ في رسمِ الأفكارِ لهذا الكتاب، بما وضعوه أمامي من معلومات، وبما أمدّوني من دعمٍ وتشجيعٍ في أثناءَ مسيرةِ البحثِ والكتابةِ، إلا أنَّ الشخصَ الذي استقيتُ منه الإلهامَ، وتمثلت صورته نصبَ عيني في كلِّ مرحلة من مراحلِ الكتابِ هو إدوارد سعيد، المفكّرُ والكاتبُ الفلسطينيُّ وصديقي العزيز. كان سعيدُ في كتاباته قد جمع من كلِّ حدْبٍ وصوبٍ حجمًا ضخمًا من الأدلّةِ التي تكشفُ أصنافَ الظّلمِ التي تعرّضَ لها الفلسطينيّون، وأعْمَلَ قلمَه الجريءَ في هذا الشأنِ بلا مداهنة، على الرغم من المحاولاتِ التي لا تنقطعُ لتكميمِ أيِّ صوتٍ يميطُ اللثامَ عن المأساةِ الفلسطينيّة. وإنّي لمِثْلُه في ذلك، فأنا لا أعرفُ المداهنةَ، وأكادُ أجزمُ بأنّي سأرى مظاهرَ العداوة تلاحقُني بعدَ هذا الكتابِ من أولئك الذين يُفَضّلون أن يبقى الفلسطينيّون صامتين وأن يرضى أبناؤه بالواقع. واستمرّتْ صلتي بسعيدٍ حتّى بعدَ وفاته، فقد كانتْ زوجُه مريمُ وأطفالُه وديعُ ونجلةُ يشجّعون ما أكتبُ ولا بدَّ لي أن أتقدّمَ بالشكر إليهم.

كان لعددٍ من أقاربي فضل خاص أن أتاحوا لي فرصةَ الاستماعِ إلى ذكْرياتِهم وملاحظاتِهم، وأذكرُ منهم "علا صبّاغ" و"غسّان خليل صبّاغ" و"أليف صبّاغ" و"حسيب صبّاغ" و"إلياس صبّاغ". إلا أنّه يؤسفني في الوقتِ ذاتِه أن أعبّرَ عن حزني لما رأيتُه من إشارةٍ واضحةٍ لعمقِ الخوف الذي ما

زال جاثمًا على أفئدةِ الناس بعد مرور ستين سنةً على نكبة ١٩٤٨، إذ تردَّدَ بعضُ أقاربي الذين شهدوا أحداثَ النكبة وطُرِدُوا من بيوتهم في الحديث حول ذلك. أمّا أقاربي من جهة أمي فأشكرُ منهم خالي "بيتر جريدون" لمـا قـصّه عليّ من مذكِّراته الشخصيةِ عن أيّام الحرب في لندن.

أودّ أن أتقدّم بالشكر لعدد من الأشخاص الذين ساعدوني فـي جوانـبَ كثيرةٍ، من قراءةٍ لمسوّدة الكتاب، وتقديم الملاحظاتِ عليهـا، إلـى حُـسنِ الضّيافة التي تلقيتُها والمعلوماتِ المهمة التي حصّلتها. ويسعني أن أذكر منهم "إيلان بابي"، ونور ما شاء الله، و"إلفي بالِس"، و"آفي شلايم"، و"عفيف صافية" وزوجته "كريستل صافية"، و"محمود حواري"، و"ريموندا طويل" و"هالة طويل"، و"حنا وتانيا ناصر"، و"فيرا تماري"، و"ناديا أبو الحاج"، و"ليلـى تنـوص"، و"كرمة نابلسي"، و"غادة كرمي"، و"ديانا علان"، و"ساشا هوفمـان"، و"تـيم روثرميل"، و"إيان شالمرز"، و"فيليب ديفيز"، و"ديانـا ألـين"، و"فيرجـوس بورديفيتش"، و"دوايبس"، و"مها عبود أشقر".

قد كان "ديفيد بن شمعون" دليلاً متميزًا في رحلتي إلى صفد، تلك الرحلـة التي حاولتُ فيها أن أتلمّس أيَّ آثار لعائلتي هناك، وقد تمكّنتُ من استكشاف المواقع المرتبطة بظاهر العمر كافّة، وذلك بفضل منحة السفر التي حـصلت عليها من مؤسسة "إينشنت آند موديرن".

وفتحَ لي "بيتر أوبينهايمر" في مركز أكـسفورد للدراسـات العبريـة واليهودية أبوابَ مكتبته الرائعة، وشجّعني على الإفادة منها، وقد خرجت من الاجتماعات وقاعات الأرشيف في مركز دراسات الشرق الأوسط في كليـة القديس أنتوني في جامعة أكسفورد بالعديد من المعلومات والإشارات المهمة.

وإنّي مَدين لزوجتي "سو"، فهي التي أمدتني بالتشجيع والدعم في أثناء عملي على هذا الكتاب، بكلّ ما أمكنها، وأشكرها أيضًا على قصيدة الأمل التي استهللتُ بها كتابي.

وأودّ أخيرًا أن أشكرَ من شركة أتلانتيك للنشر من قدّموا ليَ الدعمَ والتوجيهَ وهم كُثر، إلا أنّي أخصُّ بالذكر منهم "توبي مندي" وكلارا فارمر وبوني شيانج، كما أشكر إيام بيندر وجين روبرتسون على جهود التحرير المتقَنة التي قاما بها.

تمهيد

أنا ابنُ رجلٍ فلسطينيّ، إلا أنّني لا أحمل سوى القليل من الصفات التي ترتبط بالصّورِ التقليديةِ المنطبعةِ في أذهانِ بعض الشعوب عن الفلسطينيّين أو العرب، فأنا لست فقيرًا، ولا كثَّ اللحيةِ، ولا أرطنُ بالإنجليزية. وإنّي لا أحسن استخدامَ المسدس، ولا أعرفُ شيئًا عن تركيب القنابل. لا علاقةَ لي بالجِمال، أو الرمال، أو أشجارِ النخيل. لكنّني أتعاطف مع شعبِ فلسطين، وليَ روحٌ ترتبط بهم. والعجيب أنَّ هذه العاطفة قد اختلجتْ كياني في سنيَّ عمري الأولى، في وقتٍ لم أكنْ أعلمُ فيه الكثيرَ عن عائلتي وارتباطها بفلسطين؛ فأنا نشأت في أحضان أمّ إنجليزية، وترعرعت في جنوب لندن، غير أنّي كنت متعلّقًا بقراءة التاريخ، ومعرفة الطريقة التي قام بها مجموعة من اليهود، يدعون أنفسهم بالصهاينة، بتنصيب أنفسهم أمناءَ على تحويل دولة عربية إلى وطن لليهود، ضاربين برغبة غالبية السكان الأصليين عرضَ الحائط، وهُمُ الشعب الذي كان على مرمى حجر من الاستقلال والحكم الذاتي بُعَيد الحرب العالمية الأولى.

كنت قبل أعوام عدّة قد قرأت مقالاً لكاتب يدعى فريبا ستارك، وهو رحّالةٌ جابَ الشرقَ الأوسط، نُشر في صحيفة التايمز عام ١٩٤٠ تحت عنوان: "البث اللاسلكي في جزيرة العرب"، و قد قدّمَتِ المقالةُ وصفًا لساحة إحدى القرى في شبه الجزيرة العربية يجلس أهلها حول الراديو يستمعون إلى الموسيقى العربية وجاء فيها:

"كانت الساحة تعجّ بالمستمعين على الرغم من حالة الكبت التي يعيشونها، فسحرُ هذه الألحان الريفية تجذبهم بما لديهم من مشاعر الوِحدة، ويلحَظون أمامَهم تلك الآفاق الساكنةَ والأيامَ الطويلة من التجوال في الحقولِ وعلى الجبال، ويستجمعون تلك الساعاتِ العاطلةَ من وقتِ الظهيرة حين طرقتْ ألحانُ الريف مسامعَهم أولَ مرّة. رائعٌ حقًا أن تتوافرَ لدينا من أوروبا هذه الصورُ التي تكشفُ عن كثيرٍ من الاختلافات. وقد ابتسم لنا الحظُّ ليكونَ معَنا مذيعٌ عذْب الصوت، تنحدرُ الكلماتُ من فيهِ بتلك النبرات الموزونة. إنه مذيعٌ يختارُ كلَّ مقطعٍ من كلامِه بعناية، ويُسْبِلُ عليهِ رداءَ الأهميّة بأسلوبٍ مفهوم ومُستحسنٍ لدى العرب الذين يعشَقون لغتَهم العربيةَ..."

يروقني التفكير بوالدي، عيسى خليل صبّاغ، وهو المقصود هنا بأنّهُ "عذب الصوت". أتت مقالة ستارك آنفة الذكر في وقت أصبح فيه والدي أثناء خدمته مع هيئة الإذاعة البريطانية (البي بي سي) أحد أشهر المذيعين ومقدّمي البرامج الإذاعية العرب، وكان ذلك أيضًا حين باتت الساحةُ في الشّرقِ الأوسطِ خاليةً من المذيعين الذين يمكنُ الوثوق بهم؛ ولذلك توجّه الوطنُ العربي بأجمعه إلى (البي بي سي) للحصولِ على أخبارٍ موضوعية تتناول مستجدات الحرب العالمية التي تدور حولهم.

ارتحلَ والدي من فلسطين إلى بريطانيا في الثلاثينيات من القرن العشرين، وذلك بعد أن تخرّجَ في الكلية العربية في القدس، ولم يكن قد أتمَّ عشرين عامًا من عمره بعد، إلا أنّه كذب بشأن سنّه كي يلتحقَ بجامعةٍ بريطانيةٍ ليدرس التاريخ، وتقدّم بطلب للعمل مع (البي بي سي) حين أعلنتْ عن رغبتها في توظيف كادرٍ للإذاعةِ العربيّة، فعُيّن فيها. عمل عيسى مذيعًا وقارئًا للنشرات الإخبارية، ثمّ أصبح مُنتجًا للبرامج الإذاعية ومقدّمًا لها.

كان عيسى خليل صبّاغ أحد أشهر المذيعين العرب أثناء الحرب العالمية الثانية وعمل منتجًا للبرامج الإذاعية وأمضى فترة من الوقت مراسلاً حربيًا للإذاعة.

خشيت (البي بي سي) عندما اندلعتِ الحربُ أن يمسّها طائفٌ من قصف القوّات الألمانيّة، فعمدتْ إلى نقل بعض الأقسام فيها إلى منزل ريفيٍّ كبير قرب إيفشام في ورسيستشاير. وكان قسم الترفيه الذي عملت فيه والدتي مساعدة إدارية من بين الأقسام التي انتقلت إلى هذه المنطقة. ورحلَ إلى هناك كذلك قسمُ الأخبار والبرامج في الإذاعة العربية التي سطع في أرجائها اسم والدي مذيعًا وقارئًا للأخبار. وما زال يعلق بذهني بعضُ العناوينِ من برامج الترفيه مثل (Ack-Ack Beer-Beer) و (Variety Bandbox) وبرنامج ترفيه للعمال يعرف باسم (Workers' Playtime). أمّا الإذاعة العربية فكانت تبثّ تلاوة يومية من القرآن الكريم وبرنامجًا إخباريًا ثابتًا بعنوان "على هامش الأخبار" الذي اشتهر بين المهندسين الإنجليز باسم "الهامش".

كتب عيسى صبّاغ المسرحيات الإذاعيّة وأخرجها في الإذاعة العربية في البي بي سي خلال أربعينيات القرن العشرين.

كانت أمّي مواطنةً في بريطانيا العظمى، الدولةِ التي أحدثت تغييرًا كارثيًا على أرض فلسطين وحقوق الفلسطينيين، ولم تعرف أمّي شيئًا البتة عن الشرق الأوسط. ولم تحسن في حياتها نطق اسم والدي الأول. كان والدي وسيمًا وكانت هي على حظّ من الجمال، وراقت لهما فكرةُ الزواج في وقت لم يكن أحد فيه يعلمُ متى ستضع الحرب أوزارها، أو عن أيّ شيءٍ ستتمخّض شؤونُها، وكنتُ أنا نتيجةَ هذا الزواج. ثم انتهت العلاقة بين الوالدين بالطلاق بعد أن وضعتني أمّي بسنوات قليلة، وبقي والدي بعد ذلك في بريطانيا، وواصل العمل مع إذاعة (البي بي سي) العربية.

غادر عيسى صبّاغ فلسطين للدراسة في بريطانيا، وهو يعتقد في قرارة نفسه أنّه سيتمكّن من زيارة وطنه في أيّ وقت يشاء؛ ليرى عائلته التي

سكنت هذه الأرض على مرّ أجيال عديدة. أصبحت فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى خاضعة لإدارة بريطانيا العظمى، وكانت عصبة الأمم قد أصدرت قرارًا يلزم بريطانيا بمنح الحكم الذاتي تدريجيًا لفلسطين، وكانت نسبة العرب فيها حين أوكلت هذه المهمة لبريطانيا تسعين بالمئة وصار والدي يتطلّع إلى أن يصبح يومًا ما مواطنًا في دولة فلسطين المستقلّة ذات الأغلبية العربية.

جاء عام ١٩٤٧، واستدعت (البي بي سي) والدي لينقل تقريرًا حول تصويت في أروقة الأمم المتحدة، تقرّر على إثره، وبعد الضغوطات الكبيرة التي مورست على أعضاء الجمعية العامة، أنّ على الأغلبية الفلسطينية أن تتنازل عن أكثر من خمسين بالمئة من أرضها للأقليّة اليهودية في فلسطين. وقف العرب في وجه القرار، وكانت النتيجة اندلاع حرب سنة ١٩٤٨ والتي انتهت بتأسيس دولة إسرائيل اليهودية على أرض فلسطين. منع والدي والفلسطينيون كافةً في الخارج من العودة إلى وطنهم. وغادر والدي بريطانيا بعد مُضيّ سنتين وارتحل إلى أمريكا، وأنشأ هناك إذاعة "صوت أمريكا" العربية، وحاز على الجنسية الأمريكية في غضون سنوات، وبدأ بعدها عملاً جديدًا في وزارة الخارجية الأمريكية.

كنت عادة ما أتساءل عمّا تعنيه فلسطين لأمي، ومن هم على شاكلتها من الطبقة تحت المتوسّطة على الأغلب. إنّ الصراع العربي الإسرائيلي قد تحوّل في أيامنا هذه إلى عناوين إخباريةٍ ليس أكثر؛ عن تفجيرات هنا وهناك، واغتيالاتٍ سياسية، وقضية جدارٍ عازلٍ ومستوطناتٍ واحتلالٍ غير مشروع، وهذا كلّه يبعدُنا عن السببِ الأساسيِّ للنزاع. وحتّى في حقْبةِ الأربعينيات من القرن العشرين حين كان العالمُ في غمرةِ أحداث الحرب العالمية الثانية، كان لا يرد ذكر فلسطين إلا في إطار الهجمات الإرهابية

(التي كان يشنّها اليهود هذه المرة) ضد الجنود البريطانيين، والهجرة غير الشرعية إلى فلسطين، وأعمال الشغب التي كان يقوم بها العرب واليهود. واستمرّت هذه الحال إلى يومنا هذا، وعجزت الأحداث اليومية من الصراع عن نبش جذوره من أصلها، وإنّي على يقين بأنّ أمي كانت لا تكاد تدرك التطوّرات التاريخية التي انتهت بزوجها محرومًا من وطن يعود إليه.

وعشتُ أنا في غمرة هذا الجهل كذلك معظم أيام طفولتي، إلى أن تجلّت ليَ فيما بعد تلك القيود التي تحدّ من فهم البريطانيين لقضية فلسطين. فقد كانت النظرة السائدة في بريطانيا إلى فلسطين إنجيليةً أو قائمةً على المفهوم اليهوديّ للأرض المقدسة على وجه التحديد، وكان السكان العربُ يعانون دومًا من محاولة تصويرهم بأنهم مجرد "سكان أصليين"، وهي النظرة التي تعزّزت في بريطانيا بعمل اليهود الأوروبيين، الذين سعوا إلى استغلال روح الاستعمار المتأصلة في الحكومة البريطانية في وقتٍ كانت الإمبراطورية لاتزال تمثّل عنصرًا أساسيًا من هُويّة المملكة المتحدة. بيد أنّ الأوضاع قد تغيّرت في زماننا هذا، إذ لا يعني وصفُ السكان بالأصليين أكثرَ مما تدل عليه الكلمة، وأصبحت فكرة الحكم الذاتي للسكان الأصليين حقًا مكتسبًا من حقوقهم، وليس منّةً يسعون إلى الحصول عليها من غيرهم. أمّا في أروقة السلطة في بريطانيا أوائل القرن العشرين فكانت الطبقة السياسية مقتنعة تمامًا بالفكرة التي ترى أنّ السكانَ الأصليين في فلسطين غيرُ قادرين على تحمّل مسؤولية الحكم الذاتي.

وكان والدي أحدَ هؤلاء السكان الأصليين، إلا أنّه يتمتع بمعرفة أوسع. فهوَ سليلُ عائلةٍ لها تاريخٌ طويلٌ من تجربة الحكم الذاتي المحلي، فكان منها مخاتير القرى ومحافظي المدن، وعملت بالاقتصاد القائم على الزراعة الذي حقق الكفاية الذاتية، وامتلكت الثقافة التي تأسّست على تعاليم الإسلام

والمسيحية، في طبقة متوسّطة من المتعلّمين. لكنّ تاريخ فلسطين لم يكن ضمن اهتمامات أمم الغرب، وانحصر النموذج الأعلى الذي يمكن للأمم أن ترنو إليه في فلك الديمقراطية الغربية، إذ كان رجل الحكومة البريطانية الذي يعتمر قبعة، ويضع رداء الصباح لا يرى ما يسترعي الاهتمام في ثقافة لا يعرف عنها شيئًا سوى ما انطبع في عقله من الرسومات المائية من العصر الفكتوري للأرض المقدسة أو ما علق في ذهنه مما سمع من قصص رواها الرحالة من على ظهور الخيل عبر طريق الحج المسيحي. ولم يطرأ أيّ تغيّر إيجابي منذ ذلك الحين على فهم تاريخ فلسطين وثقافتها خارج محيط الشرق الأوسط. ولا تزال التحرّكات الإسرائيلية على الساحة الدولية اليوم مع ما تتلقاه من الدعم الأمريكي تعتمد في بعض الأحيان على إنكار حقيقة وجود تاريخ لفلسطين.

ركّزت الصور في القرن التاسع عشر والعشرين في معظمها على نقل صورة العربي الذي يرعى الأغنام في الحقول، وعادة ما يقترن ذلك مع بعض التلميحات التوراتية.

وإنّي لأرغبُ في هذا الكتاب أنْ أبيّنَ أنَّ تأسيس دولة إسرائيل قد ألحق ظلمًا فادحًا بالفلسطينيّين، وهو ظلمٌ ما كان له أن يقع إلا بنشر سلسلة من الأكاذيب الرسميّة إلى بقيّة العالم، وهذه عملية لم تنقطع حتى اللحظة. وقد رُفِع يومًا شعارٌ ماكرٌ يقول: "أرضٌ بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرض"، وهو شعارٌ وضعه الصهيونيّ إسرائيل "زانجويل"، فتمكّنَ في أذهان الناس، وساعدَ على تشكيل انطباع خاطئ مفاده أنّ فلسطين لم تكن مأهولة حين قرّر اليهود أن يُثبتوا للرأي العامّ حقّهم في أن تصبحَ دولةً لهم. وقال أيضا "أليكسس دي توقويفلي" يومًا: "إنّ قَبول الكذبة البسيطة أسهلُ من قبول الحقيقة المعقدة". فترى "جولدا مائير"، رئيسةَ وزراء إسرائيل تقول عام ١٩٧٠: "لا حقيقة لوجود الشعب الفلسطيني". وكما تمكّن الطبيب "جونسون" من دحض ما ادّعاه الأسقف "بيركلي" من أنّه لا يمكننا التيقن من وجود أي شيء حينَ ضرب صخرة كبيرة بقدمه[١]، فإنّ الشعب الفلسطيني- غير الموجود على حدّ زعمهم- قد دحض بكل تأكيد مزاعم "جولدا مائير" منذ عام ١٩٧٠، وبسبل مأساوية في كثير من الأحيان.

وإليكم فيما يأتي نموذجًا من التعليقات التي قد تمرّون عليها في أي نقاش حول الشرق الأوسط في المواقع الإلكترونية التي تنافح عن إسرائيل:

" ... لم يتبلور مفهوم "الفلسطينيين" إلا بحلول عام ١٩٤٨، حين رغب العرب الذين كانوا يقطنون ما عُرِفَ حتى ذلك الوقت باسم فلسطين في تمييز أنفسهم عن اليهود، مع أنّ اليهود هم أنفسهم من كانوا الفلسطينيين."

"إنّ العرب الذين يَسمون أنفسهم الآنَ بالفلسطينيين، لا يدفعهم سوى الرغبة في إقناع العالم المخدوع أنّهم أصحاب هوية وطنية متميزة ، وأنّ "فلسطين" هي أرض آبائهم وأجدادهم."

"... يأتي معظم "الفلسطينيين" أو أجدادهم إلى هذه المنطقة لما يرونه من ازدهار حققه اليهود في أرض كانت من قبل خرابًا بائرة."

"إنّ الهوية الوطنية الفلسطينية ما هي إلا محض خرافة."

وسيُظهر هذا الكتاب خلافًا لما تقوله هذه التعليقات التي تبعد كلّ البعد عن الصواب أنّ فلسطين والفلسطينيين موجودون على مرّ القرون. لقد كان العرب الفلسطينيون يشكّلون أغلبية ساحقة منذ الوقت الذي بدأ فيه التعداد السكاني الموثّق في تلك المنطقة حتى ١٩٤٨، وقد بلغت نسبتهم في معظم الأحيان تسعين بالمئة. أمّا اليهود الذين كانوا يطالبون بأن يحكموا فلسطين في القرن العشرين، فلم يكن يربطهم بالمنطقة شيء سوى ديانة حكَمَ أتباعُها جزءًا من المنطقة قبل حوالي ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ سنة. أمّا العداوة التي نشأت بين العرب واليهود في فلسطين اليوم فهي وليدة أحداث توالت منذ ثمانين سنة مضت، وليست عداوة متأصلة في التاريخ. وقامت القوات اليهودية كي تتمكن من إنشاء دولة فيها أقلية من غير اليهود بإجبار العديد من العائلات الفلسطينية العربية على مغادرة بيوتهم عام ١٩٤٧ و ١٩٤٨. ولا تفتأ إسرائيل حتى اللحظة تختلقُ الروايات التاريخية كي تُخفيَ الظلمَ الذي وقع على الفلسطينيين.

وقد يشعر بعض القرّاء أنّ هذه الادّعاءات تحاكي أسلوب "الدعاية الإعلامية" التي كانت تقودها سلطة التحرير الفلسطينية. ولكني أقول: إن كان هذا يعني وجود ادّعاءات كانت تعمل سلطة التحرير الفلسطينية (وغيرُها) على نشرها في السنين الماضية، فإني لا أنكر ذلك. أمّا إطلاق الأحكام على هذه الادّعاءات تصديقًا أو تفنيدًا فلا بدّ أن يقوم على الأدلة الموضوعية لا على التحيّز والهوى.

صورة نادرة تظهر فلسطينيين يعملون في إحدى المهن التي كانت سائدة في القرن العشرين.

ومن الانتقادات الموجّهة للكتّاب الفلسطينيين فرطُ تعلّقهم بالتاريخ. فقد يقول قائلٌ: "الماضي مضى، وحتى لو وقع الظلم على الفلسطينيين فعلينا أن ننظر إلى المستقبل."(٢) إلا أنّ العجيبَ أنّ الثلّة التي تنتقد إعادة التنقيب في تاريخ مئة سنة منصرمة هم الذين ينطلقون من دعمهم لإسرائيل من تاريخٍ أسطوري ضارب في القدم، فهل حقًا أنّ الماضي قد مضى؟

تبقّى في جعبتي قصّتان سأذكرهما، إحداهما ستُذكَرُ في طيّات هذا الكتاب، أمّا الأخرى فلا. ذلك أنّي حين كنتُ أبحث في تاريخ عائلتي في فلسطين عثرت على أثر تتسمّته في العديد من النقاط على النطاق التاريخي الأوسع، ولذلك بدا لي أن أعمدَ إلى إضفاء طابَعٍ شخصيٍّ على تاريخ الشعبِ الفلسطينيّ، وأن أدلّلَ عن طريق ذلك على الأواصرِ المتينةِ بين الفلسطينيين وأرضهم.

أمّا ما آثرتُ ألاّ أضعَه في هذا الكتاب فكثيرٌ منه يتعلّق بالمدّة التي تلت عام ١٩٤٨، ولم أتناول أيضًا ذكر السنوات الأولى من تعامل الجانب الإسرائيلي مع الفلسطينيين خارج إسرائيل وداخلها، ولم أتطرّق إلى الحروب التي نشبت بين إسرائيل والعرب، ولا محادثات السلام، ولا الإرهاب الفلسطيني، ولا الاغتيالات التي نفّذتها إسرائيل، ولا حتى الجدال بشأن حلّ الدولة الواحدة أو الدولتين. وأسقطت كذلك من كتابي هذا مشكلة الديمغرافيا وقضية غزة والضفة الغربية، وما يدعى بالجدار الأمني، ذلك لأنّنا نقرأ عن هذا كلّه في صحفنا اليومية، وهنالك أفلام وثائقية بشأنها تعرض على شاشاتنا. وإن هذه الجوانب ما هي إلا تبعاتُ الظلم الذي وقع على الفلسطينيين في النصف الأول من القرن العشرين، وهذا ما سنتحدث عنه في ثنايا كتابنا.

أذكّرُ القارئَ بأنّني لا أقترحُ حلاً شاملاً للمشكلة الفلسطينية الإسرائيلية، إلا أنّني أؤمن أنّ الضغط على إسرائيل لتوافق على حلٍّ عادلٍ سيتزايد مع ازدياد الفهم للظروف التي أدّتْ إلى قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، وهذا أيضًا سيكون موضوع هذا الكتاب.

كارل صبّاغ. نيسان. ٢٠٠٥

هوامش التمهيد

(1) James Boswell, *Life of Johnson*, Oxford University Press, 1983, p. 333.

(2) See, for example, http://www.valleyadvocate.com/gbase/News/content.html?oid=oid:76538

الفصل الأول

فلسطين القديمة

كنت أمشي مع ابنِ عمٍّ لي، عَرَفْتُه منذ أقلَّ من أربع وعشرين ساعة، ورأيتُه يبسط ذراعيه في حقل زيتون في الجليل. كان يقصد أن يشير إلى سُمْكِ جذع إحدى أشجار الزيتون التي تملكها العائلة، يتجاوزُ قطرُ جذعِها حجمَ ما تضمّه كلتا ذراعيه. قال لي مفتخرًا مع شيء من المبالغة: "عمر هذه الشجرة ثمانمئة عام"، ولا تزال هذه الشجرة المفتولة كثيرة العقد تنتج محصولًا غنيًا من الزيتون كلّ عام. كان موسم القطاف قد أقبل، وسيخرج قريبًا أليفُ وأخوته وأزواجهم وأطفالهم وأبناء العمومة إلى بستانه لقطف الزيتون، وتلك عادة درجت عليها العائلة منذ مئات السنين.

كيف يمكن للمرء أن يبدأ في تقويم الادعاءات التي تتنافس على الحقّ في فلسطين بين العرب واليهود؟ وكم يجب أن يكون الادعاء ضارب العمق في التاريخ ليكون مقبولًا؟ إنّ في زماننا اليوم دولًا قائمة بذاتها ولها عضوية في الأمم المتحدة، مع أنَّ عمرها لا يتجاوز مئة عام، ولم يكن لشعبها هوية وطنية قبل ذلك، وهنالك في المقابل شعوب كالأرمن أو الأكراد، لها حضارة وثقافة تعود إلى ألف سنة أو يزيد، ولا تتمتع بعدُ بسيادة قومية متحرّرة من السيطرة الخارجية والسلطة المتحكّمة.

ويظهر في بعض الأحيان أنّ الخلاف بين الإسرائيليين والفلسطينيين يقوم على أساس قدم تاريخ كلّ طرف في المنطقة، فصاحب التاريخ الأقدم هو صاحب الحق بالأرض اليوم.

يقول أحد المرشدين السياحيين المعاصرين في إسرائيل: "إن المفتاح لفهم إسرائيل يكمن في أن نعرف أنّها إعادة تجسيد حديث للدولة اليهودية القديمة. كانت إسرائيل الأرضَ الموعودةَ لإبراهيم وموسى، ومملكةَ إسرائيل لداود وسليمان، ومهدَ المسيح عيسى في الناصرة، ومهبط الحكم التلمودية. وبالرغم من أنّ وجود اليهود في المنطقة لم ينقطع على مدى أكثر من ٣٠٠٠ عام، إلا فإنهم قد جلوا عن المنطقة غيرَ مرة، كان أوّلها على يد البابليين عام ٥٨٦ قبل الميلاد، وآخرها على يد الرومان عام ٧٠ للميلاد. كان اليهود في تلك المرحلة في الشتات متفرقين في أنحاء العالم"[١]. وثمّة وجهة نظر أخرى تقول: "إنّ أحقيّة اليهود بفلسطين، بأي معنىً تحمله كلمة "فلسطين"، لم تكن كاملة في يوم من الأيام، ولم يمكث اليهود في فلسطين بلا انقطاع إلا حقبةً واحدةً محدودة بلغت سبعين عامًا ولطالما تبجّح بها اليهود- وإنّها لا تتجاوزُ عُمْرَ إنسانٍ واحد- وكان هذا قبل ثلاثة آلاف سنة"[٢]. (تعود هذه الإشارة إلى عهد داود وسليمان عام ١٠١٦ قبل الميلاد تقريبًا).

تقع أرض فلسطين على مساحة صغيرة في الجهة الشرقية من البحر الأبيض المتوسّط، وتبلغ المسافة العمودية من الشمال إلى الجنوب ٢٥٠ ميلًا، أمّا المسافة الأفقية فتبلغ ٧٠ ميلًا عند أقصى المناطق عرضًا، أمّا الثلث من مساحة هذه الأرض في القسم الجنوبي منها حتى البحر الأحمر فأغلبه صحراء، أمّا الثلثان المتبقيان في جهة الشمال فتنتشر فيهما المروج الخصبة

التي لا يفصل بينها وبين البحر الأبيض المتوسّط سوى السهول الساحلية. وقد تعاقبت على فلسطين أجيال عديدة كانت تتغير حالة فلسطين بتغيرها، فكانت في العصور التي سبقت المسيحية محطّ أنظار الشعوب، ومفترق طريق تتعارك حوله القوى الكبرى، ثم أفل نجمها بسطوع شمس الإمبراطورية العثمانية، حين حكم الأتراك منطقة الشرق الأوسط وأطرافاً من أوروبا الشرقية.

وفي الشمال الفلسطينيّ تمتدّ منطقة الجليل من مينائَي حيفا وعكا وصولًا إلى مدينة صفد الجميلة، موطنِ عائلتي، وحتى بحيرة طبريّة، التي جاءَ ذكرُها في العهد الجديد باسم بحر الجليل. أما المنطقة الوسطى فتضم مدينتَي تل أبيب ويافا على الساحل، وعلى بعد أربعين ميلًا إلى الجنوب الشرقي توجد مدينة القدس الرابية، ومنها نحو الشرق تنحدر الهضاب نحو وادي الأردن، ومدينة أريحا، والبحر الميت. وينحدر ساحل البحر الأبيض المتوسّط في الجهة الجنوبية من فلسطين نحو مصر وصولًا إلى مدينة غزة على جانب البرّ، وتمتد إلى الجنوب باتجاه البحر الأحمر صحراء النقب. وينتشر على أرض فلسطينَ التي تبلغ مساحتها ١٠,٠٠٠ ميل مربع مدن قديمة وقرى عتيقة ارتبط ذكرها بذكر أحلافٍ تقليديين وأعداءٍ، إذ شكّلتْ معَ غيرها من المدن الكبيرة عواصم إقليمية، ومراكز تجارية وثقافية مشتركة للقرى المحيطة.

لقد حلّ في أرض فلسطين على مرّ التاريخ "شعوب" متعددة، وأقول "شعوب" بين علامة التنصيص لألفت الانتباه إلى أنّنا لا نمتلك طريقة تسمح لنا أن نحدّد- من النصوص التاريخية أو أعمال التنقيب- الروابطَ الدقيقةَ أو الهُويّةَ العرقيةَ للجماعات التي تركت آثارًا تدلّ على وجودها. وحتى لو

قلنا إنّ شعبًا ما يختلف عن الآخر، فإنّ تداخل الأنساب بالزواج وانصهار الهُويّات باعتناق الديانات، أو تبنّي العادات والتقاليد الأجنبية جعلَ الشعوب ذاتَ الأسماء المختلفة تنصهر في هويةٍ عرقية موحّدة.

أليف صباغ وخلفه تلال الجليل التي سكنها هو وعائلته منذ أجيال عديدة.

توالت حركات هجرة السكان قبل خمسة آلاف سنة نحو الشمال من الجزيرة العربية واستقرّت في بعض المناطق في الشرق الأوسط، وعُرِف هؤلاء الناس مجتمعين باسم الساميّين؛ لأنّ لغاتهم قريبٌ بعضها من بعض، وكان يُعتقد أنّها جميعها مشتقّةٌ من لغة أصلية واحدة. وقد توزعت هذه الجماعات على شكل قبائل، وأوجَدوا حضاراتٍ لهم في مناطق ممتدة على نطاق واسع حول ما يعرف الآن بالعراق والأردن وإسرائيل وسوريا ومصر، وعُرفت القبيلة التي استقرّت في فلسطين باسم الكنعانيين. وكان

العبرانيون (وهو اسم مشتقّ من العبور) هم أحد هذه الشعوب الساميّة التي هاجرت من الجزيرة العربية، واستقرّوا في مصر أولًا، ثمّ انتقلوا بعد الكنعانيين بألفي سنة إلى فلسطين، وعَمِدوا عند وصولهم إلى هذه الأرض إلى تعلّمِ عادات الكنعانيين، فتأثّروا بطباعهم وثقافتهم وتقاليدهم ولهجاتهم، وآمنوا بآلهتهم المتعدّدة أيضًا، بالرغم من أنّ العبرانيين عادوا إلى التوحيد بعد أن تأثّروا به في مصر، وبذلك تهيأت الظروف لميلاد اليهودية.

وقد توصّل معظم خبراء الآثار الإسرائيليين منذ سبعينيات القرن العشرين عن طريق أعمال التنقيب في الضفة الغربية إلى أنّ معظم المجتمعات التي أنشأت دولة إسرائيل ودولة يهودا القديمتين قد سكنوا المناطق الوسطى من مرتفعات فلسطين في أواخر القرن الثالث عشر، أو أوائل القرن الثاني عشر، وربما اختلط بهذه الشعوب بعض الناس من مناطق أخرى في فلسطين أو حتى تلك المناطق عبر نهر الأردن، إلا أنّهم كانوا سكانًا أصليين في المنطقة. ولا يعرف على وجه التحديد إذا ما كانت بعض الشعوب قد انضمت إليهم بعد أن كانوا في مصر، إذ لا دليل ماديًّا يثبت ذلك، إضافة إلى أنّ ثقافة المزارعين الذين كانوا يقطنون تلك المرتفعات كانت كنعانية بلا جدال.. ولم يمض سوى قرنين من الزمان على الأقلّ، حتى تحوّلت تلك المجتمعات الزراعية إلى "أمّة" واحدة ذات كيان سياسي موحّد.

يصف العهد القديم بشرحٍ مسهبٍ سلسلةً من الأحداث التي قيل إنّ بعضها كان بإرادة الربّ، واستهلت هذه الأحداث بميلاد إبراهيم عام ٢٠٥٠ قبل الميلاد، ثم أتت حقبة استعباد اليهود في مصر، ودخولهم بعد ذلك إلى "الأرض الموعودة"، وعهود عدد من الملوك، ومنهم داود وسليمان، اللذان حكما جزءًا من فلسطين، كانوا يطلقون عليه اسم إسرائيل، وانقسم هذا الجزء

إلى "مملكتين": مملكةِ يهودا ومملكةِ إسرائيل. وتتابع مزامير العهد القديم وصفَ المصير الذي آلت إليه هاتان المملكتان، إذ سقطت إحداهما بيد الأشوريين والأخرى بيد البابليين، الذين دمّروا الهيكل في القدس، وساقوا شعب المملكة سبيًا إلى بابل. ويذكر أنّ هذه الأحداث قد وقعت بين عامي ٧٢٠ و ٥٨٦ قبل الميلاد. وعمدت مجموعة من اليهود بعد العودة من المنفى إلى إعادة إعمار الهيكل، واستأنفوا العيش والعبادة في تلك المنطقة. ثمّ جاءت من بعد ذلك إحدى العائلات التي تحظى بقيادة دينية بين اليهود، تعرف بالمكابيين أو الحشمونيين، وأسّسوا مملكة مستقلّة في القرن الثاني قبل الميلاد، والتي وصفها أحد الباحثين بأنّها: " إحدى ممالك يهودا التي كانت أقرب ما تكون إلى المملكة التي جاء وصفها في المصادر التوراتية، فهي دولة ملكية تقوم على معظم أرض فلسطين"(٣). وقد ظلّ بعض اليهود في مناطقهم التي يقطنونها أيّام الصراعات السياسية التي شهدتها المنطقة، منها رزوح فلسطين تحت الاحتلال الفارسي، ثمّ فتح الإسكندر المقدوني لها، وكذا عندما سيطرت الممالك المختلفةُ عليها، ممّا كان منها قائمًا في مصرَ أو في بلاد الشام. ثم جاءَ الرومانُ بُعَيدَ فترةٍ وجيزة من الحكم الذاتي لليهود في فلسطين، وأخضعوها لسيطرتهم بمرور الوقت وانقسمتِ الدولةُ اليهوديةُ الواحدةُ إلى أقاليمَ عدّة، وحصل هذا في الحقبة التي وُلِدَ فيها السيّدُ المسيحُ في مدينة الناصرة.

غالبًا ما تردنا المعلومات التاريخية التي تتناول تلك الحقبةَ الزمنيّة- وخاصّة ما كان يتعلّق بتاريخ اليهود القديم- من نصوص الكتاب المقدّس التي دُوّنَتْ بعدَ انقضاءِ الأحداث التي تصفها بقرون عديدة. ووَرَدَ فيها ذكر "الممالك" و"الإمبراطوريات" و"المعارك" و"الهياكل"، والتي تعكس صورًا

في مخيّلة الإنسان المعاصر أعظمَ بكثير مما كانت عليه في واقــع الأمــر. ونَذْكُرُ على سبيل المثال ما يوردُه أحدُ الباحثين في وصف فلسطين قبل ثلاثة آلاف سنة مضت أو أربعةٍ فيقول: "كانت فلسطين ناحيةً تتبع مصر ويحكمها أمراء محلّيون، كانوا يَعُدُّون أنفسَهم عــاملين مخلــصين لــسيّدهم فرعــون مصر."(٤) ويتابع الباحث حديثه حول هؤلاء الأمراء ويقول إنّهم ليسوا ملوكًا أصحابَ أمرٍ ونهيٍ كما نقرأ في الكتاب المقدس، بل أشبهَ بمكانــة "رؤســاء بلديات" بمفهومنا الحديث. ويسهلُ تصديقُ خضوع هذه المنطقة لحكم اليهــود أكثر من ألف سنة كما يرى كثير من الناس، عندما نعرف أنّ حفدةَ الشعوب الأخرى التي سكنت فلسطين من كنعانيين و فينيقيين وفلــستينيين وآراميــين وأدوميين لم يتركوا أي ذكر تاريخي عــن ملــوكهم وممــالكهم أو كهنــتهم وأنبيائهم.

عاصرَ الناسُ منذ قرونٍ مضت إلى يومنا هذا وجود "أبنــاء إســرائيل" في فلسطين، وعرفوا أيضًا دورهم في تاريخ المنطقة بوصفهم أحدَ العناصرِ الأساسيةِ في المعادلة الحديثة لادّعاءِ الأحقيــةِ فــي أرضِ فلــسطين. وهــم لا يقيمون أوَدَ ادعاءاتِهم هذه على ما يدّعيه العهد القديم وحسب، بل وعلــى كتب الصلوات، والكتاباتِ المقدّسة التي تشير بشيء من التفصيل إلى "إعادة" اليهود المعاصرين إلى "أرض إسرائيل" بعد قدوم المسيح، وهــو "المنتظــر" الذي سيقوم بإعادة بناء المملكة. "ورد في إحدى قصص القرن الثامن عــشر ذكر شخص يدعى رابي يتزاك من بيرديشيف في بولندا، الذي انتهــى مــن إرسال بطاقات الدعوة لحضور حفل زفاف ابنته وقال فيها: "سيكون العرس يوم الثلاثاء في المدينة المقدّسة في القدس، إلا إن ظهر المسيح قبــل ذلــك- لا قدّر الله- فسيكون الزفاف حينئذ في ساحة القرية""(٥).

أعتقد، ويشاركني في هذا على ما أظنُّ الكثيرُ من غير الملتزمين بعقيدة بعينها، أنَّ إحضارَ خريطةٍ للعالَم كما كانَ عليه قبل ثلاثة آلاف سنة أو أربعةٍ أو ستةٍ لا يصلحُ أساسًا لمنح السيادة لأيِّ طرفٍ كان على أيِّ جزءٍ من العالم الحديث. حتى إنه ليصعبُ أنْ نجدَ دولةً في زماننا هذا تماثلُ في حدودِها وتكوينِها الديمغرافيِّ كيانًا قامَ على أرضها قبل ثلاثة آلاف سنة. فأنشطة المزارعين الأقدمين في أيرلندا مثلًا تكاد لا يكون لها اعتبار في فهم الصراع في أيرلندا الشمالية اليوم.

ويزداد الأمر تعقيدًا حين نأخذُ بعين الاعتبار طريقة تغيّر أسماء الجماعات والأماكن في الحقب المتعددة وفي لغات الشعوب المختلفة. فلمّا نقرأ الرواياتِ التاريخيةَ الحديثةَ التي تتناولُ تاريخَ اليهود والأماكنَ التي سكنوها في الماضي نجدُ أنَّ الحدودَ تتماهى بين تلك الأماكن التي تدعى "إسرائيل"، والشعب الذي يعرف "بالإسرائيليين"، ومجموعة عرقية هي اليهود. حتى إنّ ثمّة خلافًا نشأ حولَ وجودِ امتدادٍ عرقيٍّ حقيقيّ بين مُعْظَمِ اليهودِ اليومَ وبين العبرانيّين الذين ذكرَهُمُ العهدُ القديمُ. فيُشير فيليب ديفيز مثلًا إلى أنّ الكتاب المقدّس يصف مملكة تُدعى إسرائيل، كان بعضَ أهلها يعبدون يهوا (بالإنجليزية Yahweh أو Jehovah)، والبعضُ الآخر لا يؤمنون به، وبيّنَ أنّه لا يوجد أيُّ تطابق بين العرق والانتماء الثقافيّ، ولا يوجد أيُّ دليلٍ عرقيّ يصلحُ للتفريق بين الكنعانيين والإسرائيليين، علمًا أنّ بعض الكنعانيين كانوا يتوجّهون بالعبادةَ إلى يهوا أيضًا، وعلى هذا تكون إسرائيل القديمةُ كيانًا ثقافيًا، وليس كيانًا عرقيًّا. وهنالك أدلةٌ أخرى تشيرُ إلى أنَّ عددًا كبيرًا من اليهود، حتّى في عهد التوراة، لم يَرَوْا فلسطين أرضًا لهم، فعدد اليهود في الإمبراطوية الرومانية في بداية الحقبة المسيحية بلغَ خمسةَ ملايين

ولم يسكنْ أرض فلسطين منهم سوى سبعمئة ألف؛ أيْ ما يقلّ عـن خمسة عشر بالمئة من مجموعهم.

إنّ إحدى المعضلاتِ التي تحجبُ الحقائقَ التاريخيةَ المتعلقةَ بالشعوب والأماكن هي هشاشةُ الرابطِ بين الأسماء والهُويّات التاريخيـة في بعض الأحيان؛ فالشعبُ الذي اشتُقَّ منه اسمُ أسكتلندا هم الآن أيرلنديون، والأسكتلنديون أنفسُهم ينحدرون من سلالة تدعى البيكتيون (Picts). والبريطانيون في العصر الحاضر ليسوا من نسل البريطانيين الذين كانوا على عهد الرومان، فأولئك نزَحوا إلى ويلز وكورنوول، وحلَّ مكانَهم شعوبُ الأنجلو- ساكسون الذين أتوا من ألمانيا(٦).

وحتى الأصول التاريخية لاسم فلسطين نفسه، والذي يرتبط الآن بالفلسطينيين العرب، ليس محلّ اتفاق بين الباحثين. فبعضهم تتبَّع أصل الاسم إلى ألفي عام أو أكثر، فجاء في أحد المصادر: "إن الرجل الكهل العظيم، هيرودوتس، الذي نعرفه في التاريخ اليوناني، قد استخدم اسم (سوريا- فلسطين) ليشير إلى المنطقة الساحلية الممتدّة من لبنان إلى مصر، وقد أخذ القياصرة الروم هذا الاسمَ ودرجَ في استعمالهم عوضًا عن كلمة "يهوذا" التي كانت شائعة في القرن الثاني. ولم يمض قرنان من الزمن حتى أصبح اسم فلسطين يطلق على إقليم أكثر اتساعًا، وذلك حين جاء الحكامُ البيزنطيّون، وكانت لهم في تلك الحقبة ثلاث مناطق كلّ منها تدعى فلسطين، ففلسطين الأولى فهي منطقة القدس وما حولها، أمّا فلسطينُ الثانيةُ فهي الواقعة في القسم الشمالي، وتضمُّ أجزاءً من جنوب لبنان حول حيفا. وهناك فلسطين الثالثة التي اشتملت على جزء كبير من صحراء العرب القديمة والتي تضم سيناء والنقب والضفة الشرقية إلى الغرب من عمّان عاصمة الأردن الحديثة.

ويظهر لنا في ضوء هذا أنّ فلسطين كانت في القديم أرضًا ذات وحدة جغرافية وإداريّة، وتمثّلُ في العصور اللاحقة كيانًا أكثر وضوحًا مما قد تكون عليه إحدى مدن الجزيرة العربية[٧].

لكنّ جولدا مائير- رئيسة وزراء إسرائيل من العام ١٩٦٩ حتى ١٩٧٤- ردّتْ ذلك ورفضته حين قالت: "لا يوجد ما يدعى الشعب العربي الفلسطيني... إنّ فلسطين اسمٌ أطلقه الرومان على أرض إسرائيل لمّا علموا أنّ في ذلك إغاظةً لليهود... كيف نستخدم هذا الاسمَ البغيضَ الذي ما وُضِعَ إلا نكايةً بنا؟ لقدِ اختارَ الإنجليز اسم فلسطين لهذه الأرض في زمن الانتداب، فجاء العرب وتعلّقوا بأهدابه وادّعوا أنّه الاسم القديم لبلادهم، حتى إنهم لم يحسنوا لفظه فراحوا يطلقون عليه "فلسطين"(*)، وما هذا إلا من نسج خيالهم"[٨].

والحقيقة أنّه لم يحصلْ على مدى ألفي سنة أنْ كانَ من يسكن هذه المنطقةَ من العربِ ومن جاورَهم غُفلًا عن اسم فلسطين الذي اشتهرتْ به المنطقة. ويقول إدوارد سعيد: "اكتملتِ الهُويّة العربيةُ الإسلاميةُ في فلسطين بنهاية القرن السابع للميلاد.. وأصبحتْ بعد ذلك بحين معروفةً بحدودها وسماتِها، ولاسيما اسمُها العربيّ (فلسطين) في أرجاء العالم الإسلاميّ قاطبةً، واشتهرت بخصبها وجمالها قدرَ ما اشتهرت بمكانتها الدينية. وفيما يلي مثال على ما جاء في المصادر التاريخية العربية في أواخر القرن العاشر[٩]:

"وأما جند فلسطين وهم أول أجناد الشام مما يلي المغرب فإنه يكون مسافة الراكب طول يومين من رفح إلى جند اللجون، وعرضه من يافا إلى

(*) لاحظ أن اسم فلسطين يلفظ بالباء بالإنجليزية (Palestine) (المترجم)

أريحا يومان... وفلسطين ماؤها من الأمطار، وأشجارها وزروعها أعداء إلا نابلس، فإن بها مياهًا جارية. وفلسطين أزكى بلدان الشام، ومدينتها العظيمة الرملة، وبيت المقدس يليها في الكبر. وبفلسطين نحو من عشرين منبرا على صغر رقعته(*)"(١٠)

وعمِلَ في قطاع الزراعة في القرن العاشر ستون بالمئة من السكان، وكانوا جميعهم يدركون أنهم ينتمون إلى أرض تدعى فلسطين.

تصدى أحد أساتذة الجامعة العبرية بالقدس، وهو حاييم جيربر، للردّ على جولدا مائير حين قالت إن العرب "تعلقوا بأهداب [اسم فلسطين] وادّعوا أنّه الاسم القديم لبلادهم" في معرض حديثها عن استخدام بريطانيا اسمَ فلسطين أثناء القرن العشرين، وقدّم في بحث له بعنوان: "فلسطين ومفاهيم إقليمية أخرى في القرن السابع عشر" فيضًا من الأدلة المستقاة من الوثائق القانونية التي تعود إلى القرن السابع عشر مؤكّدًا وجود ما دعاه "وعيًا إقليميًا مبكرًا" يتجاوز حد الاختلاف على تسمية موطن الشخص أو مسقط رأسه(١١).

تزايدت زيارات الناس من الغرب إلى "فلسطين" في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكانوا يكتبون عن هذه الرحلات. ثم دخل الأتراك فلسطين وسوريا، وأشار المؤرخ موشيه شارون إلى أنّ الدولة العثمانية قد قامت بعد سنوات معدودات "بضم فلسطين إلى سوريا التي كانت عاصمتها دمشق. وكانت فلسطين مقسمة إلى خمس نواحٍ- أو سناجق كما كانت تعرف حينها- عرفت باسم عواصمها وهي : غزة والقدس ونابلس ولجّون وصفد"(١٢)

(*) هذه الترجمة منقولة من صورةِ مخطوطةِ كتاب المسالك والممالك للإصطخري (المترجم)

خارطة فلسطين في القرن السادس عشر

وتعرض أحد النصوص القانونية التي درسها جيربر لقصص عديدة، كقصة "رجل من إحدى قرى فلسطين أقسم أن يطلّق امرأته، وراح يسأل إن كان سفره بعد عام خارج فلسطين كافياً ليتحلل من قسمه"، كما ينقل جيربر نصوصاً أخرى كان يوصف كاتبُها بأنه "عالِمُ فلسطين العظيم".

وكتبَ أحدُ المؤرّخين الفلسطينيّين المعاصرين يقول: "إنّ لفكرة [فلسطين] جذورًا إقليمية ومحليّة؛ فلم يكن من باب المصادفة، على سبيل المثال، ما قامت به الدولةُ العثمانيةُ من إنشاء كيان إداري بحدود مماثلة تمامًا لحدود فلسطين تحت الانتداب البريطاني، في ثلاث مراحلَ في القرن التاسع عشر، وهي الأعوام (١٨٣٠) و (١٨٤٠) و (١٨٧٢). وساعدَ وجودُ

الشبكاتِ الاقتصادية المحلية التي ربطت المدن بالأرياف، وسهولةُ تحرك الفلاحين والعلاقاتُ التي تربط بين العشائر، والمناسباتُ الاجتماعية المشتركة كذكرى حج النبي موسى ذات الشعبية الوطنية، على إيجاد ذاكرة تاريخية جَمعيّة فيها، وإحساس بالهويّة بين أهلها." (١٣)

ويمكن القولُ إنّ الفلسطينيين كانوا هم على الأقل يدركون أنّهم يعيشون في فلسطين حتى لو كان غيرهم اليوم في شكّ من هذا. إلا أنّه لا سبيل لفرض وجود دولة تدعى فلسطين بالمفهوم الكامل الحرفي للدولة قبل القرن العشرين؛ لأنّه في الواقع لم يكن هنالك دول تدعى الأردن ولا سوريا ولا مصر ولا السعودية، ولا حتى إسرائيل بالضرورة؛ لأنّ فكرةَ الدولة الحديثة ذاتِ الحدود المعترف بها دوليًا، والشعبِ الذي يحمل أفرادُه جواز سَفَر أو بطاقة هُويّة شخصية، لم تنطبقْ قبلَ القرن التاسع عشر إلا على القليل من الدول. إلا أنّ هذا لا يأتي بالهدم على ما كان يردّده الوطنيّون في أرجاء أوروبا أثناء القلاقل التي سادت بعد الحرب العالمية الأولى من أنّ الشعوب التي تتمكّن من إثبات وجودها المستمرّ في منطقة معينة لا بدّ أن تُمنَحَ الاستقلال والحكمَ الذاتيّ.

وسينصبّ جلّ اهتمامي في هذا الكتاب على تاريخ ٤٠٠ سنة خلت، وهي مدّة فيها من الأدلّة الموثقة ما يثبت الوجود المتواصل للفلسطينيين العرب- ومنهم أفراد عائلتي- وأنّهم الغالبية العظمى على أرض فلسطين. وعلى الرغم من أنّ شعوباً من أصول عربية قد قطنت فلسطين منذ آلاف السنوات، فإننا إن رجعنا بالزمن أكثر فسيصبح صعباً أن نجادل بوجه حق، وأن ندّعي لسلالة الشعوب التي سكنت هذه الأرض أحقيّة بها قبل من يسكن بها حقاً- حتى لو ثبت أنّ هذه الذرية من العرب أو من اليهود. فها هي

الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، تحاجج بقوّة ضدّ منح السيادة للهنود الحمر، وترفض البرازيل أن تتنازل عن السلطة للسكان الأصليين، وتردّ بلغاريا أيّ ادّعاءات على جزء من أرضها- لو حصل ذلك- من هولندا و فرنسا.

ويثبت تاريخ فلسطين منذ القرن السابع عشر أنّ العرب كانوا على الدوام هم السوادَ الأعظم منذ تلك الحقبة، وقد كانوا كذلك، على الأغلب، لألف سنة قبل ذلك أيضاً. وهؤلاء العرب هم أناس أصحاب هوية وثقافة فلسطينية المعالم، تجعلهم يتميزون عن أهل مصر أو الجزيرة العربية أو العراق. غير أن هذا لا ينفي بالضرورة وجود مجموعات أخرى من غير العرب على هذه الأرض، وفي مقدّمتهم اليهود. ولا بدّ أن نشير إلى أنّ ما يدّعيه بعضهم- كأحد المواقع الإلكترونية على الإنترنت الذي يدعو نفسه زوراً "Palestinian Fact" (حقائق فلسطينية)- من أنّ فلسطين كانت "لا يقطنها إلا المجتمعات اليهودية" إنما هو محض هراء(١٤).

وثمّة بون شاسع بين الأعداد التي تقدّمها شخصيات تدعم حقّ الصهاينة في حكم فلسطين، وبين آراء المراقبين والأكاديميين الأكثر حياداً، وسبب الاختلاف عائدٌ إلى صعوبة تقدير عدد السكان بشكل دقيق، فكلّما عُدنا أدراجنا بالتاريخ أكثر تراجعت الثقة بهذه الأعداد (ولكنّ النظام الذي كان يستخدمه الأتراك العثمانيون لحصر أعداد سكان الإمبراطورية، وفلسطين جزءٌ منها، صارَ أكثر وضوحاً للباحث). وإنّ الخلافَ القائمَ بين الأكاديميّين في علم السكّان لا يمكنه أن يفسّرَ الهوّةَ بين معنى قولهم: "لا يقطنها إلا المجتمعات اليهودية" وبين الأرقام الموثّقة لأعداد السكان الذين عاشوا في المدن والقرى الفلسطينية.

وسأعمد في هذا الصدد قدْرَ الإمكانِ، إلى المصادر اليهوديّة الصهيونيّة وغيرها للحصول على أدلّة تفيدُ وجودَ أغلبيّة عربية في فلسطين؛ لأنّ ذلك يقطع الطريق أمامَ ادعاءِ وجود تحيّزٍ في هذه المصادر. ولنبدأ مثلًا معَ موسى مونتيفوا، أحد أرباب الأعمال الخيرية اليهود في العصر الفيكتوري في عام ١٨٣٧، إذ قام برحلة إلى فلسطين، وقال إنّ عدد اليهود هناك "قرابة ثمانية آلاف [في فلسطين كلّها]، يعيش معظمهم في القدس وصفد وطبرية والخليل".[١٥] فإن علمتَ أنّ هذا العدد هو عدد العرب الذين كانوا يعيشون في القدس في ذلك الحين، فسيتضح لك جلياً أن اليهود لم يشكلوا أغلبية السكان في هذه الدولة[١٦].

وهنالك بعض البيانات الموثوقة من الفترة السابقة للعهد العثماني، والتي يمكن أن تفيدنا إذا ما أردنا أن نضع قضية حق العرب الفلسطينيين في القدس موضع التمحيص. فقد جاء الأتراك العثمانيون بعد العام ١٥١٦ وفتحوا سوريا وفلسطين، ثمّ بدأت تظهر بعض الإشارات التي من شأنها أن تميّز بين المجموعات المختلفة داخل الإمبراطورية العثمانية ضمن الحدود التي تعيش داخلها. وكما لا يمكن أن يكون العرب اليوم مجموعةً من الناس لا فرقَ بينهم من دولة لأخرى، كذلك لم يكن من أثر الحكم العثماني على مواطني الإمبراطورية إلا منحُهم صفةَ المواطنة العثمانية دون تأثير على الهوية الأصلية. فالعربي (أو اليهودي) الذي كان يعيش في صفد، وهي إحدى المدن الرابية شمال الجليل، لم يقطع حبائل الانتماء إلى مسقط رأسه، ولم ينسَ أواصر ذوي القربى في النواحي والقرى القريبة، وبقي لسانه رطباً بلغة أهل بيته ووجبات الإفطار التي تناولها في موسم الصيام، ولم يغير أيًّا من ذلك عندما آلت الولاية للسلطان العثماني سليم الأول؛ فهو وإن فتح سوريا وفلسطين، إلا أنّه كان يبعد عنها ستمئة ميل.

لكنّ فلسطين لم تكن للخلفاء العثمانيين كأيّ سنجق من السناجق في الإمبراطورية التي تمتدّ من هنجاريا إلى اليمن، ومن الجزائر إلى بحر قزوين، فالعثمانيون مسلمون، وفلسطين تقع على طريق الحجّ من مقرّ الخلافة في تركيا إلى مكّة المكرّمة والمدينة المنورة في الجزيرة العربية، وفيها بعض المواقع المقدّسة للمسلمين. وقد كانت فلسطين وجهة يقصدها المسيحيون واليهود لزيارة بعض الأماكن الدينية؛ ولذلك كانت تمثّل مصدراً محتملاً للنزاع بين الإمبراطورية العثمانية وغيرها من الدول. كما اتخذت حكومة السلطان العثماني إجراءات خاصةً لحفظ الأمن والنظام في مثل هذه السناجق، وذلك لكف أذى قطّاع الطرق عن الحجاج المسلمين والزوار الأجانب.

أمّا عدد سكان فلسطين حين أصبحت تحت الحكم العثماني في القرن السادس عشر فنعرفه من البيانات الموثوقة المتوفرة لدينا، وهي مستقاة من الإحصاءات الدورية التي أشرفت عليها الحكومة آنذاك. ووفقاً لهذه الإحصاءات- التي أُجري خمسة منها في غضون خمسين سنة- كان عدد سكان فلسطين ٣٠٠,٠٠٠ وكانت نسبة العرب المسلمين منهم تسعين بالمئة، أمّا البقية فكانوا إمّا مسيحيين (وكان معظمهم من العرب أيضا) أو يهودًا.

عادة ما يتبادر إلى الأذهان أنّ الفلسطينيين مسلمون في المقام الأول، بالرغم من أنّ فلسطين هيَ مهدُ النصرانية، وهنالك بعض العائلات المسيحية من العرب الفلسطينيين التي يرتبط نسبها بأتباع المسيح الأوائل، مع أنّ العديد منهم قد اعتنق ديانةً أخرى. فعائلة صبّاغ هي من المسيحيين العرب، ويعود تاريخ شجرة عائلتي إلى عام ١٧٠٠ على الأقلّ. ولمّا دخل العثمانيون أرض

فلسطين فاتحين لم تكن معاملتهم لليهود والمسيحيين كمعاملة الأغلبية المسلمة، فاليهود والمسيحيون هم "أهل الكتاب"، وكان المسلمون يؤمنون بأنبيائهم، ومن واجب السلطان أن يوفّر الحماية لهم على أموالهم وأرواحهم؛ لأنّه خليفة المسلمين، وفي مقابل هذه الحماية كانت تفرض عليهم تشريعات خاصة تتعلّق بالزواج والضرائب وغير ذلك. لكنّ الأغلبية المسلمة كانت تعتقد أنهم مشركون، وكانوا يتعرّضون لسوء المعاملة في أحيان كثيرة. وكانت شؤون هذه الأقلية خاضعة لإدارة الحكومة العثمانية عن طريق تواصلهم مع قياداتهم الدينية في القسطنطينية، ولجأ بعض المسيحيين للحصول على جنسية أوروبية كي يحصلوا على حماية قنصليات الدول الأوروبية التي ترتبط مع الأتراك بعلاقات دبلوماسية.

وعلى الرغم من المعاملة المختلفة للأقليات فإن اليهود في فلسطين كانوا قادرين على إنشاء مجتمعاتهم التقليدية وتوسعتها، كتلك التي قامت في صفد والقدس وطبرية. وبصرف النظر عن القيود التي كانت تحول دون تولّي اليهود والمسيحيين مناصبَ رفيعةً في الحكومة العثمانية، فإن العديد من اليهود كانوا جزءًا من الإدارة المالية لبعض النواحي في الإمبراطورية، وبعض اليهود (والمسيحيين) الذين اعتنقوا الإسلام تبوّءوا أعلى المناصب الإدارية في الدولة، كمنصب الوزير الأعلى للسلطان، والذي شغله تسعة رجال بين عامي ١٥٢٠ و ١٥٦٦، ولم يكن بينهم مسلم بالميلاد إلا وزير واحد[١٧].

وقد شكّلت مهمة حفظ الأمن والنظام في السناجق تؤرّقُ الأتراك، وذلك لعدم وجود عدد كاف من الجنود لأداء هذه المهمة، فجيوش الدولة كانت تقاتل على جبهتين، شرقًا وغربًا، وكانت الحروب تدوم أوقاتًا طويلة. وواجه الخلفاء العثمانيون في القسطنطينية مشكلة أخرى إضافة إلى ارتفاع نسبة الجريمة، وهي جمع الضرائب من المزارعين، والتجار، ومخاتير القرى؛ فالدولة تحتاج إلى مصدر تمويل دائم. وعمدت الخلافة العثمانية في المناطق التي تشهد الكثير من القلاقل إلى تنصيب بعض الزعامات المحلية، وأغلبهم من شيوخ القبائل على أطراف الدولة العثمانية. وبرز من بين هؤلاء الزعماء المحليين رجلٌ حقّقَ سلطة واسعة في القرن الثامن عشر وأضحى يُعرف جيلاً بعد جيل باسم "ملك فلسطين الأول"، وهو رجل أفادَ من دهاء أحد أجدادي وجشعِه.

هوامش الفصل الأول

(1) <http://www.fodors.com/miniguides/mgresults.cfm?destination=jerusalem@80&cur_section=fea&feature=30001>

(2) J. M. N. Jeffries, *Palestine: The Reality*, Longmans, Green and Co., 1939, p.11.

(3) Philip Davies, *In Search of 'Ancient Israel'*, Sheffield Academic Press, 1992, p. 148.

(4) Niels Peter Lemche, On the Problems of Reconstructing Pre-Hellenistic Israelite (Palestinian) History, Department of Biblical Studies, The University of Copenhagen. Journal of Hebrew Scriptures, Vol. 3, 2001.

(5) <http://www.fodors.com/miniguides/mgresults.cfm?destination=jerusalem@80&cur_section=fea&feature=3000I>

(6) Davies. *In Search of 'Ancient Israel'*, p. 59.

(7) G. W. Bowersock, Palestine: Ancient History and Modern Politics in Blaming the Victims, edited by Edward Said and Christopher Hitchens, Verso, 1988, pp. 182-4.

(8) Golda Meir, quoted in article by Sarah Honig, Jerusalem Post, 25 November 1995.

(9) Quoted from Istakhri and Ibn Hawkal, in Guy Le Strange, Palestine Under the Muslims, Palestine Exploration Fund, 1890'

(10) Edward Said, The Question of Palestine, Vintage, 1992, pp. 10-11

(11) Haim Gerber, 'Palestine and Other Territorial Concepts in the 17th Century, International Journal of Middle East Studies, 30 (1998), pp. 573-650.

(12) Mosshe Sharon in Michael Avi-Yonah (ed.), A History of Israel and the Holy Land, Continuum, New York, 2001,

(13) Beshara B. Doumani, 'Rediscovering Ottoman Palestine: Writing Palestinians into History', Journal of Palestine Studies, XXI\2 (Winter 1992), pp. 9-IO.

(14) <http://www.palestinefacts.org/pf_early_palestine_zionists_ impact.php>

(15) Nevill Barbour, Nisi Dominus, George G. Harrap, 1946, p. 32.

(16) K.J. Asali (ed.), *Jerusalem in History*, Scorpion Publishing, 1989, p.231.

(17) Tudor Parfitt, *The Jews in Palestine 1800-1822*, Royal Historical Society/Boydell Press, 1987.

الفصل الثاني

ملك فلسطين الأول

كنت أقودُ سيارتي في بعض الأنحاء الشمالية من إسرائيل في خريف ٢٠٠٣، بعد أن بدأتُ رحلتي من الساحل الغربيِّ لبحيرة طبرية (أو بحر الجليل)، وزرت فيها مدنًا وقرى وهضابًا لا يسكنُها أحد، أنظرُ حولي إلى ما تبقّى من "مملكة" ذلك الشيخ الفلسطيني الذي حكم هذه الأرض في القرن الثامن عشر.

سمعتُ اسمَ (ظاهر العمر الزيداني) للمرة الأولى وأنا جالس إلى مائدة عشاء مع أصدقاءَ لي في الناصرة. ويصعب أن يكون الكلام "عاديًا" في بيت عربي في إسرائيل أو فلسطين، كأن يكون حديثًا عن كتابٍ أو فيلم أو عن الأسلحة النووية، أو قضية الاستنساخ مثلًا، بل لا بدّ أن يبدأ الطعام وينتهي على ذكر الإسرائيليين والفلسطينيين. وكنت أنا أتحدث معَ مؤرّخ قبطي حين التفت إليّ في مَعْرِضِ الحديث عن تاريخ الفلسطينيين وقال: "أسمعتَ من قبلُ بدولةٍ قامت في فلسطينَ في القرن الثامن عشر واستمرت مدة ثلاثين عامًا، عُرِفَت بحُسْنِ إدارتها في ذلك الوقت ممّا جعل العثمانيين يمنحون أهل فلسطين حكمًا ذاتيًا، وهل تعلم أنه كان لأحد أقربائك أيادي مهمةً في هذه القصة؟"

لم تكنِ الدولُ كما نعرفُها في زماننا الحاضر أمرًا مألوفًا في منطقة الشرق الأوسط في القرن الثامن عشر، فقد كانت المنطقة برمّتها من ألبانيا إلى مصر خاضعةً للحكم التركي. ولم يكن هنالك حدود واضحة تفصل "دولة" عن سواها في الإمبراطورية العثمانية. كانت هنالك سناجق ونواح تابعة لها، لكنّ حدودها كانت تتغيّر بشكل مستمرّ. وإن أخفق حاكم أحد السناجق، انقسم السنجق بين حكام السناجق المجاورة، أمّا إن لزم إكرامُ أحدهم أُلحِقَت بعضُ المناطق تحت إدارته لإرضائه. لكنّ ظاهر العمر، الرجلَ البدويَّ، حكمَ منطقةً تشمل شمالَ إسرائيل (الجنوب اللبناني) وامتدّت حتى وصلت جنوبَ غزة.

صورة رسمها فنّانٌ فلسطينيٌّ معاصرٌ لملك فلسطين الأول، ظاهر العمر، يجلس في قلعته المطلة على ميناء عكا.

وعزمَتِ الحكومةُ العثمانيةُ ألّا تتدخّلَ في شؤونِه نظرًا لما حقّقه من هدوءٍ كبيرٍ في منطقةِ نفوذِه، وما رافقَ ذلك من ازدهارٍ اقتصادي، واعتدالٍ في جبيِ الضرائب، وتدنّي مستوى الجريمة. وكان هذا أهون عليهم من تنصيب حاكم من القسطنطينية. وأولى ظاهر اهتمامًا بالعلاقات الدولية؛ لأنّ في ذلك ضمانًا للأمن وتشجيعًا للتجارة، وكانت منطقة شمال فلسطين في عهده مشهورة بزراعة القطن، وكان يحتكر شراءه من المزارعين في منطقته، ليبيعه إلى التجار الأوروبيين، ومعظمهم من الفرنسيين، وكانوا يوافقون كارهين على شرائه منه بالأسعار المرتفعة التي يطلبها.

وردتنا معظم الأخبار عن ظاهر العمر عن طريق الرحّالة الفرنسيين والإنجليز؛ لكثرة ما جرى بينهم من المعاملات التجارية. وتحدَّث أيضًا اثنان من العرب عن حياة ظاهر، وكلاهما من عائلة صبّاغ: أحدُهما يدعى عبّود، وهو جدّي الرابع، والثاني ميخائيل، وهو ابنُ أخٍ له. إلّا أنَّ الوصفَ الحي والأكثر دقّةً عن حقبة حكم ظاهر جاء في ثنايا ما كتبه الكونت كونستانتين دي فولني، الذي جاب الشرق الأوسط بين عامي ١٧٨٣ و ١٧٨٥، وذلك بعد ثماني سنوات تقريبًا من وفاة ظاهر، وجاء الوصف كما يلي:

لم تحظَ سوريا منذ زمن بعيد بقائد ذي شخصية عظيمة كهذا الرجل. فلو ذكرتَ ميادين الحروب لم تجد أكثر منه إقدامًا ونشاطًا، ورزانة وتدبيرًا. أمّا إن ذكرت السياسة فإنّ شرفَ الصدق في فؤاده يكبح جماح طموحه، فلا شيء لديه يسمو على التدابير الشجاعة والواضحة. كان يفضّل شقّ الصفوف في ساحات القتال على الخوض في دسائس السياسة الماكرة. وحافظ مع هذا على بساطة الهيئة البدويّة بزيّها وخلالها، فلم تكن مائدته تختلف عن مائدة

المزارع البسيط، ولم تتجاوزْ أبهى حلله ما كان يلبسه من العباءات، ولم يضع شيئًا من الجواهر أبدًا. كان أكثر ما ينفق عليه المهور الحُمْر، فقدْ دفعَ يومًا مقابل إحداها عشرين ألف ليرة (ما يعادل ٨٢٥ جنيها إسترلينيا). وكان محبًا للنساء، مع حرص شديد على الحشمة وصون العِرض، حتى إنّه أمرَ بقتل كلّ من يتحرّش بامرأة أو يهينها. يمكن أن أوجز في الوصف فأقول: إنّه كان وسطًا في الإنفاق، لا مبذّرًا ولا ممسكًا كلّ المسك، وكان كريمًا من دون سرَف[١].

اختلجتني غبطةٌ حين اكتشفت أن جدًّا من أجدادي يدعى إبراهيم صبّاغ كان وزيرًا أو مسؤولاً ذا شأن رفيع عند ظاهر. وإبراهيم هذا من العرب المسيحيين، وتلقّى تدريب من نوع ما في مجال الطبّ، فكان طبيبًا خاصًا لظاهر، وكان إلى جانب ذلك وزيرًا للمالية. ورحت أسأل نفسي: هل يمكن أن تكون طبيعة ظاهر الطاهرة نابعة من المشورة الحكيمة من جدي؟

ليس الأمر كذلك، فقد كانت سيرة إبراهيم سوداءَ كأعماله، ولم يبيّضْها إغفال ذكرها في أعمال من أتى بعده من عائلة صبّاغ ممن دوّنوا سيرة ظاهر، ولا ضيرَ أن أعترفَ بأنه رجلٌ حريصٌ ونهّاب، وما خفي من أمره كان أعظم.

كان ظاهر العمر في بداية أمره شابًا يرعى الإبل، فهو سليل قبائل من البدو التي لم تستقرّ في مكان واحد، وظلّت تتنقل في أرجاء شمال فلسطين وجنوبي سوريا، وأطراف أخرى من الإمبراطورية العثمانية. ونزلت عائلة ظاهر التي كانت تعرف بعائلة الزيداني على ضفاف نهر الأردن في منطقة بحيرة طبرية[٢]. كان العرب المستقلّون في الحواضر، والمشتغلون بالزراعة

أو التجارة يعدّون البدو أقلّ شأنا منهم، وقد وصف فولني ردة فعل سكان مدينة عكا عندما زارها بعض البدو الذين أتوها من أقاصي الصحراء العربية وكان وجودهم غير مألوف في المنطقة وقال:

لمّا أتى بعضُ الفرسان في زمن الشيخ ظاهر إلى عكا تَكرَهم الناسُ، وأثاروا في أنفسهم الفضولَ بشأنهم، كما نشعر عند رؤية الهمجيين من سكان أمريكا الأصليين بيننا. وقف الجميع مشدوهين لهيئة هؤلاء الرجال، الذين كانت قاماتُهم قصيرةً، وأجسادُهم نحيلةً، وبشرتُهم داكنةً، أكثرَ من أي بدويٍّ ظهرَ في المنطقة من قبل. وكانت ساق أحدهم تمتدّ من كاحله إلى فَخذه من دون فاصل، فتبدو ذاويةً ضعيفةً، وكأنّها أوتارٌ عضليةٌ لا غير. أمّا المَعِدَةُ فكانت منكمشةً حتى تكاد تدخل في الظهر، والشعرُ على رءوسهم أجعدَ كشعر الأفارقة السود في أمريكا. أمّا هم، فقد كانوا كذلك مبهورين بكل شيء رأوه في المدينة، فلم يعرفوا كيف تقوم هذه البيوت وترتفع هذه المنارات؟ أو كيف يخاطر أهل المنطقة بالمكث تحت أسقفها؟ وتعجبوا من ثبات هذه الأمور في مكان واحد. بيد أن لا شيءَ من هذا كان أعظمَ من ابتهاجهم بالنظر إلى البحر الذي رأته أعينُهم صحراءً من الماء لا يدرون كنهها(٣).

تركتْ عائلةُ ظاهر في منتصف القرن السابع عشر حياةَ البادية والترحّل، واستقرّوا حيث انتهى بهم المقام في شمال فلسطين بين طبرية وصفد. كان والد ظاهر وجدُّه يعملان في جبي الضرائب للحكومة العثمانية، إذ كان نظام جبي الضرائب يسمح لبعض أفراد المجتمع أن يقوموا بجمعها من الفلاحين والمزارعين نيابة عن الحكومة، مقابلَ نسبة من هذه الضرائب لقاء هذا العمل، فكان يعمد جابي الضرائب عادة إلى تحصيل الحدّ الأقصى من الضريبة، وتسليم الحدّ الأدنى منها للحكومة العثمانية.

ورث ظاهر مهمة جبي الضرائب في المنطقة، وذاع صيته بعد مدة وجيزة فارسًا محاربًا، وتاجرًا مرموقًا، وأقام لنفسه أولّ بيت للحكم على أحد التلال في مدينة صفد، وهي موطن عائلتي الأصلي. تزوج ظاهر مرات عديدة، وكان يدفعه إلى ذلك رغبته في تعزيز علاقاته مع بعض العائلات ذات الشأن في المنطقة، ولأنّه على حدّ قول فولني: "يحب النساء كثيرًا". كانت قرية الناصرة تحت سيطرة ظاهر، وكان يُلزم سكانَها "أن يقدّموا هدية [مقدارها ألف قرش] لكلّ زوجة ينكحها [ظاهر]، ولقد حرص على أن يتزوّج كلّ أسبوع تقريبًا"(٤).

نجح ظاهر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الثامن عشر في فرض سلطته على منطقة واسعة، وساعده في ذلك ما أقامه من تحالفات مع القبائل وبراعته في التفاوض. فعن طريق الحلف الذي عقده مع قبيلة بني صقر المعروفة بجموحها وعنادها أصبح في حوزة ظاهر مدينة طبرية الكبيرة، التي أضحت أول مركز لحكمه. وقد كان ظاهر قبل ذلك قد وجّه دعوة للعائلات اليهودية في دمشق لتأتي إلى المنطقة وتستقرّ في المدينة، وكان منهم التجار وأصحاب المصارف، وكان وجودهم عاملًا في ازدهار المنطقة. وتبع ذلك قدوم المزيد من اليهود إلى المناطق التي تقع تحت حكم ظاهر؛ لِما تميّزتْ به من الاستقرار والأمان، واستمرّ تدفّق اليهود من أنحاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية مثل سميرنا وحلب و قبرص.

عرّجَ الرحالة البريطاني (ريتشارد بوكوك) على ظاهر العمر أثناء جولة له في المنطقة عام ١٧٣٧، وكتب عن هذه الرحلة يقول: "قبل أن أصل

مشارف طبرية أرسلت رجلًا برسالة من القنصل إلى شيخ في المدينة كـان في صحبته رجال كثيرون، فأرسل معي الخادمَ ليأخذني إلى بيته لإكرامـي هناك، وكانت الأطباق تأتي تباعًا من مطبخ الشيخ." أحسن ظـاهر إكـرام بوكوك، فقد بدا واضحًا أنّه يستمتع بصحبة من يزوره من الغرب. غيـرَ أنَّ الضيفَ لم يهنأْ في نومتِه فيقول: "كانوا يحضرون الماشية لتبيتَ على مقربة من جدران البيت كلّ ليلة كيلا يتمكن أحدٌ من سرقتها، لذا كان المكان مليئًـا بالهوام، وكانوا يملكون عددًا كبيرًا من المواشي فكانت أصـواتُها لا تكـفُّ عن إزعاجنا".

كان ظاهر يأخذ ما يلزم من الحيطة لحماية نفسه من عداء باشا دمشق، الذي يعدّ أقرب حاكم إليه في الإدارة العثمانية، وكان لا يضمر الخير للشيخ ظاهر، ويعدّه خطرًا محتملًا على ملكه. ويقول بوكُوك في هذا الصدد: "كـان الجميع أثناء وجودي في طبرية يساعد في بناء حصن على جزء مرتفع من المدينة من جهة الشمال، وكانوا يعملون على تدعيم أسوار المدينـة القديمـة بالدعامات من الداخل؛ لأنّ الشيخ كان في خلاف مع باشا دمشق، إلا أن هذا الباشا قد اختلف يومًا مع أخيه وثار عليه في مشادة كلامية، فأعدمَه شنقًا أمام الناس في المدينة، وكان هذا كفيلًا بإزاحة الباشا عن الحكم، وأصـبح أهـل طبرية في مأمن منه."[٥] ثم جاء من بعده الباشا سـليمان العظـم، وفـرض حصارًا على ظاهر في طبرية وقصفها، ويقول فولني: "وأصاب الذهولُ أهلَ سوريا بأسرهم؛ لأن القنابل لم تكن معروفة في ذلـك الزمـان، ولا حتـى في هذه اللحظة."[٦]

طبرية، إحدى عواصم حكم ظاهر العمر، وهذه صورة المسجد الذي بناه في القرن الثامن عشر.

بنى ظاهرُ قلعةً وسط طبرية- وهي الآن آيلة إلى السقوط- وقرب القلعة على بعد أمتار عدّة من بحيرة طبرية أنشأ مسجدًا ذا بناء متين، له مئذنةٌ من الزاوية الشرقية، وحجارتُه التي بني منها تتدرَّجُ من الغامق إلى الفاتح، وهذه إحدى سمات الأبنيةِ الأخرى التي بُنِيَتْ في ظلِّ حكم ظاهر العمر في فلسطين. لكنّ المسجد تُرِكَ مُهملًا منذ عام ١٩٤٨ حينما هُوِّدتْ طبريةُ كلُّها، وبُنِيَ حول المسجد مركزُ تسوّقٍ يضمُّ محالَّ تصفيف الشعر، ومتاجر الهدايا والألبسة، وعددًا من المقاهي. ووجدتُ بعض المحالّ مغلقةً عندما زرت المدينة عام ٢٠٠٤، وكان المقهى مهجورًا، ورأيت عتَبات المسجدِ ومنبرَه من الداخل وحولهما عرباتُ التسوّق القديمة والزجاجات الفارغةَ. إعتليتُ كرسيًّا تُرِك قربَ المسجد، ونظرت عبرَ قضبان النافذة إلى المسجد من الداخل، فوجدت الحصى والجص والحجارة على أرضيته بعد أن سقطت عن السقف، أمّا درجات المنبر فكانت تملؤها الشقوق وبقع الماء، وكان الناس قد قذفوا بأوساخهم من النوافذ إلى أرضية المسجد الذي كان ظاهرُ وعائلتُه وأهلُ المدينة يصلّون فيه في أحد الأيام.

مسجد ظاهر العمر في طبرية اليوم، تحيط به المجامع التجارية والمنازل.

كانت الحكومة العثمانية- التي تُعرف بالباب العالي- تقبل الضرائب التي كان يجمعها ظاهر، وتركته يدير شؤونه بدون تدخّل، ولم يبدأ الاضطراب إلا حين احتدم الخلاف بينه وبين باشا دمشق. كانت دمشق لا تبعد سوى ساعات معدودة عن طبرية، فقرّر ظاهر بعد أن تعرّض لهجوم في مقرّ حكمه أن يبحث عن مقرّ جديد بعيد عنها، وقريب من البحر الأبيض المتوسط. وتحقّق له ذلك في الأربعينيّات من القرن الثامن عشر، إذ استولى على ميناء عكا- وهو ميناء يقع على الساحل الشمالي لفلسطين على البحر الأبيض- وكان يتولّى أمره مسؤول عثماني من صيدا. ووصف فولني عكا بأنّها "ركامٌ خَرِب ومدينة مفتوحةٌ تعيسةٌ يصعبُ الدفاع عنها."[٧] كان حاكم صيدا قد وضع ممثلًا عنه (يُلقّب بالآغا) غير أنه حين تلقّى رسالةً من ظاهر يبلغهُ فيها أنّه في طريقه إليه ليستولي على الميناء ولّى هاربًا من المدينة، فدخلَ ظاهرُ وجنودُه عكا وقراها، وأصبحت تحت سيطرته، ولم يكن هذا مصدرَ إزعاجٍ لحاكم صيدا؛ لأنّه كان يعلم أنّ ظاهر سيستمرّ في تقديم الضرائب التي يجبيها، وأنّه حاكم جيد وقادر على حفظ الأمن والنظام.

أصبحت معظم أراضي الجليل الآن تحت سيطرة ظاهر، وبهذا تحكّم بعمليات الإنتاج والبيع للمنتجات الزراعية في المنطقة من قمح وشعير وحمضيات، بالإضافة إلى الزيتون الذي قامت عليه صناعة الصابون المزدهرة في ذلك الحين. إلا أنّ القطن كان المحصول الأهمّ، وذلك لزيادة الطلب عليه في السوق الأوروبية، ونجح ظاهر في استغلال ذلك، فأقام علاقاتٍ مع عدد من التجار الفرنسيين، واتصل مع سواهم في مالطة وقبرص وليفورنو.[٨] واحتكرَ ظاهرُ تجارةَ القطنِ في الجليلِ، وأخبر الفرنسيين بأنّ

عليهم أن يدفعوا له السعر الذي يحدّده، غير أنّ ذلك لم يدم طويلًا؛ لأنّ الفرنسيين أبَوا أن يدفعوا تلك الأسعار المرتفعة، فقطع ظاهر العلاقات التجارية معهم، فلم يجد أحدًا يشتري منه، فاضطرَّ إلى تخفيض الأسعار، واستأنف علاقاته التجارية مع الفرنسيين، الذين كانوا بالرغم من ذلك مستفيدين من التعامل معه لمهارته وأمانته في المعاملات التجارية.

وساعدت هذه العلاقات التجارية المزدهرة في توسّع عكا وانتعاش الحياة فيها من جديد، ففتحت محالُّ جديدة ومخازن، وأنشئت سوق للقطن في شارع طويل ومنظم يزدان بالأقواس من جانبيه، ولا يزال قائمًا حتى الآن.

كانت قبائل البدو قبل سطوع نجم ظاهر يجوبون المدينة وينهبون القرية ويسلبون المزارعين ويقطعون الطرق، وحالتْ هذه الظروف بمجموعها دون ازدهار التجارة فيها. وكانوا يقولون إنّه يستحيل للمرء أن يسافر دون حماية خمسين رجل مسلّح يقطعون معه الطريق. لكنّ الأوضاع تحسّنت في عهد ظاهر، فقد ألزمَ زعيمَ كلٍّ قريةٍ وبلدة، بتأمين منطقته، وتعويض الضحايا من نفقته الخاصة. ويقول ميخائيل صبّاغ إنّه بحلول عام ١٧٤٦ "كانتِ المرأةُ العجوز تسافر والذهب في معصميها، وتتنقل حيثما شاءت دون خوف ولا وجل."[٩] واتّبع ظاهرُ وسيلةً ذكيّةً لمنع الجريمة؛ إذ أرسلَ بعضَ النساء يجُبْنَ الطرقاتِ في المناطق المختلفة كطُعْمٍ للرجال، وكان يبعث رسائله للناس مخبرًا إيّاهم أنّه من يدنُ من إحداهنّ فسيُقبَض عليه ويُشنَق. ويخبر القنصل الفرنسي في صيدا في ذلك الوقت أن "ظاهر كان يتكلّم ويتصرّف كأنه سيّدُ الجليلِ الأوحَد."[١٠]

كان ظاهرُ مسلمًا كمعظم الفلسطينيين العرب في ذلك الحين. وكانت نسبة المسيحيين في فلسطين قليلةً ومعظمهم من الملكانيين (وهم طائفة مسيحية اتّبعتْ مذهب الكنيسة البيزنطية، ولكنّهم من العرب). واستهوت فلسطينُ تحت حكم ظاهر العمر أفئدةَ الملكانيين واليهود؛ لأنّهم كانوا يرونها ملاذًا من الاضطهاد الذي كانوا يقاسونه في حلب وغيرها من المدن السورية، وبهذا التسامح الديني كسب ظاهرُ صداقةَ التجار المسيحيين، حتّى أصبح أحدُهم، واسمه يوسف قسيس، كاتبه ومستشاره.

ومرض ظاهرُ عام ١٧٥٧ وبالرغم مما بذله الأطباءُ من جهد لعلاجه فإنه لم يتحسّن. أحضر يوسف قسيس طبيبًا مسيحيًا كان صديقًا له ليرى إن كان بإمكانه أن يداويه، ولم يكن في وسع الطبيب في تلك الأيام علاجُ مريض في حالة مُستعصيةٍ كهذه، إلا أنّه يحوز الفضلَ كلّه إن حصلَ وتحسّنت صحّة المريض. وبهذا بالفعل أصبح إبراهيم صبّاغ لحسن حظّه الطبيبَ الشخصيَّ لظاهر، وكانت هذه بدايةَ علاقة دامت عشرين عامًا. فصار إبراهيمُ صديقًا وطبيبًا، ثم خلفَ قسيسَ ليصبح مستشارًا للشيخ ظاهر.

أخبرني عمّ لي في بيروت قصةً عن إبراهيم، أخبَرَهُ بها كاهنٌ كهل في أحد جبال لبنان، وإنّي وإنْ كنت لا أجزم بصحّتها إلا أنني أنقلها لأنّها أقدم رواية أملكها عن أحد أفراد العائلة.

عاش في أواخر القرن السابع عشر في مدينة شوير السورية رجل يُدعَى يوحنّا، كان قد تزوّج من أميرةٍ من طائفة الدروز، وعرفه النّاس أحيانًا باسم يوحنّا الشّويري، على اسم المدينة التي يقطن بها. كان له من زوجه أربعة أبناء وهم: عبُّود، وحبيب، وميخائيل، ويوسف. وذهب عبُّود وهو أكبرهم إلى صيدا، وأنشأ مصبغة هناك، فعرفت العائلة باسم "بيت صبّاغ".

وتزوج من الأبناء حبيب، وأنجبَ توأمًا أسماهما إلياس وإبراهيم، توفيَ الأول بالحصبة، أمّا إبراهيم فبعث به عمُّه عبود إلى كنيسة القديس يوحنّا، فذهبَ إليها، وتعلَّمَ على يد راهبٍ من حلب يدعى بروكوبيوس أساليبَ العلاجِ وفنّ الطبّ، وكَبُر إبراهيمُ وأصبحَ راهبًا، لكنّه ترك الكنيسةَ في سنّ الثانية والثلاثين وانتقل إلى عكا وعمل فيها طبيبًا وتزوّج هناك.

وكان لدى إبراهيم حين أصبح مستشارًا في حاشية ظاهر، أربعة أبناء راشدين (أو خمسة)، أدّى بعضُهم دورًا في حكومة ظاهر، وبعضهم ساعد أباه في نشاطاته الاقتصادية المتعددة.

أمّا يوسف فقد أصبح نائبًا على يافا، وصارَ حبيب مسؤولاً عن متابعة الأعمال التجارية للعائلة في عكا، أمّا نقولا فقد امتهن الطبّ كأبيه، وتسلّم عبّود- وهو جدٌّ مباشر لي- مصنع الصابون الذي تملكه العائلة.

وتشير الرواياتُ إلى أنّ إبراهيمَ قد نال حظوةً عند ظاهر، بالرغم من الاختلاف الشاسع بينهما؛ فظاهر لم يكن يسعى وراء الثروة، أمّا إبراهيمُ فكانَ همَّه جمعُها. وكان ظاهرُ سخيَّ النفسِ لا يبخلُ بما لديه، أمّا إبراهيم فكان أبغضَ الأشياء إلى نفسه أن يعطيَ قرشًا واحدًا ممّا يملك. يقول فولني: " كان إبراهيم دنيئًا في عشقه للمال، فقد عاشَ يأكلُ الجُبْنَ والزيتونَ بالرغم من الثروة الطائلة التي جمَعَها. وقد بَلَغَ الغايةَ في الشحِّ، إذ كان يقف على باب أفقر التجار ليشاركَهم في وجَبَاتِهمُ البسيطةِ التي يأكلونها. ولم يلبسْ سوى القذرِ المهترئِ من اللباس، فلو سقطت عيناك على هذا الشحيح الخسيس لظننته شحّاذًا معدمًا، لا وزيرًا في دولة ضخمة."

تأذّى إبراهيم كثيرًا حين أمره سيّده بتخصيصِ جزءٍ من راتبه الشهريّ للفقراء، وكانَ ظاهر في أيام الجفاف- حين لا يقوى المزارعون على دفع الضرائب للدولة العثمانية- يَعْمَدُ إلى خزينته الخاصّة، فيدفع الضرائب عنهم، أو كان يستدين من وزيرِه، وهو قرضٌ لم يكن بيدِ إبراهيمَ أن يتملّص منه.

كان لظاهر عدد من الأبناء كذلك، وكانوا يقسّمون أوقاتَهم بين مساعدة أبيهم وقتالِه. كلّ واحد من أبنائه أدارَ منطقةً من فلسطين، على امتداد الأسوار والحصون التي بناها ظاهر في الشمال. وكان القتال ينشب بينهم حين يقوم أحد الأبناء أو اثنان أو أكثر في بعض الأحيان بإعلان الحرب على أبيهم ظاهرٍ للحصول على نصيب أكبرَ من الحكم، أو لردّ الاعتبار لاستخفاف ظهر لهم من أبيهم أو توهّموه منه. وكان يمكن رشوة هؤلاء الأبناء أو إغواؤهم ليتحالفوا مع أعداء أبيهم، وهذا ما فعله حاكمُ دمشق.

تمرّد عثمانُ على أبيه ظاهر، ولجأ إلى جنين عام ١٧٥٣، واجتمع ثلاثة من الأخوة عام ١٧٦١، وتحصّنوا في أحد معاقل طبرية، وأعلنوا الحرب ضد أبيهم بقيادة أخيهم عليّ. وكانت حال ظاهر معَ أبنائه سلسلة لا تنقطع من الهدنات وحالات التمرد، وكأنّ الأمر أشبه بلعبة حربية معقّدة. وعادة ما كان عثمان أو عليّ وراء التحريض على التمرّد، ولكن فيما يتوفر بين أيدينا من أخبار عن هذه المعارك وما نتجَ عنها إشارةٌ إلى أنّها لم تبلغ شأنًا كبيرًا كما نتصوّرُ لأوّل وهلة[١١].

وكان يحرص كونستانتين دي فولني على تنبيه القراء إلى أنّ المعاركَ العربيةَ لا تشبه الحروب الأوروبية إطلاقًا:

يجب على القارئ ألّا يتصوّر في هذا الصدد وجود إستراتيجيات معقّدة وتقنية كتلك التي جعلت الحرب في غضون القرن الماضي علمًا قائمًا بذاته من الأنظمة والحسابات، فالشعوب الآسيوية تغفل عن المبادئ الأولى لهذا الفنّ. فجيوشهم عصابات، مسيرها في الميدان نهبٌ وتخريب، وحَمَلاتهم ليست إلّا غارات، ومعاركهُم ليست إلا نزاعاتٍ دموية، يقوم الأقوى أو الأكثر شجاعة فيها بالبحث عن الطرف الآخر، (والذي يستسلم عادةً قبلَ بدءِ القتال)، فإن أبدوا مقاومةً وصمدوا، فإنهم يقاتلون كيفما اتفق، يطلقون النار من بنادقهم الصغيرة، ويكسرون رماحهم، ويضرب بعضهم بعضًا بالسيوف؛ لأنّهم لا يملكون المدافع، ولو أنها توفّرت لهم لما أحسَنوا استخدامَها. وعادة ما تنتهي حالة الهلع من تلقاءِ نفسها بلا سببٍ واضح، فطرفٌ يولّي الأدبارَ مستسلمًا، فيلحقُ به الطرفُ الآخر، وترتفع هتافات النصر، وقد ينتهي كل هذا بأن يخضع المهزوم للمنتصر وتمرّ الحملةُ دون معركة[١٢].

وبالرغم من الجراحات العميقة التي قد تخلّفها هذه النزاعات أحيانًا فإنه كان هنالك ميثاق شرف يمنع أحد أفراد العائلة من إلحاق أذىً كبيرٍ بفرد آخر من العائلة ذاتها أثناء النزاع. فلو افترضنا مثلًا أنّ ظاهرًا خسر معركةً ضد أبنائه وانسحبت قواته، فإنّه لا يحقّ لابنه أن يلحقه إلى معقله إن ظهر نصره على أبيه. وحصل ذلك مرّةً مع ظاهر حين سقط عن ظهر فرسه وصرخ: "أنا ظاهر" فجاءه فارسٌ من الطرف الآخر وساعده على النهوض وقبّلهُ من طرف ردائه وأوصله إلى مأمنه، ثم عاد مرّة أخرى للقتال[١٣].

ووضّح القنصلُ الفرنسيُّ في صيدا لحكومته كيف تجري هذه العمليات فقال: "توحي أجواء هذه النزاعات للوهلة الأولى بالخطر المحدّق؛ لأنّ الجميع يحمل السلاح، ولكنّهم ليسوا شديدي الحرص على إراقة الدماء، وبالرغم من

الحنق والصخب الذي يصحب هذه المعارك، فإنها لا تعدو عن كونها نزاعاتٍ عائلية يكون عطف الآباء فيها بلسمًا لها، ولو لاح أيّ خطر خارجيٌّ في لحظة من اللحظات لألفيتَهم قد اتّحدوا لمواجهة عدوّ العائلة المشترك"(١٤).

بيد أن المناوشات التي حصلتْ بين ظاهر وأبنائه أفسدت إلى حدّ ما مزايا الأمن والاستقرار التي حقّقها ظاهرُ في المنطقة، وأفضت إلى ما وصفه فولني بأنّه "اضطراب عامّ، تولّد عنه انقسام في السلطة لا مسوّغ له، تبعه تراجعٌ في النموّ، وصدعٌ في الاقتصاد". غير أنّ ظاهرًا قد تمكّنَ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وبفضل مشورة إبراهيم، أن يبسطَ سيطرتَه على ميناء عكّا على طول الساحل على الأبيض المتوسّط من شمالي سوريا حتّى غزّة، وتطوّرت عكا حتى أصبحت ميناءً تجاريًا ضخمًا، وبؤرةً أساسيةً ذاتَ قدراتٍ اقتصاديةٍ متميّزة وواعدة، بعد أن كانت قريةً مهملةً، لا حياةَ فيها ولا استقرار. وأوضح دليل على مظاهر الترف والازدهار في عكّا تلك القائمةُ التي أتتْ على ذكر ممتلكاتِ ظاهر العمر وإبراهيم صبّاغ، والتي وُجِدَت في محفوظات الإمبراطورية العثمانية. وتعطي هذه القائمةُ تفاصيلَ عن مئات المحالّ ومصنع الصابون (وهو مصنع عبّود على الأغلب)، والحدائق والحمام التركي الجديد بالإضافة إلى مسجدين اثنين. أمّا الآن، فأصبح ميناء مدينة عكا القديمة مرفأً لقوارب الصيد، وما زالت الأبنيةُ الحجرية التي رفعَها ظاهرُ قائمة هناك، ولاسيّما الأسوارُ العظيمة والجدران الاستنادية، بالإضافة إلى الحصن الراسخ وسط المدينة. وهذه الآثار القائمة تأتي في الطرف الغربي من سلسلة متكاملة من الحصون والمساجد والخانات التي أقامها ظاهرُ وأبناؤه في أوج نفوذ حكمه. لكنّ ظاهرًا أصبح كهلًا امتدّتْ به السنون، وكان أبناؤه لا يكفّون عنه، وأعينُ الأعداء متّجهة نحو "مملكته".

هوامش الفصل الثاني

(1) Constantine de Volney, *Travels Through Syria and Egypt*, Vol. II, G. G. J. and J. Robinson, 1788, pp. 130-2,

(2) Ibid., p. 91.

(3) De Volney, *Travels Through Syria and Egypt*, Vol. I, pp. 390-1.

(4) De Volney, *Travels Through Syria and Egypt*, Vol. II, p. 229.

(5) Richard Pocockc, *A Description of the East and Some Other Countries*. Printed for the Author by W. Bowyer, 1745, Vol. II; p. 69.

(6) De Volney. *Travels Through Syria and Egypt*, Vol. II, pp. 92-3.

(7) Ibid., p. 94.

(8) Amnon Cohen, *Palestine in the 18th Century*, The Magnes Press, 1973, p. 16.

(9) Ahmad Hasan Joudah, *Revolt in Palestine in the Eighteenth Century*, The Kingston Press, 1987, pp. 37-8.

(10) Cohen, *Palestine in the 18th Century*, p. 130.

(11) Ibid., p.86.

(12) De Volney, *Travels Through Syria and Egypt*, Vol. I, pp. 126-7.

(13) Cohen, *Palestine in the 18th Century*, p. 88.

(14) Ibid.

الفصل الثالث

نهاية حكم ظاهر

كانت الأوضاع السياسية التي تشهدها الدولة العثمانية كفيلةً بإنهاء حكم ظاهر على فلسطين، لأنّ التمرّدَ والاضطراب في مصر المجاورة لها قد أثّرَ من غير شكٍّ في الاستقرار الجزئيّ الذي تتمتّع به. وقد حكم المماليكُ مصرَ بعدَ أن حلّوا في المنطقة عبيدًا أرقّاء، ولكنَّ الشعورَ بأنْ لا فضلَ لرجل على سواه، وأنّ الناس سواسيةٌ كأسنان المشطِ أجّجَ النزاع على السلطةِ والحُكم. وأوردَ فولني وصفًا لحالة الفوضى في الحياة السياسية في مصرَ في نهاية القرن الثامن عشر فقال:

ليس ممكنًا بحال أن يتحقّق الاستقرار وتنتهيَ التقلبات في مجتمعٍ لا تكون أفئدةُ الناس فيه تصبو لغاية واحدة، وكلُّ شخصٍ فيه لا تهمُّه إلا نفسُه، يعدُّ ما يخبّئه الغدُ دافعًا لاستغلال اللحظة التي يحياها كاملةً، أو في مجتمع يفقد السادة فيه هيبتهم، ويعجزون عن إخضاع الجماهير. ومثّلُ ذلك كمثَل صريرٍ تسمعُه من اصطكاكِ الأجزاء المتنافرة لأداة ما، فلا يتوقّفُ فيها النشوز أبدًا. وهذا هو واقع الحال بين المماليك في القاهرة(١).

تولّى حُكمَ مصرَ من المماليك في الستينيات من القرن الثامن عشر شخصٌ يُدعَى علي بك الكبير، وكان يُعرف باهتماماته المُغرقة بالإسراف. وقد وصف فولني كيف كان الناسُ لا يكفّون عن قَدحه كلّما جلب لنفسه شيئًا

جديدًا من المشتريات الفاخرة فقال: "أنفق علي بك مئتين وخمسة وعشرين ألف ليرة (أي ما يعادل تسعة آلاف جنيه إسترليني تقريبًا)، مقابل اقتنائه خنجرًا لا نفعَ فيه. وقد شدَهَ الصاغةَ بفخامته، لكنّ ذلك كان للعامّة سببًا وجيهًا ليُبْغضوا هذه الأبّهة." ولا عجَبَ أن تكونَ العلاقة طيبةً بين علي بك وإبراهيم صبّاغ، وكان قد تعرّف عليه عن طريق المسيحيين العرب في مصر، الذين انتقل بعضهم إلى القاهرة هربًا من الاضطهاد في سوريا.

ونجحَ إبراهيمُ في إبرام حلفٍ بين علي بك وظاهر العمر، وهو حلفٌ ذو أهمية إستراتيجية، إلا أنّه كان سببًا عجّل في أفول حكم ظاهر. ويقول أحد المؤرّخين في العصر الحديث: "أرسل علي بك الكبير عام ١٧٧٠ أوّل مجموعة من الجنود المصريين إلى غزّةَ ويافا، وكان هذا الذي قَصمَ حكم ظاهر على عكّا في نهاية الأمر، وذلك بعد خمس سنوات من الجشع والكبرياء والشجاعة، والتقلّب بين أحداث جليلة لم يكن للمرء أن يستشرفَها، رمت عليها العظمة بظلالها، وفجعتها الحوادث، فكادت تكون حقًّا تراجيديا يونانية خالصة."[٢] وقد كان متوقّعًا أن يتّحد ظاهر وعلي بك لمهاجمة عثمان باشا حاكمِ دمشق، وتمكّنا بعد عدّة معارك من فرض السيطرة على أكبر مدينة في سوريا، وعنى إسقاطُ حكم عثمان أن تكون دولةُ ظاهر حائلاً يقوم بين مصر والولاةِ العثمانيين في القسطنطينية.

ولكنّ العلاقاتِ بين ظاهر والحكومة المركزية آنذاك، كانت جيّدةً إلى حدّ ما، ولا أدلّ على ذلك من موافقة الباب العالي على مطلب ظاهر عام ١٧٦٨ بأن يكون "شيخ عكّا، أمير الأمراء، وحاكم الناصرة، وطبرية، وصفد، وشيخًا على منطقة الجليل بأسرها"، وربّما كان ظاهر حينها يتمتّع

بنفوذ يصعب تقييده. وقام العثمانيون في ذلك العام كذلك، وعن غير قصدٍ منهم، بتقديم حليف جديد لظاهر، وذلك حين أعلنت الحرب على روسيا. فاستغلّ ظاهر المناوشات والمحاصرات والمعارك ضدّ العثمانيين وحلفائهم في السنوات التالية للحصول على الدعم من الأسطول الروسي، الذي ظهر على مشارف سواحل البحر الأبيض المتوسّط، وأسقط الأسطول العثماني كلّه.

امتدت السنون بظاهر حتى نيّف عن الثمانين، وهنالك صورة مؤثّرة عن هذا الرجل، وهو لا يزال يقاتل، أوردها رحّالة برتغالي يدعى سوفير لوزينان في كتاب له عن حياة علي بك. فحين كانت جيوش علي بك وظاهر تحارب عثمان باشا في مصر، جاء خبر مقتل أحد أبناء ظاهر واسمه صليبي، فعزم لوزينان وبعض خدم علي بك على الرحيل إلى غزة لإخبار ظاهر بالأمر. ويقول لوزينان: "حين رآنا الشيخ الطيب آتين نحوه وسمع بنبأ مقتل ابنه البكر والعديد من أصدقائه وأفراد جيشه، خرَّ على الأرض، وسقط على وجهه يبكي ويصيح: " أنا اليوم قد انتهيت"، وحاولنا جهدنا أن نخفف عنه ما نزل به، وأنّى لنا ذلك ونحن أنفسنا قد ثارت في قلوبنا حسرة بالغة لا يجدي معها العزاء على ما فُجِعنا به من خسارة أميرنا وجميع ممتلكاتنا"[٣].

أمّا مصدر المشكلة التي جعلت ليل ظاهر نهارًا فتمثّل في شخص إبراهيم صبّاغ والمشورة التي قدّمها له؛ إذ إنّ الحكومة العثمانية كانت تمرّ في مرحلة حرجة، فقد هزمها الروس وأعقب ذلك سلسلةٌ من الثورات من القادة المحليين في أطراف عديدة من الإمبراطورية، مما اضطر الباب العالي إلى التقدم باتفاق تسوية سلمية مع ظاهر، وكان هذا الأخير راغبًا بها، إلا أنّ إبراهيمَ حال دون ذلك؛ ظنّاً منه بأنّ علي بك سيتمكّن من السيطرة على

سوريا في السنة القادمة وأنه سيمنحُ ظاهرَ نفوذًا على جزءٍ منها، وبذلك تتسع دولة ظاهر لتصلَ شمال فلسطين. ويشير فولني إلى حقيقة الأمر فيقول: "طمع إبراهيمُ في زيادة منافعه الشخصية، فكانت النصيحةُ التي أسداها إلى ظاهر وسيلةً ليضيفَ المزيد إلى الثروات التي كدّسها، فأغرى ظاهرًا بتلك الآمال الكبيرة، ودفعه لرفض المقترحات التي قدّمها الباب العالي، وراح يجهّز للحرب بنشاط مضاعف"(٤).

إنّ رغبةَ إبراهيم في زيادة غناه وما صوّرَه له وهمُه من قربِ سقوط الدولة العثمانية قد أذكى الحماسةَ في قلبه؛ لأنّه ظنَّ أنّه قد يعيشُ بعدَها مع ظاهر - وكلاهما قد شاخَ في تلك الأيّام - ليشهدا معًا امتدادَ نفوذ الدولةَ خارج حدود فلسطين. ويتجلّى ذلك فيما قاله إبراهيم للقنصل الفرنسي دي توليه: "لن تصمد الدولة العثمانية أكثر من ذلك، ولا يوجد في العالم سوى دولة واحدة هي روسيا، مثلما أنّ هنالك ربًّا واحدًا في السموات"، فأجابه دي توليه قائلاً: "بصرف النظر عما تقول، فإنّ الإمبراطورية العثمانية لن تسقط؛ لأنّ هنالك قوًى يعنيها أن تبقى هذه الدولة قوية، وسترى إن حدّق بها الخطر وآلت إلى السقوط حجمَ الدعم الذي ستتلقّاه"(٥). ولقد كان ما رآه دي توليه أقرب إلى الصواب مما ارتآه إبراهيم؛ لأنَّ الدولةَ العثمانية استمرّت قائمة على مدى سبعين عامًا من ذلك الوقت قبل أن تصبح "رجل أوروبا المريض"، ومرّتْ ستونَ عامًا أخرى قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وبينما كان علي بك يخوض معاركَه في فلسطين كانت ثمّة مؤامرات تحاك ضده في القاهرة، انتهت بخلعه عن عرش الحكم، وكان على رأس هذا التحرّك مملوك آخر يُدعى أبا ذهب، وهو الذي قام بإحضار علي بك إلى

مصر وقتله منطلقًا في ذلك من قولهم "صديق عدوّي عدوّي"، ثمّ تجهّز بعدها لمواجهة ظاهر. وحاز هذا الحاكمُ الجديدُ نصيبًا من اسمه، إذ كان لا يقلُّ شَجَعًا عن إبراهيم صبّاغ، وكانت الإشاعاتُ قد وردتْهُ عن الثروة التي بحوزته؛ فتاقتْ نفسُه للاستيلاء عليها. وراحَ يبحثُ أبو ذهب، بعد تغيّر الحكام على عكّا لمدّة قصيرة وسقوطها في يده، عن تلك الثروات التي يخبّئها إبراهيم، وعَلِمَ بالعلاقة التي كانت تربطه مع بعض الرهبان في الناصرة، فبعث إليهم تحت حجّةٍ ما، وسألهم حين وصلوا أن يخبروه بالمخبأ الذي وضع فيه إبراهيم ثروته، إذ كان أبو ذهب يعتقد أنّه أخفاها في ديرهم، إلا أنّ الرهبان أنكروا أي علم لهم بهذا الأمر، فقطع رؤوس ثلاثة منهم ليرهب البقية، إلا أنّهم كانوا حقًا يجهلون مكانَ ثروة إبراهيم، فزجّ بهم إلى السجن.

عكّا كما بدت في زمن ظاهر العمر، وهذه الأقواس هي ما تبقى من سوق القطن الذي بناه الظاهر للتجار الأجانب ليلتقوا فيه مع تجار القطن الفلسطينيين.

لم يكنْ أبو ذهب رحيمًا بأهالي عكّا وعاملهم بقسوةٍ شديدة؛ ولذا جـــاء خبرُ موته المفاجئ في صبيحة أحد الأيام كماءٍ أطفأتْ نارَهم، بعد أن ذهـــب إلى النوم في تلك الليلة وهو معافًى لا يشكو شيئًا، وخشيَ جيشُه بعد موتـــه عودةَ ظاهر إلى عكّا، ففرّوا منها مدبرين إلى مصر، ولم يمض يومان على وفاة أبي الذهب حتى عاد ظاهر ليفرض سيطرته على المدينة.

وبلغتِ التوترات ذروتَها في ذلك الحين بين من نجا من أبناء ظاهر وبين إبراهيم صبّاغ، وكان في نظرهم حائلاً بينهم وبين أبيهم، وكأنّ صبرَهم بدأ ينفدُ بعد أن امتدّ العمر بأبيهم إلى هذه السنّ، واجتمع إلى ذلك خوفهم من ضياع ميراثهم بين يدي إبراهيم.

لم يترك [إبراهيم] أي وسيلة مهما خبُثَت ليجمع المال والثـــروة، فكـــان يحتكر التجارة كلّها، فله وحده كانت تجارة الذرة والقطن، وغيرها من المواد التي يقوم بتصديرها، وكان هو وحده من يستورد الثياب، والأصباغ، والسكّر وغيرها من البضائع. ودَفَعَهُ جشَعُه ليعتديَ في العديد مـــن الأحيـــان علـــى المزايا الفعليّة للشيوخ [أبناء ظاهر]، أو التي يُفتَرَضُ أن تكـــون لهـــم. ولـــم يتجاهلْ أبناءُ ظاهر سوءَ استغلاله لمنصبه، وكانوا في كلّ يوم يـــرون منـــه أمورًا جديدة لا يرضونَها، وكان هذا كفيلاً بزيادة الاضطرابات. وقد أثّـــرت السنون الطوال في سلامة حكم ظاهر، فترَكَ الأمورَ على ما هيَ عليـــه دون تدخّلٍ حكيم منه ليسترضيَهم، بل راحَ فوقَ ذلك ينعتُهم بالمتمرّدين ونـــاكري الجميل، ولم يكن لديه في نظره خادم أكثرَ وفاءً وصدقًا من إبراهيم، وبهـــذا خسر احترامَ أبنائه، وأشعلَ نارَ الغيظ في نفوسهم وسوّغ استياءَهم منه[٦].

حلّتِ المصيبةُ عام ١٧٧٥، حين أرسل الباب العالي أسطولاً بحريًّا بقيادة حسن باشا، أميرال الجيش العثماني ليقومَ بجمعِ الضرائب المتراكمة منذ عدّة سنوات، وكان يفترض بظاهر أن يرسلها إلى القسطنطينية. أمّا ما حصل بعد ذلك فمحلّ خلافٍ بين من كتبَ عن حياة ظاهر. إذ يرى من روى ذلك من عائلة صبّاغ، وهما العم وابن الأخ، أنّه لا لومَ على إبراهيمَ فيما وقعَ من أحداثٍ بعد ذلك، أمّا سواهم فيرَوْنَ أنّه هو الذي يتحمّل كِبْرَ ما حصل. وكان هنالك صديق مقرّب لظاهر يدعى أحمد الدنقزلي، وكان تاجرًا مغربيًّا، حارب في عدد من حملات ظاهر، وكان يضمر البغضاء في قلبه تجاه إبراهيم، تُحَمِّلُه عائلةُ صبّاغ مسؤوليةَ ما حلّ بحكم ظاهر، ويصرُّ مترجمون آخرونَ على لوم إبراهيم.

ودار محورُ القضية حول ما إذا ما كان سداد الضرائب المتأخرة واجبًا أو لا، فكان رأي إبراهيم، بالعودة إلى طبعه، مع التشبّثِ بهذا المبلغ الطائل من المال وعدمِ دفعه، إلّا أنَّ الدنقزلي أشارَ إلى ظاهر بأنْ يدفعَ الضرائب مقابل التوصّل إلى حلٍّ سلميٍّ لهذا النّزاع. ومالَ ظاهرُ، بالفعل، إلى رأيِ الدنقزلي، وقال: "هذا هو الصواب، فأنا رجل عجوز، ولم أعد قادرًا على القتال والسير بلا كلل في أرجاء الجبال. ولا شيء أهمَّ في حياتي الآن من أن يرتاح الله لي برحمته وأموتَ خادمًا طائعًا للسلطان."

لكنَّ إبراهيم لم يقبل بذلك، وزعمَ أنَّ الحكومةَ العثمانية ستطلب المزيد حتى وإن دفعوا الضرائبَ، وأنّه على كلّ الأحوال لا يوجدُ في الخزنة ما يكفي لدفع الأموال المطلوبة. فأصابَ ذلك من ظاهر أُذُنًا صاغيةً، وَعَدَلَ عن الرأي الأول ليوافقَ رأيَ إبراهيم، فما كان من الدنقزلي إلا أن ردّ على

ذلك بلهجة المتهكّم وقال: "إنّ الشيخ على صواب، إنّ حاشيته تعرف منذ البداية أنّ كرمه يأبى أن يظلَّ ماله راكدًا في خزائنه، ولكن أليس المال الذي يأخذونه منه هو ماله؟ وهل يعقل حتى لو كانت هذه أموالهم أن نعجز عن جمع ألفي صرّة من النقود؟"

ويصف فولني هذا المشهد وصفًا حيًّا فيقول: "وما كاد الدنقزلي يتمّ كلامَه حتى قاطعه إبراهيم محتدًّا، وقال إنّه يعلم من حال نفسه أنّه لا رجلَ أفقرُ منه، ولكن الدنقزلي ردّ وقال: "بل قل أخسُّ منك"، وتابع مغضبًا: "من ذا الذي يجهلُ أنّك طيلة أربعة عشر عامًا كنت تكدّس الثروات الهائلة، وأنّك كنت تحتكر أصناف التجارة جميعها في الدولة، وأنّك تبيع أراضيها، وتحتفظ لنفسك بأموال الضرائب التي يجب دفعها، ومن يجهل أنّك أثناء الحرب مع محمد بك نهبت غزة شبرًا شبرًا، وأنّك نقلت معك كلّ حبّة ذُرةٍ، ولم تتركْ لأهل يافا شيئًا يقتاتون عليه؟"(٧)

ولكنّ ذلك لم يجدِ في ثني ظاهر، الذي وضع ثقته في آخر وزير له، فأرسلَ خطابًا إلى حسن باشا يخبره فيه أنّه يرفض دفع الضرائب، فكان ردُّ حسن باشا مهاجمة المدينة. وقال الدنقزلي الذي ضاقَ ذرعًا بالنّصيحة التي قدّمها إبراهيمُ ومن قَبول ظاهر لها: " إنّنا مسلمون ونعلنُ الطاعةَ للسلطان، ولا يَحِلُّ لمسلمٍ يؤمنُ بالله الواحدِ أن يحاربَ السلطانَ تحت أيّ ذريعة." فأرسلَ أوامرَه للجنود المغاربةِ تحت إمرته ألّا يقاوموا جنودَ الأميرال العثمانيّ، وبدأتْ سفنُ حسن باشا قصفَ مدينة عكّا، وحاول ظاهر أن يردّ على الهجوم، غير أنه لم يتمكن من ذلك من دون قوات الدنقزلي.

وحين انقشع الغبار عن عكّا، واتّضح أنّ كلّ شيء ضــاع، امتطــى ظاهر صهوة حصانه، وغادر المدينة، ولكنّه تذكّر، وهو حاكم فلسطين الذي بلغ خمسة وثمانين عامًا، زوجته الجميلة الصبيّة، واتّخذ قرارًا قاتلاً. عــزم على أن يعود أدراجه ليأخذ عروسه، وفي طريقه إليها تلقّى طلقة مــن أحــد جنود الدنقزلي المغاربة، فسقط على أرضه، واجتمع الجنود المغاربــة مــن حوله، وقطعوا رأسه، وأحضروه إلى حسن باشا، الذي قام، كما هي العــادة، بشتمه بألوان الشتائم المختلفة، ووضعه في إناءٍ من الخــلّ، وأرســله إلــى القسطنطينية دليلاً على أن الشيخ الذي أثار المشاكل قد انتهى عهدُه. وكتــب فولني عن موته: "هذه هي النهاية الأليمةُ لهذا الرجل، الذي استحقّ للعديدِ من الأسباب ميتةً أشرفَ من هذه المِيتة. لم تحظَ سوريا منذ زمن بعيد بقائــد ذي شخصية عظيمة مثل هذا الرجل... ولكن منذ أن أصبح إبراهيم وزيرًا لديــه صارتْ أفعاله مشوبةً بازدواجية يدْعوها المسيحي "اقتصادًا"(٨).

ولكن ما الذي حلّ بإبراهيم يا تُرى؟ وأين كان هوَ حين قام جنود ظاهر أنفسهم بإرداء سيّدهم قتيلاً؟ كان إبراهيم قد ولّى هاربًا من المدينة، ونزلَ في مأمن عند قبيلة كانت تربطها علاقةٌ جيّدةٌ مع ظاهر في الماضــي، ولكــنّهم أعادوه إلى عكّا بعد أن أخذوا الأمان على حياته، بيد أن الأتــراكَ نقــضوا العهد، وأرسلوه إلى حسن باشا، وهو "أفضل هدية يتلقاها مثله" كمــا يقــول فولني، إذ كانت التقاريرُ التي ترد عن ثروة إبراهيم العظيمة قد عُرِفَت فــي زوايا الإمبراطورية كلِّها، وكان حسن باشا عازمًــا علــى العثــور علــى مَخادعِها. لكنَّ إبراهيم أنكرَ ذلك. يقول فولني: "لم يُجْــدِ مــعَ إبــراهيمَ مــا استخدمَه الباشا من أساليبِ الملاطفةِ والتهديدِ والتعذيب، وعَجِزَ ذلك كلّه عن استنطاقِ إبراهيمَ بشَطرِ كلمة".

إلا أنّه لم يمض وقتٌ طويلٌ على إبراهيم في أصفاده المُحكَمة، حتى اكتشف الباشا مخبأ ثروته في المكان الذي شكّ فيه أبو ذهب من قبل، وهو الدير المسيحي. وجدوا سبعةَ صناديقَ "كبيرة يكاد الذهب يخرج من نواحيها، وكان الصندوق الكبيرُ منها يَنوءُ بثمانيةِ رجال من ثقله". وعُثِرَ فيها على أنواع الحلي والمجوهرات، ومن بينها خنجرُ علي بك المشهور، الذي بلغ ثمن قبضته ٩٠٠٠ جنيه إسترليني. وأُرسِلَ إبراهيمُ وثروتُه إلى القسطنطينية ليتلقّى التعذيب كرّةً أخرى؛ لمعرفة إن كان يخفي المزيد من الأموال والنفائس، غير أنه كان مراوغًا كبيرًا هذه المرة، وثبت على موقفه، ولم يخبرْهم بشيء آخر، وكانت نهايته الإعدام شنقًا، فماتَ "بشجاعة كان خليقًا به لو وضَعَها موضِعَها" كما يقول فولني.

ربّما تبدو قصّةُ ظاهر العمر وإبراهيم صبّاغ ثانويّةً في تاريخ الإمبراطورية العثمانيّة، ولكنّها مهمّة في الوقت ذاته لأسباب عدّة. فبعضُ المؤرّخين يَعُدّون هذه الحقبةَ المقدّمةَ الأولى لحضور النفوذ الأوروبيّ في المنطقة، وذلك بواسطة العلاقات التي أقامها ظاهر مع الفرنسيين والروس، وغيرهم من التجّار من الدول الأوروبية. وقد أرسى ظاهرُ أيضًا سياسةً تجاريّة مُوحَّدةً في فلسطين وسوريا، فعَمِلَ المزارعون والسماسرة والتجار القادمين من الخارج ضمن نظام اقتصادي فعّال، فساعد ذلك في رفع مستوى المعيشة لشعبه خلال مدّة حكمه القصيرة. ولكنَّ أثرَ هذه الحقبة امتدّ إلى أبعدَ من ذلك، فقد تولّى حكمَ فلسطين بعد ظاهر غيرُه من الشيوخ والحكّام العثمانيين، واستمر جنيُ الثمرات الإيجابيّة لهذا الحكم حتى القرن التاسع عشر.

كما تتبع أهمية عرض هذه القصّة بشيءٍ من التفصيل من أنّها دليلٌ على وجود مجتمع فلسطينيٍّ مُركّبٍ ومتعدّد الطبقات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وأنّ فلسطين لم تكن خاويةً على عروشها لمدّة خمسين سنةً من بعد ظاهر. وتُظهرُ شجرةُ عائلتي أنّ أولادَ إبراهيمَ تزوّجوا وأنجبوا الأولاد- كغيرهم من الناس- وهذا ما حصل أيضًا مع عائلة الزيداني، أولادِ ظاهرَ وأحفادِه، والأمر سيّان مع الجماعات المتعددة التي جذبها ظاهر إلى فلسطين في عهده، من يهود ومسيحيين ومسلمين، ومزارعي القطن وتجّاره، والجنود الراجلة والخيّالة، والبدو ورجال العشائر، وأهل المدن في صفد، وعكّا، وطبرية، والناصرة. لقد استقرّ هؤلاء في فلسطين، ومدّوا جذورَهم، وبنوا بيوتَهم، وترعرعَ أطفالُهم في مدنِها وقراها التي استمرّت قائمةً منذ زمن ظاهر. ولكنَّ معظمَ أحفادهم الآن يعيشون في مخيّمات اللاجئين، أو في مدنٍ تبعد آلاف الأميال عن بيوت أجدادهم في فلسطين، بعد أن طردهم منها الإسرائيليّون عام ١٩٤٨.

لم يتبق من ذريّة إبراهيم سوى نفرٍ قليل، تركّز عيش معظمهم في شمال فلسطين- والتي تعرف الآن بإسرائيل- وهذا ما عرفتُه حين سافرت في خريف ٢٠٠٣، باحثًا عن أحد أمنعِ معاقل ظاهر، وهي حامية دير حنّا، إحدى البلدات الواقعة على الطريق بين طبريةَ وعكّا. وكنت أرغب بتصوير بقايا المدينة إلا أنّني لم أجد شيئا؛ إذ قامتْ على قريةِ دير حنّا بلدةٌ عربيةٌ صغيرة، ولم أميّز على التلّ أيَّ شيءٍ يشبهُ الحامية، فطلبت من رجلٍ كان يمشي الهوينى ويحمل مسبحةً أن يرشدَني، فأخبرني بأن أتابع بالسيارة إلى الأمام، ودلّني على الطريق، ثم ابتدرني الرجلُ بالسؤال عن عائلتي، فقلت له

إنّي من "بيت صبّاغ"، فتهلّلَ وجهُهُ وقال: "أعرف العديدَ من أقربائِكَ هنا، سآتي معك وأريك الآثار"، وكان اسم هذا الرجل حنّا.

ركنتُ سيارتي في جهة ظلّ، وبدأنا السير، وقال حنّا مشيرًا إلى أحد البيوت المهجورة المبنيّة من الحجر، وتحيط بها قطعة أرض: "لقد كان هذا بيت عائلة صبّاغ، لا أحد يسكنه الآن."

وانطلقنا معًا نسير في جادّة بمحاذاة القرية، فرأى رجلاً وزوجَه جالسين في شرفة منزلهم، فقال: "هذا الرجل من بيت صبّاغ" وناداهما بكلام أهل القرية وقال: "هذا الرجل جاء من الخارج" فردّوا عليه، ولم أميّز ما قالوه، ثم التفت إليَّ حنّا وسألني: "ماذا كان يدعى أبوك" فأخبرته، فتابع حوارَه معهما، وتبيّن أنّهما يعرفان أبي. أصرّ الرجل وزوجتُه أن أدخلَ بيتهم لتناول طعام الغداء (مع أنَّ الساعة كانت العاشرة صباحًا!) فأخبرتهم بأعلى صوتي أنّه يتوجّب عليّ القيام ببعض البحوث، وأنّني سأزورهما في وقت لاحق. تابعنا السيرَ أنا وحنّا، ولم نتقدّم خمسين مترًا حتى أطلّتِ امرأةٌ عجوزٌ من شرفةِ أحد المنازل، فقالَ حنّا: "وهذه من أقربائك أيضًا"، فناداها، وأخبرَها أني ابنُ عيسى خليل صبّاغ، فراحت تقصُّ علينا كيف أنَّ أختَها تزوّجت من رجلٍ كانت ابنتُه زوجةَ أحدِ أفرادِ عائلة صبّاغ، وكادتْ تسقط من أعلى الشرفة لفرط تفاعلها مع الموضوع، وأصرّت أن أدخل بيتها لتناول الغداء حالاً. لكنّي تلطّفتُ بالاعتذار، إذ كنتُ أرغب بالعثور على موقعِ الآثار، ولكنّي لا أدري كم سألتقي من الأقرباء حتى أصلَ هناك؟

وجدنا الحاميةَ القديمةَ التي تتكوّن من مجموعة من الغُرَف ذاتِ البناء المتينِ المبنيّةِ حولَ قطعةٍ من الأرض، وقادني حنّا إلى غرفة نوم أحد

الرجال، لكنّه أدرك خطأه فورا، فالعديد من أهل القرى كـانوا كالسرطان الناسك(*)، يتّخذون من تلك الغرف بيوتًا لهم، وكانت الغرف التي لا يسكنها أحد، وتؤدّي إلى قطعة الأرض يملؤها الحطامُ والأوساخُ إلى الرُكَب، ولكنّه ما زال يمكن تمييزُ بعضِ زخارف البناء وحجارته التي تكون فاتحة اللون في ناحية، وغامقةً في ناحية أخرى، وبشكل متناسق يميّز طرازَ البناء في عهد ظاهر.

ولمّا أشبعت ناظري من تلك الأماكن قفلنا راجعين، وقرّرت زيارة بيت ذلك الرجل وزوجته اللّذين كانا على الشرفة على ألّا أمكثَ سوى خمسِ دقائقَ، إلا أنّني مكثتُ ساعةً هناك. كان الرجل أبو حاتم وزوجته من أحفاد جدّي الأكبر إبراهيم صبّاغ، وبعدما سُكِبَت القهوةُ العربيةُ ذاتُ النّكهة القويّة، بدأ التحقيقُ معي. كانت عربيّتي كافيةً لأخبرَهم جُلَّ ما كانوا يرغبون معرفته، مع أنّني لم أفهم بعض ما كانوا يقولونه لي.

وكان في جعبتهمُ الكثيرُ من الأخبار عن عائلتي القريبةِ من أعمامٍ وعمّات، والأماكنِ المختلفة التي هاجروا إليها، حتى أنّ أبا حاتم قال إنّه يعرف والدي، وعرضَ أمامي ثلاثَ صُورٍ التُقِطَت من غير إتقان، إلا أنّ صورة الرجل في الوسط كانت بالتأكيد صورة والدي، غير أنّها لم تكن واضحةً كثيرًا، وكان واقفًا بين أبي حاتم وزوجته، وكانا في سنّ الشباب في هذه الصورة. كما رأيت معه صورًا لعمّتي جورجيت ووالدة أبي حاتم، وهي امرأة جميلةٌ حقًّا واسمها خرجيّة. وسمعت أنّ بعض أفراد عائلتي قد

(*) السرطان الناسك (hermit crab) حيوان بحري معروف، يعيش داخل صدفة منغلقًا على نفسه، تماما كالناسك. (المترجم)

انتهى بهمُ المُطاف في أمريكا مثل والدي، وقالتْ لي إحدى النسوةِ هناك: "لأختي ولدان في أمريكا، ولغتُهمُ العربيةُ ضعيفةٌ كلغتِك" (وكنت ظننت أنّ لغتي تتحسَّن!)

خرجيّة صبّاغ: وهي والدة أبي حاتم في دير حنّا.

نظرت إلى ساعتي وقلت لهم: "لا بــدّ أن أغــادر الآن" ولكــنّ هــذا لم يجد معهم نفعًا.

قالت لي أم حاتم: "إنّك لم تأكلْ شيئًا"

"لقد تناولت إفطاري متأخرًا"

فقال لي أبو حاتم: "يكاد الغداء يجهز، تعال معي أرجوك."

دخلْتُ معه غرفةً كبيرةً تطلّ نوافذُها على الريف البهيّ، وأمــسك أبــو حاتم ذراعي، وقادني نحو الشرفة، وقال لي وهو يشير بيده إلى تلّة كبيــرة بعيدةٍ عنّا: "كان هذا الجبل كلّه لعائلة صبّاغ." ثمّ توجّهنا إلى إحــدى زوايــا الشرفة، وأشارَ بذراعه تجاه الحقول الممتدّة أمامنا بالأفق وأضاف: "وكــان ثلث هذه الأراضي كذلك لبيت صبّاغ."

جلست إلى مائدة عليها من الأطباق الفلسطينية التي أعرفها، وحثّــوني بصوت واحد: "كُلْ هذه، تفضّلْ.. تناولْ تلك.. جرّبْ هذا. كلّه طعامُ البيــت، هذا من خير بلادنا."

كنت أظن أنّ الأمور ستنتهي عند ذلك، فاستأذنت بالانصراف.

لكنّهم تمسّكوا بي وقالوا: "لا، لا، انتظر لحظة حتــى تــرى الزيتــون بأنواعه، وزيتَ الزيتون."

فأحضروا من المطبخ خمس عبوات زجاجيّة، فيها أصنافٌ عديدة من "زيتونات" العائلة، وراحوا يوضّحون لي كلَّ نوع على حدة: "هذا زيتون أخضر كبير مع الفلفل، وهذا زيتون أسود كبير في الزيت، وهذا زيتون أخضر في الزيت، وهذا زيت زيتون من شجرنا، وهذه صرّة زعتر [الصعتر المجفف المخلوط مع السمسم]."

كنت أريد أن أترك ثلاث عبوات لكي أسافر بمتاعٍ خفيف، ولكنّ حاتِم كان قد أحكم ربطها مع بعضها. فاستأذنت منهم ووعدت أن أعودَ لاحقًا لأمكثَ مدّة أطول بينهم مع زوجي وأطفالي، ونزلت الدرج نحو سيارتي، ورافقني حاتمُ وحمل ليَ العبوات الخمسة، ففتحت صندوق السيارة ليضعها هناك، وإذ بيدٍ تمسكني وتدفعني، فاستدرت وإذ بامرأةٍ غريبةٍ قد استلمتْني وقبّلتني على خدَّيَ، وكانت ترتدي ثوبًا فلسطينيًّا تقليديًّا، وفي صحبتها رجل عجوز سقطت أسنانه، يرتدي ثيابًا تقليديةً أيضًا، وكان قصير القامة مثلها، وتبيّن أنّهم من أقربائي، وجاءوا إليَّ لمّا سمعوا أني في البلدة، فغمروني بالتحيّات والترحيب، مسرورين لأنّي شرّفتهم بزيارتي للقرية، وأصروا عليّ لأزورهم وأتناول معهم الغداء.

صعدت سيارتي ورجعت بها، وتمنيّت لو أنني التقطت صورة للجانب الآخر من بيت صبّاغ الذي رأيته من تلك الشرفة، ولكنّني كنت أعلم أنّني إن ترجّلتُ من سيارتي مرّةً أخرى فلن أضمنَ ألّا يراني مزيدٌ من أقربائي، وهذا يعني التأخّر مرّة أخرى.

مجموعة من عائلة صبّاغ ما زالوا يقطنون بدير حنّا، وهي الآن جزء من إسرائيل.

هوامش الفصل الثالث

(1) Constantine de Volney, *Travels Through Syria and Egypt*, Vol. I, G. G.J. and J. Robinson, 1788, p. 157.

(2) Thomas Philipp, *Acre*, Columbia University Press, 2001, p. 41.

(3) Sauveur Lusignan, *A History of the Revolt of Ali Bey Against the Ottoman Porte*, James Phillips, 1784, pp. 150-1.

(4) De Volney, *Travels Through Syria and Egypt*, Vol. II, pp. 114-15.

(5) Philipp, *Acre*, p. 47.

(6) De Volney, *Travels Through Syria and Egypt*, Vol. II, pp. 124-6.

(7) Ibid., pp. 130-2.

(8) Ibid.

الفصل الرابع

فلسطين في القرن التاسع عشر

قُتِلَ إبراهيم صبّاغ في القسطنطينيّة، وتزايدتْ أهميّة ميناء عكّا بعد أعمال التوسعة والتحصين التي قام بها ظاهر، وكان ذلك على حساب مدينةِ صفد التي كانتْ مركزَ الحكم فيما سبق، ولا يزال أفرادٌ من عائلة صبّاغ يعيشون على تلال هذه المدينة. كان لإبراهيم أربعة من الأولاد كانوا إمّا عونًا له في إدارة شؤون الظاهر أو مسؤولين عن الأعمال التجارية المتعددة التي أنشأها والدهم، وكانت هذه العائلة في ذلك الزمان من العائلات الفسلطينية المتعلِّمة، فكانوا يجيدون القراءةَ والكتابةَ والحسابَ، وكانوا أيضًا يفاوضون التجار الأجانب الذين كانوا يقصدون عكّا لتجارة القطن وغيره من البضائع الفلسطينية التي ازهرت تجارتها في عهد ظاهر.

وترد إلينا معظمُ الأخبار عن فلسطين خلال القرن التاسع عشر في كتابات الرحالة المسيحيين القادمين من الغرب، وكانت فلسطين قبلةَ اهتمامهم لسببين؛ الأولُ أنّها كانت "أرض إسرائيل" التي ترتبط بالتاريخ اليهوديّ الواردةِ أحداثُه في ثنايا العهد القديم، والسببُ الثاني أنّها كانت مهدَ السيّد المسيح، وفيها وقعت جميعُ أحداث العهدِ الجديد التي تشكّلُ جزءًا راسخًا من تكوين الطِّفلِ المسيحيِّ في تربيته الدينيَّة. ولهذه الظروف أثرُ ذو شأنٍ عظيم في المأساة التي ستلحق بالفلسطينيين فيما بعد، وذلك بسبب التعاطف مع فكرة أن تصبح فلسطين دولةً يهودية.

حاولَ الرحالةُ المسيحيّون إلى فلسطينَ دومًا ربطَ كلِّ نقطةٍ في الأرض المقدسة مع موقع أو حدثٍ وردَ ذكرُه في الكتاب المقدس. ويقــول المــؤرخ ستيوارت كوهين في هذا الصدد: "وُجِدَت في بريطانيا جماعاتٌ كبيــرة ذاتُ شأنٍ في المجتمع المسيحي وكانوا يتفاعلون مع ما يلوحُ من آمــال لإحيــاء العلاقة التاريخية بين أبناء إسرائيلَ وأرضِ الكتابِ المقدس." وقال أيضًا: "إنَّ الذي حركَ المثقفين في بريطانيا في العصر الفكتوري تحركهم هو حُــشاشة معتقداتٍ راسبةٍ في عقولهم تُؤمن بالظهور الثاني للمسيح، وقد شهد المجتمع في هذه الحقبة بالتحديد محاولاتٍ لبعث ذكريات الكتاب المُقدَّس، وقام بهــذه المهمة فريقٌ متكاملٌ من الرحّالة والمستشرقين وعلمــاءِ الآثــار والفنــانين والروائيّين، حيث عملوا على تأكيد أهميةِ الأرض المُقدَّسة ومكانــةِ ســكانِها الأقدمين"[١].

ويصفُ دبليو.إم تومسون إحدى الرِّحَلات التي قام بها إلى صــفد فــي العام ١٨٣٣ ويقول: "كان الحائط حديثَ البناء في معظمه، ولكنه أُقيمَ علــى بناءٍ أقدمَ منه... فإن نزلتَ أسفلَ هذه الأقبية المتهشمة فسترى مشهد الآثــار القديمة الحقيقيّة في صفد. فترى فيها الحجارة مشطوفة الحوافّ، وهي حجارةٌ كبيرةٌ وقديمةٌ في هيئتها كأقدم الآثار الموجودة في البلاد، وتدلُّ هذه الحجارة أنّ لهذا المكان أهميةً خاصةً منذ عصورٍ قديمة."[٢] وحــين قــال المــسيح في عِظَته على الجبل: "لا يمكن أن تَخفى مدينةٌ قائمةٌ على عَلَم" فإنــه مــن الممكن أنه كان يشير إلى مدينة صفد، وهي المدينة الأعلى ارتفاعًــا والتــي يمكن رؤيتها من بحيرة طبريّة.

وبقيتِ المدينةُ لبضع مئات من السنين مركزًا لليهود يتعلّمون فيها ويتعبدون، وهي إحدى المدن الأربعة المقدسة لديهم، بالرغم من أنَّ نسبةَ السكّان اليهود لم تتجاوز الخمسين بالمئة. وبُنيَ في القرن السادس عشر العديدُ من المعابد اليهوديةِ في صفد، كما أُنشِئَ فيها أولى مطبعة في الشّرق الأوسط. وقطنت العائلاتُ العربية بالمدينة قبل قدوم اليهود إليها، وعندما ازدادت أعداد اليهود في القرن السادس عشر مع مقدم العديد منهم من أوروبا الشرقية ومن بولندا تحديدًا، عاشت الجماعتان مع بعضهما بانسجام كبير.

بيدَ أنّي لما زرت البلدة عام ٢٠٠٣ رأيتها يهودية المعالم بأكملها، وهذه هي حالها مذ سَنَةِ النكبة، وتوقفتُ هناك عندَ محلٍ لبيع الكتب وسألت صاحبه عن مكان في صفد يمكنني فيه تناول فنجانٍ جيّدٍ من القهوة، فأجابني الرجل بملءِ فيه: "أعتقد أنه لا يمكنك احتساء فنجان جيد من القهوة في إسرائيل." فأخبرته أن أصولَ عائلتي من صفد، وأنَّ تاريخَ عائلتي يعود لبضع مئات من السنين، فأخبرني بأنه قَدِمَ من فونيكس في ولاية أريزونا، وأنّه في الأصلِ من مدينة سكوكي في ولاية إلينوي.

وحين زار البلدةَ ذلك الرحالةُ الصهيونيُّ الإنجليزيُّ الفكتوريُّ، لورنس أوليفانت، أظهَرَ بوضوح الطبيعة الصعبة للإنجليزي التقليدي حين يتعلق الأمر بالنظافة والصحة في المشرق، فقال:

"مهما بدت صفدُ جذّابةً للرائي من بعيد فإنّها لا تمثل في النّفس شيئًا يستهوي إليها. فهناك وسط كل شارعٍ من شوارعها بلّاعة مكشوفة، ممّا يجعلها المدينةَ ذات الرائحة الأسوأ والتي فيها أكبر انتشارٍ للقوارض من بين المدن التي قُدِّرَ لي أن أنزل بها. وكانت طبيعة السكّان وكأنها تتأقلم مع

الروائح المنبعثة في المدينة، وتصبح تظن أنك في أحد أحياء اليهود في رومانيا أو روسيا، مع بعض السَّمِجين الشرقيّين. والناس هنا لا يرتدون اللباس المشرقي المعتاد كما هو الحال في طبريّة، ولكنهم يرتدون القبعات العالية وأردية الجبردين(*) الناعمة ويضعون ضفائر الشعر المتدلية من جهة الأذن كما يفعل يهود أوروبا. ولو ألقيت السمعَ وأنت تسير في الطرقات هناك، فلن تسمع من العربية شيئًا، بل تسمع "اللغة الرطينة" وهو الاسم الذي يطلق على لهجة اليهود في أوروبا الشرقية. ويبلغ عدد يهود أشكناز، أو اليهود الألمان، الذين حلّوا في هذه البقعة البئيسة خمسة آلاف أو ستة، كما يوجد فيها ما يقارب ألفًا ومئتين من اليهود السفارديم، أو يهود إسبانيا، وكان هؤلاء يرتدون الثياب المشرقية. وهنالك في أطراف أخرى من المدينة قرابة ستة إلى سبعة آلاف مسلم، وبهذا يكون مجموع عدد السكان فيها أربعة عشر ألفًا تقريبًا"[٣].

كان لهذا الرجل أثرٌ كبير في نشر فكرة أنّ فلسطينَ هي أرض اليهود في المجتمع البريطاني، ولكنّه كان ينظر بعين الازدراء إلى أولئك اليهود الذين عاشوا هناك في تلك الفترة. "لم أجد ما يمكن أن يُعَدَّ فندقًا أو نُـزُلاً لأبيتَ فيه، فكنتُ بالضرورة معتمدًا على ضيافة واحد من أهل البلد لأنزل في بيته، وقد أتاح لي ذلك أن أطّلع عن كثبٍ على طبيعة حياة أناس يميّـزُهم الفضول أكثر من غيرهم من بني البشر. وكان يعتمد معظم اليهود هنا على الدعم المقدم من صندوق خيري يعرف باسم (هالوكا)، والذي يأتي ريعه من اليهود المتدينين من شتّى بقاع المعمورة كجزء من واجبهم المقدس... وكان

(*) الجبردين (gabardine): هو نوع من القماش المتين كانت تصنع منه الثياب في الماضي، ولا تزال استعمالاته شائعة حتى الآن. (المترجم)

الهدف العملي لهذا النظام هو الإبقاء على مجموعة من المتعصبين ممن لا يُرجى نفعُهُم، عاطلين يستجْدون الناسَ ويجمعون بين التعبّد الخرافيّ والفساد الأخلاقي..."

ويأتي انتقاد أوليفانت لهذه المجموعة من اليهود من منطلق أنهم لا يظهرون أي رغبة في تطوير فلسطين. فهم كما يقول: "...وَجِلون من إقامة المستعمرات الزراعية أو المضيّ قُدُمًا في تطوير أي نوع من العمل لليهود في فلسطين. وهم يقفون موقفًا عدائيًا لا يلين تجاه المدارس غير الدينية، كما أنهم يتّفقون مع أولئك اليهود في أوروبا الذين يعتبرون أي خطة لتطوير المصادر المادية في فلسطين بجهد يهودي هو محض خيال ووهم."(٤)

وقد أشار أوليفانت إشارةً سريعةً إلى وجود "ستة إلى سبعة آلاف مسلم" في صفد، ولكنه لم يأت على ذكر المسيحيين، ولربما كان يظنّ أنّ العربَ جميعَهم مسلمون أو أنه لم يتمكن من إحصاء عدد المسيحيين بالإضافة إلى المسلمين، مع أنّهم كانوا يشكلون في ذلك الوقت ما يقارب خمسة بالمئة من العرب الذين يقطنون بصفد، وكانوا يتوزعون على أربع عائلات عريقة وهي: البشوتي، وعائلة حداد، وعائلة خوري، وعائلة صبّاغ.

وعاش فيهم أجدادي الذين يرجع نسبهم إلى إبراهيم صبّاغ، لأن أبناءه غادروا المنطقة بعد مقتل ظاهر العمر وإعدام والدهم واستقروا في الشمال ناحية صيدا، غير أنّ عددًا من أبنائهم من بعدهم عادوا إلى صفد في شمال فلسطين، وكان ذلك في بدايات القرن التاسع عشر، واستقروا في حيّ المسيحيين، وأقاموا بيوتهم من أجود أنواع الحجارة وجعلوا لها أسقفَ مقنطرةً وشرفاتٍ على الأسطح تُطلّ على الأودية المجاورة.

لكنَ أحدَ أبناء إبراهيم، وهو نقولا صبّاغ، ارتحل إلى مصرَ مع عائلته في الثمانينيّات من القرن الثامن عشر، وبذلك سنحت الفرصة لأحـد أبنائـه ويدعى ميخائيل، لأن يدرس العربية الفصيحة قراءةً وكتابةً. ومع أنه كـان يتحدث باللهجة المحكيّة لعرب فلسطين وهـو بـين أسـرته، إلا أنّ إتقـان الفصيحة خطًا وقراءةً يتطلب جهدًا كبيرًا من المتعلّم. وساحَ ميخائيـلُ فـي صعيدِ مصرَ في الجزء الجنوبيّ من البلاد وتعرَّف على مدنها وقراها وخَبِرَ تاريخ مصر جيّدًا، وحين قدم الفرنسيون بقيادة نابليون واحتلوا مصر اتّصلَ ميخائيل بهم وعملَ لديْهم حتّى خروجِهم منها.

وربما كان ميخائيل ضمنَ جيش نابليون حين مرّوا بمسقط رأسه فـي عكا عام ١٧٩٩، وهي زيارة نُقِشَت في ذاكرة التاريخ لخطاب ألقاه نـابليون في مخيم خارج أسوار المدينة وعَرَضَ فيه فلسطينَ هديةً ليهود العـالم مـع توفير الحماية لهم من فرنسا. وقال في خطابه: "أيهـا الإسـرائيليون، أيهـا الشعب العظيم، إنّ فرنسا تضع بين أيديكم في هذه اللحظـة إرثَ إسـرائيل. استعيدوا ما سُلِبَ منكم، ولكم من أمّتنا الضمانُ والدعم، واحفظوها من كـل المعتدين"(٥).

لم يكن هذا العبث بفلسطين من قائدٍ يعطي نفسه الحق، لأول مرة فـي التاريخ، بمنحِ أرضٍ لا يملكها لشعب لا حقّ خالصًا له فيها كافيًا لأن يـصدَّ ميخائيل عن الاستمرار في العمل مع جيش نابليون، خاصـة وأنـه يـتقن الفرنسية بشكل جيّد، ولما انسحب الفرنسيون من الشرق الأوسط عام ١٨٠١، رحل ميخائيل في ركبهم إلى فرنسا.

وهنالك في باريس أخذت الأمور منحىً جديدًا وتبلورت سلسلةٌ مهمة من الأحداث بعد أن حاز ميخائيل على اهتمام مستشرق ذائع الصيت يُدعى البارون أنتوني سلفستر دي ساسي، وهو لُغويٌّ مبدع وله تصانيف في القواعد العربية، وكان يعرف بأنه "أعظم عالم بالعربية في زمانه". وعمل ميخائيل في مطابع الحكومة الرسمية، وصار مسئولاً عن النصوص التي كانت تطبع بالعربية، ثم انتقل للعمل مع دي ساسي ناسخًا للمخطوطات العربية، حيث عملا على أرشفة المصادر العربية والمصرية في مكتبة الملك (King's Library)، كما نظم ميخائيل عددًا من القصائد بالعربية موثّقًا فيها بعضَ الأحداث التي عاصرها، وكانت بعض عناوين هذه القصائد: "في مدح البابا بيوس السابع"، و "خطاب الثناء لوزير العدل في زيارته للمطبعة الوطنية"، و "أبيات في مناسبة زواج نابليون"، و "أنشودة ميلاد ملك روما".

لا شك في أنّ مهاراته في الأدب واللغة جعلت الأنظار تتوجه إليه في باريس في القرن التاسع عشر، في وقت كانت فيه الثمار الثقافية لحملات نابليون قد أينعت وأثارت اهتمامًا متزايدًا بالشرق. وكان نابليون قد نصّب عالِمًا مصريًا في مدرسة اللغات المشرقية في باريس، لكنه كان ممقوتًا من دي ساسي، وما لبث أن استقال حتّى شغلَ ميخائيل محلَّه، وتمثلت وظيفتُه كما حددها نابليون في "إعطاء دروس عامّة في العربيّة المحكيّة". كما أتمّ دي ساسي الفضلَ على ميخائيل حين قامَ بترجمة عملٍ صغير له كان قد كتَبَه عن الحَمامِ الزاجل إلى الفرنسية، وكان هذا اسم الكتاب "الحمامة رسولٌ أسرع من البرق"(*).

(*) وعنوان الكتاب بالفرنسية: La Colombe, messagère plus rapide que l'éclair (المترجم)

وقد ساعدَ ميخائيل صبّاغ أثناءَ عمله في المكتبة في جمعِ النصوص العربية لإحدى نسخ (ألف ليلة وليلة) والتي تتوافر منها نسخ عديدة باللغتين الإنجليزية والفرنسية منذ مئة عامٍ تقريبًا، لكنّه قد مضى على وجود المخطوطات العربية نحو ستمئة عام، ولا بدَّ من محقّقٍ عربي مثل ميخائيل أن يبحث في ثناياها عن قصص لم تتوفر للمترجمين الأوائل، ولقد كان بحثه مُنصبًّا على حكايتين هما (سندباد البحار) و (علاء الدين، أو الفانوس السحري) (٦).

اعتمد السير ريتشارد بيرتُن- وهو المستكشف واللغوي والمترجم والكاتب الذي عاش في القرن التاسع عشر- في ترجمته التي خرجت في ثمانية عشر مُجلّدًا لروايات (ألف ليلة وليلة) على عددٍ كبير من المخطوطات التي حصّلها من بعض المكتبات أو اشتراها من التجار، كما جاب أسواق الشرق الأوسط واحتسى القهوة مع القُصّاص فيها وذلك ليجمع كل شاردة وواردة تصلحُ أن توضع في عمله الضخم، والذي حِيكَ حولَ ضخامته خرافةٌ تداولها الناس بينهم تدّعي أنّه لا يقرؤه أحدٌ بأكمله إلا مات. (وهذا صحيح حقًّا!)

ولمّا بدأ بيرتُن بجمع المواد ليترجمها كانت هنالك ترجمة سابقة وضعها كاتب فرنسي يدعى أنتُوني جالَند، والذي اعتمد في معظم ترجمته على مخطوطة من سوريا تعود للقرن الرابع عشر أو الخامس عشر، إلا أنّ هذه المخطوطةَ لم تتضمّن رواية (علاء الدين، أو الفانوس السحري)، وهي قصةٌ نالت شهرةً واسعة فيما بعد، ولكنّها كانت موجودةً في ترجمة جالَند، ممّا جعل بيرتُن يحاول الوصولَ إلى مصدرها. وهذا ما نجده في مقدمة أحدِ المجلدات التي أعدّها؛ حيث يصف حادثة اكتشافه لها (على حدِّ ظنّه) أثناءَ زيارة له إلى باريس عام ١٨٨٧ حيث جاء فيها:

"سُرِرت وأنا أتنقل بين أرجاء المكتبة الوطنية في فرنسا بلقاء إم.هيرمان زوتنبيرج، أمينِ قسمِ المخطوطات الشرقيّة، وهو مُستشرقٌ بلَغ الغايةَ في فنون عديدةٍ من العلوم، وعمّت شهرتُه الآفاقَ بفضلِ كتابِه المشهور: "تاريخ طبريّة" (Chronique de Tabari)، وازداد سُروري حينَ علمتُ أنه قد جلب إلى المكتبة الوطنية مؤخّرًا نسخةً مخطوطة من روايات ألف ليلة وليلة، كان قد اشتراها من شخص لا يعلم عن تاريخها شيئًا البتّة، واحتوت على الأصول العربية من روايتي (زين الأصنام) و (علاء الدين)... ووجدتُ خطَّ الكتابةِ متشابهًا في المخطوطتين ويسهل أن تعرف أنهما خُطّتا بيد ميخائيل صبّاغ صاحبِ كتابِ الحمام الزاجل المنشور في باريس عام ١٨٠٥..."

ونقل بيرتُن بعد هذا اقتباسًا من المخطوطة يقول:

"تمَّ هذا لعشرِ سنواتٍ مَضَينَ من جُمادى الآخرة لعام ١١١٥ للهجرة في مدينة بغداد بخطّ الفقير لمولاه أحمد بن محمد الترضي، شافعيِّ المذهبِ مَوصليِّ المولدِ بغداديِّ الإقامة، وكتبَها لغرضٍ خاصٍّ وعليها وضَعَ خاتَمه. اللهمّ صلِّ على سيدنا محمّد وآله وأصحابه وارضَ عنهم!"

وقد كُتِبَتْ هذه الملاحظة بخطّ ميخائيل، ولذلك يستحيل أن تكون هذه المخطوطة هي الأصلَ التي كتبها محمد الترضي، وإن كان بيرتُن مقتنعًا بأنها نسخة أصلية نسخها ميخائيل. ولكن حتى لو افترضنا جدلاً أنها نسخةٌ أصلية، فإن هنالك ما يجعلنا نظن أنّ الرواية الأصليةَ لم تكن بالعربية، بل ترجمها إلى العربية محمد الترضي- أو غيره- من رواية (علاء الدين) التي أوردها جالند بالفرنسية في ترجمته. لكن بيرتُن ينفي هذا الاحتمال كذلك، يقول:

... إنّ التاريخ الهجري الظاهر يوافق عام ١٧٠٣ للميلاد، ولم يكن جالند قد نشر ترجمته قبل العام ١٧٠٥، فلا يمكن بحال أن تكون المخطوطة التي كتبها أحمد الترضي قد ترجمت أو أخذت عن الفرنسية. وعلى الرغم من أنّ ما كتبه ميخائيل صبّاغ بين العام ١٨٠٥ و ١٨١٠ قد أضاف بعض التعديلات التي أخذها عن جالند، فإن دقة الأصل في نسخته التي يدلّ عليها تلك التدقيقات الهامشية وغيرها من الملاحظات المنتشرة فيها تشير إلى أنه قد أعملَ مِعْوَلَ التغييرِ في النصّ بشكل كبير، ويبقى أمامنا الآن أن نعثرَ على المخطوطة الأصليّة للترضي(٧).

ويظهرُ في الحقيقة أنّ بيرتُن قد أخطأ في حكمِه، فالطلب كان رائجًا ذلك الحين على حكايات ألف ليلة وليلة في أوروبا ممّا حدا بالنُّسّاخ، ومنهم ميخائيل صبّاغ، إلى العمل على ريّ ظمأ القراء إليها، وليسَ مُستَبْعَدًا أنّ ميخائيل قد جمع مخطوطةَ الترضي منَ المخطوطاتِ السورية والمصرية التي وجدها حوله في باريس، ولكنّه لم يكن ليجد مخطوطة أصلية لحكاية علاء الدين، فعَمِدَ إلى ترجمتها من نسخة جالند الفرنسية إلى اللغة العربية. ويقول روبرت إيرون- أحد علماء العربية المعاصرين- إنّ ميخائيل بفعلته هذه "جنى المال وحقق بعض الشهرة الأكاديمية"(٨).

ولعلَّ عِرقَ الخُبْثِ قد اندسّ من إبراهيم صبّاغ إلى حفيدِه من بعده. لكنْ أولَيس يكفيه عارًا أنّ ما نَظَمَه من شعرٍ في قصيدتِه الموسومة "خطابَ الثناء لوزير العدل في زيارته للمكتبة الوطنية" أو حتّى عملَه الرائدَ حول الحمام الزاجل لم يحقّقا من الانتشار بين الناس بما يَشفعُ له على الأقلّ ما هوى به في جُرُفِ الخيانةِ العلمية؟

* * *

حلّتْ كارثةٌ بمدينةِ صفد موطنِ بيت صبّاغ في العام ١٨٣٧ وأصبحتْ أثرًا بعد عينٍ على إثرِ الزلزال المدمّر الذي ضربَها ومدنًا فلسطينيّةً أخرى، وكانَ في بيروت وقتذاك المبجّلْ دبليو إم تومسون الذي قَدِمَ لُبنانَ في بعثةٍ تبشيرية، وشَعَرَ بهزةِ الزلزال أثناء قُدّاس ليلةِ رأس السنة الميلادية. وتلقى تومسون في الأسبوع التالي رسائلَ من فلسطين تصفُ الدّمارَ الهائلَ والعددَ الكبير من الضحايا الذين قضوا في زلزال صفد، فقرر أن يجهّزَ بعثةَ إغاثةٍ ويتوجَّه إليها.

"وصلْنا صفد في صباح الثامن عشر من ذلك الشهر، وحينها فهمتُ لأول مرة الخرابَ الذي يقدر الربُّ أن يلحقَه بالمعمورة حين يقوم لهزّها... الكل كان يترقب، لكنها كانت صدمة ألجمتِ الألسنَ حين رأينا واقع الأمر رأيَ عَيْن... لم نرَ منزلاً لم تتهدّم أركانُه... كانت المدينة قد بنيت على شفا أحدِ الجبال وكان شديدَ الانحدار حتى إنّ أسطح البيوت في الجهة السفلية قد شكلت ما يشبه الشارع لمن هم في الجهة العليا، وحين قصم الزلزالُ الأرض بأنحائها، هوى من في الأعلى على من هم أسفلَ منهم، وهؤلاء على من دونَهم، وهكذا حتى طمَّ الركامُ آخر صف من البيوت، فأضحتِ المدينةُ عاليَ بيوتِها سافلَها في كتلٍ متراكمةٍ من الأنقاض... وقد قضى العديدُ ممّن لم يموتوا من فورَهم قبل أن تصلَهم يدُ المساعدة، ونجا غيرُهمْ ممّن صمدوا بعد خمسة أيامٍ أو ستة وبعضهم بعد سبعة أيام بعد الزلزال. وأخبرني صديقٌ لي أنه عثرَ على جثة زوجته وطفلُها بين ذراعيها وفمه ملتصقٌ بثديها، ولكنّه مات من الجوع بعد أن حاول أن يستسقي الحياة من جثة أمه الهامدة"(٩).

عاش المسلمون واليهود والمسيحيون جنبًا إلى جنب في صفد، وكـــان العرب واليهود يتحدثون العربية. وقد طرأ على العلاقـــة بـــين المجتمعـــات الدينية الثلاثة بعض التوترات بين الفينة والأخرى ولكنّها كانت كثيرًا ما تخبو دون مرحلة العنف. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد فـــي إحـــدى الـــصحف اليهودية في تلك الآونة عن أنَّ التجارَ العربَ قد بدأوا يستولون على بعـــض الوظائف التجارية المهمّة التي كان يشغلها اليهود:

"باتت المفاوضات وعمليات شراء المحاصـــيل والأدوات الـــضرورية للمطعم والملبس حكرًا على التجار العرب، بعد أن كـــان ذلـــك كلُّـــه مـــن اختصاص التجار اليهود، ولعلَّ مرجعَ هذا إلى التطور الثقافي عند الـــسكان العرب في المدينة والذي ساعدهم على إقصاء التجارِ اليهودِ وشجّعهم علـــى السيطرةِ على أعمالِ التجارة. ولم يفعلِ اليهود شيئًا حيـــال ذلـــك واكتفـــوا بالإحجامِ عن التفاوض مع غير اليهود. غيـــر أنّ التجـــارَ العـــربَ راحـــوا ينافسون كذلك في سوق اليهود، فكانوا يبيعون نقدًا وليس بفائـــدة ثابتـــة، إذ كانت احتياجاتهم أقل وكانوا يرضون بالربح القليل فأصبح اليهود يتـــسابقون للشراء منهم (١٠).

وهذا يوضّح شدّةَ المنافسة بين المجتمعين وتأثيرَ المعطيات الاقتصادية تحسُّنًا وتراجعًا على الحياة في صفد وفي بقية المدن الفلسطينية كذلك.

كانت مدينة نابلس مركزًا تجاريًا وزراعيًا وإداريًا في القـــرن التاســـع عشر في فلسطين، وهي مدينة كبيرة تبعد خمسة وسبعين ميلاً جنوب غرب صفد وتقع بين جبلين في قلب فلسطين. وقد كانتْ تابعة إداريًا لباشا دمـــشق، فشكّلت محورَ نشاط مهمًّا ينافسُ صفدَ وطبريّة، وقد حـــاول ظـــاهر العمـــر

في مرات عديدة أن يبسط نفوذه على المدينة، ونجح في السيطرة على بعض أجزائها في بعض الفترات. وربضت نابلس- كغيرها من المدن الفلسطينية الأساسية في فلسطين- على موقع مهمّ على شبكة المواصلات بين القرى المجاورة، وقامتِ الروابطُ الاجتماعية فيها على الانتماءات العائليّةِ والعلاقاتِ التجاريّة والمعتقدات الدينيّة والحاجة لكسب الرزق.

واهتمَّ الرحالة الإنجليز في ذلك الوقت بمدينة نابلس لكونها آخرَ موطنٍ للسامريّين، والذين يُعتَقَد أنّهم ينحدرون من شعب مملكة إسرائيل الشمالية. وقد تناول دبليو إم تومسون في صفحات طوال في كتابه حول "الأخلاق والعادات والمشاهد والصور من الأرض المقدسة" موضوعَ السامريين وأسهبَ فيه. ولخّص في كتابه هذا الحُججَ التي تؤيّدُ أو تدحضُ نسبةَ مقاماتٍ مُحَدَّدَة ذُكِرَت في العهدِ القديم في هذه المنطقة، ولاسيّما المكانُ الذي قدَّم فيه إبراهيمُ ابنَه إسحاقَ ليهوا(١). ووصَفَ نابلس في كتابه بأنها "مدينةٌ عتيقةٌ عجيبةٌ، ضيقةُ الشوارع مُقنطرةُ الأسوار، ويصعب السير في أرجائها وقتَ الشتاء بسبب سيولِ الماء التي تنهلُّ على أرصفتها مُصدرةً صريرًا يَصِمُ الآذان... وينمو فيها التوت والبرتقال والرمان وغيرها من أنواع الثمار التي تنمو بين المنازل وتعبق الهواء بعبيرها اللطيف في نيسان وأيّار من كل عام، فتسعد البلابل في سكونها وزقزقتها لتأتي آلاف الطيور الأخرى لتنضم إليها. ويقول أهل المدينة إنّ واديَهم هو وادي الموسيقى في فلسطين، ولا أستطيع ممّا خبرته هناك أن أخالفهم فيما يقولون"(١١).

---

(١) يشير العهد القديم إلى أن الذبيح هو النبي إسحاق، أمّا القرآن الكريم فيذكرُ أنَّ الذبيح هو إسماعيل. (المترجم)
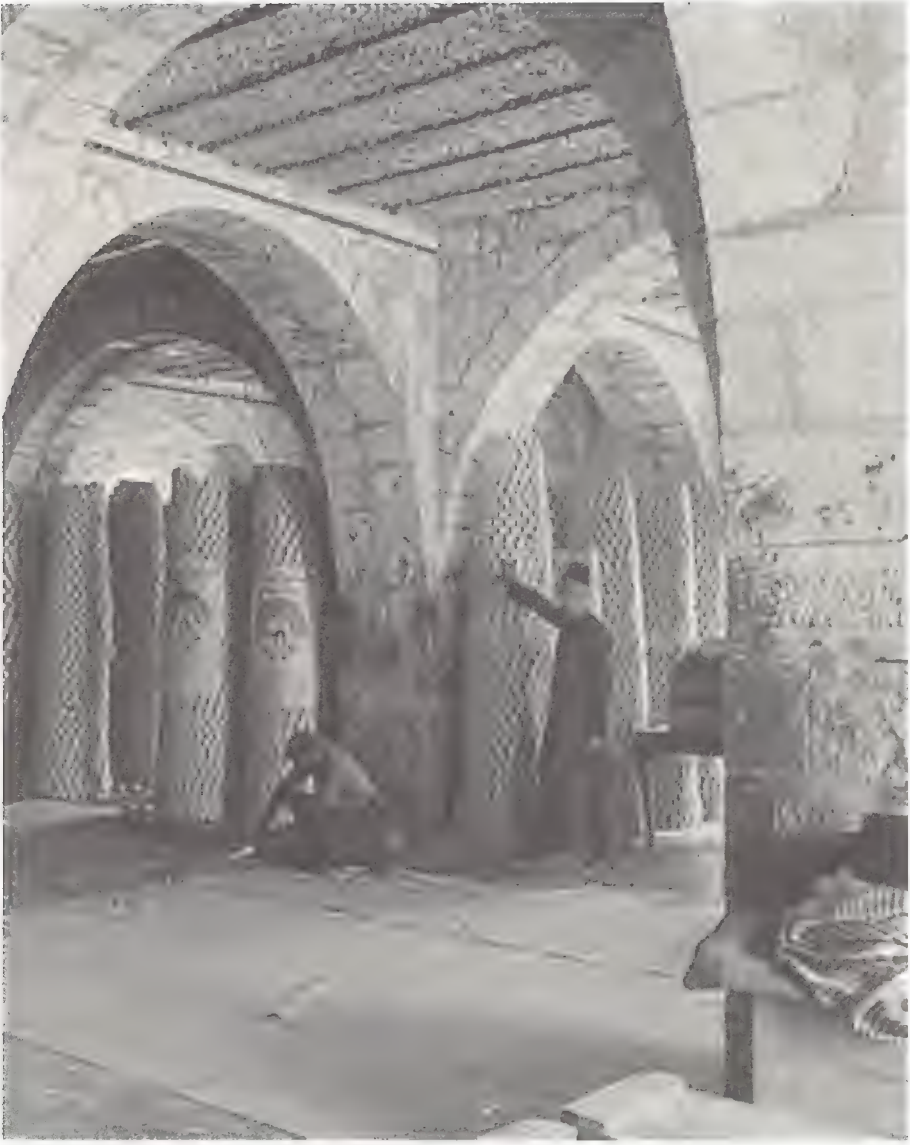
تُعرف مدينة نابلس بصناعة الصابون من زيت الزيتون وقد تزايد ازدهار هذه الصناعة في القرن العشرين.

وقد أزال المؤرخ الفلسطيني المعاصر بشارة دوماني الستارَ عن الدوافع التي دعت لمثل هذا النوع من الكتابات فيقول: "كانت فلسطينُ صغيرةً في مساحتها وغيرَ مميّزة في إمكانياتها الاقتصادية، فانصبّ التركيز على الحديث عن "الأرض المقدسة" التي تنتظر من يسترجعها روحيًا وماديًا. فتزايدت أعداد الحجاج ورجال الأعمال والممثلين الرسميين والسياح التي تطئ أقدامهم أرض فلسطين وقلوبهم تتطلع إلى يوم يجتازون إلى هذه البلاد التي لم تغيّر ملامحَها الأيّام ليحيوا من جديد تلكَ الرحَلات المقدسةَ ولا ينقطعوا عنها"(١٢).

وقد عجزَ هذا التركيزِ الكبير على الناحية التصويرية الخارجية أن يجلّي ولو قليلاً من الطبيعة المُعقّدة للمجتمعِ الذي عاشَ أفرادُه وعملوا في مدنِ فلسطينَ وقراها. ولو استمعنا إلى شهادةٍ أخرى حول نابلس، من بشارة دوماني نفسه، الذي درسَ نابلس وخبِرَها واعتمدَ على المصادر العربية في ذلك بشكل أساسيّ، فستظهر لنا أنّها مدينةٌ تقبع في منطقةَ مزدهرة غنية بأشجار الزيتون، وترى هذا المؤرخ يرسم صورة مختلفة تمامًا عن صورة محمية الطيور المليئة بأصناف الفواكه كما رسمها تومسون، يقول:

كان الصخب والنشاط المرافقان لأعمال تخزين زيت الزيتون في الآبار الموجودة في أقبية مصانعِ الصابون بعد الانتهاء من موسم الحصاد في الشتاء لا يضاهيهما إلّا تلك الجلبةُ التي يحدثُها وصول القطن إلى المدينة لندْفِه وغَزْله في الصّيف. ولذلك كان الحدُّ يتداخلُ بين وصف المدينة والريف، بل كانتْ نابلس بحقٍّ أشبهَ بقريةٍ كبيرةٍ يخرج أهلُها عند الشّروق إلى مزارعِ الزيتونِ وكروم العنب والبيّارات التي تغطي المنحنيات على أطراف المدينة، كما ينطلقون إلى الحقول ومزارع الخضروات ومطاحن الحبوب والتي تنتشر حول الوادي.

أما الفلّاحون فيتقاطرون باتّجاهِ مقابلٍ إلى المدينـــة ليبيعـــوا منتجـــاتِهم وليبحثوا عن جِهازِ العـــروس وأدواتِ العمـــل والمطـــبخ، والأرز والقهـــوة وغيرها من المواد.

لقد كانت نابلس لأهل الريف كما هي لأهل المدينـــة القلـــبَ النـــابضَ (كما يقولون) للنواحي الأخرى..."

انتشرت على جانبي الطريق مئات المتاجر في صفوف طويلة في جميع الشوارع والأزقة والطرق الصغيرة، ونشأت بينها العلاقات التجارية المتبادلة كما ارتبطت مع النواحي الأساسية الستّة في المدينة"[١٣].

بالرغم من صغر المجتمعِ الفلسطينيّ في حجمه، إلّا أنّـــه معقّـــد فـــي تركيبه، إذ يقوم على ترتيب معيّن للطبقاتِ الاجتماعية، وفيه المتعلّمون كمـــا فيه الفلاحون. وأنشئت في فلسطين الطرقُ والمدنُ والقرى والقصورُ والقلاعُ العامرة، وفيها نظامٌ لجمع الضرائب، ونظام قضائي يفي بحاجة النّاس. كمـــا تكاثر نسلُ العائلات في فلسطين مثل عائلتي- كما يحصل فـــي أي مجتمـــع آخر- وتتابعت الأجيال مع اختلافِ بينها في الفقر والغنى، فمنهم من فُتِحَت له الدنيا ومنهم من كابدَ الفاقة.

وقد وصف لورنس أوليفانت، بعد توبيخه لمجتمع اليهود فـــي صـــفد، رفقته الطيبةَ لرجل فلسطيني وامرأته كانا يقطنان بحيفا، إلا إنه لم يقاوم حتى في هذا السياق أن يدُسَّ السمَّ في مَعسول كلامه فقال: "أصـــبحت الطبقـــات الغنية نظرًا لزحف الحضارة في السنوات الأخيرة مولعـــةً بالـــسفر وتعلـــم اللغات، وغالبًا ما تجد أفراد هذه الطبقة يتحـــدثون الفرنـــسية أو الإيطاليـــة، وزاروا باريس أو القسطنطينية أو الإسكندرية، وتراهم وقـــد تزيّـــوا بـــزي الحضارة الأوروبية ليغطوا بها همجيَّتهم التي فُطِروا عليها."

وقد اطّلع أوليفانت أثناء مكوثه في بيت عائلةٍ من الطبقة الوسطى على حياة البيت الفلسطيني عن كثبٍ، فبدأ بوصف زوجة صاحب المنزل فقال:

إن كنّا على علاقة طيبة تقرّبنا من هذا الرجل لننزل ضيوفًا في بيته، فإنّ زوجته تطالعنا بجمالها، بثوبها الفرنسيّ، وحذائها الجميل، تمشي في نواحي بيتها على طبيعتها، إمّا حافيةَ القدمين، أو بجوربين على أحسن الأحوال، أو منتعلة ذلك القبقاب الخشبيّ ذا الكعب العالي، محدِثةً قعقعةً إن سارت في القاعة الرخامية- وهي الحجرة المركزية في المنزل- وكانت تخلع هذا الحذاء الخشبي على باب أى غرفة قبل دخولها. وهي ترتدي إزارًا خفيفًا تضعه النساءُ فترة الصباح، ولم تكترث كثيرًا بالأزرار، لا كما تفعلُ خادماتُها، وهنّ مثلُها ينتعلْنَ القبقاب الخشبيّ، ويرتدين الألبسة الخفيفة التي لا تتطلّب حرصًا كبيرًا على إحكام وضع أزرارها من الجهة الأماميّة. أمّا الزوج فقد كان حين يناديك وتسمع كلامه لا تحسبه إلّا رجلاً باريسيًّا، غير أنّه كان ملتزمًا بلباس أهل الشرق، إلّا ما كان من أمر تلك القبّعة الحمراء التي اعتاد ارتداءها. وكان يلبس ثوبًا طويلاً أبيضَ، وهو قطعة واحدة مناسبة تغطّي الرقبة وتنتهي بالعقبين، وكان نعلُه مصبوغًا باللون الأحمر. لكنّك حين تراه يتناول قهوة الصباح، ويدخّن أوّل نرجيلة في نهاره، تكاد لا تصدّق من هيئته أنّه يعرف لغةً أخرى سوى العربية، أو أنّه ارتدى ثيابًا أخرى غير التي اعتاد عليها أجداده الشرقيّون. أمّا إن كان في الديوان الموضوعةِ فرُشُه في أنحاء الغرفة فتراه جالسًا متربّعًا، وزوجه على مَقرُبَةٍ منه، وقد زجّ قدمه تحتها، يحتسي قهوته ويدخّن نرجيلته(١٤).

ومما أثار حفيظة أوليفانت أيضًا ما رآه من مظاهر التكلّف والترف في أثاث المنزل فيقول:

يشتمل أثاث البيت على طاولات ضخمة، لها سطح من الرخام، وحولها مقاعد جميلة، لها أذرع مريحة، بالإضافة إلى الكنب المغطّى بأقمشة الحرير الفاخرة. ويزيد من ألَق الجدران تلك المرايا المذهّبة والستائر الفخمة. أمّا الأرضيّة فتغطّيها البُسُط الثمينة. ويوجد في المنزل آلة بيانو يبلغ سعرها ٣٠٠ دولار، ولا تجلسُ عليه سيدة البيت أبدًا، وفيه لوحاتٌ أُطُرُها أكثرُ جمالاً ممّا رُسم عليها.

لكنّ أوليفانت حَظي بغذاء جيّد وقت إقامته في هذا المنزل، ويقول هو عن هذا: " كانت توضَع أمامنا كميّاتٌ كبيرة من الأرز، وكان الدجاج يسلق مع المرق الدهني الدسم، واللحم يُعبأ بالفستق، وكنّا نتناول اللبن وأطباقَ الحلوى التي تفوق لذّتُها الأوصاف، وطَعِمْنا الأصناف الهشّة واللزجة كافّةً مما كان منها بطعم البندق وغيرها". غيرَ أنّ الغذاء الفكريَّ الذي كان يجود به المُضيف أحيانًا كان يصدّه عن إتمام طعامه كما يشتهي. "كان الرجل لا يتميّز في منطقٍ ولا حوار، وليس هذا بغريبٍ عن مثل هذا الرجل الذي لا تجد في بيته كتابًا واحدًا. فإن نطق بين يديك تحدّثَ عن منزله الذي أنفق عليه ٩٠٠٠ دولار، وهو صادقٌ فيما يدّعيه؛ لأنّ البيت واسع، وفيه القاعات الفسَيحة والصالونات الواسعة، ويزدان بأرضيّاته وسلالمه المبلّطة بالرخام، والأقواس الضخمة في أرجائه جميعها."

حين زار الرحالة البريطاني لورنس أوليفانت حيفا وعكا التقى بأغنياء الطبقة المتوسطة من الفلسطينيين

بيد أنّ مشكلةَ أوليفانت التي تتكرّرُ مع أهل المشرق عربًا أو يهودًا هي العناية بالنظافة: "كان المطبخ والغرف إن راودتك نفسك بتفحّصها في غاية القذارة، ومن حُسْنِ طالعي أنّني لم أرَ تلك الخادمةَ على تلك الحالة الرذيلة وهي تُعِدُّ وجباتِ العشاء."

كانت مدنُ حيفا وصفد ونابلس وطبريّة وعكّا تعجّ بالحركـــة، وتتميّـــز بالنشاط، وفيها وجود سكّانيّ كبير من العـــرب الفلـــسطينيين مـــن مختلـــف الطبقات الاجتماعيّة، وحتّى في الجنوب الفلسطيني في مدن جنين، والقـــدس ورام الله ويافا وغزّة وبئر السبع، فكلّها كانت عامرةً بأهلها، عدا عن مئـــات القرى والكفور(*) المنتشرة حول التلال والوديان. وبالرغم من أنّني أعـــرف اثنين وثلاثين شخصًا بأسمائهم من بيت صبّاغ، عاشوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإن معرفتي بتاريخ عائلتي لا تزال مشطورةً مقارنةً مع ما يعرفه العديد من الفلسطينيين اليوم. فكيف بعدَ هذا كلّه يطالعُكَ أحدُهم اليوم مدّعيًا أنّ فلسطين في القرن التاسع عشر كانت خاوية غير مأهولة.

وإنّ هذا لهو الادّعاءُ الذي لا تزال الكتب والمقالات، حتّى يومنا هـــذا، تتناقله وتروّج له، لا يحمل كتّابها على ذلك إلا رغبتُهم بتـــسويغ الاســـتيلاء على فلسطين، بتصويرها بأنّها كانت فارغةً لم يسكنْها أحدٌ قبل وصول اليهود إليها. لكنّ التاريخ يثبت وجود مئات الآلاف من العرب في فلسطين في القرن السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، بل إنّ أعدادهم كانـــت تتزايـــد، والإحصاءات التي قامت بها الحكومـــة العثمانيّـــة تظهـــر ذلـــك. وســـنرى في الفصل الآتي كيف يتجاهل الكتّاب في هذا الشأن هذه الأرقـــام، وكيـــف أنّهم يستعيضون عنها بأوهى المراجع مصداقيةً ليثبتوا أنّ فلـــسطين كانـــت قفرًا من أهلها.

(*) جمع كفر وهو القرية الصغيرة (المترجم)

هوامش الفصل الرابع

(1) Stuart A. Cohen, *English Zionists and British Jews*, Princeton University Press, 1982, p. 5.

(2) W. M. Thomson D. D., *The Land and the Book*, T. Nelson and Sons, 1861, p. 273

(3) Laurence Oliphant, *Haifa or Life in Modern Palestine*, Harper and Brothers, 1886, pp. 68-71.

(4) Ibid.

(5) Quoted in 'Herzl Hinted at Napoleon's "Zionist Past", Ha'aretz magazine, 26 April 2004.

(6) Abel Manna, *The Notables of Palestine at the End of the Ottoman Period*, 1800 -1918, House of Palestine, 1986, pp. 236-7.

(7) Arabian Nights: Supplemental Nights, Vol. 3, introduction by Richard Burton, privately printed by the Burton Club, 1888, pp. xiv-xv.

(8) Robert Irwin, The Arabian Nights: A Companion, Allen Lane, The Penguin Press, 1994, pp. 57-8.

(9) Thomson, *The Land and the Book*, p. 278.

(10)Michael Asaf, 'Hayahasim Bin Arabim Veyihudim Bearetz Yisrail 1860-1948' (in Hebrew), Culture and Education, 1970, p. 160, quoted in Mustafa Abbasi, 'The Arab Community in Safad, 1840-1918',Jerusalem Quarterly File, <http.www.jqf-jerusalem.org/2003/jqf17/ safad.pdf>

(11)Thomson, *The Land and the Book*, p. 470.

(12)Beshara B. Doumani, 'Rediscovering Ottoman Palestine: Writing Palestinians into History', *Journal of Palestine Studies*, XXI/2 (Winter 1992), p. 7.

(13)Beshara Doumani, *Rediscovering Palestine*, University of California Press, 1995, pp. 26-7.

(14)Laurence Oliphant, Haifa or Life in Modern Palestine, Harper and Brothers, 1886, pp. 115-16.

الفصل الخامس

حكايات الرحالة

ساعدتِ التطوّراتُ التي طرأتْ على وسائلِ التنقّل والسفرِ في القرن التاسع عشر على تنشيط حركة السياحة القادمة من أوروبا وأمريكا إلى فلسطين، إذ كان معظم السيّاح يرغبون في زيارة الأرض التي جاء ذكرُها في الكتاب المقدّس، وتتوق أنفسُهم لمشاهدة المواقع التي تحدّث عنها العهد القديم والعهد الجديد ويقتطعوا من حجارتها نتفًا صغيرةً. وتشمل هذه المواقعُ تلكَ الأراضي التي نظرَ إليها موسى، أو رآها المسيح، كما تضمُّ مهدَ المسيح ومكان الصليب، ودربَ الآلام في القدس، والسهولَ والوديانَ التي شهدت تربتُها حروبَ العهدِ القديم، فهذه المشاهد كلّها استقطبتِ العديدَ من الزوّار الذين لم يأبهوا لوجوههم الشاحبة وأجسادهم التي يتصبّب منها العرق، فيأتون يحملون معهم دفترًا للرسم وآخرَ للمَلاحظِ التي تلفتُ انتباهَهم، وهم يمشون تحت الشمسيّات الخفيفة.

ورافق حركةَ السياحةِ النشطةِ هذه إصدارُ العديدِ من الكتب بعناوين شتّى مثل: (الأرض والكتاب المقدس) و(رحلات إلى الأرض المقدّسة) و(رسائل من فلسطين) و(أمور رأيتُها في فلسطين) و(فلسطين: الماضي والحاضر). وزادت أعدادُها بشكل لافت في تلك المرحلة. ورأى العديد من أولئك السائحين أنّ سكان فلسطين لا اعتبار لهم ولا شأنَ بهذه الأرض، ويقول دوماني في هذا الشأن: "ظهرَ الفلسطينيّون في الصور الفوتوغرافيّة

والبطاقات البريديّة في القرن التاسع عشر كعناصرَ جماليّةٍ تذكّرُ بالعصورِ القديمة، كصورة الراعي يرعى أغنامه، والمرأةِ تسحبُ الماءَ من البئر، والفلاّحِ يحرث أرضه. وهنالك صور أخرى لها دوافع متعدّدة أهمُّها: نقلُ صورة نمطيّة غريبة مستهجنة عن الشرق، تتمثّل أحيانًا في الباشا المغرور، والمرأة صاحبةِ الخدر، والتاجرِ المكّار، وقد طفحت كتبُ الرحّالة والصحفُ الشعبيّةُ بأمثال ذلك[١].

اقتصر اهتمام الزوار القادمين من الغرب إلى فلسطين في القرن التاسع عشر على زيارة المواقع التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس

هاجم الكاتب والرحّالة الأمريكيّ مارك توين كاتبًا كان هو يدعوه جرايمز، واسمه الحقيقي ويليام سي برايم، وهو صاحب كتاب (حياة الخيمة في الأرض المقدّسة). وكتبَ برايم مرة يصف عشيّةَ وصوله إلى القدس فقال: "وقفت إلى جانب الطريق أتلمّس بيدي جيدَ فرَسي، ورُحْتُ أبحثُ بعينيّ الضعيفتَين، وأتلمّس معالمَ الأماكنِ المقدّسةِ التي علَقت صورتُها في مُخيِّلتي منذ أمدٍ بعيد، لكنّ الدمعَ المنهلَ حالَ بيني وبين ذلك. كان في ركبنا خدمنا المحمّديون (أي المسلمون) وراهبٌ لاتيني، واثنان من الأرمن، ويهوديّ واحد، وجميعهم كانوا ينظرون حولهم بأعين سجام." وأتبع توين هذا الاقتباس بقوله مزدريًا: "إن كان الرهبان اللاتين والعربان قد بكوا حقًا، فلا شكّ عندي أنّ الخيول قد بكت كذلك، وهذا دأب جرايمز، كلما أبرمنا بكلامه ادعى أنه يُبكي الجميع"(٢).

وقد وُظّفت أخبار الرحلات التي كتبَها توين وغيرُه من الرحّالة لدعم آراء من يقول إنّ فلسطين خلَت من العرب طوال ثلاثمئة سنة مضت، وحيالك مثالٌ واضح على هذا: "زار فلسطينَ بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر عددٌ غفيرٌ من الرحّالة المسيحيين، من أمثال سيبالد رايتر، ويوحنّا تاكر، وأرنولد فان هارف، والأب مايكل نواد، ومارتن كابَاتنيك، وفيليكس فابري، والكونت قسطنطين فرانسوا فولني، وألفونس دي لامارتين، ومارك توين، وسير جورج گولر، وسير جورج آدم سميث، وإدوارد روبينسُن، ووجدوها خاليةً من السكّان تقريبًا، وليس فيها سوى المجتمعات اليهوديّة في القدس، وصفد، وتل بلاطة، والخليل، وغزّة، والرملة، وعكّا، وصيدا، وصور، وحيفا، وأرصَف، وقيسارية، والعريش، وفي أرجاء مدن

الجليل مثل، كفر علّما، وعين الزيتون(*) وبيريا وبيكين وكفر حنانيا، وكفر قانا، وكفر ياسيف."

وقد أوردنا هذا الاقتباس من كتاب يؤيّد إسرائيل(٢)، ويستخدم كاتبُه أسلوبًا قاطعًا ومقنعًا في السرد، تكاد لا تجد له نظيرًا، فلا يدع مجالاً للشكّ، ولا للتوقّف، بل يقدّم لائحةً جادّةً من أعلام الكتّاب، ملمّحًا إلى وجود تراكم من الأدلّةِ تشيرُ جميعُها إلى نتيجةٍ واحدة، خلاصتُها أنّ نسبةَ السكّان في فلسطين من القرنِ السابع عشر حتّى التاسع عشر كانت قليلةً، وأنّ معظمَ أهلها كانوا من اليهود.

لكنّ الفلسطينيّين يدّعون حقّهم على أرض فلسطين، منطلقين في ذلك ممّا تأكّد لديهم أنّ العرب المسلمين والمسيحيين شكّلوا أغلبية السكّان الأصليّين في المنطقة، وأنّ اليهودَ كانوا على الدوام أقلّيّة بجنبهم، بل كانوا أقلّيّةً ضئيلةً جدًا في بعض الأحيان. غير أنّ الاقتباسات التي عرضناها تُظهر أسماءَ لامعة من الشخصيّات المشهورة، فمنهم الفرسان، ومنهم ألكونت فولني، والأب نواد، والعديد من الكتّاب ممن ذاع صيتُهم في عالم الأدب، وجميعهم يشهد بخلاف ذلك.

أجرى تيودُور بارفيت، أستاذ اللغةِ العبريّة في جامعة لندن، دراسة معمّقة بعنوان (اليهود في فلسطين: ١٨٠٠-١٨٨٢) ، وأورد فيها إحصاءاتٍ تحدّدُ أعدادَ اليهودِ في ستّة من المواقع التي ذكرت آنفًا، كما كانت عليه في بعض السنوات في القرن التاسع عشر. ويعتمد بارفيت في هذه الأعداد على تحليلٍ واسعٍ ودقيقٍ للتقديرات المتوفّرة عن أعدادِ السكّان في تلك المرحلة.

(*) احتل اليهود هذه القرية وأصبحت تعرف الآن بمستوطنة عين زيتيم (المترجم)

القدس	١٨٠٠	–	٢,٠٠٠ +
صفد	١٨٣٦	–	١,٥٠٠
نابلس	١٨٢٩	–	٥٠
نابلس	١٨٦٠	–	٣٠٠
الخليل	١٨٤٧	–	٢,٥٠٠
عكّا	١٨٤٣	–	١٥٠
حيفا	١٨٢٩	–	٥٠
حيفا	١٨٧٠	–	٩٠٠

ولو أنّا اكتفينا بهذه الأرقام لمثل هذه المدن الأساسيّة، لصدقّنا ادّعاءَ من يقول إنّها دولة "خالية من السكّان تقريبًا"، إلاّ أنّ بارفيت يُوردُ إلى جانبِ هذه الإحصاءات أعدادَ مجموع السكّانِ في تلك المدن جميعِها، ويمكن أن نقولَ إنّ معظم السكّان غير اليهود- إنِ استثنينا السيّاح أو المهاجرين- كانوا عربًا مسلمين أو مسيحيين:

القدس	١٨٠٠	–	١٢,٠٠٠
صفد	١٨٣٦	–	٦,٠٠٠
نابلس	١٨٢٩	–	١٥,٠٠٠
نابلس	١٨٦٠	–	٢٤,٠٠٠
الخليل	١٨٤٧	–	٢٨,٥٠٠
عكّا	١٨٤٣	–	٨,٠٠٠
حيفا	١٨٢٩	–	٢,٥٠٠
حيفا	١٨٧٠	–	٣،١٨٠

أيُعقلُ بعد هذا أن تكونَ هذه دولةً "خالية من السكّان تقريبًا" من دون يهودها، وهم الذين بلغت نسبتُهم إلى مجموع السكّان، حتّى في أماكن تركّزهم في مدن مثل صفد وحيفا، أقلّ من خمسين بالمئة، أمّا في المدن الأخرى فكانت النسبة أدنى بكثير، حتّى وصلت في بعض الأحيان إلى ثلث الواحد بالمئة في مدينة كنابلس عام ١٨٢٩. وهذه إحصاءات موثوقة أعدّها أناس معنيّون بالوصول إلى الحقائق بشكل موضوعيّ، أمّا تلك الأسماء التي أشارت إلى أنّ فلسطين كانت "خالية من السكّان تقريبًا" فهم ليسوا سوى مجموعة من الرحّالة الهواة، جاءت بياناتهم الديمغرافيّة محصورةً بما استطاعوا (أو لم يستطيعوا) رؤيته وهم يقيمون في خيامهم الفارهة التي نصبها لهم رجال من العرب، كانوا لهم دليلاً في رحلاتهم، أو وهم ينظرون من نوافذ نزلهم الحجريّة. وعادة ما يستشهد الكتّاب بأقوال مارك توين بالتحديد للتدليل على أنّ فلسطين كانت مهجورة بالفعل:

لا يلفت ناظريك أى حركة غريبة في [مرج بني عامر](*)، فلا يوجد عبر أراضيه قرية واحدة تمرّ بها، ولو على مسافة ٣٠ ميلاً من طرفي الوادي. رأينا مَضربين صغيرين أو ثلاثة لخيم البدو، لكنّنا لم نرَ منزلاً واحدًا قطّ. كنّا نسير أحيانًا عشرة أميال، ولا نلمح عشرةَ أشخاص في طريقنا. أمّا إن أردت أن تعيش العزلة التي توحش منها النفس، فحسبك أن تأتي الجليل، لترى تلك القفار المهجورة وتلك الهضاب القاحلة، فتشهد فيها شدّةً لا تلين أبدًا، ثمّ تضمحلّ أمامك وتنزوي في الأفق البعيد. وهنالك الآثار الكئيبة في كفر ناحوم، وقرية طبريّة المزعجة الخاوية على عروش نخلات ستّة. إنّ فلسطين رابضة على جلد بعيرها ورماد حطبها، خربةً وبائسةً.

(*) بالإنجليزية Jezreel Valley، ويعرف بالعربية أيضًا باسم سهل زرعين (المترجم).

هذه القطعة من كتاب *البريئون المسافرون* (The Innocents abroad) وهو كتاب فكاهيّ في أدب الرحلات، وبالرغم من أنّ ما أورده يتهاوى أمام جميع الأدلّة التي أثبتها الباحثون بالأرقام الواضحة، فإن مثل هذه الادّعاءات لم تزل تتردّد على ألسنةِ من يدعم الصهيونيّة وأقلامِهم. ففي عام ٢٠٠٢ على سبيل المثال، تحدّث مجلس الشيوخ الأمريكي عن ترّهات توين، التي هي أقرب إلى الخيال من الحقيقة، وبعدَ المناقشة عدّها المجلس أحدَ سبعة أسباب تؤكّدُ حقّ دولةِ إسرائيلَ في أرض فلسطين. وقال أحدُ الشيوخ من الحزب الجمهوريّ من ولاية أوكلاهوما، ويدعى جيمس إم إنهوف: "لم تكن هنالك نسبة كبيرة من السكّان العرب في ذلك الحين، وذلك لأنّ الأرض كانت عاجزة عن سدّ حاجات عدد كبير من السكّان، فلم يرد أحدٌ العيشَ فيها إذ لم يرتَج منها فائدة وقتذاك. وقد ارتحل إلى فلسطين عام ١٨٦٧، صاموئيل كليمنز (المعروف بمارك توين) فألفى الأرض على هذه الحال التي وصفها. أما الآن فإننا نتحدّث عن إسرائيل. ثمّ قال: "كانت تلك الدولة مهجورة، وتربتها خصبة، لكنّها كانت منبتًا للحشائش فقط..."

وبمثل هذا الغموض، يعرض عضو مجلس الشيوخ إنهوف، سببًا آخر أو سببين لتوضيح حقّ إسرائيل فيما تدّعيه. فتحدّث مثلاً عن "الأدلّة الأثريّة" فقال: "هنالك حفريّات مستمرّة في إسرائيل، وما تكشفه أعمال التنقيب يؤكّد أنّ الإسرائيليّين قد سكنوا هذه الأرض منذ ثلاثة آلاف سنة." مع أنّ هذه الحفريّات الكثيرة، لو يسمح بها الإسرائيليون، تثبت دائمًا الوجود الذي لم ينقطع حتى وقت قريب للعرب الفلسطينيين وأجدادهم في هذه الأرض. وعند ذكر السبب السابع قال إنهوف: "إنّ الرب ذكر ذلك. ألم أدْعُكم آنفًا للنظرِ في سفر التكوين، ها هو ذا الدليل بين أيديكم على المنصّة..." (وتتجلّى لك موضوعيّة إنهوف حول قضايا الشرق الأوسط، حين تعلم أنّه هو نفسُه الذي قال في مجلس

الشيوخ بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، إنّها عقاب من الربّ لأمريكا لأنها أقنعت إسرائيل بممارسة ضبط النفس في وجه الهجمات الإرهابيّة.)

كان مارك توين كاتبًا أمريكيًّا ساخرًا، ومعاديًا للساميّة، وأعني الساميّة بمعناها الحرفيّ، أي التي تنطبق على العرب واليهود. فقد أبدى توين في كتابه: "البريئون المسافرون" عداءً سافرًا للعرب تارةً، وعداءً لليهود تارةً أخرى، غير أنّ المدافعين عن دولةِ إسرائيل يتجاهلون ما كتبهُ ضدَّ اليهودِ، ويركّزون على كتاباته المعادية للعرب.

لم ينشأ أيّ تواصل حقيقي بين مارك توين وغيره من السياح الغربيين مع فلسطين أو أهلها، لأنهم انعزلوا في رفاهية خيامهم الراقية واعتمدوا على من معهم من الخدم العرب.

وما ذكره توين في خلاصة قوله عن فلسطينَ بأنّها كانـت "مهجـورة وبائسة" يوحي بأنّها مكانٌ يحتاجُ إلى ما يبثّ فيه روحَ الحياة، وينتظرُ قـدومَ جماعةٍ من النّاس من أولي الجدّ والنشاط والعزم لتصبح هذه الصحراءُ على أيديهم حديقةً زاهرة. ويمكن أن تجد ما يذكره توين عن فلسطين في موقـع إلكترونيّ لمجموعة تدعى (حقـائق فلـسطينيّة Palestinian Facts)[4] وهـي مجموعة تزعم أنّها مختصةٌ "بتقديم خلفية تاريخيّـة وعـسكريّة وسياسـيّة للصراع الجاري بين دولةِ إسرائيلَ والعرب الفلسطينيين". وفيما يلي مزيد من الاقتباسات المنسوبة لتوين، وَجدتُها على شبكةِ الإنترنت، وتـستخدم بـشكل متزايد مَصدرًا للمعلومات ويُستَغنى بها عن الرجوع إلى الكتب المصادر:

- "... حين تجوّل الكاتب الأمريكي، مارك توين، في فلـسطين عـام ١٨٦٧، كتب بأسى: " لا يلفت ناظريك أيّ حركة غريبة في [مـرج بني عامر]، فلا يوجد في أراضيه قرية واحدة تمرّ بها، ولـو علـى مسافة ٣٠ ميلاً من طرفيّ الوادي..."[٥]

- "كان مارك توين، هو الأشهر بين الرحّالة، قـد دوّن مـا رآه فـي زيارته التي قام بها في عام ١٨٦٧، فقال: "لا يلفـت ناظريـك أيّ حركة غريبة في [مرج بني عامر]، فلا يوجد في أراضـيه قريـة واحدة تمرّ بها، ولو على مسافة ٣٠ ميلاً من طرفي الوادي"[٦].

- " ... ولكن لم يكن يسكن أرضَ إسرائيل فـي ذلـك الوقـت كثيـرٌ من الناس. وقد كتب مارك توين عن هذا في عـام ١٨٦٧، وقـال: " لا يلفت ناظريك أيّ حركة غريبة في [مرج بني عامر]، فلا يوجد في أراضيه قرية واحدة تمرّ بها، ولو على مـسافة ٣٠ مـيلاً مـن طرفي الوادي"[٧].

- "كان يتنقّل توين من مكان إلى آخر، ويسجّل باكتئاب ما وجده هناك، فقال: "لا يلفت ناظريك أيّ حركة غريبة في [مرج بني عامر]، فلا يوجد في أراضيه قرية واحدة تمرّ بها، ولو على مسافة ٣٠ ميلاً من طرفي الوادي"(٨).
- حين زار توين الأرض المقدّسة في عام ١٨٦٧، صعق لمّا رآها أرضًا قفرًا، وقال: "لا يلفت ناظريك أيّ حركة غريبة في [مرج بني عامر]، فلا يوجد في أراضيه قرية واحدة تمرّ بها، ولو على مسافة ٣٠ ميلاً من طرفي الوادي"(٩).

لكنّ للرواية طرفًا آخرَ سيقصّه علينا شاهد عيان آخر، وهو رحّالة غربيّ زار فلسطين في العقد السادس من القرن التاسع عشر، وهو يناقض في وصفه ما قاله توين عن أنّ فلسطين كانت مهجورة وخالية من السكان فيقول:

تنتشر في هذا المكان آثارٌ تدلّ على نشاط زراعيٍّ؛ فقد وجدنا مساحةَ فدّان أو فدّانين من التربة الخصبة، ولا يزال فوقها سيقان نبات الذرة من الموسم الماضي، وكانت ثخينةً كإبهام اليد، ومتشعبةً بعضها عن بعضها... لقد راقنا المنظر الخلاّبُ... وكنّا ننظر إلى رونق الأرض من أعلى القمّة، إذ يطلُّ المكانُ على سهلٍ واسع ومستوٍ يدعى [مرج بني عامر]، تختلفُ ألوانُه باختلاف حقوله، تحسبه من علٍ طاولةَ شطرنج كبيرة، وكان ممهّدًا وفيرًا، ينتشر على أطرافه قرى بيضاء صغيرة، أمّا الطرقُ والشوارع المنحنية فتبدو كأنّها رُسِمَت بقلمٍ رَصاصيٍّ فاهٍ. وحين تُربع الدنيا وتعبق الخضرةُ النضرةَ الأجواءَ، فتلك صورةٌ جميلة بهيّة في ذاتها بلا نزاع... مدينة الناصرة لها سحر مشوّق... وجدنا هنا بستانًا تنمو فيه أشجار الليمون هادئًا وارفةً ظلالُه،

تتدلّى فيه الثمار بأنواعها... تابعنا سيرنا على غير استعجال على طريق القوافل العظيم، انطلاقًا من دمشقَ إلى القدسِ ومصرَ، مرورًا بلوبيا وغيرها من القرى السوريّة الجاثمة الراسخة بثبات على قمم التلال والهضاب شديدة الانحدار. كانت جميلة حقًّا، وإنّي لا أبالغ في هذا إطلاقًا. وكيف لي أن أنسى قريةَ سولم، وهي المأوى التي وجدنا فيه الفيءَ بعد رحلتنا الطويلة تحت قيظ الشّمس. طَعِمْنا غداءَنا في تلك المنطقة وأرحنا قليلاً وتبادلنا أطرافَ الحديث، ونحن ندخّن النرجيلة ساعةً من الزمن، ثمّ امتطينا رحالنا وتابعنا المسير. ولاحظنا في الوادي الضيّق حيثُ نابلس أنّ المنطقةَ تقوم بعمل زراعي نشيط، والتربة هنالك داكنة وخصبة جدًا، كما أنّ سقايتها بالماء جيّدة. وهذه الزروعُ والثمار كلّها لا تتناسقُ معَ تلك التلالِ القاحلة التي تلتفّ حول المدينة... يقبع على تلالها السرمديّة بيوتٌ بيضاءُ مقبّبةٌ ومتينة البناء، تحسبها من قربها كأنّ بعضها يمسكُ ببعض، وكلّها مطوّقةٌ بتلك الأسوار العاليةِ الرماديّة، فترى لها بريقًا تحت وهج الشمس.. يبلغ عدد سكان القدس أربعةَ عشرَ ألفًا... كان ختام الرحلة في بيّارات البرتقال المشهورة في يافا مدينةِ الشرق. عبرنا أسوار المدينة وجبنا شوارعَها الضيّقةَ. وكنّا في بعض الأودية الصغيرة نجد بساتينَ وافرة الثّمَر، فيها من التين والمشمش والرمان وغيرها من الثمرات...

فمن كان يا تُرى هذا الرحّالة الذي يتعارض مع ما نقله توين من خلاء الأرض وإقفارها من الأهل والثمر؟ إنّه مارك توين نفسه. واخترت هذه الجمل المتناثرة من فصول أخرى من كتابه "البريئون المسافرون" ولم أتقيّد بالأصول المعروفة فيما يتعلّق بالاقتباس في الكتابة الأكاديميّة، على عكس ما يظهر في الاقتباسات التي رأيناها في كتابات المناصرين لإسرائيل، مع أنّها في الواقع هي الأخرى منتقاة من فصول متعددة في الكتاب.

فكيف يمكن فهم هذا التناقض؟ كيف يمكن لأكثر المصادر التي يُستشهد بها عن البيانات المتعلّقة بالسكّان والاقتصاد في فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر، أن يكونَ من وضع كاتب جاء وصفه للمنطقة مجانبًا للموضوعيّة يناقضُ أولُ كلامه آخرَه؟ قد يتّضح الأمر لو عرفتَ أنّ كتاب "البريئون المسافرون" قد كُتب بأسلوبٍ مُفرطٍ في المبالغة والتكلّف، يصعب معه أن نَعُدَّ ما ورد فيه من مشاهدات توين حقائقَ يمكنُ الاعتمادُ عليها. فهو يزعمُ في إحدى الصفحاتِ أنّه حملَ سيفًا قديمًا وقال: "...رُحْت أجرّب السيفَ على مسلمٍ، وقطعتُه نصفين ككعكةٍ محلاّة." ويضيف أمورًا على مثل هذه الشاكلة فيقول مثلاً: "أعيَتْنا هذه الرحلةُ واستنفذت طاقة الخيول أيضًا. كنّا مرغمين على شقّ طريقنا إلى الأعلى بين ألفٍ وثمانمئة حمار، والمحظوظ منّا هو من تعرّضَ للسقوط عن ظهر الدابّة أقلّ من ستين مرّة بسبب البعير. وصلنا بعد ذلك إلى ركام من الحجارة لا شكل لها يميّزها، وما زالت تحمل اسم بيت إيل(*). وهذا هو المكان الذي استلقى فيه يعقوب، ونظر إلى الملائكة... أخذ الحُجّاجُ ما تبقّى من هذه الحجارة المقدّسة، وحثثنا المسيرَ نحو وجهتنا إلى القدس الصليبية المبجّلة."

ينبغي أن يكون جليًا لدينا الآن أنّ مثل هذه التعليقات السمجة من كاتب أمريكي ساخر لا تصلحُ دليلاً يُقدَّمُ في قضيّة مثل قضيّة فلسطين، ويعزّزُ هذا أنّ معظمَ ما كتبَه مارك توين عن سكّان فلسطين العرب جاءَ ممزوجًا بالكراهيةِ والتعصّبِ ضدَّهم، فتراه ينعتهم بعبارات مثل: "العرب القذرين"... "رائحتهم كرائحة الجمال"... "يعيشون في جهلٍ ووحشيّة الأوباش"، ولا تعجبه "وجوههم القبيحة" و"هذرمتهم المزعجة ولغاتهم الغريبة"... وأشياء عجيبة

(*) وهي مدينة تقع على بعد ١٨ كم شمال شرق القدس وتعرف الآن باسم "بيتين" واسمها بالعبرية يعني "بيت الله" (المترجم)

أخرى من هذا الطراز متناثرة في ثنايا كتابه. أضف إلى ذلك أنّ قرّاء الصحف في سان فرانسيسكو في ذلك الحين، لم يكونوا ليلقوا بالاً لصحّة ما يدّعيه مارك توين في ما يكتبه وما يخطل به من تجاوزات وترّهات من نسج خياله.

فلماذا إذن يُتداول كلامُه ويُقدَّمُ على سواهُ من المصادرِ النزيهة والأكاديميّة التي يمكن الاعتماد على ما تقدّمه من معلومات؟ لو أخذنا تلك الجملة التي تتكرّر دومًا: "لا يلفت ناظريك أيّ حركة غريبة في [مرج بني عامر]، فلا يوجد في أراضيه قريةٌ واحدة تمرّ بها ولو على مسافة ٣٠ ميلاً من طرفي الوادي"، لوجدنا أنّه يمكن التحقّق من مصدرها، ومعرفة أنّها هراءٌ بحت، ذلك لأنّ زيارةً قصيرة إلى إسرائيل والضفّة الغربيّة وقطاع غزة، كفيلةٌ بأن تثبت وجود مئات المدن والقرى العربيّة التي يعود تاريخها الذي يدلّ على عدم خلوّها من أهلها إلى القرن الثامن عشر، على الأقل، وهنالك من المدن ما يظهر وجود السكّان منذ مئات السنوات قبل ذلك، وهذه حقائق تؤكّدها العديد من المصادر الموثوقة.

لم أستغرق وقتًا طويلاً لأكتشف سرّ انتشار هذه الفكرة، وكيف أنّها ما زالت قائمةً حتّى الآن، وإنّي أكاد أجزم أنّ معظمَ الذين يستشهدون بمارك توين لم يقرءوا قطُّ كتابه "البريئون المسافرون"، ولربّما اكتفوا بقراءة كتاب جون بيترز "منذ زمان غابر" (From Time Immemorial) الصادر عام ١٩٨٤، والذي يقدّم كاتبه تاريخاً مشوَّهًا لفلسطين، وقد تلقّى هذا الكتاب صفعاتٍ عديدةً دفنته في مقبرة الكتب غير الروائية في العصر الحديث. وبالرغمِ من الانتقادات الواسعة والمفصّلة التي طالت هذا الكتابَ الذي ينافح عن إسرائيل، فإنه لم يسحب من الأسواق، وما زال كتّاب الإنترنت يستمدّون منه عتادهم في حربهم الإعلاميّة ضدّ الفلسطينيين.

ثمّة عبارة في ذلك الاقتباس المكرور كأنّها حمض نوويّ ينتقل من جيل لآخر، وهي [مرج بني عامر] (Jezreel) وكانت توضع بين قوسين معكوفين. ولو كلّف المقتبسون أنفسَهم عناءَ قراءة الأصل لعلموا أنّ هذه الكلمة ليست من وضع توين، بل أدرجتها جون بيترز؛ حتّى توضّح أنّ مارك توين يقصد مرج بني عامر (Valley of Jezreel). ولكن لو قمنا بإلقاء نظرة على خارطة فلسطين لاكتشفنا أنّ توين لم يقصد مرجَ بني عامر، لأنه قد كتب هذه الفقرة أثناء تخييمه في عين الملاّحة، وهي قريةٌ "فيها عين ماء فوّارة هي الأقوى في فلسطين، وكانت تضخ بين ١،٨٠٠ إلى ٢،٧٠٠ متر مكعب من الماء في الساعة"، على حد قول أحد المؤرّخين المرموقين الذين يُقدّم حكمهم على حكم توين[١٠]. ولكن لا وجود لقرية عين الملاّحة الآن؛ لأنّها كانت ضمن القرى الفلسطينية التي سوّيت بالأرض وطُرِدَ منها أهلُها عام ١٩٤٨، وهي تقع قربَ بحيرة الحُولة (وهي بحيرة ميروم المذكورة في الكتاب المقدس)، والتي تبعدُ عشرةَ أميال شمال شرق صفد، وخمسةً وعشرين ميلاً عن مدينة طبريّة. وهذا بعيدٌ كلَّ البعدِ عن مرج بني عامر، ولا يتضّح السبب الذي جعل بيترز تقع في هذا الخلط.

وقد أخطأ توين قطعًا في دعوى أنّ القرية كانت معزولة لا يجاورها شيءٌ على مسافة "ثلاثين ميلاً من طرفي الوادي"، وذلك لأنّ خرائط فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر تشير إلى وجود زهاء مئة بلدة وقرية على امتداد مساحة نصف قطر يبلغ ٦٠ ميلاً حول عين الملاّحة، وهذا يضمّ مدينتي صفد وطبرية. فلمَ أسقطَ توين ذكرَها؟ والأكثر غرابةً هي تلكَ المصداقيّة التي يضفيها كثيرون على أقواله التي تتعارض مع كمٍّ هائل من الأدلّة الأكاديميّة الموثّقة حول الوضع الديمغرافيّ في فلسطين أثناء العهد العثمانيّ في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

قال إسرائيل زانجويل عام ١٩٠١: "إنَّ فلسطينَ دولةٌ بلا شعب، واليهودُ شعبٌ بلا دولة."(١١) وبالرغم من انعدام الدقّة في هذه العبارة الجذّابة، فإنهاعمّرت طويلاً، وهي أقوى دلالةٍ على رغبة الصهاينة في بداية ذلك القرن في إقامة وطنٍ قوميّ لليهود على أرض فلسطين، وقد تطرقُ هذه العبارةُ السمعَ إلى يومنا هذا، في سياق تسويغ قيام دولة إسرائيل، مع أنّها تتهاوى أمامَ الحقائق التاريخيّة الثابتة.

يقدّم الأستاذ جوستين مكارثي، في كتابه (سكّان فلسطين) إحصاءات سكانيةً للعامين ١٨٦٠ و ١٨٧٧ وهي الحقبة ذاتُها التي زار توين فلسطين في خلالها، ويضع مكارثي تقديرًا أصحَّ لأعداد النساء والأطفال (إذ كانت أعداد هاتين الفئتين منخفضة في تقديرات سابقة)، وأظهرَ أنَّ عدد النساء بلغ ٣٦٩,٠٠٠، وأعداد الأطفال ٤٤٠,٠٠٠.(١٢) ولا يعقل أن نأخذ عددًا يبلغ (٤٠٠,٠٠٠) ونعدّه ضئيلاً لا أهمية له في بلد مساحته ٢٧,٠٠٠ كلم مربع؛ لأنّ كثافة السكّان ستكون ١٤ شخصًا لكلّ كلم مربع، وهي أضعاف كثافة سكّان الولايات المتحدة الأمريكيّة في ذلك الوقت، ولم نسمع أحدًا قال إنّها "دولة بلا شعب". ويبدو أن الحقائق كلُّها لا تخدم أيًّا من المساعي الصهيونيّة.

يرجع أصلُ مسمّى الصهاينة لكلمة (صهيون) وهو اسم أحد تلال القدس، وأصبح يطلق بعد ذلك على المدينة كاملة. وقد عقد الصهاينةُ أولَ اجتماعٍ لمنظّمتهم عام ١٨٩٧ في مدينة بازل في سويسرا. وكان "هدف الصهيونية"- كما تقرّر في ذلك الاجتماع- هو "إقامة وطنٍ للشعب اليهوديّ في فلسطين يضمنه القانون العام"، فكانَ الهدفَ المعلنَ هو إنشاءُ "وطنٍ في فلسطين"، لكنَّ ثيودور هيرتزل، الرئيسَ الأولَ للمنظّمة الصهيونيّة، قد أوضحَ في مذكّراته أنَّ الهدفَ كان أكبرَ بكثيرٍ من ذلك: "لو شئتُ أن ألخّص المؤتمر

بعبارة صغيرة – وسأحرص ألاّ ينشر هذا– فسأقول: لقد أقمنا الدولةَ اليهوديّة في مؤتمر بازل. ولو إنّي أعلنت هذا اليومَ لسخرَ مني العالمُ بأسره. وقد يتمُّ هذا الأمر في غضون خمس سنوات فقط، ولكنّني متيقّنٌ أنّ العالم سيرى هذه الدولةَ بعد خمسين عامًا"(١٣).

وقد كرَّسَ الصهاينةُ جهودَهم للترويجِ لفكرةِ أنّ فلسطينَ مقفرةٌ من السكّان، مع أنّ بعضهم اُضطّر للاعتراف بعد أن رأى فلسطين بأمّ عينيه بوجود عقبة أمامَ المشروعِ الصهيوني تتمثّل في السكّان الأصليين: "هنالك زهاء خمسمئة [ألف] عربي، ولكنّهم ليسوا أقوياء، وسيكون من السهل الاستيلاء على الأرض بأحبولةٍ نخدعهم بها دون استعدائهم علينا فيثوروا قبل أن تتم لنا القوّة مع العدد"(١٤).

يعدّ أشير جينسبيرج، الذي كان يكتب باسم مستعار هو "آحادها عام" أحدَ منظّري الصهيونيّة الروحيّة، والذي أراد أن يحافظ على التقاليد الفلسفيّة والثقافيّة لليهوديّة، لكنّه انتقدَ بشدّة كلَّ صهيونيٍّ يعتقد أنّه يمكن الاستيلاء على فلسطين، فكتب عام ١٨٩١: "لقد ترسَّخ في أذهاننا، ونحن مقيمون هنا، أنّ فلسطين الآن خاليةٌ تمامًا من السكّان، وأنّها صحراء لا تُحرَث أرضُها، وأنّ الراغب في تملّك أرض هناك، فإن له من ذلك حتّى يرضى. لكنّ الواقع هناك بخلاف ما تعتقدون، فتلك دولة تكاد لا تجد فيها حقلاً إلا وقد بذرت فيه الثمار، فالأرض كلّها تحرث، إلا ما كان من كثبانٍ رمليّة، أو جبالٍ حجريّة، لا تصلح لينمو عليها أيّ محصول، إلا بعض أنواع الفاكهة"(١٥).

- أطلق جينسبيرج تحذيرًا نبّه فيه الصهاينةَ الذين يعتقدون أنّ الاستيلاء على فلسطين سيكون أمرًا هيّنًا فقال: "لقد اعتدنا أن نفكّر بالعرب على أنّهم رجال متخلّفون من البادية، وأنّهم كالحمير، لا يسمعون ولا يعون ما يجري

من حولهم، لكنّ هذا خطأ كبير. إنّ للعرب- كغيرهم من أبناء سام- عقلاً ذكيًا ودهاءً عظيمًا. فإذا ما جاء اليومُ الذي تصبح فيه حياة شعبنا تقتطع من حياة السكّان الأصليين بأيّ شكل فإنهم لن يسكتوا أبدًا"[١٦].

انقضت أربعةُ أعوامٍ على كتابة تلك العبارة: "أرضٌ بلا شعب"، ولكن حتّى من كتبها أصبح مُرغَمًا الآن ليعترفَ بأنّ "فلسطين بحد ذاتها مأهولة بالسكّان، بل إنّ كثافة السكّان في قضاء القدس ضعفُ كثافة السكّان في الولايات المتحدة، إذ تبلغ ٥٢ نسمة في الميل المربع، ولا تتجاوز نسبة اليهود بينهم ٢٥%. علينا أن نحضّر أنفسنا لإخراج القبائل العربيّة منها بالسيف، كما فعل أجدادنا من قبل، وإلا اضطررنا إلى التعايش مع مشكلة وجود نسبة كبيرة من الغرباء بيننا، أغلبهم محمّديون، وقد اعتادوا بغضنا على مرّ القرون"[١٧].

وقد أتى تلخيصُ الموقف برمّته بعبارة بليغة في برقية من وفد صهيونيّ أتى لزيارة فلسطين عام ١٨٩٨ لتقييم إمكانية إقامة الدولة اليهوديّة فيها تقول: "إنّ العروس جميلة، لكنّها زوجُ رجل آخر"[١٨].

وحين شعر ثيودور هيرتزل بقرب منيّته، كتب آخرَ رسالة لأحد أصدقائه عام ١٩٠٤، وكانت قبل شهرين من وفاته، قال له فيها: " إيّاكَ أن تُقدِمَ على أيّ حماقةٍ بعد موتي"[١٩].

ولم يكنْ إنكارُ التاريخ الفلسطيني إلاّ باكورةَ سلسلة من الحماقات التي ارتُكبَت بعد موت هيرتزل، إذ بدأت الأذيّةُ تحلُّ بالسكّان الأصليّين مع بداية القرن العشرين، ولما بدا رجالُ المنظمة الصهيونيّة مصمّمين على اختطاف العروس الجميلة من زوجها وجَدوا أنّ من دواعي سرور الحكومة البريطانيّة أن تساعدَهم.

هوامش الفصل الخامس

(1) Beshara B. Doumani, 'Rediscovering Ottoman Palestine: Writing Palestinians into History', Journal of Palestine Studies, XXI/2 (Winter 1992), p. 8.

(2) Mark Twain, *The Innocents Abroad*, Dover Publications, 2003, p. 535.

(3) Samuel Katz, *Battleground: Fact and Fantasy in Palestine*, Bantam Books, 1973, pp. 90-115.

(4) <http://www.palestinefacts.org/pf_early_palestine_zionists_ impact.php>

(5) Aaron Berkowitz, *The Four Returns*, <http://www.aarons-advocates.org/ afour- ret .html>

(6) Meir Abelson, <http://www.acpr.org.il/ENGLISH-NATIV/issue1/ Abelson-I>

(7) Rabbi Adam Stock Spilker, Cultivating Ahavat Tziyon / Love of Zion, Mount Zion Temple, Kol Nidre 5764/5 October 2003.

(8) Joseph Katz, 'Origins of the Arab-Jewish Conflict', http://www.eretzyisroel.org/~peters/depopulated.html

(9) *Jewish World Review*, <http://www.jewishworldreview.com/ cols/charen041202.asp>

(10) Walid Khalidi, *All that Remains*, Institute for Palestine Studies, 1992, p. 472.

(11) Israel Zangwill, 'The Return to Palestine', *New Liberal Review*, 2 (Dec. 1901) p. 627.

(12) Justin McCarthy, *The Population of Palestine*, Columbia University Press, 1990, p. 10.

(13) Theodor Herzl, Excerpts from His Diaries, Scopus Publishing Company, Inc., 1941, entry for 3 September 1897.

(14) Eliezer ben-Yehuda and Yehiel Michal Pines. quoted in Benny Morris. Righteous Victims. Vintage Books. 2001. p. 49.

(15) <http://www.capmag.com/article.asp?ID=2136> Footnote says: 'The essay has apparently not been translated into English. but besides the Hebrew (in Kol Kitve Ahad Ha'am) there is a German translation. on which the translation above was based.' Ahad Ha'arn. Am Scheidewege: Gesammelte Aufsätze. Vol. I. Judischer Verlag, 1923. pp. 86-8.

(16) 'Letters from Palestine' (1891), from The Complete Works of Ahad Ha'am (in Hebrew). Dvir, 1949, p. 24.

(17) Israel Zangwill in speech to Zionist group in Manchester. quoted in Nur Masalha. Expulsion of the Palestinians. Institute for Palestine Studies, 1992. pp. 7-10

(18) Avi Shlaim. *The Iron Wall*, W. W. Norton, 2000. p. 3.

(19) A facsimile of this letter. written to David Wolffsohn on 6 May 1904. is available on the internet at http://www.jafi.org.il/ education/herzl/timeline 7 .html.

الفصل السادس

قصص الكتاب المقدّس

لم يتوانَ الشعب اليهوديُّ يومًا عن سعيه إلى توثيق ما يربط بينه وبين "الأرض الموعودة"، التي عَهِدَ بها الربّ كما يعتقدُ بعضُهم إلى إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب.

وقد تمكّنت ثلّةٌ من الصهاينةِ الذين نذَروا أنفسَهم لخدمةِ مبادئِهم، من عام ١٨٩٧ حتّى عام ١٩١٧، أي في غضون عشرين عامًا فقط، من إقناع عدد من أكثر الشخصياتِ السياسية ورجالاتِ الدولة نفوذًا في أوروبا بحتميّة أنْ تصبحَ فلسطينُ وطنًا لليهود، وإن لم يقبل السكّان الأصليّون بذلك. ولكن أنّى لهم ذلك؟ وما الذي فعلوه لتحقيق هذه الغاية التي تضربُ صفحًا عن قواعدِ الديمقراطيّة وحقّ تقريرِ المصير التي تُعدُّ من صميمِ مبادئِ الدولةِ الحديثةِ في القرن العشرين؟ سنرى الآن كيف كانَ الدين عنصرًا أساسيًّا في كلِّ ما حدث.

تقوم الثقافة الغربيّة على الكتاب المقدّس، ويتّضح هذا جليًّا في الرسومات والأعمال النحتيّة والكتابات الأدبيّة، حتى إنّ كثيرًا من العباراتِ والاستعاراتِ المستخدمة في الإنجليزية مثلاً مُشتقّةٌ من العهد القديم والعهد الجديد. كان أتباعُ الديانةِ اليهوديّةِ أقليّةً في الدول الغربيّة جميعها، لكنّ الأفكارَ والأماكنَ والأشخاصَ كانت مألوفة لكثيرٍ من الناس هناك، وازداد

إيمانُ النّاسِ بها لمّا شاعَ في ذلك الوقت أنّ ما جاء في الكتاب المقدّس لا يأتيه الباطل أبدًا، فصارَ دليلَهم الإرشاديَّ لكلّ صغيرةٍ وكبيرة في فلسطين. ودفعَ هذا الرحّالة الأوروبيّين للسفر هناك لرؤيةِ أسوار أريحا وهيكلِ سليمان ومغارةِ الساحرة. أمّا في بريطانيا، الدولة التي صاغت بقراراتِها الخطيرةِ تاريخَ فلسطينَ الحديث، فقد كان التعاطف فيها مع مبدأ الحقّ اليهوديّ في فلسطينَ يجعلُ معظمَ المسيحيّين في عَمايةٍ عن الظّلم المترتّبِ على ذلك. وتحدّث أحد الكتّابِ الصّهاينة عن ذلك فقال: "كان عامّة الناس في بريطانيا عند ذكر شعب العهد القديم وأرضه العتيقة التي انتشر بفضلِهم اسمُها يطوفون على أطلالٍ تنبعث صورتُها في نفوسهم، بل تمسّ شغاف قلوبهم."(١)

وقامت دعوى الصهاينة في فلسطين على افتراضين، أولهما: أنّ الربَّ قد منحَ الأرضَ لليهودِ قبلَ ثلاثة آلاف سنة، ويتجلّى هذا في عبارةٍ لرئيس الوزراء الإسرائيلي أرئيل شارون يقول فيها مخاطبًا مجموعة من أتباع المسيحيّة: "هذه الأرضُ لنا والربُّ أعطانا صكوكَ المُلكيّة."(٢) وقصدَ ذلكَ على الحقيقةِ لا على المجاز، مثلُه مثلُ كثيرٍ من اليهود الذين يؤمنون بصدقِ هذا الوعد الإلهيّ. أمّا الثاني فيتّكئ على ما جاءَ في ثنايا الكتابِ المقدّسِ عن علاقةِ اليهودِ الطويلةِ بفلسطين، والتي لم تنقطع أواصرُها إلا بعدَ أن طردَهم الرومانُ منها عام ٧٠ بعد الميلاد.

ويلخّص الأستاذ فيليب ديفيز قصّةَ اليهودِ في الكتاب المقدّس فيقول:

"تبدأ قصةُ اليهودِ معَ يعقوب- جدّهم الأول ولقبُه "إسرائيل"- الذي أنجب اثني عشرَ ولدًا تناسل منهم اثنا عشر سبطًا. وقد استقرّت هذه القبائل بادئ الأمر في فلسطين، التي عُرِفت باسم أرض كنعان في ذلك الزمن، ثمّ انتقلوا إلى مصرَ حيثُ صاروا عبيدًا، ثمّ هربوا منها، ودخلوا في التيه بين مصر

ووجهتهم المقصودة مدّة أربعين سنةً، تمكّنوا بعدها من فتح جزء كبيرٍ من أرض كنعان. وتوالى على حُكمهم من بعدِ ذلك حكّامٌ يحكمون إسرائيل كلّها، ثمّ اتخذوا ملِكًا اختاروه من بينهم اسمه شاعول (طالوت)، فقُتِلَ وآلَ الملكُ إلى داودَ الذي كانَ في الأصلِ ملكًا على يهودا، ولكنّه أصبح ملكًا على مملكةِ الأسباط الاثني عشر، التي أصبحت تعرف باسم "إسرائيل"، بالرغم من وجود فرق بين "بيت إسرائيل" و "بيت يهودا" داخلَ المملكة. وقد امتدّ حكم داود من أطراف مصرَ إلى الفرات، وكانت هذه حدود مملكة سليمان من بعده إلى أن انقسمت من جديد إلى مملكة يهودا ومملكة إسرائيل، وهذه الأخيرة لم تكن ذات شرعيةٍ دينية. وانتهى المطاف بإسرائيل (المملكة الشمالية) إلى سيطرة الآشوريين، وانتهى المطاف بيهودا إلى سيطرة البابليين، ونُفي قادتُها ولم يُسمَح لهم بالعودةِ إلاّ بعد خمسين سنةً، فرجع البعض وأعادوا بناء القدس والهيكل، وطبّقوا شريعةَ موسى، وحفظوا نقاء العرق اليهودي. بيد أنّ إسرائيل لا تزال تعُدّ أحفاد شعوب الممالك السابقة الذين يعيشون في أماكن أخرى جزءًا منها ولا يزال الأمل معلّقًا على عودتهم"[٣].

هذا عرض تاريخي مليء بالتفاصيل والشخصيات التاريخية المهمّة والأحداث العظيمة، وهي لا تنفصل بحال عمّا يدين بهِ اليهودُ وعن اعتقادهم بحتميّة "العودة" إلى فلسطين.

أُعلن في الرابع عشر من أيّار ١٩٤٨ من تل أبيب عن قيام دولة إسرائيل، وهذا ما جاء في خطاب الإعلان:

"إنّ أرضَ إسرائيل هي مهدُ ميلاد الشعب اليهودي. ولقد نمت على هذه الأرضِ هُويّتُنا الروحيّةُ والدينيّةُ والوطنيّةُ، وفي هذا المكانِ حقّقَ آباؤُنا الاستقلال، وصنعوا ثقافةً عظيمةَ القدْرِ في أعين الوطن والعالم. وهنا خطّوا

الكتاب المقدّس ونشروه للأمم. ولمْ يَخْبُ وفاء الشعبُ اليهودي لأرضه بعد طرده منها قيد أنملة، واستمروا على عهدهم وهم في الشتات في أصقاع الأرض جميعها، ولم تنقطع صلواتهم وآمالهم بالعودة إليها واسترجاع حريّتهم الوطنيّة"(٤).

ويرى الصهاينة أنّ هذه المعتقدات الدينية القديمة دعائمُ راسخةٌ تكفي للاستيلاء على فلسطين، ولكن هل في وسع هؤلاء أن يسوّغوا تشريد مئات الآلاف من سكّان الأرض الأصليين من العرب الذين تعود أصولهم إلى مئات السنوات في المنطقة، والذين لا يَبعُد أن يكون أجدادهم الأوائل قد عاشوا مع اليهود في تلك الأزمان؟

ثمّة اعتراض على إعلان دولة إسرائيل هو أقوى حجّةً من الاكتفاء بالقول إنّ الإعلانَ جاءَ على فترةٍ من اليهود في فلسطين، ألا وهو إثبات أنّ معظمَ ما وردَ في العهدِ القديم محضُ خيال. وقد يستبعد القارئُ لأول وهلة صحّةَ ما أقول، لعلْمه ربّما أنّه قد ثبتَ لدينا ممّا رأيناه في أدلّةٍ أخرى حقيقةَ بعضِ الشخصيات والأحداث التي وردت في الكتاب المقدّس، مثل آهاب وجيهو، وحصار سنحاريب على القدس، وغزو البابليين ليهودا، وتلك أمورٌ وردَ ذكرُها في الكتابات الأشوريّة والبابليّة. وقد يُضافُ إلى ذلك أنّ أسلوبَ الكتاب المقدّس ووصفَه بإسهابٍ للأعمال البطولية، معَ عدم إغفال الضّعف الذي يعتري البشر، يلفّها برداء الواقعيّة. لكنْ أوليسَ الأمر سيّان في رواية الحرب والسلم لتولستوي؟ لقد ثبت أنّ نابليون جاب مع جيشه شوارع موسكو، لكنّ "نتاشا روستوف"(*) لم تؤدِّ رقصة الفلاّحين في كوخ عمّها، ولم يقحم بيري بيزوخوف نفسه في ميدان معركة بورودينو.

(*) وهي إحدى الشخصيات الأساسية في رواية الحرب والسلم (المترجم)

فلا فرقَ إذن بين روايةِ الحرب والسلم وروايات العهد القديم في توظيفِ الأحداث التاريخية، ويبقى الأمرُ عملاً أدبيًا ودينيًا، لا وصفًا دقيقًا لأحداث تاريخية. أضف إلى ذلك أنّ إصحاحاتِ العهدِ القديم قد كُتِبت بعد مُضيٍّ فترةٍ نافت عن ألف سنة بعدَ الأحداثِ التي ذكرَتها، ولا يقوم على ذلك أيُّ أثرٍ تاريخيٍّ يمكن أن يُعدَّ دليلاً على صحّة هذه القصص القديمة، أو إثبات وجود شخصيّاتها أو الأحداثِ التي أوردتها، بالرغم من الجهود المضنية التي بذلت في هذا الصعيد.

وقد نفى نايلز بيتر ليمخ، وهو من العلماء المختصّين بالكتاب المقدّس، صحّةَ بعضِ رواياتِه، فقال: "إنّ مملكةَ داودَ وسليمان التي قيل إنّها قامت في القرن العاشر قبل الميلاد تنطلقُ من تصورٍ خياليٍّ للماضي... ويدعّمُ هذا الحكمَ أدلّةٌ متعددة، نذكرُ منها طبيعةَ القدس في القرن العاشر قبل الميلاد، إذ لم تكن سوى قرية أو مدينة صغيرة على أحسن الأحوال."[٥]

ويقول المؤرّخ الأستاذ فيليب ديفيز[٦]: "خلتِ الأدلّةُ الأثريّة من أدنى إشارةٍ إلى وجود مملكة داود وسليمان التي تحدّث عنها الكتاب المقدّس". ويضيف الأستاذ كيث وايتلام: "لا توجد أدلّةٌ أثريّةٌ على رمز العظمة هذا [الإشارة إلى هيكل سليمان]... وقد جاءت روايات الكتاب المقدّس لتخبرنا أنّ مُلكَ داودَ قد دام أربعين سنةً، لكنّ ما يثيرُ العجبَ هو ندرةُ البقايا الأثريةِ من هذه الحقبة الداودية، بل تكاد لا توجد أي معالم يصحُّ نسبتُها إلى هذه الحقبة."[٧] ويقول أيضًا: "إنّ سلسلةَ الأحداثِ التاريخية في سفرَيِ القضاة وصموئيل ما هي إلا نسجٌ خياليٌّ بحت، يقصد منه خلق إطار زمني لمدّة تبلغ مئةَ سنة تغطّي وجود إسرائيل في مملكة كنعان، ويستحيل لذلك أنْ تُعدَّ مصدرًا يمكن الاعتماد عليه للتوثّق من تاريخ إسرائيل في ذلك الزمن... بل إنّ صورة إسرائيل في الماضي، كما يُظهرها العهدُ القديم، مُختَلَقةٌ ولا أصلَ لها، كمعظم الصور القديمة (والحديثة أيضًا) التي تحاول تمثيل الزمن

الغابر."(٨) فلا وجودَ لما يُدعى "إسرائيل" إلا في ما بقي من آثار على ثـرى فلسطين تعود إلى القرن التاسع وأواخر القرن الثـامن قبـل المـيلاد، أمّـا "إسرائيل" التي تصفها لنا المصادر التوراتية فتندرج تحت بـاب "التركيـب الأدبي"، الذي يصوّر لنا مجتمعًا عاشَ في فلسطين منـذ عـام ١٢٥٠ قبـل الميلاد على الأقلّ حتى القرن الخامس قبـل المـيلاد. ولا وجـودَ لـبعض الشخصيات مثل داود و يوشع وإبراهيم إلا في *"إسرائيل الأدبية"* التي تقـرأ قصّتها في الكتاب المقدّس.

شكَّلَ الزوارُ الغربيّون صورةً حولَ العربِ الفلسطينيين تُظهرهم مجرد فلاحين في أراضيهم، كما كانوا يتحينون الفرصةَ لجعل تلك الصور تَبعثُ مشاهد من الكتاب المقدس.

ولا ريب أنّ عددًا من علماء التوراة يعارضون هذه الدراسات المبتدعة، غير أنّهم ينطلقون في هذا من التسليم جزافًا بكلّ ما جاء في الكتاب المقدّس، وهم في ذلك يختلفون مع مؤرّخي الكتاب المقدّس المعاصرين الذين ينظرون بعين الباحث الموضوعيّ إلى أيّ نصّ، ويحلّلونه كأيّ نصّ آخر سواه، دون التأثّر بأحكام مسبقةٍ عن محتوى النصّ أو أصله، لا يمكن لها أن تصمدَ أمامَ الأدلّةِ القائمةِ بذاتها. وتشيرُ هذه الزمرة من الباحثين إلى ضعف الأدلةّ الأثرية التي يُثار الحديثُ عنها بين الفينة والأخرى، كذلك الشاهد البازلتي الذي يختلف في شأنه الأثريّون- والذي لم يثبُتْ قطعًا حتى الآن إن كتب عليه نقشُ "بيتِ داود" (أو لم يكتب)- وكتلك الحفريّات التي تحظى بدعم الجماعات التي تبحث عن أدلة تثبت وجودَ الملك داود، ويزعمون أنّها تكشف عن قصره.

درس عالم الآثار إدموند ليتش جانبًا أساسيًا من التاريخ المزعوم لما يُدعى "إسرائيل القديمة"، خاصّةً ما قيل إنّه يُنسب إلى حقبة الملكين داود وسليمان، وكانت خلاصة قوله: "إنّ عقلي لا يصدّق شيئًا من هذا... فلا توجد بين أيدينا أى أدلّة أثرية تشير إلى وجود تلك الشخصيتين العظيمتين، أو أيٍّ من الأحداث التي ترتبط بذكرهما. ولولا مَحلُّ القدسيّة في هذه القَصَص لكان لزامًا علينا رفضُها من وجهةِ نظرٍ تاريخية."(٩)

وهنالك روايةٌ أخرى من رواياتِ الكتاب المقدّس ذاتُ أهميّةٍ خاصّة للصهاينة، وهي قصّةُ سبي اليهود من مملكة يهودا إلى بابل، تاركين الأرض وراءهم خرابًا لا يسكنها أحد. ويتشبّث الصهاينة بهذه القصّة ليؤكّدوا أنّ الشعبَ الذي يحاول العودةَ إلى هذه الأرض في القرن العشرين هو الشعبُ ذاتُه الذي طُردَ منها في الماضي. ولكنْ لا دليلَ على صحّة هذه القصّة أيضًا، وبعض الباحثين يستبعدون حصولَ أمرٍ من هذا القبيل. وينبّهُنا فيليب ديفيز

إلى أنّ التهجير الذي سادَ في منطقةِ الشّرق الأدنى في ذلك الزمن كان سياسةً يلجأُ إليها الحكّامُ لتقسيم الجماعات السكّانية، وذلك للحيلولة بينهم وبين تكوين هُويّةٍ دينيةٍ أو وطنيّةٍ خاصّةٍ بهم.

"إنّ الفكرةَ التي تقول إنّ الذي حافظ على بقاء "إسرائيل" الأولى هو عودة أبناء المهجّرين في السبي وأحفادهم إلى فلسطين بعد عقودٍ طويلة، هي عقيدة تحوم حولها الشُّبُهاتُ عند الباحثين في الكتاب المقدّس... فحتى القصّةُ التي وردت في التوراة تشير إلى أنّه لم يعد إلى فلسطين من اليهود إلاّ عددٌ قليلٌ منهم، وأنهم لم يعودوا إلا بعد إقناعهم وحثّهم على العودة إليها، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ صورة المجتمع الواحد الذي يعيش على ذكرى الوطن ليست واردةً حتى في المصدر الأساسي في هذا المضمار... وقد انقدَحَ في ذهني سؤالٌ عمّا إذا كان أولئك المهاجرون ينحدرون من نسل الشعب الذي طرد من مملكة يهودا؟ فربما كان الفرس هم من زرعوا هذه الفكرة في أذهانهم ثمّ صدّقوها، وقد يكون هذا هو الحقّ، ولكن سواءٌ ثبتَ ذلك أم لم يثبتْ، فإنّ اليهودَ سيدَّعونه في كلتا الحالتين، والادّعاء دونَ بيّنةٍ لا يقوم دليلاً على شيء."(١٠)

بُذلت جهودٌ عظيمة في التنقيب عن المواقع الأثرية في فلسطين قبل إنشاء إسرائيل حتى يومنا هذا، سعيًا منهم لإيجاد ما يَصلحُ سندًا للقصص الواردة في الكتاب المقدّس. وقد رأى علماء الآثار في القرن التاسع عشر بصيصَ أملٍ في الكشف عن أدلّة تشير إلى وجود مملكة إسرائيلية حكَمَها داود، دون إغفال الحقبة الزمنية لهذه المملكة ولا لمقدار عظمتها حسبما قرّرَ الكتاب المقدّس. ويورد الأستاذ جون برايت في كتابه الكلاسيكي "تاريخ إسرائيل" (A History of Israel) تصوّرًا لإسرائيل في القرن العاشر قبل الميلاد بأنّها "أحد أعظم الممالك في ذاك الزمان."(١١) وهو إنّما ينطلقُ في

حكمه هذا بشكل خالصٍ ممّا قرأهُ في الكتاب المقدّس، وهو يرى أنّ القارئَ يستشعرُ "صبغةَ شاهد العيان" في أسفارِ العهد القديم، ويستدلّ من هذا على أنّها كُتِبت مُعاصرةً للأحداثِ التي تصفها. بيدَ أنّ الباحثين اليومَ يؤكّدون أنّها كُتِبَت بعد خمسةِ قرونٍ أو ستّة.

ويَظهَرُ لنا بناءً على الحقائقِ التّاريخية المتوفّرة لدينا عن الأمم المتعددة الأخرى في المنطقة في ذلك الوقت، أنّه لا يمكن أن تكون فلسطين بسكّانها الذين لا يتجاوزون ٢٥٠,٠٠٠ والذين يتوزّعون على القرى الريفية الصغيرة، بمنزلة تقارب منزلة مصر أو دولة الآشوريين التي يبلغ عدد سكّان كلّ منهما مليونين أو أكثر، ولهما أنظمة اقتصادية راسخةٌ تتخلّفُ فلسطين عنها بأشواط كثيرة.[١٢] ويقول ديفيز "إنّ الأدلّة على الاستيطان على مرتفعات مملكة يهودا تجعل المرءَ يستبعد احتمال إقامةِ دولة قبل عام ٩٠٠ إلى ٨٠٠ قبل الميلاد، أمّا إقامة مملكة فأمرٌ غير معقول أصلاً"[١٣].

ويقول كيث وايتلام: "إنّ أيَّ تصورٍ يقبله العقلُ لمملكة داود و"إسرائيل الكبرى" يستلزم وجودَ أدلّة تتمثّل في المخرجات الإداريّة في الثقافات المجاورة، أو أثرٍ واضحٍ في البقايا الماديّة في المنطقة. فدولةٌ بهذا الحجمِ المُفتَرَض- إن لم نقل إنّها مملكة- سيكونُ لها بالتأكيدِ انعكاسٌ واضحٌ يتجلّى بوجود تحوّلات على الحياة الاجتماعيّة والسياسية، ولا سبيلَ للتأكد من ذلك أيضًا إلاّ من الأدلّة الأثريّة"[١٤].

أمّا إيجيل يادين، عالمُ الآثار الإسرائيلي الرائد في العقود الأولى من قيام دولة إسرائيل الحديثة، فيجلّي لنا الخيطَ الذي يربط بين الاهتمام بالاكتشافات الأثرية والحاجة إلى الحصول على نتائج تُثبتُ حقيقةَ قصّة "إسرائيل القديمة" في الكتاب المقدّس، ويقول: "كلٌّ منا يشعرُ ويعلمُ أنّه يكتشف

ويستخرج آثارًا وموادَّ من أيّام أجداده. وكلّ اكتشاف يعزّز الارتباط والعقدَ بين الشعبِ والأرض... فإنْ تناولنا إسرائيل في هذا السياق، فإنّه يظهر لي أنّ ذاك العاملَ الذي ذكرت- أي البحث عن الرابط بين الشعب والأرض وإقامته- ذو أهميّة خاصّة لا يمكن تجاوزها. [فعلم الآثار] كما أراه، يمكّن من بعث الوعي العبري، وتعزيز الارتباط والانتماء بين اليهودية القديمة والوجدان اليهودي"(١٥).

وفي ظلّ هذا السعي الحثيث لإثبات وجهة نظرٍ معينة، ترى عددًا من علماء الآثار يشطحون عن الموضوعية في مكتشفاتهم، وهذا ما توضّحهُ لنا ناديا أبو الحاج، المتخصّصةُ في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، إذ درست أعمالَ علماء الآثار في فلسطين، ووجدت أنّ المعتقدات التي يحملها الباحث تزلّ به إلى نتائجَ غيرِ علميّةٍ يَصعُب الوثوقُ بها. وتركّز ناديا أبو الحاج في أحد أمثلتها على نوعٍ من الفخّار، يرجع الفضل في اكتشافه وتسميته إلى عالم الآثار الأمريكي المعروف دبليو. إف ألبرايت، والذي عمل سنوات عديدة في المواقع الأثرية في فلسطين. وقد اكتشف ألبرايت هذا الفخّارَ أثناء عملِه في أحد المواقع في تلّ الفول، ورأى فيه تصميمًا متميّزًا، يعرفه المختصّون باسم الفخّار ذي "الحواف المقلوبة"، وهو ضربٌ من الفخّار يرتبط بحضارةٍ معينة، وقد تبيّن له من خلال طرق التأريخ المتّبعة، أنّها حضارةٌ حديثة في هذا الموقع من هذه المنطقة. وكان ألبرايت يعتقدُ بما يقرأ في التوراة، خاصّة سفر يشوع الذي ورد فيه أنّ شعبًا يُعرف بالإسرائيليين قد دخل المنطقة في حقبة تعرف بين علماء الآثار بالعصر الحديدي الأول؛ ولذلك أطلق على هذا الفخّار اسمَ "الفخّار الإسرائيلي". واستمرت الحفريات سنوات بعد ذلك، واكتشف غيرُه من علماء الآثار أنواعًا مماثلة من ذاك الفخّار، فلم يكن منهم إلا أن شايعوا الاسم الذي استحدثه ألبرايت، فصارت كلُّ المواقع الجديدة التي

يكتشف فيها هذا الفخّار تعدّ دليلاً على موقع "إسرائيلي" جديد، وعلى الوجود الممتدّ لإسرائيل في فلسطين. وقد جرى ذلك وشاع بالرغم من أنّ استخدام كلمة "إسرائيل" كان افتراضًا لا دليلَ عليه لنوعٍ معيّن من التصاميم الفخاريّة.

وقد خرجت أبو الحاج من هذه الدراسات بخلاصة مفادها: "لم يعتمد ألبرايت على أي مكتشفات ماديّة (مثل النقوش الكتابية) عندما حدّد سماتِ تلك الأشكال الفخاريّة وادّعى إسرائيليّتها، وما كان في جعبته سوى افتراضه الخاصّ بشأنِ هُويّة هذه الحضارةِ التي نشأت في فلسطين أثناء العصر الحديديّ الأوّل. ولمّا صار هنالك انفصالٌ عن منهجيّة التحليل التي تعتمدُ على النصّ المكتوب، والتي حددت هُويّة الأشكال الفخارية بادئ، أصبح وجود الفخّار الإسرائيلي أو عدمُه دليلاً يساعد الأثريّين على تأكيد وجود المواقع والآثار التي تعود إلى الحقبة الإسرائيلية، ولكن بالاعتماد على الأدلّة التطبيقيّة أو الحقائق الأثرية"(٦٦).

سادتْ طرقٌ بدائية للبحث والتنقيب في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان الاعتقادُ بصدقِ الكتابِ المقدّس أوسعَ انتشارًا. ولكن ديفيز وَايتلام ونادِيا أبو الحاج وغيرُهم يؤكّدون أنَّ استغلالَ هذا الجانبِ لا يزالُ مستمرًا حتى هذه الأيّام. وقد تركت نتائج الاكتشافات التي خرج بها الأثريّ الإسرائيلي زائيف هيرزوج، ونشرها في صحيفة إسرائيلية عام ١٩٩٩ استنكارًا واسعًا لمّا قال:

" سأنقل إليكم ما اكتشَفَهُ علماءُ الآثارِ من الحفريّات التي قاموا بها على أرض إسرائيل. لم يكن للإسرائيليين وجودٌ في مصرَ أبدًا، ولم يتيهوا في الصحراء، ولم يدخلوا الأرض فاتحين بحملة عسكرية، ولم تصبح حقًّا للأسباط الاثني عشر. وقد يشقّ عليكم أيضًا أنْ تصدّقوا أنّ المملكة الكبرى

لداود وسليمان- التي جاء وصفها في التوراة بالقوّة الإقليمية- لم تكن أكثر من مملكة صغيرة من القبائل. أمّا الضربةُ القاسيةُ للعديدين فتتمثّل في معرفة أنّ ربّ إسرائيل- يهوا- كانت له قرينة، وأنّ الديانة اليهودية الأولى قد تبنّت التوحيد أثناء مراحل ضعف المملكة، وليس في طور سيناء. ويتّفق معظم المشتغلين في الأبحاث العلميّة المعنيّة بكشف المسائل المتداخلة بين الكتاب المقدّس والمكتشفات الأثرية وتاريخ الشعب اليهوديّ- والذين ذهبوا إلى المواقع الأثريّة بحثًا عن أدلّة للقصّة التوراتيّة- على أنّ الأحداثَ التاريخيّة التي ترتبط بظهور الشعب اليهودي تختلفُ اختلافًا كبيرًا عمّا تخبره القصّة التوراتيّة"(١٧).

وقد يتساءل القارئ عن السبب الذي يدفعني إلى الحديث بتفصيلٍ عن هذه القضايا؟ وهل يساعد فهم هذا الجانب على إدراك حقيقة الوضع القائم في الشرق الأوسط؟

إنّي لأرى أنّ لهذا الموضوع أهميّةً خاصّةً لسببين وجيهين: أولهما ذلك التأكيدُ المستمرُّ الذي يلهجُ به الصهاينةُ في إسرائيلَ في العصرِ الحديث، وقد أفرطوا في لوكه حتّى صار يبعث على الاشمئزاز، بأنهم أصحاب حقّ في الحصول على فلسطين لأنّهم "هم" من كانوا أسياد المنطقة العظماء لمدّةٍ طويلة، ولم يكن معهم على ما يبدو من يُنازعهم على ذلك. وهذه رسالة تعضدها تلك الاكتشافات في المواقع الأثريّة المختلفة في إسرائيل، التي تزيد النصوص التوراتيّة قوّة وصدقًا- أو التي من شأنها أن تؤكّد النصوص التوراتية لو قام على ذلك دليل مستقلّ- ويصل صدى هذه الرسالة إلى الإسرائيليين ويهود الشتات ليقنعهم أنّهم ليسوا غزاةً غرباءَ عن الأرض، مع أنّ معظمهم في حقيقة الأمر لا يمتّ لها بصلة من قريبٍ أو بعيد، إذ لا قرينة تربطهم باليهودية لا بالعرق ولا بالنسب.

أصبحت دراسة الآثار علمًا في القرن العشرين، وتركَزتْ جهود الباحثين فيه على "إثبات" الدقة التاريخية لقصص الكتاب المقدس عن إسرائيل.

والمؤسف أنّ هذا التاريخ الزائفَ للشعبِ اليهوديّ قد أدّى إلى طمس التاريخ الشرعيّ للفلسطينيّين وصلتهم بأرضهم، وهذا تجاهل تاريخي مقصود له جذوره؛ فقد انصب اهتمام علماء الآثار بشكل كبير قبل قيام دولة إسرائيل بأعوام طويلةٍ على الكشف عن تاريخ "الإسرائيليين" وإهمال تاريخ أيٍّ شعب أو جنسٍ آخرَ قطنَ فلسطينَ بين عام ١٥٠٠ قبل الميلاد حتى الحقبة المسيحية. ويعتقد بعض الباحثين ممّن درسوا نصوص الكتاب المقدّس بنظرة الباحث المتجرّد أنّ "إسرائيل" هذه ليست سوى إفكٍ أسطوري. فيقول فيليب ديفيز في هذا: "لقد نجحت خطّة تصدير الموضوع الأدبيّ وزرعه في فلسطين أثناء العصر الحديدي في خلق "تاريخ إسرائيل القديمة". لكنّ الأمر لم

يقف عند هذا الحدّ، بل جاوزه إلى التأثير في التاريخ الحقيقيّ لفلسطين، الذي حلّ عليه الآن تاريخ دخيل من غير جنسه. وقد *كان* هنالك بالتأكيد سكّان في فلسطين في العصر الحديدي، وقامت فيها مملكةٌ تدعى إسرائيل، عاش فيها الناس وحكمها الملوك، واندلعت على أرضها الحروب، ولم تتوقّف التنقّلات دخولاً إليها وخروجًا منها من الجيوش الفاتحة والملوك العديدين. هؤلاء هم الشعب والمجتمعات التي يكشف علماء الآثار ما خلّفوه وراءهم كلّما بحثوا عن "إسرائيل القديمة"(١٨).

ويبدو أنّ الأدواتِ القديمةَ التي خلّفتها الشعوب الأخرى لا تحظى بالأهميّة ذاتها، وهذا ما يؤكّده خبيرُ الآثار المتعلّقة بالكتاب المقدّس هيرشل شانكس، إذ يقول: "إنّ اهتمامَنا بهذه الآثار يقاربُ في ضآلته اهتمامَنا بشعوب أوائل العصر البرونزي الرابع. ولا يعني هذا أنّنا لا نكترث بها مطلقًا، غير أنّ اهتمامنا بها لا يعْدِلُ اهتمامَنا بالآثارِ الإسرائيليّة. فنحن بإيجاز شديد، نودّ الكشف عن الأدلّة كلّها – وأكثرُ بها- التي يمكن أن ترشدَنا إلى تاريخ إسرائيل القديم."(١٩) وقد توقّف بعض علماء الآثار مليًّا عند ذكر سكّان فلسطين الأوائل، لكنّهم أحجموا عن تسميتهم بالفلسطينيين، واكتفوا بالإشارة إليهم بأنّهم "سكّان فلسطين القديمة"، بالرغم من عدم تحفّظهم مثلاً على إطلاق بعض التسميات من مثل "الساحل الفلسطيني" أو "الزراعة الفلسطينية" أو "الاقتصاد الفلسطيني". ولكنّ الأدلّة الموثوقة تشير إلى أنّ حضارة الكنعانيين، وهم الأجداد الأوائل لسكّان فلسطين العرب- قد كانت ظاهرة في مختلف مراحل مملكة إسرائيل. وكانت هذه الحضارة غنيّة ومتنوّعة وذات نظام اجتماعي معقّد، وإن رأى بعض علماء الآثار والمؤرّخين القدماء أنّه نظام قائم على التمييز بين الأعراق إلى حدّ كبير. وقد عبّر أسقف إنجليزيّ عن

هذا في عام ١٩٠٣ فقال: "لا أعتقد أنّ شيئًا ممّا اكتشفناه يبعث فينا شعورًا بالأسف على طمس الحضارة الكنعانيّة وقيام الحضارة الإسرائيلية مكانها... [وتُظهرُ الاكتشافات الأثرية] كيف أنّ الكتاب المقدّس لم يحرّف شيئًا ممّا ورد فيه عن قبح حضارة الكنعانيين التي خلفتها الحضارة الإسرائيلية."[٢٠]

ولكنْ ما الذي يجعلُ الحضارةَ الكنعانية دونَ الحضارة الإسرائيلية؟ فإنّا لو اطّلعْنا على الاكتشافات الأثرية لوجدنا أنّ الكنعانيين قد برعوا في أعمال السيراميك والخزف والزجاج والجواهر، وتُظهر التماثيل الصغيرة التي استُخرِجَت مهارةً عالية في رسم الصورة البشريّة، مع أنها تماثيل لأجساد نساء عاريات، تستخدم في طقوس جلب الخصب التي سادت في ذلك الزمان، وربما كان هذا وجهَ الاعتراض عليها.

كان عالم الآثار دبليو إف ألبرايت مُبْغِضًا لحضارة الكنعانيين مُعجَبًا بالحضارة الإسرائيلية (أو التي يظنُّ أنّها إسرائيلية)، وهو الذي أبدى استعداده عام ١٩٥٧ لتبرير ما أقدمت عليه "إسرائيل القديمة" حين تخلّصت من جميع المنافسين على الساحة السياسية، إذ عدَّ هذا ضروريًّا لضمانِ تميّز الثقافة التي تقومُ عليها الحضارةُ الغربية.

"إنّ ذلك التقليد الساميّ [أي طرد سكّان فلسطين الأصليين] في حقيقة أمره، ليس أسوأ من الناحية الإنسانية من المذابح التي قامت بين البروتستانت والكاثوليك في القرن السابع عشر، أو إبادة الأرمن على يد الأتراك، أو شعب قرغيزستان على يد الروس في الحرب العالمية الأولى، أو مقتل المدنيين في إسبانيا حديثًا من كلا الطرفين...

أمّا نحن الأمريكيين، فلا يحق لنا من بين الأمم جميعِها- بالرغم من تأصّل العاطفة الإنسانيّة فينا- أن نُطلقَ الأحكامَ على الإسرائيليّين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لأنّنا نحن الذين قمنا عن قصد أو غير قصد، بإبادةِ عشرات الآلاف من الهنود الحمر في كلٍّ بقعة من بلادنا العظيمة، وقمنا بحشر من تبقّى منهم في معسكرات الاعتقال...

ويبدو لي، من وجهة نظر موضوعيّة لمختصّ في فلسفة التاريخ، أنّ الضرورةَ تدعو أحيانًا أن يزول شعب أدنى في طبيعته، قبلَ أن يحلَّ مكانَه شعبٌ آخر أعلى وأرفعُ شأنًا، لأنّ هنالك حدًّا لا يمكن أن يمرّ عليه اختلاط الأعراق دون كارثة... ولذلك جاءت إسرائيل لتحلَّ مكان الكنعانيين، ولتقضيَ على تلك الشعائر التعبديّة، وطقوسِ آلهة الخصب، وما يصنعونه من رموز الأفاعي وكشف العورات وأساطيرهم الفظيعة، وقد قام مكان هذا كلّه بساطةُ الحياة الريفية في إسرائيلَ وطهارةُ المعيشة وسموّ التوحيد، ويكلّل ذلك كلّه نظامٌ أخلاقي صارم"[٢١].

وخلافًا لتلك الآراء التائهة في أحلامها أظهرت البحوثُ الأثريّةُ الحديثة أنّ التفريق الوارد في الكتاب المقدّس بين حضارة إسرائيل وحضارة الكنعانيين ضربٌ من خيال، لم يكن الهدف منه إلا تشويهَ صورةِ سكّان فلسطين الأصليين، وما زال هذا هو دأب علم الآثار الصهيوني حتّى اليوم.

ويصعبُ على المرءِ أن يتخيّلَ الحدَّ الذي يمكنُ أن يصل إليه هذا التعصّب الأعمى لماضي إسرائيل أو حاضرها، ومما يزيد الطين بلّةً أنّ الناسَ أصحاب المعتقدات الدينيةِ، يهودًا كانوا أو مسيحيين، لا يستسيغون تجاهلَ معتقداتهم الشخصية والنظرَ إلى الأمور بموضوعيّة وتجرّد، وبوجود أمثال هؤلاء الناس الذين كانوا همُ القادةَ السياسيين في أوائل القرن العشرين، تكون الساحةُ مهيّأةً للصهاينة ليحققوا نصرهم العظيم.

هوامش الفصل السادس

(1) Paul Goodman (ed.), The Jewish National Home, J. M. Dent and Sons Ltd, 1943, p. 12.

(2) Ze'ev Herzog, *Ha'aretz* magazine, 29 October 1999.

(3) Philip Davies, *In Search of 'Ancient Israel'*, Sheffield Academic Press. 1992, pp. 51-2.

(4) Keith W. Whitelam, *The Invention of Ancient Israel*, Routledge, 1996. pp.122-4.

(5) Niels Peter Lemche, On the Problems of Reconstructing Pre¬Hellenistic Israelite (Palestinian) History, Department of Biblical Studies. The University of Copenhagen. Journal of Hebrew Scriptures, Vol. 3, 200J.

(6) Davies, *In Search of 'Ancient Israel'*, p. 64.

(7) Whitelam, *The Invention of Ancient Israel*, pp. 147, 164.

(8) Ibid., pp. 23, 29.

(9) Edmund Leach, 'Anthropological approaches to the study of the Bible during the twentieth century', in E. Leach and D.A. Aycock (eds), Structuralist Interpretations of Biblical Myth, Cambridge University Press, 1983, quoted in Whitelam, The Invention of Ancient Israel, p. 16z.

(10) Davies, *In Search of 'Ancient Israel'*, pp. 41

(11) John Bright, *A History of Israel*, SCM Press, 1979, p. 179.

(12) Whitelam, *The Invention of Ancient Israel*, p. 173.

(13) Davies, *In Search of 'Ancient Israel'*, p. 64.

(14) Whitelam, *The Invention of Ancient Israel*, p. 163.

(15) Bamachane magazine, 18 March 1969, quoted in <http:// artscapeweb. com/masada.html>

(16) See Nadia Abu El-Haj, *Facts on the Ground*, University of Chicago Press, 2001, p. 116.

(17) Ze'ev Herzog, *Ha'aretz* magazine, 29 October 1999.

(18) Davies, In Search of 'Ancient Israel', p. 30.

(19) H. Shanks, Biblical Archaeology Review, 17 (1991), pp. 62-8.

(20) Quoted in Edward W. Said, The Question of Palestine, Vintage, 1992, p. 79.

(21) W. F. Albright, *From the Stone Age to Christianity*, Doubleday, 1957, pp. 280-1.

الفصل السابع

بلفور والأصدقاء

كان يمكنُ للعربِ الفلسطينيّين أن يحكموا دولتَهم، لو لــم يُفلِــحْ رجــلٌ يهوديٌ روسيٌ يعيش في مدينة مانشستر فــي اكتــشافِ عمليّــةٍ كيميائيّــة لاستخراج مزيل طلاءِ الأظافر من ثمار كستناء الحصان.

رغبت شركةٌ بريطانيّة عام ١٩١٠ في إنتــاج عنــصرين كيميــائيين يُستخدمان في العمليّات الصناعيّة، وهما: البيوتانول والأسيتون (وهو مزيــل طلاء الأظافر)، فاستعانت برجلٍ يُدعى حاييم وايزمان، وهو كيميــائيٌّ مــن جامعةِ مانشستر، كان قد بدأ تنفيذَ عمليّة كيميائية جديدةٍ اخترعَها. فلما اندلعتِ الحربُ العالمية الأولــى عــام ١٩١٤، ازدادت الحاجــةُ لمــادة الأســيتون المستخدمة في إنتاج مادة الكورودايت المتفجّرة الضروريّة لصنع القنابل. وقام وايزمان باختراع سلسلة من الميكروبات، التي يمكنها إنتاج الأســيتون مــن النشا الموجود في البطاطس والذرة، وحتّى ثمار الكــستناء التــي أوعــزت الحكومة لطلاب المدارس بتجميعها لاستخدامها في التصنيع الحربي.

لكنّ وزيرَ الحربيّة لويد جورج قد واجه أزمةً في الموارد، وقال في هــذا: "كنت أنتقل من سلاح إلى سلاح، ومن قنبلة إلى قنبلة، ثمّ ألفيتُ أنّنا نفتقرُ إلى أهمّ عنصرٍ لصنع الكوردايت." وقد حالفهُ الحظ إذ عثرَ على وايزمان، الذي عمد إلى "تدريب بعض الحيوانات" (على حد تعبير ليــود جــورج) لإنتــاج الكميّة الضروريّة من الأسيتون.

قال لويد جورج مخاطبًا وايزمان: "لقد قدّمتَ خدمةً عظيمـــةً للدولـــة، ويسعدني أن أطلبَ إلـــى رئـــيس الـــوزراء أن يقـــدِّمَ توصـــيةً لتكريمـــك من صاحب الجلالة."

فأجاب وايزمان: "كلّ ما أطمـــح إليـــه هـــو أنْ أجـــدَ فرصـــة لأقـــدّم خدمةً لشعبي"(١).

وكانتِ النتيجة لاحقًا أنْ وقفَ لويد جورج أمام حـــشدٍ فـــي الجمعيّـــة التاريخية اليهوديّة ليقول لهم: "تحوّلت إلى الصهيونيّة بفضل الأسيتون".

ثمّ أصبح جورج لويد رئيسًا للوزراء أيامَ الحرب، وأدّى دورًا مفـــصليًا في الدعم الذي قدَّمه للصهاينة.

كانت الحرب العالمية الأولى هي بداية طمس تاريخ فلسطين، فسلـــسلة القرارات التّي اتُخِذَت في أروقة السياسة المملوءة بدُخان الحرب في مانشتسر وكينسنِجتون ووايتهول، ووأدتْ مصيرَ ٧٠٠,٠٠٠ عربيّ فلسطينيّ، مـــنهم أفراد عائلتي في صفد، ودير حنّا، وحيفا، وطولكرم.

لا تزل فلسطين حتى ذلك الوقت تحتَ سيطرة الدولة العثمانية، وتديرها من القسطنيطينيّة تلك اليدُ اللّيّنةُ التي استخدمَها الأتراكُ في حكـــم فلـــسطين طوال ثلاثمئة سنة. واكتسبت فلسطين أهميّة إستراتيجية عند أطراف الصراع في الحرب العالمية الأولى. فعندما انحازت تركيا إلى جانب ألمانيا، أصبحت فلسطينُ هدفًا للحلفاء، إذ لاحت لهم فرصةٌ لفرض السيطرة عليها (بالإضافة إلى سوريا ومصر والجزيرة العربية) وإنهاء الوجود العثمانيّ فيها، وذلك كي يتسنّى لهمُ السيطرة على الطرقِ الأساسية المؤديّة إلى الشرق، ولاسيّما قنـــاةُ السويس. فإذا ما تكلّل ذلك بخسارةِ تركيا الحربَ، وتـــشرذمِ إمبراطوريّتهـــا

لتصبحَ لقمةً سائغة للدول الأخرى، جاءَ الحلفاء ليقتسموا هذه الغنائم. ثمّ رأى الحلفاء أنّ الاستيلاءَ على المنطقةِ سيكون سهلاً، لو استمالوا العربَ إلى صفِّهم، فاستغلّوا كراهيةَ العربِ للأتراك لتحقيق هذا المبتغى. وتم للحلفاء ذلك عندما انطلقتِ الثورة العربيّةُ الكبرى وهاجمتْ بعضُ القبائل في الجزيرة العربية- مقابل وعود تلقّتها- عددًا من مواقع الجيش التركي لتمهّدَ الطريقَ أمامَ اجتياحِ القوّاتِ البريطانيّة.

أُثيرَ جدلٌ طويل بين المؤرّخين على ماهيّة الالتزامات التي قدّمها الحلفاء للعرب في حال انتصارهم في الحرب، لكنّ الأوراق الرسمية الموجودة في مكتب السجّلات العامّة في لندن أظهرتْ أنّ عددًا من المسئولين البريطانيين، وهم اثنا عشر أو أكثر، من مختلف المناصب والمراتب، ابتداءً من الوزراء وانتهاءً بملازمي الجيش (من أمثال لورنس العرب) كانوا حريصين أشدَّ الحرص على إقناع العرب بأنَّ مصلحتَهم تكمنُ في دعم القوّات البريطانيّة في الشرق الأوسط والثورة ضد الأتراك. وكان الشريف حسينُ بنُ عليّ، شريفُ مكّةَ المكرمة، هو العربيُّ الذي أعطتْه بريطانيا وعودَها، وهو من عائلة ثريّةٍ ذاتِ نفوذٍ في منطقة الحجازِ وأكنافِ ميناء جدّة، وتحكمُ كلاً من مكّةَ المكرّمةَ والمدينة المنوّرة. بيدَ أنّ الشريفَ كان يطمحُ أن يكون ملكًا على منطقة تمتدّ من البحر الأبيض المتوسّط إلى فارس، ومن تركيا إلى عدَن، وكانَ على بريطانيا إن أرادت أن تحصل على مساعدته أن تدعم مشروع مملكته التي يرنو إليها.

لكنَّ الغموض اكتنفَ الوعودَ التي قدّمتها بريطانيا للشريف حسين، فالوثائق التي اطّلعنا عليها من رسائلَ ومذكّراتٍ وترجماتٍ وبرقيّات، يعارض آخرُها أولّها، وتثير الحيرةَ في ذهن من يقرؤها، وقد يعزى هذا

أحيانًا إلى بعض الهَنات، كضعف الترجمة مثلاً. فهنالك شخصيّةٌ أساسيّةٌ في هذا السياق، وهو رونالد ستورز، الذي يقول إنّ أداءَه في العربيّة كان جيّدًا إلى حدّ ما، ولكنّ الواقعَ يكذّب ذلك؛ إذ يَظْهرُ في مذكّراته مثلاً أنّه يستبدلُ الحرفَ الصامتَ بالحرف المجهور، فيضعُ بدلَ الحاء هاءً في كلمة مثل: (حكومة)[٢]. ولم يثبتْ من هذه الوعود إلاّ ما وردَ في قصّةِ السير هارُولد مكماهون وهو المندوبُ البريطانيُّ السامي إلى مصر، والذي يصفُه أحدُ أصدقائه بأنّه "بطيء الفهم بشكل مريب" و يصفه آخر بقوله: "لم أر له مثيلاً في الخمول". إذ قام هذا الرجل بكتابة رسالة إلى الشريف حسين بأمرٍ من الحكومة البريطانية، يَعِدُه فيها بأنّ بريطانيا ستعترف باستقلال العرب، وستقدّم الدعم لحكمهم على نطاقٍ واسع من الأراضي، منها فلسطين، وهذا ما ذكرهُ الشريف حسين. إلا أنّ السير هارولد من جانبه قد استثنى بعض المناطق من تلك الرسالة، وهي الأطراف الممتدّة إلى الغرب من سوريا، وبهذا فتحَ باب الجدال حول ما إذا كان هذا الاستثناء يمتدّ غربًا حتّى يضمّ فلسطين. لكنّ أحد الكتّاب المتأخّرين، وهو او أس إدواردز يقول: "لو قلنا إنّ فلسطين تقع إلى الغرب من هذه المناطق، لكان ذلك كمن يقول إنّ ويلز هي جزء من بريطانيا العظمى وتقعُ إلى الغرب من مانشستر، وسكيبتون، وأبليبي، وكارليسل، أو كمَن يقولُ إنّ كارولينا وجورجيا تقعان إلى الشرق من ريتشموند (فرجينيا) وواشنطن وبيتسبيرغ"[٣].

بيد أنّ بريطانيا تحرّتْ أن تكونَ وعودُها للعرب غامضةً، دون تحديد قاطع للمناطق التي ستكون ضمن "مملكة" الشريفِ حُسين، ويزداد الغموض إنْ تعلّقَ الأمرُ بفلسطين؛ لأنّ البريطانيّينَ لم يكونوا على استعداد للتنازل عن فلسطين لتصبح تحت نفوذ حاكم عربيّ، بل إنهم اتفقوا سرًّا مع فرنسا على

تقاسم سوريا وفلسطين بعد انتهاء الحرب. فيظهر إذن أنّ بريطانيا قد قـدّمت وعودًا للشريف حسين لحثّه على مساعدة بريطانيا في حربها مع الأتـراك، لكنّها وعودٌ يشوبها الغموضُ بشكل كبير، وهذا ما سمحَ لبريطانيا أن تعلـن بعد انتهاء الحرب أنّ فلسطين استثناءٌ من تلك الصفقة.

أضف إلى ذلك أنّ بريطانيا كانت تتفاوض مع شخصيةٍ عربيةٍ كانـتْ بعيدةً عن فلسطين، ثم إنّها بالغت في تقدير نفوذه؛ فقد كان الشريف حـسين أحدَ رؤساء القبائل في الجزيرة العربيّة، وقد اكتسب مكانة خاصـةً بوصـفه سادنَ مكّة المكرّمةَ والمدينةِ المنوّرة. وقد تمكّنَ بالفعل مـن بـدء الثـورة، وساعده في ذلك كميّات الذهب الكبيرة التي قدّمها البريطانيّون عـن طريـق لورنس. أمّا الاستيلاء على ميناء العقبة من ناحية البرّ فكان مباغتًا للأتـراك لأنّ سلاحَهم كانَ موجّهًا ناحيةَ البحر، فساعد ذلك في دخولَ الحلفـاء إلـى فلسطين. وقد وقعت هذه الأحداث كلُّها على هامشِ الحرب العظمى، وأشرفَ على المفاوضات بين البريطانيين والشريف حسين بعضُ المسئولين المحلّيين، ولم تكن الحكومـة فـي وايتهـول تتـدخّل فـي أمـر هـذه المراسـلات إلاّ لتطّلع بين الفينة والأخرى على سير العمليّة بشكل إجمالي.

وحين حازَبَتْ تركيّا ألمانيا في الحرب، أتى هيربرت صامويل (وهـو اليهوديّ الصهيونيّ الوحيد في مجلس الوزراء البريطاني آنذاك، وكان وزيرًا للحكومة المحلّية)، وأفضى إلى وايزمان بأنّه كان يدرسُ فرصة إقامة مجتمع يهودي على أرض فلسطين. فابتهجَ وايزمان لسماع ذلك؛ وكيـف لا وهـو يعمل مع الصهاينة سرًّا على تحقيق ذلـك؟ وكتـب وايزمـان: "أخبرنـي [صامويل] بكلماته التي أذكرها، أنّه عندما تضعُ الحربُ أوزارَها، وتتكـشّفُ عن نصرٍ يراه هو محققًا لا محالة، فإنه سيسعى لتحقيق مراده، وأنه ينتظـر

من اليهود جميعهم في بقاع الدنيا بأسرها أن ينطلقوا في سعيهم نحو ذلك... وذكر لي في نهاية اللقاء أنّ هذه الأفكارَ تدورُ في خلد عدد من الوزراء... ونصحني أن أعملَ برويّةٍ وهدوء، وأن أُتمّ بحثي خطوةً خطوة، وأن أكون على أهبة الاستعداد منتظرًا اللحظة المناسبة"(٤).

نجحَ وايزمان بفضلِ "دأبه الهادئ" في زجِّ الحكومة البريطانيّة بمباحثاتٍ لا نهايةَ لها، مع ثلّة من اليهودِ في بريطانيا وأوروبا، ممّن يرون ضرورة أن يكون لهم دورٌ في حكم فلسطين بعد الحرب، ولنطلِقْ على هذه الجماعةِ اسمَ "الصهاينة السياسيون"؛ وذلك لنفرّق بينهم وبين اليهود الذي كانوا مع فتح أبواب فلسطين لليهود الذين كانوا يودّون العيش هناك، ولكنّهم لم يكونوا يتطلّعون إلى الاستيلاء على الدولة وسلبها من سكّانها الأصليين.

أنشأ الصهاينة السياسيّون جمعيةً تُدعَى المنظّمة الصهيونيّة (The Zionist Organization) يتزعّمها الدكتور حاييم وايزمان، كيميائيُّ مانشستر، وكان هدفهم هو السيطرة على فلسطين، وجعلها دولة يهوديّة خالصة، إلا أنّهم فضّلوا السيرَ نحو ذلك بحذر شديد، وأسدلوا السترَ على أهدافهم الحقيقيّة. لذلك صرح وايزمان في رسالة لصحيفة التايمز البريطانيّة في أيّار ١٩١٦: " لن تتراجع الصهيونيّة يومًا عن أهمّ مبدأ تقوم عليه كحركة ديمقراطيّة، والذي يضمن لجميع الأعراق والطوائف في فلسطين تمام العدل، وكامل الحريّة"(٥). لكنّ المراسلات السريّة بين المنظّمة الصهيونيّة والحكومة البريطانيّة في تشرين الأوّل من العام الذي سبق هذا التصريح كانت أكثر توضيحًا لمآربهم، كما كانت بعيدة كلّ البعد عن الديمقراطيّة: "يكون للشركة القانونيّة اليهوديّة [ولم تكن هنالك شركة بهذا الاسم حينها] سلطةٌ تمنحها الحق في الحصول على أراضي التاج البريطاني، وغيرها من الأراضي [لم يكن

في فلسطين بطبيعة الحال أراض للتاج البريطاني حينها، ولم يكن لبريطانيا وقتها أيّ حق في الأرض سوى ما استولت عليه بالاحتلال العسكري]، ويكون لها الحقّ كذلك في الحصول لصالحها الخاص على أيّ تنازل تقوم به الحكومة أو الحكومات صاحبة السلطة في أيّ وقت. أما السكّان الحاليّون، فأعدادهم قليلة جدّ قليلة، وهم مُعدَمون يفتقرونَ إلى المالِ والخبرة، وإنّ تحقيقَ التقدّم مشروطٌ باستقدام عنصرِ سكّانيٍّ جديدٍ قادرٍ على تحقيق التنمية"[٦].

بدأت مذ ذلك الحين حملةُ تضليل لم تكلّ ولم تخبو على مدى ثلاثين عامًا، وتلك سنوات عجافٌ في تاريخ فلسطين. ولو تعجّل الصهاينة بالكشف عن أهدافهم الحقيقيّة منذ البداية لتنبّه أعضاءُ الحكومة البريطانية من غفلتهم ورأوا أنّه ما من شيءٍ يُسوّغ وأدَ مستقبل تسعين بالمئة من سكّان فلسطين لإقامة الدولة اليهودية، و لكان بالإمكان أن يقفوا معارضين لذلك المشروع المشئوم ويقوّضوا مساعيَ أصحابه.

غير أنّ الساحة لم تخلُ من يهود مناهضين للصهيونيّة السياسية، وكانت كلّ مجموعة تنضوي تحت منظّمة يهوديّة، واحتدمت المواجهات بينهم في الاجتماعات العامّة، وفي الكتب والنشرات والمقالات الصحفيّة والمراسلات. ويصف لنا المؤرّخ ستيوارت كوهين ما جري حينها ويقول: "نظرَ الصهاينةُ إلى أندادهم من مناهضي الصهيونيّة على أنّهم منافقون رسميّون، أمّا مناهضو الصهيونيّة "فكانوا يردّون على ذلك بأنّ الصهاينة أجلافٌ من غير ذوق، وأنّ سوءَ أخلاقهم راجع ربّما إلى أنّهم "دخلاءُ على اليهوديّة، ولا حقّ لهم في تمثيل اليهود الأصليين في المملكة المتحدة"[٧].

انظر مثلاً إلى ما كتبه هاري ساشر، أحدُ الصهاينة السياسيين المفوّهين، في رسالة تحمل صبغةَ التهديد إلى أحد الشخصيّات المناهضة للصهيونيّة، جاء فيها: "نحن عازمون على المضيّ قُدُمًا، حتى لو لم ينضموا إلينا

[أيّ اليهود المناهضين للصهيونيّة] أو حتّى لو اضطررنا لمجـابهتهم. فـإن تنحّوا جانبًا، تركنا أمرَ الحكمِ عليهم لمن سيكتبُ تاريخَ الشّعبِ اليهوديّ فـي المستقبل. أمّا إن وقفوا عقبةً في طريقنا، فإننا سنعمد مضطّرين إلـى بـذل وسعنا لتدمير أيّ سلطة يدّعونها، سواءً أكانت يهوديّة في زعمهم، أم غيـر يهوديّة، للحديثِ باسم الشعب اليهودي. ولا شكّ يراودنا في قدرتنا على تنفيذ ذلك"(٨).

كان العداء بين الجماعات اليهوديّة البريطانيّة قريبًا في صـورته مـن معاداة السامية. فترى وايزمان نفسه مثلاً، وهو يهوديّ روسيّ الأصل يتّخـذ من بريطانيا العظمى وطنًا له، يطلق أحكامًا مستهجنة عـن يهـودِ ألمانيـا في بعض حواراته مع آرثر بلفور. والغريب أن هناك من يـرى أنّ بلفـورَ نفسَه معادٍ للسامية إلى حدّ ما، وأصلُ هذه القصّة أنّـه حـين كـان رئيـسًا للوزراء عام ١٩٠٥، قامت حكومته بتشريع "قانون الغربـاء" (Aliens Bill)، الذي يقضي بالحدّ من الهجرة إلى المملكة المتحدة، وكان بلفور يتحدّث فـي مجلس العموم حول "الشرور الجليّة التي حلّت بالبلاد، بسبب حركة الهجرة، والتي معظمها من اليهود"(٩).

ويصف لنا وايزمان حوارًا جرى بينه وبين بلفور، فقال: "وضّـح لـي [بلفور] رأيه حول القضيّة اليهوديّة، وأخبرني أنّه يرى أنّ المسألة لن تنفرج إلاّ إذا اندمج اليهود هنا [في بريطانيا] مع المجتمع بشكل كامل، أو قام كيان طبيعي لليهود في فلسطين- وكان يقصد يهود الغرب لا يهودَ الشرق طبعًـا. وأخبرني أنّه تحدّث بإسهاب مع كوزيما واجنر [زوجة الموسيقار الألمـاني ريتشارد واجنر الذي كان يعتقد بأفضليّة الشعب الألماني ودناءة اليهود] أثناء زيارته لها في بايرويت، وأنّه كان يوافقها في العديد من أفكارهـا المعاديـة

للسامية. فأخبرتُه أنّنا كذلك نتّفق مع العداء الثقافي للسامية بالطريقة نفسها التي نؤمن بها أنّ الألمان أتباعَ ديانة موسى، هم ظاهرة مرفوضة تبعثُ على الإحباط والشؤم"[١٠].

تبنّى بلفور الآراء الصهيونيّة التي حملها وايزمان بعد تلك النقاشات الطويلة التي جرت بينهما بشأنِ فلسطين، والتي أثارت العاطفة في نفسه، لكنّ صدره لم يخلُ من الريبة في اليهود بشكل عام. وبعدما حدثت الثورة الروسيّة عام ١٩١٧، أخبر بلفورُ العقيدَ هاوس (مساعدَ الرئيس الأمريكي وودرو ويلسُن) أنّ "اليهود يقفون وراء هذه الثورة البلشفية، وهم وراء كلّ اضطراب من هذا القبيل." وكتب إليه هاوس: "اقترحت وضعهم جميعًا، أو وضعَ أفضلِهم، في فلسطين، على أن نوكل إليهم مسئولية متابعة تصرّفات اليهود وضبطها حول العالم، فاقتنع بلفور بإمكانية إنجاز ذلك."[١١] وفي هذا إشارة إلى أنّ العديد من الإنجليز الذين دافعوا عن الدولة اليهوديّة كانوا يفعلون ذلك من منطلق بغضهم لليهود؛ لأنّهم رأوا أنّ استقرار اليهود في دولة لهم سيوقف تدفّق الهجرة اليهوديّة إلى بريطانيا أو أمريكا.

أرادتِ المنظّمةُ الصهيونيّةُ أن تُظهرَ أنّها تتحدثُ نيابةً عن يهود بريطانيا أجمعين، وهذا وهمٌ منهم؛ لأنّ المنظّمةَ الصهيونية حين بدأت الترويج لفكرة جعلِ فلسطين دولةً لليهود، وجدت معارضةً من مجموعة من زعماء اليهود في بريطانيا، وفي مقدّمَتِهم رؤساءُ أكبرِ منظّمتين يهوديّتين فيها، وهما مجلس نواب يهود بريطانيا، والمؤسسة اليهوديّة الإنجليزية. ويتلخص وجهُ اعتراضهم في أنّ "إقامة هُويّة يهوديّة في فلسطين، بدعوى أنّ اليهود مشرّدون لا وطن لهم، سيجعلُ الجميع ينظر إليهم كأنّهم أجانبُ في البلاد التي يقيمون فيها، وفي ذلك تهديدٌ لحقّ المواطنة، الذي بذلوا الغالي

والنفيس للحصول عليه في تلك الدول"[١٢]. إضافة إلى أنّهم كانوا ينظـــرون إلى العواقب المترتّبة على تحقيق هذه الخطة وقالوا: "لا يمكن قبول هذا الطـــرح أبدًا؛ لأنّ اليهود لن يكونوا سوى أقلّية ضمن سكّان فلسطين، وسيظلّون أقلّية إلى أمد غير معلوم، وهذا يجعلهم عرضةً لأشدّ أشكال العدوان ممّن يجاورهم مـــن الأجناس والأديان المختلفة، وسيقف هذا حتمًا في طريق تطـــورهم، وســـيكون للحدث تبعات لا تنقضي شرورُها في كلّ نواحي المشرق"[١٣]. ولاقى هذا الرأي فعلاً تأييدَ كثير من وجهاء اليهود في بريطانيا.

ثارت حفيظةُ الصهاينةِ السياسيين على هذه المحاولات التـــي تهـــدفُ لإخمادِ جهودِهم وقطع الطريق على مخطّطهم، بعدما قطعوا شـــوطًا جيّـــدًا بفضل مساعدة أصدقائهم في المناصب العليا في بريطانيا والولايات المتّحدة. ويقول صامويل لاندمان، أمينُ سرّ المنظّمة الصهيونيّة العالميّة: "ما كنّا لنتقدّم في ما نسعى إليه لو لم نفلحْ في إقناع مجلس الوزراء أنّ اليهـــودَ الإنجليـــز متعاطفون مع الصهيونيّة قلبًا وقالبًا، وذلك للتعتيم على ما كان يتبـــادر إلـــى أسماعهم من إنكار شخصيات قياديّة يهوديّة لهذا الأمر".

وانتفض وايزمان على هذه الجماعات التي تنتقد المساعي الـــصهيونيّة، وشنّ عليهم حملة في صحيفة التايمز، وقال: "يحزنني حقًّـــا أن أرى بعـــض اليهود، وحتّى وإن كانوا اثنين فقط، يرون أن من واجبهم بذل ما وفي وسعهم للوقوف عقبة في طريق تحقيق الأمل الذي عاش اليهود من أجله طوال ألفي عام من النفي والاضطهاد والأذى"[١٤].

ويذكر صامويل لاندمان تلكَ الحملة العنيفة ضدّ رئيس مجلس النـــواب اليهودي في بريطانيا ومعاونيه، والتي تمخضت في النهاية عـــن استـــصدار قرار رسمي ضدّه من مناصري الـــصهيونيّة، وقـــال لانـــدمان: "الـــرئيسُ استقال... وخلّى الساحة للصهاينة".

واستمرّت مساعي الصهيونيّة السياسيّة للحصول على الدعم الرسميّ من أعلى المستويات الحكومية، وحشدت دعم المتعاطفين معها في محافل الخدمة المدنيّة وفي الاجتماعات الشخصيّة مع كلّ وزير على حدة، ومن خلال ما كان يصل بين الفينة والأخرى إلى الحكومة البريطانيّة من مذكّرات ورسائلَ ومقترحاتٍ رسميّة. وقد جرى هذا كلّه في أوجِ احتدام الحرب العالمية الأولى، عندما كان لمجلس الوزراء ما يشغله عن التفكيرِ بهذه القضيّة. لكنّ الصهاينةَ السياسيّين رأوا أنّ فلسطين اليهوديّة قد تساعدُ بريطانيا في جهودها في الحرب؛ فحشدُ ملايين اليهود في روسيا لدعم الحلفاء أمرٌ في غايةِ الأهميّة لهم، وسيسعى اليهود في أمريكا أيضًا إلى إقناع الولايات المتّحدة بالانضمام إلى الحرب إلى جانب بريطانيا.

يقول الكاتب نيفل باربر: "يصعب تحديد السبب الذي جعل التعاطف مع اليهود يبدو أمرًا أساسيًّا لتحقيق مصالح بريطانيا في ذلك الحين... فالولايات المتّحدة الأمريكيّة كانت قد دخلت الحرب قبل ذلك بشهور عدّة، وكانت الثورةُ الروسيّة قد أزالتْ كلَّ ما من شأنه أن يمنع يهودَ روسيا من القتال إلى جانب الحلفاء. حتّى إنّ الدكتور وايزمان قد صرّح أمام الهيئة الملكيةَ عام ١٩٣٦ أنّ معظمَ أصحاب الثروات من اليهود لم يكونوا صهاينة، فلا يمكن تفسير ما حصل على أنّه سعي للحصول على دعم اليهود الماديّ. وكان وايزمان أكثر صراحة حين قال في التجمّع الصهيونيّ عام ١٩٢١: " لم يكنْ في أيدينا نحن الصهاينةَ أثناء الحرب لا قوّة السلاح ولا الذهب ولا النفوذ" (١٥).

أصرّ مجلسُ الوزراء البريطاني مع هذا كلّه على أن يوهمَ نفسَه بأنّ إنشاءَ فلسطين اليهوديّة سيساعد في الفوز بالحرب، غافلاً عن أنّ مجموعةً أخرى من الصهاينة كانت تتملّق أعداء بريطانيا في الوقت ذاته، تحسّبًا لخسارة بريطانيا الحرب، وتفوّق ألمانيا إلى جانب تركيا، وكانت الأخيرةُ ما

ما زالت تحكم فلسطين. ونستمع في هذا الصدد لما قاله ريتشارد ليكتايم، مندوبُ الصهيونيّة إلى إستانبول، الذي شجّع الحكومتين الألمانيةَ والتركيةَ على دعم السياسات الصهيونيّة. إذ قال لصديق له في برلين، وهو يحدّثه عن الحجج التي لجأ إليها لإقناع أعداء بريطانيا بفائدة اليهود: "قلنا لهم إننا نرغب بتأسيس مركز ثقافيّ واقتصادي على سواحل البحر الأبيض المتوسّط، يكون حليفًا للجرمانيّة بشكل مباشر وغيرِ مباشر في تلك المنطقة. وشرعتُ بتعداد ما يدلّلُ على صدق قولي، فتحدّثتُ عن اللغة الألمانية، والنفوذِ الاقتصادي لليهود، وتعاطفِهم مع الأتراك، وقدرتِهم على فرض التوازن في المنطقة العربيّة، ونفوذهم العالمي في الإعلام والتمويل. ثمّ تحدّثت عن امتنان كلّ اليهود- في أمريكا مثلاً- لألمانيا إن هي ساعدتنا، والأثر السياسيّ لقاعدة ثقافية لألمانيا التي قد تكون في المستقبل إحدى القوى الرائدة في الشرق الأدنى. وقد كتبت لك كلّ هذا حرصًا مني على أن أقول الشيء ذاته هنا، وفي برلين"(١٦).

وجاءتْ وعود الصهاينة لألمانيا وتركيا مُلَخَّصةً بعبارة واحدة: "يمكن أن تكون فلسطينُ بعدَ هجرة اليهود إليها قاعدةً سياسيّةً اقتصاديّة، ومعقلاً حصينًا للتكتّل الألماني على حدود المحيط العربيّ الإنجليزيّ"(١٧).

وساعدتْ مكانة اليهود المتميّزة في المشهد السياسي الدولي على جعل اللعبِ بوجهين ممكنًا، فكان الصهاينة السياسيون في بريطانيا أصحابَ ولاء لبريطانيا واليهود، أمّا الصهاينة السياسيّون في ألمانيا فكانوا أصحابَ ولاء لألمانيا واليهود. وقد بلغ الأمر بليكتايم هذا أن يقترحَ إمكانيّة تنظيم فيلق من المحاربين اليهود؛ ليشاركوا فيه معَ ألمانيا وتركيا في حربِهم ضدَّ بريطانيا في الشرق الأوسط(١٨).

لقد كانت بريطانيا في نهاية المطاف هي من تجرّعَ كـأسَ الـسمّ فـي فلسطين اليهودية، حين أقنعهم الصهاينةُ بنشر الوثيقة الأكثر سوادًا في تاريخ الشرق الأوسط؛ ألا وهي إعلانُ بلفور.

وفد عثماني أثناء زيارة للقدس: دام الحكم العثماني في القدس ٤٠٠ سنة.

هوامش الفصل السابع

(1) M. N. Jeffries, Palestine: *The Reality*, Longmans, Green and Co., 1939, p. 193.

(2) Elie Kedourie, In the Anglo-Arab Labyrinth, second expanded edition, Frank Cass, 2000, p. 200.

(3) O. S. Edwardes, Palestine: Land of Broken Promises, Dorothy Crisp & Co, 1946, p.15.

(4) The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Series A, Letters, Vol. VII, Israel Universities Press, 1975, pp. 79, 112.

(5) Jeffries, Palestine: The Reality, p. 149.

(6) Footnote to quotation: 'No "suzerainty", the right of a nation to control another's international affairs, had yet been awarded since the War was not over, but the Zionists hoped that Britain would be made suzerain of Palestine.' Jeffries, Palestine: The Reality, p. 149.

(7) Stuart A. Cohen, English Zionists and British Jews, Princeton University Press, 1982, p. 234.

(8) Ibid., p. 15.

(9) Hansard, House of Commons, 10 July 1905.

(10) The Letters and Papers of Chaim Weizmann, p. 81.

(11) Tom Segev, One Palestine Complete, Abacus, 2000, p. 119.

(12) Letter from Presidents of Board of Deputies of British Jews and of the Anglo-Jewish Association, The Times, London, 24 May 1917.

(13) Ibid.

(14) The Letters and Papers of Chaim Weizmann, p. 419.

(15) Quote from Der XIIte Zionisten Kongress, Judische Verlag, Berlin, 1922, quoted in Nevill Barbour, Nisi Dominus, George G. Harrap, 1946, p. 63.

(16) Quoted in Barbour, Nisi Dominus. Original source N. M. Gelber, Hatsharat Balfur Vatoldoteha, Jerusalem, 1939, p. 162.

(17) Quoted in. Barbour, Nisi Domitzus. Original source Gelber, Hatsharat Balfur Vatoldoteha, p. 175.

(18) Quoted in Barbour, Nisi Dominus. Original source Gelber, Hatsharat Balfur Vatoldoteha, p. 198.

الفصل الثامن

رسالة إلى اللورد رُوثتشايلد

نَجَمَ عنِ الرسالةِ التي تُعرِّفُ بإعلانِ بلفور، تسعون عامًا من الهلاك والدمار في الشرق الأوسط، لكنّ العجيبَ أنّه صدرَ بمنتهى الأريحيّة وكاملِ الثّقة، وكأنّه وعدٌ بمنح ترخيصٍ لإنشاء مِظلّة انتظار للحافلات في أحد شوارع القاهرة. بل قد يكون في بناء موقف للانتظار هناك منفعةٌ للناس.

أصبحَ إعلانُ بلفور البيانَ الجوهريّ الذي يُعَرِّفُ السياسةَ البريطانيّةَ في الشّرق الأوسط، إذ كان ورقةً مهمّةً في مباحثات الصلح بعد الحرب العالميّة الأولى، وجرى تأكيده في صكّ الانتداب من عصبة الأمم الذي أصبحت بريطانيا بموجبه الحاكم الفعليّ في فلسطين (بغير جدارة تذكر). وعمّتِ الفوضى فلسطينَ في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، وكانت المعاهدة بالرغم ممّا أحاط بها من "الغموض" على حدّ وصف أحد أعضاء الحكومة آنذاك، تمثّل لبريطانيا أمرًا ليس في وسعها الإخلال به[١].

أمّا مدلول إعلان بلفور فيوضّحه آرثر كِستلر، إذ يقول: "هو وعد شعبٍ لشعب آخر دولةَ شعب ثالث"[٢]، لكنّه أخطأ في حكمه؛ فالأمر أبسطُ من ذلك بكثير، فإنّما هو وعدٌ قدّمته دولةٌ لزمرةٍ من الرجال، بدعوى أنّهم يمثّلون مجموعةً عرقيّة بأكملها، وهم قد لا يجدون تأييدًا إلا من نصفهم.

وكان إعلان بلفور للصهيونيّة السياسيّة تحولاً عظيمًا لصالحهم. فهم جدّوا دون كلل في إرسال المقترحات والمذكّرات للحكومة البريطانيّة في عام ١٩١٥ و ١٩١٦، إلا أنّ وفودَهم لمْ تصلْ أبدًا مستوى المجلس الوزاريّ، وحتى رئيس الوزراء هيربَرت أسكويث لم يكنْ مُنساقًا للأفكار الصهيونيّة ولا متعاطفًا معها. ولم تتبدّل الأحوالُ حتّى انتقلت دفّة القيادة إلى لويد جورج عام ١٩١٦، وأصبح رئيسًا للوزراء، فكانَ للصهاينة خيرَ نصيرٍ في سدّة الحكم، وانضمَّ إليه ثُلّةٌ من أعضاء البرلمان، ومنهم وزيرُ الخارجيّةِ الجديد آرثر بلفور.

لم تكن العلاقةُ حميدةً بين وايزمان وقادةِ الصهيونيّة المبرّزين في بريطانيا، فجمعَ حولَه مجموعةً من الأتباعِ وصفهم بأنّهم "عصبة صغيرة من العمّال، لا يربطهم بالسياسة شيءٌ، ولا تعرفهمُ العامّةُ، ولا حتّى المجتمعُ اليهوديّ"[٣]. وتألّفتْ هذه الفرقةُ من مجموعةِ شبابٍ بريطانيين، اتّقدتْ في نفوسهم العاطفةُ الصهيونيّة. وهذا أمرٌ غريبٌ حقًّا ولا بدّ من الوقوف عليه؛ فالحلفاءُ في تلك الحقبةِ كانوا "في أحلك الظروف شؤمًا"- وهذا ما قاله لويد جورج نفسه- وكان هذا يقضي بالضرورةِ أن يكونَ أولاءِ الشبابُ على جبهاتِ القتال. لكنّ الصهيونيّ صامويل لاندمان يوضّحُ لنا الصورةَ ويقول: "تمكّن الدكتور وايزمان أثناءَ تلك المرحلةَ من إقحامِ ستّةِ أشخاصٍ من الصهاينة الشبابِ في الحكومة ليستفيدَ منهم في خدمةِ الصهيونيّة. وكان التّجنيدُ إجباريًّا حينها، ولم يُعْفَ من الخدمةِ العسكريّة إلّا من كان يعملُ في شأن ذي أهميّة وطنيّة."[٤] فما كانَ من وايزمان إلا أنْ بعثَ رسالةً لمسؤولِ العمليّاتِ العسكريّة، يطلب إليه فيها أن يستثنيَ رجالَه اليافعينَ من التّجنيدِ بحجّةِ انخراطِهم في "عملٍ ذي أهميّة وطنيّة"، مع أنّ الوطنَ المعنيَّ بذلك ليس بريطانيا العظمى.

ويتابع لاندمان ويقول: "أصبحتِ الصهيونيةُ بعد سنواتٍ من ذلك الحين في مقامِ الحليفِ للحكومةِ البريطانيّة، فانهمرتْ عليها ألوانُ المساعدة والدعمِ من مختلف الوزارات والهيئات الحكوميّة، وأصبحتِ التوصيةُ الصادرةُ من مكتبنا لأيِّ شخصٍ ضماناً له بتيسير إجراءات سفره ووثائق عبوره. وأذكرُ على سبيل المثال أنّني أرسلتُ مرةً رسالةً موقّعةً باسمي لوزارة الداخليّة البريطانيّة في ذلك الحين، أطلب فيها أن يُعامَلَ أحدُ اليهودِ العثمانيّين كأجنبيٍّ صديقٍ، وألّا يتلقّى معاملةَ العدوّ كما كانت الحال مع بقيّة المواطنين الأتراك"[٥].

وتواصل اليهود البريطانيّون مع بقيّة اليهود في القارّة الأوروبيّة- التي كانت نيران الحرب تضطّرم فيها- بواسطة وزارة الخارجيّة البريطانيّة، وباستخدامِ الرموزِ السريّة الرسميّة للحكومة.

وتحقّقَ لوايزمان ما كان يرنو إليه من صداقةِ الشخصيّاتِ رفيعةِ المستوى في المؤسسات المختلفة ودعمها، وكان من ضمن هؤلاء مسئولو التحرير في صحيفتي التايمز والمانشستر جارديان، بالإضافة إلى آرثر بلفور، ولويد جورج، وسير إدوارد جري، ووينستون تشيرشل، وهيربرت صامويل. ولا ريبَ أنّ دعمَ هذه الشخصياتِ سيكونُ حاسمًا في صنعِ القرارِ في أروقةِ الحكومة، وأخصّ بالذكر منهم صامويل الذي كان لدوره أثرٌ أساسيّ؛ ولا غرابة في هذا، فالرجلُ قدْ تشرّبَ من الصهيونيّة حتى تضلّع منها، وفاق بذلك وايزمان نفسَه؛ فكان وزير الحكومة المحليّة، ولم يترك جلسةً وزاريّةً إلا حضرَها وأدلى بدلوه فيها. وفي شهر حزيران من عام ١٩١٧، ذهب وايزمان واللورد روثتشايلد، لرؤية بلفور في مكتبه في وزارة الخارجيّة؛ ليقترحوا بين يديه أن تقوم الحكومةُ البريطانيّةُ بإصدار "إعلان

جازم يقضي بدعم الصهاينة والوقوف إلى جانبهم"، فما كانَ منهُ إلّا أن أوكلَ إليهم أمرَ صياغةِ الإعلان بأنفسهم. وكتبَ محرّرٌ في صحيفة الديلي ميل يقول: "كانت وزارةُ الخارجيّة توصد وراءه أبوابها مشهدًا عجيبًا، فتجلّى لنا منهُ أنّ وزيرَ الخارجيةِ يطلبُ إلى أجنبيٍّ روسيٍّ أن يزوّده بمسوّدة قرارٍ يتناولُ شأنًا وزاريًّا خاصًّا"(٦).

عكفَت "عصبة العمّال الصغيرة" التي اختارها وايزمان على تحضيرِ مسوّدة إعلانٍ للأهداف تبيّنُ مستوى النفوذِ الذي يرغبُ الصهاينةُ من بريطانيا العظمى أن تمنحَها للمنظّمة الصهيونيّةِ العالميّة بعد انتهاء الحرب. وكانت أعينُ بعضِ الصهاينة لا يملؤُها إلّا الترابُ، فأخذوا يطالبون بالاستيلاء السريعِ على فلسطين، وتأسيسِ حكومةٍ يهوديّةٍ بالحال، بيد أنّ مجموعةً أخرى نَصَحتْ بالتزامِ التأنّي وأخذِ الحيطة؛ لأنّهم أدركوا أنّ المطالبة بالانتقال الفوريّ إلى حكومةٍ للأقلّية اليهوديّة في ظلِّ أغلبيّةٍ عربيةٍ ساحقةٍ لن يكون مطلبًا سهلاً توافق عليه الحكومة البريطانيّة دون معوّقات.

وجاءت صياغة مسوّدةِ الإعلان على قدرٍ كبيرٍ من عدم الاكتراث والجديّة، ولك أنْ تحكمَ على هذا ممّا قاله شابٌّ غرٌّ من تلاميذ وايزمان لمّا كتب إليه يقول: "اغتبطتُ بما سمعتُه من أنّ بلفور يريدُنا أن نضعَ صيغةَ الإعلان بأنفسنا، وسأكونَ شاكرًا لو أتيحتْ ليَ الفرصةُ لأجرّبَ قلميَ بكتابةِ المسوّدة"(٧). وقد كان ساشر حين كتب ذلك صحفيًّا في المانشستر جارديان، وكان صهيونيًّا متحمّسًا والأقربَ إلى وايزمان من بين تلاميذه، إذ كانَ يبدأ رسائله إليه بقوله: "عزيزي تشارلي.." أمّا ختامها: "تقبّلوا الحبّ، حاييم".

وفيما عرضناهُ عن هذا الشابِّ الصّحفيِّ الذي يعملُ في المانشستر جارديان، ويطمحُ أن يجرّبَ قلمَه بكتابة مسوّدةِ إعلانٍ يخصُّ سياسةَ الحكومةِ

البريطانيّة في الشرق الأوسط، بطلب من وزير خارجيّة بريطانيا، دليلٌ على انتصار الصهيونيّة الساحق في مقر الحكومة البريطانية في وايتهول، وهذا يعني أنَّ الصهاينة السياسيّين هم من يملون على الحكومة البريطانية ما يرغبون فعلَه حيالَ فلسطين. وكان ساشر هذا ميكيافيليّا، فيقول: "حبّي للوضوح والغموض سواء، فأحبُّ الوضوحَ فيما نريد له استثناءً، وأحبَّ الغموض في الوسائل التي تمكننا من تحقيق ما نصبو إليه"(٨). وانتهى ساشر هو وأفراد المجموعة في غضون شهرٍ واحدٍ من صياغةِ عددٍ من المسودات المختلفة، أُرسلَت بعدَ تجميعِها إلى ليون سايمون، وهو موظّفٌ في الخدمة المدنيّة كانَ ضَلْعُه معَ الصهيونيّة.

كُتِبَتْ ستُّ مسوّداتٍ للإعلان تطولُ وتقصرُ في محتواها، غير أنَّ جميعها ينصُّ على وعدٍ بجعل فلسطين وطنًا قوميًا للشّعبِ اليهوديِّ وأن تُصبح دولةً يهوديّة: "يهوديةً مثلما أنّ إنجلترا إنجليزيّةٌ، وكندا كنديةٌ، وأستراليا أستراليةٌ"، حسبما وردَ في إحدى المسوّداتِ التي كتبها صحفيٌّ آخرُ في الجارديان يُدعى هيربَرت سايدبُتَم.

ولم تتطرّقْ أيّ من المسوّدات لذكر السكّان الذين يعيشون أصلاً في فلسطين، بل لم يكن العرب الفلسطينيون جزءًا حاضرًا في النقاشاتِ والمباحثاتِ التي جرت. ونذكّرُ أن اعتراضَ بعضِ الجماعاتِ اليهوديّةِ على الصّهيونيةِ السياسية لم يكن على أساسِ التّفكيرِ بسكّان الأرض من العربِ الفلسطينيين، الذين لهم الحقّ في تقرير مصيرهم بعدَ الحرب، بل كان اعتراضُهم على الأذى الذي سيَلحَقُ بوضعِ اليهودِ البريطانيين في المملكةِ المتّحدة. بيد أنّ قضيةَ السكّان الفلسطينيين طُرِحَت سرًّا بين بعض الصهاينة، ومنهم ساشر على سبيل المثال، الذي كتب يقول: "كنتُ أعتقدُ في قرارة نفسي

أنّنا حتى لو أفلحت مخططاتنا السياسية جميعها كما نريد، فإنّ العربَ سيظلّون معضلتنا الكبرى"[٩]. وفي استخدامه هنا لكلمة "سيظلّون" إشارة إلى أنّ العربَ كانوا مشكلةً للصهيونية في تلك الأوقات، بالرغمِ من أنّ العلاقاتِ بينَ العربِ واليهودِ في فلسطين كانت مستقرّةً وطبيعيّة قبل ذلك.

يستهلّ ساشر مسوّدة الإعلان التي كتبها قائلاً: " تعلن الحكومة البريطانية..." ويمضي في نصه مشيرًا إلى واحدة من أهمّ الغايات التي يجري السعيُ إلى تحقيقها بعد الحرب ألا وهي: "إعادةُ تأسيسِ فلسطينَ لتكون دولةً يهوديّةً ووطنًا قوميًا للشعب اليهودي"[١٠]. وهذا دليلٌ على أنّ الصهاينة يتطلّعون إلى سيطرةٍ كاملة على فلسطينَ دون أدنى مشاركةٍ سياسيّةٍ للسكّان الأصليين في حكومتهم التّي تمثّلهم. وقد وردَ في إحدى الملاحظات التي كتبها ساشر على هامش إحدى المذكّرات: "إنّنا نتطلّع قدمًا إلى أن نرى فلسطين وقد أصبحت كيانًا يهوديًا قائمًا بذاته، وأقول يهوديًا؛ لأنّ الأغلبية بالسكّان والقدرات والثروات ستكون مع السكّان اليهود، وهذه السيطرة لن تتعارض بالتأكيد مع الحقوقِ الشخصيّة والوطنيّة للمواطنين غير اليهود... لقد حذفنا، عن قصد منّا، أيّ إشارة لأيّ كيان سياسي في فلسطين قد يُفهم منها أنّه وحدة كاملة. لكنّا سنسعى منذ البداية إلى أن يحكمَ فلسطينَ شخصيةٌ يهوديّةٌ تناصر القضيّةَ الوطنيةَ وتحرصُ عليها، كما أنّنا سنعمد إلى رفدِ الخدمةِ المدنيةِ الفلسطينيةِ بأكبرِ عدد من اليهودِ ذوي الكفاءة العالية، وسيكون معظمهم من إنجلترا"[١١].

صيغت مادّة كلّ مسوّدة بعناية كبيرة، فقد نبّهَ ساشر مرّة صهيونيًا يُدعى نايهم سوكولو، وهو يهوديّ بولنديّ روسي وقال له: "أرجو أن تتنبّه إلى أنّه يجدر بنا أن نقول "إعادة تأسيس فلسطين" وليس "إعادة تأسيسٍ في فلسطين"

فتجنّب استخدام "في" هنا؛ لأنّ العبارة التي نريدها أساسيّة في هذا السياق. فهذا هو ميثاقنا أمام هيمنةِ العرب، وأمام الصبيانيّة التي أثارها جاستر(*) بسمّه القاتل في خطاباته ولا يزال. لا بدّ أن نسيطر على آلية الحكم في فلسطين، كي لا نتيح للعربِ أن يسبقونا إليها. ولا ضيرَ في إعطاء العرب الضمانات لحفظ استقلالهم الثقافي، أما الدولةُ فلا بدّ أن تكون يهوديّة"(١٢).

يبدو أنّ العداءَ الذي يكنُّه يهودُ إنجلترا للعرب يعود لسببين: أولهما أنّ العرب كانوا غالبيةَ السكّان في المنطقة التي يريدها اليهود لأنفسهم، وهذا أمرٌ لا حيلةَ للعرب فيه. أمّا السبب الثاني فيتمثّل في النظرة الدونيّة للعرب واعتبارهم جماعةً غير جديرة بالحكم ولا بالاستقلال، وهذا ما أكّده موشيه سميلانسكي، الناشطُ الصهيونيُّ في فلسطين عام ١٩١٤ فقال: "حريٌّ بنا ألّا ننسى أنّنا نتعامل مع بشرٍ يميلون إلى الهمجيّة والوحشيّة، وذلك جليٌّ من أفكارهم الموغلةِ في البدائيّة، وهذا أمر طبعوا عليه. فإن رأى العربيُّ فيك قوّة فسيصيخ لأمرك، ويغلق في صدره حقدَه عليك، أمّا إن رأى فيك الضّعفَ فإنّه سيهيمن عليك... وإنّه بسبب اختلاطهم مع السيّاح والمسيحيين، نشأت في منظومة قيَمِهم أمورٌ لا تجدها عند غيرهم من البدائيين، فتراهم يستمرؤون الكذبَ والغشَّ، ويُضمرون الحقدَ ويظنّون بالناسِ ظنَّ السوْء ويشون بغيرِهم، كما أنهم يبيّتونَ البغضاءَ على اليهود. إنهمْ ساميّون أعداء للساميّة"(١٣).

وبالرغم من أنّ ساشر قد ذكرَ العربَ في محادثاته الخاصّة، فإنه لمْ تَرِدْ أيُّ إشارةٍ في أيٍّ من المسوّدات الصهيونيةِ للإعلان عن وجودِ سكّانٍ أصليّين في فلسطين، بل لقد ثارت حفيظةُ عددٍ من الصهاينة عندما أقرَّ

(*) موسى جاستر (Moses Gaster) هو الزعيم الروحي لمجتمع يهود السفارديم.

مجلسُ الوزراء إدراجَ إشارةٍ لحقوقِ السكّان "غيرِ اليهود" في فلسطين؛ ذلك أنّهم كرهوا أن يذكّرهمْ أيُّ شيءٍ بأنهم قد استولوا على أرضٍ معْمورة.

وعند دخولِ الولاياتِ المتّحدة الأمريكية الحربَ في نيسان ١٩١٧، وضع الرئيس ويلسُن أربع عشرة نقطة يجبُ الالتزامُ بها في أيّ محادثات سلميّة، ونصّتِ النقطةُ الثانيةَ عشرةَ على إعطاء جميع الهُويّاتِ الوطنيةِ الخاضعةِ للحكمِ التركيّ "فرصةً كاملةً غيرَ منقوصةٍ لتحقيقِ ذاتِها باستقلالٍ تامّ"، وكان هذا ضمن الهدف الذي حدّده ويلسُن ليكون العالَمُ "جاهزاً للديمقراطية." وكانت هذه التحرّكاتُ نحوَ تحقيقِ الديمقراطيةِ للشعوبِ المستعْمَرة مصدرَ قلقٍ للصهاينة، إلا إنْ وجدوا طريقةً أُخرى من لدنهم لإعادةِ تعريفِ "الديمقراطية". وهذا ما حصل فعلاً، إذ عَمِدَ هاري ساشر إلى ترويضِ المصطلحِ في نشرةٍ كتبَها للمنظّمةِ الصّهيونية، وصفَ فيها الأفكارَ الديمقراطيّةَ الأمريكية بأنّها غريبةٌ بعضَ الشيء، ولا مجالَ لتطبيقها على الشّعوبِ في مناطق أخرى من العالم:

تعني الديمقراطيةُ في أمريكا عادةً حكمَ الأغلبية، من دون التفاتٍ إلى تنوّعِ الأجناس، أو الأطوارِ الحضاريّةِ أوِ الاختلافاتِ في الخصائصِ والمزايا... وهذا هو عينُ الصوابِ في أمريكا، وفيه مصلحة الجميع. أمّا إنْ نقلنا هذا المفهومَ الأمريكيَّ لتطبّقه الإدارةُ الأمريكيّةُ في فلسطين، فهل يعقل أن يُؤتيَ ثماره في غير أرضه؟ إنّ الأغلبيةَ العدديّةَ في فلسطين هي للعربِ [الفلسطينيين] وليستْ لليهود. لكنّ الأغلبية النوعيّةَ [تنبه لهذه الكلمة] في فلسطين هي لليهود بلا جدال، وستصبحُ لهمُ الأغلبيةُ العدديةُ بعد جيل أو جيلين، إن أُتيحَتْ لهمُ الظروفُ المناسبة. فإن أخذنا بالمفهوم العدديّ البسيطِ للديمقراطية واعتمدناه الآن، أو في أيّ مرحلةٍ مبكّرةٍ في المستقبلِ

ضمنَ الظروفِ القائمةِ في فلسطين، فإنّ الفئةَ التي سيكونُ في يـدها حكـمُ الأرضِ هيَ الأغلبيةُ العربيّة، وبهذا تكونُ مهمّةُ إقامـةِ فلـسطينَ اليهوديّـةَ وازدهارها في غاية الصعوبة(١٤).

ومن يُمْن الطّالعِ لبقيّةِ دول العالم على الأقل أنّ "المفهوم العدديَّ البسيطَ للديمقراطية" هو الذي عمَّ وانتشرَ في ساحة السياسة الدوليّة، ولولا ذلك لراح الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية، أو الطائفةُ السنيّة في العـراق، أو حتى طلبةُ الجامعاتِ في المملكةِ المتّحدةِ يطالبون بتـولّي الحكـم وإدارةِ شئونِ بقيّة المواطنين ذوي الأقلية "النوعية".

فإن كانت تلك هي طريقة التفكير الصهيونية، فلا بدَّ أن يكونَ أيُّ "وعْد" يقدّمه الصهاينةُ للحكومة البريطانيّة لتصادق عليه يهدفُ إلى الحصولِ علـى أوسعِ نفوذٍ على أرضِ فلسطينَ وشعبِها بعدَ انتهاءِ الحرب. وقد يعتقد أحـدُنا أنّ مجلسَ الوزراء البريطاني لم يكن ليسمحَ بتمرير هذه الـسياسة الجـائرة وإقرارها، إلا أنّ المراسلاتِ بين الأطراف المعنيّـة بهـذا الـشأن حينهـا، ومحاضرَ جلساتِ المجلسِ الوزاريّ تظهرُ جميعها أنّ الحكومـةَ البريطانيـة كانت مولعة أيّما ولعٍ بكلِّ أمرٍ له شأنٌ باليهودِ أو الصهيونيّة.

دخلت جيوشُ بريطانيا وفرنسا في معمعـة أشـدّ المعـارك ضـراوةً في الحرب العالمية الأولى، وكان ذلك على أرض فرنسا، فبلغـت الخـسائر في الأرواح في معركة باشِنديل مـن الحلفـاء ٣٢٥,٠٠٠، ومـن الألمـان ٢٦٠,٠٠٠. والعجيبُ أنّ المجلس الحربيّ قد خصّصَ وقتًا في خـضمِّ هـذه الأزمة ليجتمع في وايتهول في الثاني من أيلول ١٩١٧، ويناقشَ المـسوّداتِ المختلفةِ للإعلان بتفاصيلها المعقّدة، بعد أن أرسـلت النـسخُ إلـى مكاتـبِ الوزراءِ وموظّفي الحكومة، فكان اللورد روثتشايلد يرسلُ ما يـصلُه منهـا،

وتولّى أعضاءُ آخرون في الحكومة مسؤوليّة تحضيرها. وحضرَ تلكَ الجلسةَ إدوِن مونتَاجيو، وزيرُ الدولةِ للشؤون الهنديّة، واليهوديُّ الإنجليزي الأبـرزُ في الحكومة.

كان مونتاجيو على الدّوامِ مصدرًا للتوتّرِ والإحباطِ للصهاينة السياسيين؛ لأنّهم لمّا أكّدوا للحكومة البريطانية أنّ آراءهم تحظى بـدعمٍ مـن الغالبيّـة العظمى لليهود في إنجلترا، ظلّ هذا الرجلُ متمسكًا برفضِه للتحرّكِ الرامـي لجعلِ فلسطين دولةً يهوديّة، وأكّدَ رأيَه في هـذه القـضية فـي مجموعـة من الرسائل والمنشورات والخطابات، ووقف مونتاجيو عندَ عبـارةِ "وطـن الشعب اليهودي" واعترض عليها قائلاً: "إنّ في هذا تهديدًا لمكانـة اليهـود في بقية العالم".

وكَتَبَ مونتاجيو في مذكّرةٍ إلى المجلسِ الوزاري: "أرغب بتوثيق وجهة نظري رسميًا لأقول إنّ السياسة التي تنتهجها حكومـةُ صـاحب الجلالـة (بشأنِ فلسطينَ) معاديةٌ للسامية بالنّظر إلى نتائجِها، وستصبح أرضيةً خصبةً لجميعِ من يعادي الساميّةَ في العالم... كنت دائمًا أعدّ الصهيونية ملّةً سياسيةً عابثةً، ولا يُعقَل أن ترى فردًا وطنيًا في المملكة المتّحدة مـستعدًّا لتـسويغ أفعالها. فإن رأيتم مواطنًا إنجليزيًا يهوديًا ترنو عيناه إلـى جبـل الزيتـون، مستشرفًا اليومَ الذي ينفضُ عن حذائه ثرى بريطانيا ليعـود إلـى الأشـغالِ الزراعية في فلسطين، فاعلموا أنه منافقٌ في انتمائه للمواطنة البريطانية، لأنّ في هذه الأمنيات إقرارًا بأنّـه لا يـصلح للمـشاركة فـي الحيـاة العامّـة في بريطانيا العظمى، وأنه ليس خليقًا بمعاملة الرجل الإنجليزي"(١٥).

وكتب وايزمان لصديقٍ أمريكيٍّ مناصرٍ للصهيونية: "إنّ أعداءَ اليهود لا يقرُّ لهم ساكن؛ لقد وجدوا نصيرًا قويًّا في السيّد إدوِن مونتاجيو، وهو عضو في الحكومة، وقد استغلّ منصبَه لإلحاق أكبر قَدْرٍ من الضّررِ بالقضيّة الصهيونية."

وقالت بلانتش دَجديل، وهي ابنة أخ لآرثر بلفور، وناشطة صهيونية رائدة في إنجلترا، موجّهةً كلامَها لعامّة الناس: إنّ إعلان بلفور "هو وليدُ قرارٍ أصدرَه مجلس الوزراء البريطاني بعد مباحثات في غاية التفصيل والدقّة، ويتحمّل المجلس نفسُه المسؤوليةَ المشتركة عنه... وهو وعدٌ لم يقدّمْهُ بلفور، بل الحكومةُ البريطانية بأكملها... وهم رجالات الدولة الأكفياء وأصحاب الخبرة الواسعة، الذين تباحثوا هذه السياسةَ بتأنٍّ كبير وفهْم متعمّق، وأجمعوا على الموافقة عليها"(١٦). ويخالفُها فيما ذهبت إليه جوزيف جيفريز، الصحفي في (الديلي ميل) والذي قدّم صورة مغايرةً لما عرضتهُ بلانتش في مقابلةٍ أجراها مع إدوِن مونتاجيو، يوضّح فيها كيف كان معظم أعضاء الوزارة مغيّبين عن حقائق هذا الموضوع الخطيرِ الذي طُرِح عليهم للتباحث في شأنه.

قال مونتاجيو: إنّ عهودَنا التي قطعناها للعرب لم تلقَ منّا مثقالَ ذرّةٍ من اهتمام، و كنّا نتعاملُ مع القضيةِ وكأنّها لا تعني أحدًا سوى بريطانيا العظمى والصهاينة. ولم يجرِ أيُّ نقاشٍ حقيقيٍّ وفقَ الأصول، وصارَ أعضاءُ المجلسِ الوزاريِّ معَ مَقْدَمِ الخريفِ تنوءُ بهمُ المسئوليات الملقاةُ عليهم للتعامل مع الكارثة التي عمّت في ذلك الحين، يوم كانت حظوظ الحلفاء عاثرة حقًّا. وكان دأب كلّ وزيرٍ أن يلتفت إلى شأنِه الخاصّ، وأن يقبل دون تمحيصٍ ما يقرّره غيرُه في شؤونهم الخاصّة. وقد حاولَ رئيسُ الوزراءِ وبلفور

أن يدفعوا بالمشروع الصهيوني قدُمًا لإقراره، لا يخامرُهم سوى هذه الفكـرةِ التي ملكتْ عليهم أنفسَهم. وأضاف السيد مونتاجيو أنَّ أحكام الإعلان وتبعاته، حتى موعدَ رحيله إلى الهند، لم تكن موضوع دراسة جادّة من جميع أعضاء الحكومة، ولم يكن للمحايدينَ في المجلس أن يدركوا أبعاد الإعلان بعد، ولـم يكونوا لذلك قادرين على مواجهة زملائهم الموالين للصهيونية (١٧).

وتشيرُ محاضرُ ذلك الاجتماع الوزاري ذي الشأن العظيم، الذي عقد في ٣١ تشرين أول ١٩١٧ إلى ضـآلة إدراك الحكومـة البريطانيـة للقـضية الأساسية: " أشار وزيرُ الشؤونِ الخارجيةِ [بلفور] إلى أنّه تأكّـدَ أنَّ الجميـعَ متّفقون حاليًّا من الناحية الدبلوماسية والسياسية على ضرورة إصدارِ إعلان من شأنه أن يحقّقَ آمالَ المواطنين اليهود. ويَظهر أنّ الغالبيةَ العُظمى مـن اليهودِ في روسيا وأمريكا متوافقون مع الصهيونيّة. فإنْ أصدرنا هذا الإعلان الذي يحقق الغايةَ المنشودة، فإننا سنتمكّن من الحصول على دعـمٍ عـريضٍ في كلٍّ من روسيا وأمريكا"(١٨).

وذكرتِ المحاضرُ إشكالين اثنين فقط هما: " (أ) إنّ فلسطينَ لا تـصلح لتكونَ دولةً لليهودِ، أو لأيّ شعبٍ آخر. (ب) ثمّةَ قلقٌ حيالَ وضعِ اليهود في المستقبل في الدولِ الغربيّة." ومضى ذلك دون أدنى ذكرٍ لما سيترتّب علـى جعل فلسطينَ وطنًا قوميًّا لليهودِ من الإنكار المستمرّ لحقّ تقريـرِ المـصير للفلسطينيين الذين بلغ تعدادهم حينها ٦٧٠,٠٠٠ نسمة، ويـشكّلون تـسعين بالمئة من مجموع سكّانها.

وبعد وضع المزيدِ من النقاطِ على حُروفِها، وافقَ مجلس الوزراء على الصيغة النهائية للرسالة التي سيبعث بها الـسيد بلفـور ممـثلاً الحكومـة البريطانية للورد روتتشايلد وأصدقائه، وهي الرسالة التـي صـاغوها هـم أنفسهم بادئ الأمر.

وزارة الخارجية

٢ تشرين ثاني ١٩١٧

حضرة اللورد روثتتشايلد

يسرّني أن أنقل لكم، نيابة عن حكومة جلالة الملك، إعلان التعاطف مع المطامح الصهيونية اليهودية والذي عُرِضَ على مجلس الوزراء ووافق عليه.

إنّ حكومةَ جلالة الملك تنظرُ بعين العطف إلى تأسيس وطنٍ قوميٍّ للشعبِ اليهوديِّ في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليًّا أنّه لن يُؤتى بعملٍ من شأنه أن يغيّر الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهوديّة المقيمةَ الآن في فلسطين، ولا حقوق اليهود ولا وضعهم السياسي الذي يتمتّعون به في البلدان الأخرى.(*)

ونرجو منكم التكرّم بإرسال هذا الإعلان للاتّحاد الصهيوني وإعلامهم به.

وتقبّلوا الاحترام

آرثر جيمس بلفور

وقد نُشِرَ إعلان بلفور في الصحف الرسميّة البريطانيّة في التاسع من تشرين ثاني ١٩١٧ وتباينت ردودُ الفعلِ في شأنه. فهذا أحد أعضاء البرلمان، ولِيَم أورمسبي جور، يقول في تجمُّعٍ عامّ إنّه "وقف إلى جانب

(*) تعتمد ترجمة الوعد على تقرير اللجنة الملكية في فلسطين عام ١٩٣٧ (المترجم)

المطالب الإسرائيلية؛ لأنّه فردٌ في كنيسة إنجلترا، وهو يشعر أنَّ يدَ الربِّ هي التي تسيّر هذا الأمر برُمّته"[١٩]. أمّا وايزمان فأظهر بعد انقضاء عدّة سنين مقدار الدهشة التي انتابته من أمر هذا الإعلان، فيقول: "لم يكن ليخطر بمخيّلة أحدٍ أننا نحن اليهود سنحصلُ على إعلان بلفور، لأنَّ هذا يعني باختصار، أنَّ الحربَ كانتْ لنا كحُظيّاتِ لقمان(*). وإنّنا لم نكنْ نحلمُ بإعلانِ بلفور، وأصارحُكُمُ القولَ: لقد حلَّ الإعلانُ علينا بين ليلةٍ وضُحاها... ولقد كان إعلان بلفور عام ١٩١٧ وليدَ لحظته"[٢٠].

وبدا الأمرُ في ظاهره رسالةً خطّها وزيرُ الخارجيّة البريطانيّ ومستشاروه على عَجَل. ويقول جيفريز في هذا: "قُدِّم الإعلانُ... كأنّه أحدُ المراسلاتِ الحكوميّةِ البريطانيّة الذي يُظهر أنه لا يتجاوز التصوّر البريطاني، ووقعَ الجميعُ ضحيّةَ هذا الادّعاءِ الكاذب، فظنّ البريطانيون أنّ الإعلانَ ثمرةٌ حميدةٌ أينعَت برعاية حكومتهم. أمّا مجملُ اليهود فرأوا في الإعلان ضمانةً لا منبتَ لها إلا في ضميرِ مجلس الوزراء، وهذا ما زاد من بريق الصهيونية السياسية في أعينهم. أمّا العربُ فهم عندما وصلهم خبر الإعلان (ولم يتأخرْ كثيرًا في طريقهِ إلى مسامعهم)، رأوا أنّه نصٌّ من ورائه الصهاينة جميعهم من شتى الجنسيات، مع أنّه صادرٌ باسم بريطانيا، فصار هذه الرسالة في ظنّهم وعدًا مُنِحَ للصّهاينة، ولم يعلموا أنّ الصهاينة هم من كتبوا بأيديهم جلّ نصّ الإعلان. وقد طلبت بريطانيا ذلك من العرب أن يحترموا هذا الإعلان بالنّظر إلى أنّه صادرٌ عن الحكومة البريطانية إلى العالم بمحض تكرّمها الأصيل،

(*) يُضرب هذا المثل لشيءٍ فيه الشرُّ ثم يظهر منه الصلاح والخير (المترجم)

بعد أن أفاقتِ الحكومة على ضرورة توجيه جــزءٍ مــن اهتمامهــا العميــق والمتقوقع على فكرة بعينها فيما يخص "مشكلة فلسطين"[٢١].

وقد سعى كتّاب مسوّدات الإعلان- على حدّ قول جيفريز- إلى "تجنّب الإشارة من قريبٍ أو بعيدٍ إلى أنّ العربَ كانوا في واقع الأمر أغلبيّةَ السكّان في فلسطين، واكتفوا بالإشارة إلــى "بعــض المجتمعــات غيــر اليهوديــة" في فلسطين! فالإعلان يصف الأغلبيّة بأنّهم "ليسوا أقلّية"، ويصف ٦٧٠,٠٠٠ بأنّهم ليسوا ٦٠,٠٠٠، تمامًا كما لو تصفُ شعبَ بريطانيا بأنّهم "المجتمعات غير الأمريكية في بريطانيا العظمى"، أو كما تصفُ طبقةَ العــاملين بــأنّهم "المجتمعات غير الخاملة في العالم" أو العاقلين بأنّهم " جماعة غير المجانين من بني البشر"، أو كما تصفُ عشبَ الريفِ بأنة "جزء المراعي مــن غيــر الهندباء البرية"[٢٢].

لم يعرفِ العامّة شيئًا عن دورِ الصّهاينةِ البريطانيّين في صياغةِ إعلان بلفور، واكتسبتِ الرسالةُ من بلفور إلى روثتــشايلد هالــةً مــن الاعتبــار والتشريف ليستْ جديرةً بها، كما لو أنّها ثمرة حراكٍ واسع على الــصعيدين الوطنيّ والعالمي. ويعتقد كثيرٌ من اليهود إلى يومنا هذا أنّ إعلان بلفور كان "تجسيدًا لرغبة الأمّة البريطانية والأمم المتحضّرة جميعِها في العالم"[٢٣]، كما زعمَ أحدُ اليهود المهاجرين إلى فلسطين بعد عــشر ســنوات علــى كتابــة الإعلان. لكنّنا ندرك الآن مقدار الافتراء في هذا الادعاء. ولم يمنع هذا مــن أن تكتسب رسالةُ بلفور منزلةَ المعاهدة الدولية، أو الاتّفاقية الملزمة إلى الحدّ الذي دفعَ الحكوماتِ البريطانيةَ المتعاقبة إلى ردِّ جميع المطالب الفلــسطينية بحقّ تقرير المصير مدّعيةً أنّها مكبّلةُ اليدين ولا تملكُ من الأمرِ شيئًا.

استولى الجيش البريطاني على القدس من يد الأتراك عام ١٩١٧ وأحكم الجنرال اللنبي قبضته على المدينة.

جلَسَ أحدُ موظَّفي الحكومةِ البريطانيّة، رتشارد ماينرتزاجن، وكانَ صهيونيًّا متعصبًا، معَ بلفور ليتناولَ معَه طعامَ الغداءِ، وكان ذلكَ في شباط ١٩١٨، وبادَرَه سائلاً: "هل كنتَ تَعُدُّ الإعلان ميثاقًا يمنح اليهودَ الحُكْمَ المطلقَ على فلسطين، أمْ أنّك كنتَ تسعى لنقل اليهود إلى فلسطين العربية؟ فأجابه بلفور: "أتمنى أن يحسنَ اليهودُ استغلالَ الوضع في فلسطين، وأن ينشئوا دولةً يهوديةً. الكرةُ في ملعبهم الآن، وتلك فرصتهم الكبرى قدّمناها لهم"(٢٤).

* * *

نزلت الهزيمة بتركيا وألمانيا، وتقدّم جيشُ الحلفاء مزهوًّا بنصره نحو القدس، ودخلوها في التاسع من كانون الأول ١٩١٧، وقامت فيها إدارةٌ عسكريّة يرأسها الجنرال اللنبي.

وفي الحين الذي كان فيه اللنبي قابَ قوسينِ من دخول القدس، والصهاينةُ منهمكين في صياغةِ إعلان بلفور، رست سفينةٌ قادمة من البرازيل في ميناء حيفا، أكبرِ ميناءٍ في فلسطين. وكان على ظهر السفينة امرأةٌ حُبلى، اسمها جوزفينا دي فيريرا، وإلى جانبها زوجُها، وهو محامٍ فلسطيني، وابنتان لهما، الأولى كونستانزا والأخرى تيكلا. أمّا الرجلُ فاسمه خليل صبّاغ، وهو جدّي، وكان قد ارتحل في إثْر كثيرٍ غيره من العربِ إلى أمريكا الجنوبية ليجمعَ المال ويبدأ عملاً خاصًّا به، وها هو ذا قد عاد إلى وطنه ليستقرَّ به مع زوجتِه البرازيليّة. وازدادَ عددُ أفراد أسرتِه بعد برهةٍ من الزَّمن، وأصبح لديه سبعة أطفال. انتهتُ الحربُ، وعاد خليلُ لأهله في صفد، ودير حنّا، وحيفا، يحدوه أملٌ ببدءِ عملٍ ناجح في وطنِه فلسطين، الذي حَسِبَ هو وغيرُه من الفلسطينيّين، أنّه سيكون وطنًا مستقلاً بعد انقضاءِ الحرب.

هوامش الفصل الثامن

(1) Palestine: Statement of Policy, Cmd. 6019, His Majesty's Stationery Office, 1939.

(2) Arthur Koestler, Promise and Fulfillment: 1917-1949, Macmillan, 1949, p. 4.

(3) Address delivered at London Zionist Conference, 21 September 1919, quoted in Zionist Policy, British Zionist Federation, 1919.

(4) Samuel Landman, 'Secret History of the Balfour Declaration', World Jewry, 1 March 1935.

(5) Ibid.

(6) J. M. N. Jeffries, Palestine: The Reality, Longmans, Green and Co., 1939, p. 156.

(7) The Letters and Papers of Chaim Weizmann, Series A, Letters, Vol. VII, Israel Universities Press, 1975, pp. 86-7.

(8) Isaiah Friedman (ed.), The Rise of Israel, Vol. 8, Garland Publishing, Inc., New York, 1987, p. 28.

(9) Ibid., p. 26.

(10) Ibid., p. 36.

(11) Ibid., p. 41.

(12) Ibid., p. 39.

(13) Moshe Smilansky, quoted in Benny Morris, Righteous Victims, AlfredA. Knopf, Inc., 2001, P.43.

(14) H. Sacher, A Jewish Palestine: The Jewish Case for a British Trusteeship, Zionist Organization, London, 1919, p. 17, quoted in Tom Segev, One Palestine Complete, Abacus, 2000, p. 119.

(15) Edwin S. Montagu, The Anti-Semitism of the Present Government, PRO, Cab. 24/24, 23 August 1917.

(16) Blanche Dugdale, 'Its Origin', in Paul Goodman (ed.), The Jewish National Home, J. M. Dent, 1943, p. 4.

(17) Jeffries, Palestine: The Reality, pp. 167-8.

(18) 31/10/1917 Minutes of War Cabinet, National Archives, London, Cabinet Papers, 2414, quoted in Friedman (ed.), The Rise of Israel, P.138.

(19) Nevill Barbour, Nisi Dominus, George G. Harrap, 1946, p. 65.

(20) P. Goodman (ed.), Chaim Weizmann, London, 1945, Chapter XIV, quoted in Barbour, Nisi Dominus, p. 65.

(21) Jeffries, Palestine: The Reality, p. 174.

(22) Ibid., p. 178.

(23) Maurice Samuel, What Happened in Palestine, The Stratford Company, 1929, pp. 148, 170.

(24) Richard Meinertzhagen, Middle East Diary 1917-1956, Thomas Yoseloff, 1959, p. 9.

الفصل التاسع

البحثُ عن السلام

تقدمتْ جيوشُ الحلفاء وتوغَّلتْ في أرض فلسطين، وتطلّعَ الفلسطينيّون إلى أن تتكشَّفَ لَهُمُ الأيّامُ عن مستقبلٍ أكثرَ استقرارًا وأمنًا. فقد سقطَ حكمُ العثمانيين في تركيا وآلتْ مقاليدُ الحكمِ إلى حكومةٍ متعصّبةٍ من أعضاء "تركيا الفتاة" الذين أرادوا أن يكونَ مواطنو الإمبراطوريةِ أتراكًا، وأن ينخلعوا من جنسياتهم الوطنية، فتعلّقَ أملُ أهل فلسطين بحياةٍ أكثرَ إنصافًا تحت الحكم البريطاني، بانتظار استقلالهم الموعود.

ولكنْ ما الذي تخبّئه الأيام لشعب فلسطين يا ترى؟ لقد كانت المدن والقرى هي ميدانَ الحياةِ الفلسطينية، واعتادَ معظمُ الناس على العيش في مكانٍ واحدٍ طيلةَ حياتهم. ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ بعضَ العرب الفلسطينيين من الطبقة الوسطى والأرستقراطية لم يكونوا يسافرون إلى القاهرة، ودمشق، والقسطنطينية، بل بعضُهم تردّدَ على أوروبا كذلك. وحرص معظم الفلسطينيين (سواء العرب واليهود منهم) على تنشئةِ أطفالهم ضمنَ التقاليدِ الراسخةِ المتوارثةِ في المجتمع، والتزموا بدفعِ الضّرائبِ للحكومة، وكانوا سعيدين بحياتهم على هذا النّحْو.

بَيْدَ أنَّ بعضَ القادة في المنطقة ألقَوا نظرةً أبعدَ إلى الأمور، فرأوْا أنّه يُمكن- حتى مع غيابِ الحدود الوطنيةِ في ظلِّ الحكومةِ العثمانية- تقسيمُ

الشرق الأوسط إلى أقاليمَ متميزةٍ ثقافيًا ووطنيًا وفصلها مــن أطْرافهــا دون تهشيم. فسوريا الكبرى، التي تضمُّ لبنانَ وفلسطين، تختلفُ في سماتِها عــن العراق والأردنّ، وتتميز أيضًا عن الجزيرة العربية. وتوجد ضمن منطقــة سوريا الكبرى اختلافات بين ناحية وأخرى في الدين والتاريخ والجغرافيــا، تجعلُ التقسيمَ أمرًا واردًا كذلك. وليست فلسطينُ إلاّ واحدةً من هذه النــواحي التي كانَ أهلُها وحتّى زوّارها، يدركُون أنَّ لها هُويّةً متميّزةً عــن غيرهــا ثقافيًا واجتماعيًا.

وشعرَ بعضُ القادةِ العربِ أنَّ الفكرةَ التي راجت في القــرن العــشرين بشأنِ الدولة المستقلّة عن حكم الاستعمار والتي تمتاز عن سواها في الهُويــة والحكومة الوطنيّة، أصبحتْ ممكنةَ التّطبيق في العالم العربيّ. ووافق الحلفاءُ بالفعل على منحِ بعضِ الشّعوب استقلالها بأشكالٍ مختلفةٍ بعد الحرب، مقابل أن تحصل على دعمِ القبائل العربية في حربِها ضدَّ تركيا. وقد وُثّــق هــذا الوعدُ في وثيقةٍ تسلّمها سبعةٌ من أعيان العرب في القاهرة، وكانوا قد أرسلوا رسالة إلى بريطانيا فورَ سماعهم بصدور إعــلان بلفــور، يطــالبون فيهــا الحكومة البريطانية بتفسيرٍ لما حصل. ولم يكن إعلان بلفور قد نشر آنــذاك رسميًا في بريطانيا، ولم ينتشر خبره في الأوساط العربيةِ حتى ذلك الحــين، لكنّ المثقفين العرب علموا بشأنه فورَ صدوره.

ولم تكتب الحكومة البريطانية ردًا على الرسالة إلا في السادس عــشر من حزيران ١٩١٨، أي بعد مرور سبعة أشهرٍ على صدور الإعلان، وكانت القواتُ البريطانيةُ قد احتلّتْ جزءًا من فلسطين، وما زالت البقيةُ تحت قبضة الأتراك، وجاء في الرسالة:

ترغبُ حكومةُ جلالةِ الملكِ في أن تقوم الحكومات في المناطق التي تحتلها قوات الحلفاء حاليًا على رضا المحكومين، وهذه سياسةٌ لن تألوا حكومةُ جلالة الملك جهدًا في دعمها وتحقيقها.

أمّا [المناطق التي لا تزال تحت السيطرة التركية] فإنّ حكومةَ جلالة الملك تتطلع إلى أن تمنحَ شعوبَها المضطَهدةَ حريَّتَها واستقلالَها، وما زالت حكومة جلالة الملك تسعى نحو تحقيق هذه الغاية (١).

وأدرك الرئيسُ الأمريكي ويلسُن ضرورةَ إجراءِ تغييرٍ حقيقيّ بعدَ الحرب في الدول التي كانت خاضعةً للحكم التركيّ. وسبَقَ أنْ أشرْنا إلى قضيةٍ أكَّدَ ويلسُن أهميَّتها في العالم من أجل تحقيق العدل والسلم، وهي منح "جميعِ الهُويّات الوطنيّة الخاضعةِ للحكمِ التّركي فرصةً كاملةً غيرَ منقوصة لتحقيق ذاتها باستقلالٍ تام." وقد كانت فلسطينُ إحدى هذه الدولِ "الخاضعة للحكم التركي"، وبدا طبيعيًّا أن يفترضَ الفلسطينيّون أنّهم سيحصلونَ قريبًا على استقلالهم. وعاد ويلسُن عامَ ١٩١٨ ليؤكّد هذه المسألةَ تارةً أخرى فقال: "إنّ حلَّ أى قضيةٍ، سواءً أكانت مسألةَ إقليمٍ أو سيادةٍ أو تسويةٍ اقتصادية أو علاقةٍ سياسية، لا بدّ أن يقومَ على أساسِ القَبول الطوعيّ لذلك الحلِّ من الشعب المعنيّ، ولا يمكن أن يكونَ الحلُّ على أساس المصالح أو المزايا المادية لأى دولةٍ أخرى، أو لأيِّ شعبٍ آخر، أو تحقيق نفوذٍ خارجيّ خاصّ أو سيادة من أيّ نوع."

ولم يمضِ سوى شهرين على هذا الكلام حتى كتبَ الرئيسُ ويلسُن فقال: "يختلجني الرضا مما أراه من إنجازاتِ الحركةِ الصّهيونية في الولايات المتحدة وفي دول الحلفاء منذ صدور إعلان السيد بلفور الذي قدّمه باسم الحكومة البريطانية." ويبدو أنّ رسالةَ بلفور إلى اللورد روتشايلد قد لاقت قبولاً حسنًا لدى ويلسن، ونجحت في ضمّه إلى صفّ الصهيونية.

لكنّ الوضع في فلسطين في ذلك الوقت كان شأنًا بريطانيًا، ولا علاقة لأمريكا به من قريبٍ أو بعيدٍ، والغريبُ أنّ بريطانيا نفسَها كانت تجهلُ إلى حدٍّ كبيرٍ حقيقةَ الحالِ في هذه الدولة، وهذا ما يؤكده جيفريز حين يتساءل قائلاً: "ما الذي كان يعرفه البريطانيون الذين مزّقتهم الحرب عام ١٩١٧ عن تركيبة السكان في فلسطين؟ لا شيءَ البتّة! وفي غمرةِ هذا الجهلِ راحتِ العصبةُ التي صاغتْ إعلانَ بلفور تتخبّط، حتى إنهم لم يذكروا العربَ باسمهم، وكفتْهمُ الإشارةُ إلى "المجتمعات غير اليهودية الموجودة في فلسطين"، وكأنّهم يتحدثون عن زمرةٍ من الرهبان قصدوها هائمين، فصارَ لهم موطئُ قدمٍ فيها هنا وهناك. أمّا وسمهم بأنهم "موجودون" فحيلةٌ أخيرةٌ منهم؛ إذ إنّ الأثرَ الذي يتركه هذا الوصف هو أنّ مجموعةً من العرب ما زالت تعيش في فلسطين، أو أنّ رحالةً زارَ تلك البلادَ وعادَ إلى بلفور يخبرُهُ أنّه "اكتَشَفَ" مجموعةً من "غير اليهود" يعيشون على تلال فلسطين"(٢).

وأصبحت فلسطينُ بعدَ أنْ سيطرَ الحلفاءُ عليها تحت إدارة مناطق العدو المحتلّة (Enemy Territory Administration Occupied)، وقامت فيها حكومةٌ عسكريةٌ بريطانية. وضعُفَت الإمبراطوريةُ التركية بعد قوة، وأضحى الحلفاءُ وهم على أعتاب مرحلة يزداد فيها الوعي الدولي، حائرين بشأنِ الإجراءِ الأمثلِ الذي يجبُ الإقدامُ عليهِ بخصوص الدول المنفكّة عن الإمبراطوريةِ العثمانية. ولمّا يكن الاستعمارُ في الشرق الأوسط قد رفع رايةً بيضاءَ بعد، فقد طمعَتْ فرنسا بلبنان وسوريا، ورغبت بريطانيا في الحفاظِ على نفوذِها في بلادِ ما بين النهرين والجزيرةِ العربيّة. أمّا فلسطينُ، فتعاورتها الدارسات العميقة من كلا الدولتين، وكانت الأفكار والمقترحات تغدو وتروحُ بين الإدارة البريطانية ووزارة الخارجية الفرنسية للتوصّل إلى أفضلِ حلٍّ لاقتسام هذه المنطقة.

أُعِدَّتِ الخططُ عامَ ١٩١٨ لهجوم يبدأ في فصل الربيع، يهدفُ إلى تقدّم قوات الحلفاءِ في المناطق الفلسطينية التي ما زالَ الأتراكُ يسيطرون عليهـا بمساعدةِ الألمان، فتقدّم جيشُ الحلفاءِ، الذي ضمّ عددًا من جنـود أسـتراليا ونيوزلندة، وأحدثَ فجوة كبيرة من الشمال. وفي تشرين الأول عام ١٩١٨ تقدّم الحلفاء، يرافقهم حشدٌ من المقاتلين العرب، والعقيد تـي إي لـورنس، ودخلوا دمشقَ مُعلنين بذلك انتهاء الحكم التركي في العالم العربي.

المارشال اللورد بلومر: وهو كغيره من المندوبين السامين على فلسطين، كان محافظًا في حياتـه اليومية على العادات والتقاليد البريطانية.

اعتاد الجنود البريطانيون على حالة الشوارع الفلسطينيّة، وكانوا دائمًا يحاولون احتواء العداء المتصاعد بين العرب واليهود في العشرينات.

* * *

كان والدي– عيسى خليل صبّاغ– طفلاً في الأشهر العشرة الأولى من سنّه في ذلك الوقت، وقد أسموهَ عيسى تيمّنًا بجدّه، أمّا اسمه الثاني فعلى اسم أبيه سَيرًا مع عادات الناس. والحقُّ أنَّ هذه العادةَ تؤدّي في نهاية المطـــاف إلى وجود تعاقبٍ رتيبٍ في الأسماء العربية، خاصّة عند الابن البكر. فالأصلُ مثلاً أن يكون اسمي أنا "خليل عيسى"، لكنّ جدّتي لأمّي كانت تعجز عن نطق أيٍّ منهما، فأُسقط "عيسى" وأصبح اسمي "كارل".

وُلِدَ جدي خليل صبّاغ في صفد عام ١٨٨٠ تقريبًا، وكانت العائلة قد انتقلت من صفد، واستقرّت في دير حنّا بحثًا عن معيشة أفضلَ حالاً. واستحوذتِ المحاماة على اهتمام خليل، فتدرَّبَ في هذا المجال، ثمّ هاجر إلى البرازيل في أوائل القرن العشرين، فالتقى هناك جوزفينا، وكان ذلك في مدينة بيلم (Belem)- وهذا الاسم من باب المصادفة يطلق باللغة البرتغالية على قرية بيت لحم- وهي مدينة تقع قريبًا من مصبّ نهر الأمازون. كانت العائلاتُ الفلسطينيّة تدّخر النقودَ وتجمع ما يلزم لإرسالِ أبنائهم ممن يتفّرسون فيهم الخيرَ والطموحَ إلى الخارج، ليجنوا المال الوفير، ولهذا جاء جَدّي إلى بيلم، المركزِ التجاريِّ النّشِطِ المشهور بصادراته من المطاط، والخشب، والقُنّب، والبندق، وغيرها من المنتجات التي يزخر بها حوض الأمازون.

لم ترض عائلة جوزفينا بهذا الزواج، وحاول إخوتها أن يحولوا بينهما، فلم يفلحوا، ولكنّهم أضمروا الحقدَ عليه في صدورهم، ولم تطبْ أنفسهم لذلك. ورُزِقَ الزوجان بابنتين، وحين بلغت كونستنانزا خمسَ سنوات، وتكلا ثلاثَ سنوات، حملتْ جوزفينا مرةً ثالثةً، فاشتعل الصراع مجددًا بين إخوتها وخليل، وقُتِلَ أحدُ الإخوة بعيارٍ ناريٍّ في هذا الشجار. أدرك خليلُ أنَّ بقاءَه في البرازيل يعني أنَّ الثأرَ سينال منه لا محالة، فخيَّرَ جوزفينا بين البقاءِ عند أهلها أو السفرِ معه إلى فلسطين، فاختارتْهُ على أهلِها.

دنَتِ الحربُ من الانتهاء، وتجلّى للجميع أنَّ حكمَ العثمانيّينَ على فلسطينَ قد أفَلَت شمسُه. وكان لخليل ثلاثة إخوة وأختان، وعددٌ كبيرٌ من أبناء العمومة، وهذا يعني أنّ حياته ترتبط بشبكةِ عائليّةٍ كثيفةٍ من الأقارب، الذين يجدهم في حيفا، وصفد، دير حنّا، وسواها من قرى الشّمال الفلسطيني. ونزلَ

بعد عودته من المهجر في دارةٍ كبيرةٍ في طولكرم، وبدَتِ الأمورُ على أفضلِ ما يُرام، وطَفِقَ ينتظرُ الفرصةَ المناسبةَ لبدء وظيفة ناجحةٍ في المحاماة في فلسطين بعد انتهاءِ الحرب. أمّا إخوانه في دير حنّا فقد بدءوا بعض المشاريع الصغيرة، وأصبحت لهم أملاكٌ وأراضٍ في المنطقة. وكانت معظم العائلات في دير حنّا عائلات مسلمة، وبيت صبّاغ هي إحدى العائلات المسيحيّة المعدودة في القرية، لكنَّ هذا لم يمنع حنّا، أحد إخوة خليل، أن يصبح مختارًا للقرية، وممثلاً رسميًّا للحكومة فيها.

يرجع نسبُ خليلَ إلى عبّود، صانع الصابون، أحدِ أبناءِ إبراهيم صبّاغ، وهنالك مجموعة أخرى من بيت صبّاغ من فروع ابنٍ آخر لإبراهيم، وهو نقولا، الذي شكّل أحفاده لاحقًا مجتمعًا لهم في صفد، وأقاموا في بيوتٍ من الحجرِ كبيرةٍ في الحيِّ المسيحيِّ هناك، وقد برز من بينهم اسم توما، الذي عمل قنصلاً لفرنسا في صفد وطبريّة، وله أخ يدعى جريس، له ثلاث بنات وصبيّان، أحدُهما يُدعى حَسيب، وهو من مواليد طبرية عام ١٩٢٠. كانت حياة هذا الصبي داخل فلسطين وخارجها تختلف إلى حدّ كبير عن حياة والدي، إلا أنّ الحالَ تبدّلت بعد أن شبّ الصبيّان، إذ أصبح حسيبُ، وهو أكبر سنًّا من والدي، يمشي على خطاه ويتابعه فيما يعمل.

ترعرع عيسى في أرضٍ تحت الاحتلال العسكري البريطاني، وكان لا يمكن لإدارة مناطق العدوّ المحتلّة- وفق دليل القانون الحربي- أن "تغيِّرَ شكلَ الحكمِ القائم، أو تتجاهلَ حقوقَ السكّان"، وهذا يفرضُ على الحكومة المؤقّتة في فلسطين أن تتعاملَ مع هذا الوضع العضال لسنوات أُخَر.

كانت إدارة مناطق العدوّ المحتلّة جيّدةً بشكل عامّ في تعاملها مع العرب، وحاولتْ أنْ تُعامِلَ السكّانَ جميعَهم على وجه المساواة، وقدّمتِ

الخدماتِ الميدانيةَ العديدة، فوضع المهندسون العسكريّون محطةَ ضخٍّ للمياه في القدس، وأعادَ المسؤولون البريطانيّون تنظيمَ خدمةِ البريد، والصحّة العامّة، والتعليم، ونظّم الجنودُ حركة السيرِ في الشوارع. ولم يكن الجنود الإنجليز على معرفةٍ جيّدة بالأرض، ولكنّهم بذلوا أفضلَ ما لديهم من جهدٍ وخدمة. ويُذكَرُ أنّ مسؤولاً بريطانيًا سأل جنديًا في المدينة القديمة في القدس عن الطريق إلى جبل الزيتون، فلم يُحْرِ الجنديُّ جوابًا، وكان قد مضى على خدمته في فلسطين ثلاثةُ أسابيع. فانتهرَهُ المسؤول وقال: "أتمضي عليك ثلاثةُ أسابيعَ هنا دونَ أنْ تعرفَ الطريقَ إلى جبل الزيتون؟" فأجاب: "عذرًا، سيّدي، أهيَ حانة للخمر؟"[٣]

انتهتِ الحرب العالميّة الأولى في معظم فلسطين بسقوط القدس عام ١٩١٧، لكنَّ القتالَ لم ينتهِ في المناطق جميعها حتى تشرين الثاني من عام ١٩١٨. وزاد الصهاينة في هذا الوقت من تحرّكاتهم في لندن وواشنطن وفلسطين، وراحوا يعلنون بكلّ إصرار عند السياسيين والدبلوماسيين والموظّفين الرسميين، وحتى عامّة الناس في فلسطين، أنّ الوقت قد حان لتطبّق الحكومة البريطانية ما التزمت به في إعلان بلفور من أحكام وتضعها موضعَ التنفيذ. إلا أنَّ الحكومةَ البريطانيّة لم تكن ملزمة بتطبيق الإعلان في تلك المرحلة؛ لأنّ الإدارة العسكريّة كانت ملزمةً بمقتضى القانون الدولي أن تحفظ الوضع الراهن في البلاد إلى أن يكونَ الصلحُ مع تركيا.

غير أنّ قلقَ الفلسطينيّين من المخطّطات الصّهيونية عام ١٩١٨ بدأ يتزايد هو أيضًا، وحاولت الحكومةُ البريطانيةُ جهدها أن تَحُدَّ من تخوّفهم حيال ذلك. لكنَّ مجموعةً من الصهاينة بقيادة وايزمان شكّلوا تجمّعًا أسموْه "البعثة الصهيونية"، وأزمعوا زيارة فلسطين للتأكّد من أنّ الإدارةَ البريطانيّة

ترعى الأهدافَ الصهيونية في إدارتها للبلاد. وقبل المغادرة إلى فلسطين بأيّام، تناول وايزمان طعامَ الغداء مع الصهيوني الإنجليزي غريب الأطوار، ريتشرد ماينرتزاجن، الذي عمل جاسوسًا لبريطانيا أثناء الحرب، وكان على وشك تسلّم مهمّة سياسية رسمية في إدارة فلسطين.

وَصَفَ ماينرتزاجن في مذكّراته تلك الانطباعاتِ التي تركها وايزمان عليه، فقال: "كان وايزمان شديدَ الحماسة تجاه فلسطين والصهيونيّة، ويمكنني وصف هذا الرجلِ الذكيّ بأنّ حماستَه بلغَت حدّ التعصّب... كان وايزمان يكنّ في قلبه عداوةً صارخةً ضدّ العرب جُبِلَ عليها"(٤). وقد أبدى ماينرتزاجن نفسُه في مذكّراته حبًّا لليهود وبغضًا للعرب فقال: "يرتبط التقدّم بذكر اليهودِ، أمّا العربُ فلا يرتبطُ ذكرُهم إلاّ بالجمود والبذاءة والحكومة العفنة، والمجتمعِ الفاسد الدجّال." والعجيب أنّ رجلاً يحمل هذه الأفكارَ في رأسِه ستُوكَلُ إليه مهمّةٌ حسّاسةٌ في المساعدة في حكمِ فلسطينَ لعدد من السنوات، وهذا خيرُ دليلٍ على أنّ الحكومة البريطانية لم تأبَه بحقوق العرب الفلسطينيين على تلك الأرض.

التقى وايزمان في فلسطينَ بعض أعيان العرب من فلسطين وسوريا، وكَذَبَ أمامَهم بشأن المخطّطات الصّهيونية، وقال لهم: "إنّ وجودَ حكومة يهوديّة سيكونُ أشدَّ ضررًا على خططه، وإنّ رغبتَه لا تعدو عن توفير وطن لليهود في الأرض المقدّسة يعيشون فيها حياةً وطنية طبيعية، ويكون لهم فيها حقوقٌ متساويةٌ مع غيرهم من السكان"(٥). مضت ثلاثةُ أشهر على هذه الزيارة، وخرجت الجماعات اليهودية الصهيونية في فلسطين إلى شوارع القدس في الذكرى الأولى لإعلان بلفور، وذلك في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٨. وتلك طريقةٌ يعبّرون فيها عن مصداقِ هذا الإعلان: أنّ فلسطينَ ستصبحُ وطنًا قوميًا لليهود.

يقول السير رونَالد سترز، الحاكمُ العسكري في فلسطين: "أبدى ليَ عدد من أصدقائي اليهود الملتزمين بالفكرة الصهيونية عجبَهم من ذلك الاحتفال العامّ في الشوارع، وذلك لأنّهم على درايةٍ بالوضع في فلسطين وكانوا يعلمون أن مثل هذه التحركاتِ كفيلةٌ بإثارة السُّخطِ بين غير اليهود. وتساءلوا أمامي عن الغرض من وراء ذلك مع أنّهم قادرون على التعبير عن امتنانهم وفرحتهم بلقاءات بينهم، بين أربعةِ جدران، أو بالاكتفاء بإرسال برقيّات شكر وولاء للحكومة البريطانية"(٦).

ثار العربُ على هذه المسيرة الاستعراضيّة في القدس، وتجمّعوا من فورهم، واختاروا ممثّلين من المؤسسات المسلمة والمسيحية الأساسية، وكتبوا خطابَ احتجاجٍ بعثوا به إلى السير رونالد في اليوم التالي، وطالبوا فيه الحكومةَ البريطانيةَ أن تقفَ في وجه المحاولاتِ الراميةِ لتحويلِ فلسطينَ من دولة عربيةٍ إلى دولة يهودية، وينضوي هذا الخطاب على ثقةٍ في الحكومة البريطانية تلامس الشعورَ بصدقها. وقد كُتِب خطاب الاحتجاج بالعربية، إلا أنّ الترجمةَ جاءت متصنّعةً ركيكةَ التأليف (وأغلب الظنّ أنّها ترجمة الحكومة البريطانية) ودلّت- بخلاف الأصل العربيّ- على أنّ من كتبها أصلاً هم من عوامّ الناس السذّج: وفيما يلي نص الكتاب(*):

لاحظنا البارحة جمعًا من اليهود يحملون الشعارات ويجوبون الشوارع وهم يرددون كلمات تؤذي المشاعر وتجرح النفوس، ويدّعون بأعلى صوتهم أنّ فلسطين وطنُهم القوميّ، ولكنّها أرضُ آبائنا المقدسة التي تضم رفاتَ أجدادنا الذين سكنوها منذ قرون عديدة، والذين أحبوها وروّوا ثراها بدمائهم.

(*) لم أعثر على نص الخطاب الأصلي باللغة العربية وهذه ترجمةٌ راجعة عن اللغة الإنجليزية. (المترجم)

وإن كلماتهم لحقيقةٌ بغضب الله عليهم. كيف يجرؤ اليهود على المطالبة بجعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود، والمسلمون والمسيحيون من غير سكانها لم يطلبوا يومًا أن تصبح فلسطين وطنًا قوميًا لهم؟.. إنّا نحن العرب، مسلمين ومسيحيين، تعاطفنا دومًا مع مأساة اليهود واضطهادهم وبلواهم في الدول الأخرى، ولكنّا تعاطفنا مع الأرمن كذلك والأمم المستضعفة بأسرها، وإنا لنأمل أن يتحقق تحريرهم وأن تكون عاقبة أمرهم عافية وسلامة.

لكنّ فرقًا شاسعًا بين التعاطف مع هذه الأمة وقبولهم في دولتنا (لتكون لهم وطنًا قوميًّا)، وليكون لهم الحكم علينا وأن يتصرفوا بشؤوننا... لقد احتلّ العرب إسبانيا طيلة سبعة قرون، وثم تفرق شملهم في بقاع الأرض بعد أن أقاموا لأنفسهم دولة فيها. فهل يعقل أن يأتوا الآن ليدَّعوا حقًا في هذه الدولة التي حكموها في الماضي وصارت وطنًا لهم، وتركوا فيها آثارًا على حضارتهم ما زالت تبعث في أنفسهم ذكرياتها؟ هذه هي سنّة الله في الأرض، فالدولةُ تصل إلى أوج العظمة ثم تتحسر قوتُها، والأيامُ دولٌ، والأممُ يخلُف بعضُها بعضًا. فهل يمكن في القرن العشرين إثارة المشاعر المتعصبة وتحريك المطامح الفاسدة التي سببت لنا هذه الحرب العظمى، والتي جلبتِ الخرابَ للعالم وألقت على ظهور الرجال أحمالاً تُشفِقُ منها الجبال؟..

إنَّ تاريخَ بريطانيا العظمى، التي لم تحقق هذه العظمة إلا برعايتها للعدل، لَخيرُ مثالٍ على استقامة رجالها ورفعة أخلاقهم، ولا يمكن لها أن تبقى في عماية عن هذا الظلم. إننا على ثقة تامّة بأن الصهاينة وعملائهم سيعجزون عن تحقيق أيِّ شيءٍ مما يدعونه في هذه الدولة، وإننا نتوقع من قوة كبرى مثل بريطانيا العظمى والتي تعرف بعدلها وتطورها أن تضع حدًا لهذه المطالب الصهيونية...

وفي الختام، نأمل نحن المسلمين والمسيحيين أن نعيش مع إخواننا يهودِ فلسطين بسلام وسعادة وبحقوق متساوية. فإنَّ مزايانا هي مزاياهم، وواجباتهم هي واجباتنا(٧).

ووقّعَ على الخطاب ما يربو على مئةِ شخصيةٍ دينيّةٍ وسياسيّةٍ وأكاديميّةٍ من المجتمعات الفلسطينية، وتلقّى السير رونالد بعد أيام رسالة أخرى من لفيفٍ من أعيان العرب في يافا، رفضوا فيها بلهجة صارمةٍ ما يدّعيه الصهاينةُ من حقٍّ لهم في فلسطين لمجرّد أنّهم عاشوا في هذه الأرض قبلَ ثلاثة آلاف سنة وقالوا: "إنّ هذا يعني وجودَ ضرورة يتعذّر إنجازُها، تقْضي برسمِ خريطةٍ جديدةٍ للعالَم، كما كان عليه الحال مباشرة بعد الطوفان العظيم"(٨). وأصبحتْ تحرّكاتُ اليهودِ في الشوارع وردودُ العرب عليها، ومحاولاتُ الجنود البريطانيين والإدارةِ البريطانيةِ المدنية من بعدُ أن تحفظَ السلم في فلسطين، نسقًا مُطّردًا لا ينقطع على مدى عشرين سنة تالية.

أنشأت البعثة الصهيونية في تلك الأثناء مقارّ لها في فلسطين، وأرست أُطُرَ العملِ لإقامة "دولة داخلَ دولة". وطالب الصهاينة بأخذِ دور في الإدارة العسكريّة البريطانية، ونادوا بإقامة لجنة الأرضِ اليهودية، وبنك زراعي يهودي، وأن يُسْمَحَ للصهاينةِ باختيارِ بعضِ اليهودِ للعملِ في شرطةِ فلسطين، وأن يكون لهم من الأجرِ فوق ما للعرب، وطالبوا بأن يكون لهم جيشٌ خاصٌّ بهم في فلسطين، وجاءت كلّ هذه المطالب في مرحلة لم يشكّلِ اليهودُ فيها سوى عشرة بالمئة أو أقلّ من مجموع السكّان.

توالت الرسائلُ والمذكّرات والبرقيّاتُ من الصّهاينةِ على مكتبِ الجنرال كلايتون، الحاكمِ العسكري في فلسطين، وكانوا يأملون بالحصول على دعْمِه،

وأرسل وايزمان نفسُه بعض الرسائل، وكتب في إحداها: "لقد رنَت آمالُ الشعبِ اليهوديِّ بأكمله إلى أكثرَ من ذلك، وإنّ هذا ليبعثُ الحزن فينا أكثر مما يبعث على الغضب، ويبدو ممّا نلحظه أنّ الجماهير [أي جماهير اليهود] يشعرون بخيبةِ أملٍ عميقة، لأنّا إنْ لم نحصل على ما يضمن بناءَ دولةٍ يهوديةٍ بشكل طبيعي وعلى وجه السرعة، بإشرافٍ من بريطانيا، فإنّ الكلام عن الوطن القومي سيكون هباءً لا طائلَ من ورائه"(٩).

مدينة صفد التي تنحدر منها عائلة صبّاغ.

إلا أنّ كلايتون أدركَ أنّ هنالك مجموعاتٍ كبيرةً من اليهود، حتّى ممّن هم في فلسطين، لا تلبَسُ ثوبَ الصهيونية، فأبرقَ لوزارة الخارجية في تشرين الثاني ١٩١٨ رسالةً يقول فيها: "لم يتمكّنِ الصهاينةُ حتّى اللحظةِ من جمعِ يهود فلسطين كافّةً إلى جانبهم: فالمجتمع المتديّنُ في القدس ما زال ينأى بنفسه عن التحرّك، حتّى إنّ بعضَ الأفرادِ يعارضون الأمر من أصله. وثمّة ما يشير إلى أنّ الصهاينةَ المحلّيين يريدون برنامجًا مطوّلاً لا يتوافق معَ ما جاءَ في إعلان السيّد بلفور من أحكام، إضافةً إلى أنّ التعبيرَ الصريحَ عن نواياهم قد بدأ يثير غضب العرب"(١٠). واشتدّت مخاوفُ العرب أكثرَ بعد نشرِ تقاريرَ في شهر تشرين الأوّل وتشرين الثّاني عام ١٩١٨، تصفُ حدودَ الدولةِ التي يحلمُ الصهاينةُ بالسيطرة عليها، وتشير إحدى هذه المخطّطات إلى امتدادِ فلسطين شمالاً حتّى بيروت، وهنالك مخطط آخر كانَ يضمُّ جزءًا كبيرًا من الأردنّ(١١).

رأى بعضُ المسؤولين البريطانيّين في هذه المرحلةِ المبكّرة أنّ السعيَ وراءَ إقامةِ فلسطينَ اليهوديّةِ سيتبعهُ آثارٌ وبيلةٌ يمتدُّ أجلُها ويتعاظمُ قدرُها، وكان من بينهم اللواء مَني، القائدُ الأعلى في الإدارةِ البريطانية في فلسطين، الذي كتب للحكومةِ البريطانية يقول: "إنّي متيقّنٌ من أنّ أيَّ سياسةٍ تسعى لإعطاء اليهود نصيبًا أكبرَ في حُكْمِ فلسطينَ في المستقبل القريب سينجمُ عنها عواقبُ وخيمةٌ، وسيظهر شرُّها في فورة الغضبِ العارمةِ بين العرب في أنحاء الإمبراطورية البريطانية."(١٢)وقد تعرّض اللواء مَني لانتقادات لاذعةٍ من الصهاينة للتردّدِ الذي أبداهُ قبلَ أن يُصدرَ قرارًا يَقضي بطباعةِ الأوراقِ الرسمية- بَدءًا من الطوابع وانتهاءً بتذاكر القطار والمذكّرات الحكومية-

باللغة العبرية أيضًا، وتجاهلوا حقيقةَ أنّ الأقليّــةَ اليهوديــة فــي فلــسطين، قد عاشت فيها هانئةً مطمئنةً لأجيالٍ عديدة وهي تتحدث العربية لا العبريــةَ. ولم يطلِ الأمرُ باللواء مّني حتّى أُعفيَ من منصبه بعد إصرار الصهاينة على ذلك وإلصاق تُهَمِ معاداة السامية به، وتمّ لهم بعد حينٍ ما أرادوه مــن جعــل العبرية لغةً رسميةً في البلاد.

وأخبر فلاديمير جابوتينسكي، وهو من الصهاينة المخلصين، صــديقَه وايزمان أنّ "طوابع البريد الجديدةَ التي أصدرتْها مكتبةُ بيرن قــدِ اعتُمِــدَت لتكونَ الطابعَ الرسميَّ لفلسطين المستقلّة، وأنّ الطابع مكتوبٌ عليه بالإنجليزية والعربية فقط، ولا تظهر عليه الكتابة العبرية. وقد حصل هذا بعدَ عامٍ علــى استصدارِ إعلان بلفور، وبعد أشهر معدودة من وضع حجر الأساسِ للجامعةِ التي أعلَنَت على الملأ أنّ العبريّةَ هي أداةُ الحــضارة فــي فلــسطين" [١٣]. ولجابوتينسكي وجهةُ نظر تفسّرُ سببَ معارضــةِ المــسؤولين البريطــانيّين للصهيونية فيقول: "لمّا حلَّ [البريطانيون] في هذه البلاد، وجدوا فيها العربَ، وهم أناسٌ تَغلبُ عليهمُ البساطةُ والوضــوح، مثــلَ غيــرهم مــن الــسكّان "الأصليين" الذين أخضعهم الرجل الإنجليزي لحكمه لعــدة قــرون، فــالأمرُ مألوف لديهم ولا مشاكلَ تذكر من ناحيتهم. ووجدوا الصهيوني في المقابــلِ يمثّلُ مشكلةً كيفما نظرتَ إليه ومعضلةً لا تُحلُّ عقدُها؛ وهم قِلّةٌ في عــددهم، لكنّهم أصحابُ قوّةٍ ونفوذ. فجهلُهم بالإنجليزيــة يَجْبُــرُه تــشبُّعهم بالثقافــةِ الأوروبيّة، وهم يدّعون أمورًا في غاية التعقيد، ولهمْ سماتٌ أخرى لا حصرَ لها. والرجل الإنجليزي اللطيفُ يكره المــشاكل ويُــبْغض الألغــاز، وهــذا باختصار هو طبيعة البلوى في قضيّتنا" [١٤].

تزايد إدراكُ العربِ الفلسطينيّين لخطـورةِ الموقـف وهـم يرقبـون التحرّكاتِ العلنيةَ الصارخةَ التي تقوم بها البعثةَ الصهيونية فـي فلـسطين، وصاروا يطالبون الإدارة البريطانية بتقديمِ تفـسيرٍ لمـا يحـصل، ويقـول جابوتينسكي في هذا الشأن: "كان العرب في كلّ مكان يسألون سؤالاً واحدًا: أصَحيحٌ أنّكم "ستسلّمون" الدولةَ لغيرنا؟ وكان الجواب المعهودُ في كلّ مكـان أيضًا: "كلاّ"، وهذا جوابٌ بدَهيٌّ وضـروريٌّ لتجنّـب توضـيح التحفّظـات وللتهربِ من عَنَتِ الإشارةِ إلى ضرورةِ أن يَجِدَ العربُ سبيلاً للاتّفـاق مـعَ اليهودِ، لأنّ سياسةَ الوطن القومي أمرٌ محقّق لا محالة."(١٥)

وممّا زاد في غضب العربِ الفلسطينيين علمُهم بتلك المراسلاتِ التـي جرتْ بين البريطانيّين والشريف حسين؛ لأنّها حملت وعدًا بمنحِ الاسـتقلالِ لتلك المناطقِ الواسعةِ التي كانتْ تحتَ حكْمِ العُثمانيّين، ومنها فلسطين. ومع أنّ الحكومةَ البريطانيةَ نَفَتْ أن يكونَ ذاك الوعدُ شاملاً فلسطينَ، إلا أنَّ وثيقةً سريّةً في وزارة الخارجيّة من عام ١٩١٩، أتت قاطعةً لا تتركُ مجالاً للشكّ وجاء فيها: "وتلتزم حكومةُ جلالةِ الملكِ بموجِبِ الكتابِ الذي أرسلَهُ الـسير مكماهون إلى الشريف حسين في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥، بجعل فلـسطين ضمنَ حدودِ الاستقلالِ الذي سيحصل عليه العرب." ولكنَّ الوثيقةَ ذاتَها تقول في المقابل: "إنَّ التوجُّهَ اليهوديَّ في العالم يشجِّعُ على عـودةِ اليهـود إلـى فلسطين، وإنّ حكومةَ جلالةِ الملكِ تنظر بإيجابٍ إلى تحقيقِ هذه الطموحات، وإنّها عازمةٌ على تحقيقِ هذه الغايةِ وإزالةِ كلِّ ما يعترضُ سبيلَ تحقيقِها، ما دامت لا تتعارضُ مع حريّةِ سكّانها الاقتصاديّة والسياسيّة."(١٦)وهـذا يعنـي بعبارة وجيزة أنّ العرب حصلوا على وعدٍ بالاستقلال لكنّ الطريقَ مـسدودةٌ أمام تحقيقه.

جرى العمل في أوروبا لاستحداث نظام يكفلُ أن تنتقلَ المناطقُ التـــي كانت سابقًا للعثمانيين لتكون تحتَ إدارةِ حكومةٍ مستقرّة بصورة ما، حرصًا منهم على ألاّ تؤول إلى الحكمِ التركيّ من جديد، وأن تبقى تحت رعاية دولٍ متقدّمةٍ صاحبة خبرة. وهكذا ظهر نظامُ "الانتـــداب"، إذِ "انتُـــدِبَ" الحلفـــاءُ المنتصرون في الحرب، أو كلِّفوا بالأحرى، ليكونوا رعاةً إلى أجـــل غيـــر معلوم على الدول التي حصلت على استقلالها. ولكنّ بريطانيا قـــد منحـــتْ وعدَيْنِ بفلسطين لمجموعتين منفصلتين ولا بدّ أن تقرّر عصبةُ الأمم مصيرَ هذه الدولة.

هوامش الفصل التاسع

(1) O. S. Edwardes, Palestine: Land of Broken Promises, Dorothy Crisp & Co, 1946, p. 18.
(2) J. M. N. Jeffries, Palestine: The Reality, Longmans, Green and Co, 1939, p. 178.
(3) Frances E. Newton, Fifty Years in Palestine, Coldharbour Press, 1948, P.130.
(4) Richard Meinertzhagen, Middle East Diary 1917-1956, Thomas Yoseloff, 1959, p. 12.
(5) Memorandum by Kinahan Cornwallis, Director of the Arab Bureau in Cairo, on the (Zionist) Commission on 20 April 1918, quoted in Doreen Ingrams, *Palestine Papers* 1917-1922, John Murray, 1972, p. 28.
(6) Quoted in Isaiah Friedman (ed.), The Rise of Israel, Vol. 10, Garland Publishing, Inc., 1987, p. 14.
(7) Ibid., pp. 16-17.
(8) Letter from Muslim-Christian Committee of Jaffa to Military Governor, Storrs, quoted in Friedman (ed.), The Rise of Israel, Vol. 10, pp. 41-2.
(9) Weizmann to Clayton, quoted in Friedman (ed.), The Rise of Israel, Vol. 10, p. 95.
(10) Quoted in Friedman (ed.), The Rise of Israel, Vol. 10, p. 37.
(11) Sykes to Ormsby-Gore, quoted in Friedman (ed.), The Rise of Israel, Vol. 10, p. 27.
(12) Quoted in Friedman (ed.), The Rise of Israel, Vol. 10, p. 38.
(13) Letter from Jabotinsky to Weizmann, quoted in Friedman (ed.), The Rise of Israel, p. 49.
(14) Quoted in Friedman (ed.), The Rise of Israel, pp. 50-1.
(15) Quoted in Ibid., pp. 52 -3.

(١٦) أُعدّت مذكرة سرية عن التزامات بريطانيا تجاه الشريف حسين لعناية المجموعة الداخليـة في مؤتمر السلم عام ١٩١٩، وقد وجد روبرت جون عام ١٩٦٤ نسخة من هـذه المـذكرة ضمن عدد من أوراق البروفسور ويسترمان الذي كان مستشارًا للشئون التركية مع الوفـد الأمريكي في مؤتمر السلم. وتجد هذه التفاصيل هنا:

Robert John, 'Behind the Balfour Declaration: Britain's Great War Pledge To Lord Rothschild', The Journal for Historical Review, 6/4 (Winter 1985-6), p. 389 http://www.ihr.org

الفصل العاشر

الانتداب

بدأ مؤتمرُ الصلحِ لإنهاء الحربِ العالميّةِ الأولى في باريس في شهرِ كانونِ الثاني ١٩١٩، بحُضورِ اثنتين وعشرينَ دولةً، وكانتْ جلَساتُ المؤتمرِ سريّةً، وَحَضَرَ مُباحثاتِه رئيسُ الوزراءِ البريطانيّ ليود جورج، ووزيرُ خارجيّتِه آرثر بلفورد، ووصَفَ هذا الأخيرُ نفسَه أثناءَ مباحثاتِ الصلح في باريس، وهو يتحدّث إلى ريتشَرد ماينرتزاجن، بأنّه "صهيونيّ متحمّس"، وقال إنّ الحكومةَ البريطانيّة "ملتزمةٌ بالصهيونيّة في سياستها تجاه فلسطين".

وأشارَ ماينرتزاجن لاحقًا إلى أنّ بلفور "عرّفَ سياسةَ جلالة الملك كما يلي: أنْ تكونَ جميعُ المخطّطات التنمويّة والصناعيّة والمساعدات الماليّة قائمةً على الاعترافِ بأنّ الصهاينةَ همُ الشعبُ صاحبُ الأفضليّةِ في فلسطين... وقد رأى بلفورُ في الرئيسِ ويلسُن سماتِ الإخلاصِ والكفاءة، لكنّه شعَرَ أنّ النقاطَ الأربعةَ عشرة المعروفةَ قد أُسيءَ فهمُها، وزادَ ضررُها عن نفعِها، خاصّةً ذلك البندُ الذي يحثُّ على منحِ الدولةِ الصغيرة حقَّ تقريرِ المَصير... ومعَ أنه كانَ موافقًا في المبدأ على فكرة تقرير المصير هذه، إلاّ أنّه رآها غيرَ صالحة للتطبيق بلا تفريقٍ في بقاع الأرض جميعها، وعدَّ فلسطينَ مثالاً استثنائيًا خاصًا"(١).

لم يخطُرْ لبلفور أن يسألَ عن رأيِ الفلسطينيّين أو يستشيرَهم في الطريقةِ التي تناسبُهم لحكمِ البلاد في المستقبلِ إلى حينِ تسليمِها من بعدُ "للعربِ: أصحابِ الغالبيّةِ العظمى" (كما قال ماينرتزاجن). بل كانت لديه

فكرةٌ مغايرةٌ لهذا مفادُها: "لا بدّ من معرفةِ رأيِ يهود العالم في أيِّ استفتاءٍ حولَ فلسطين؛ ظنًّا منه أنّ معظمَهم سيعلنون دعمَهم للصهيونيّة تحتَ الانتداب البريطاني"(٢).

وتطفحُ مذكّرات ماينرتزاجن بمثْل هذه النّتَفِ من الأخبار التي نالتْها سهامُ النقدِ لخلطِها بينَ الحقيقةِ والخيال، ويَبْدو من المؤكّدِ على سبيلِ المثال، أنّه اختلقَ من لدنه بعضَ الحكايات- أو ربّما جميعَها- حول صداقتِه مع لورَنْس العرب. وكان ممّا ادّعاه أنّه ولورنس أطلقا لفيفةً ضخمةً من ورقِ الحمّام، وامتدّت حتى وصلتْ إلى عتبة الدَّرَجِ الرئيس في فندق أستوريا في باريس، حيثُ يُقيمُ الوفْدُ البريطانيّ، وكان ليود جورج وبلفور واللورد هاردينج، يتحدّثان في الأسفل، فقال هاردينج فيما بعد (على حدِّ زعم ماينرتزاجن): "ما المضحكُ في ورقِ الحمّام هذا!" ويدّعي أنّه صفعَ لورنس العرب على مؤخرتِه "لمّا هربَ بدُرّتي"، وهي تلك العصا محدّبة الرأس، أو شيء من هذا القبيل، وهي تشبه العصا التي استُخْدِمَت في قتل الألمان، وهو يزعُم أنّه معجبٌ بهم، بالرغم ممّا حصلَ في الحربِ العالميّةِ الأولى، وهو الذي يقول: "لا أرى سببًا يمنعُ ألمانيا أن تصبحَ في المستقبل إحدى مناراتِ الأخلاقِ في الأسرةِ الدولية." وشكّلَ ماينرتزاجن مصدرَ خطرٍ يصْعُبُ التحكّمُ به إنْ أُطلِقَ له العنانُ، لكنّه مع ذلك امتلكَ سُلْطةً سياسيّةً فعليّة، فهو أُذُنُ وزارةِ الخارجيّة التي تسمع بها، وكان صاحبَ أسلوبٍ صلَفٍ شديدٍ في مراسلاتِه ومذكّراتِه، حتى إنّه عارَضَ في بعض الأحيان أوامرَ المسئولين البريطانيّين المفوّضين بإدارة فلسطين، ليُصدرَ أوامرَ بخلافِها.

ألقى الصهاينةُ كلمةً في مؤتمرِ الصلْحِ في باريس، ونفى وايزمان فيها أن تسبّبَ الصهيونيّةُ مشكلةً للفلسطينيين، وكرّرَ نفيَه هذا في صحيفةِ التايمز مرّةً قائلاً: "إنّه لمُستَبْعَدٌ أن تنشأ في فلسطين "مشكلة السكّان العرب"

ولا ينبغي لغير اليهود أنْ يخشَوا الاضطهاد على أيدينا. لقد خَبِرْنا وعَرَفْنا معنى الغربةِ على مدارِ ألفَي سنة، فنحن اليهود أعلمُ بقلبِ الغريب، فهل يُعقل بعدَ ذلك أن نذيقَ الاضطهادَ لغيرِنا؟"(٣).

وفي الوقتِ الذي كانَ فيه وايزمان يؤكّدُ للجموع في مؤتمر الصلح أنّه ما من شيء يدعو "غيرَ اليهود" للقلق، عُقِدَ في لندن اجتماعٌ غيرُ رسميٍّ بين الصهاينةِ والمسؤولين البريطانيين؛ لتباحث سُبُلِ تحقيقِ الأهدافِ الصّهيونية. وورَدَ في محضرِ هذا الاجتماع ما يلي: "اقترحَ الرائدُ روثشايلد أنْ تُفَكِّرَ حكومةُ جلالة الملك في مخطط تهجيرٍ شامل للفلاحين الفلسطينيين إلى الجنوب (مصر) وإلى الشمال (سوريا) بالتزامن مع مخططات الهجرةِ التي وُضِعَتْ لليهود. وقد نالتْ هذه الخطةُ موافقةَ الآنسة جيرترود بيل، والعقيدِ لورنس، وأشارتِ الآنسةُ بيل إلى إمكانيّة إرسال المهاجرين إلى بلاد ما بين النهرين. وقد أُشيرَ إلى إمكانية نقل الفلاحين العرب من أراضيهم بالطريقة الموضّحة بعدَ الانتهاء من إقامة المستعمرات الصهيونية."(٤) وليستِ هذه هي المرّةَ الأولى التي تُذكَرُ فيها قضيةُ "نقل" عددٍ كبيرٍ من السكّان الفلسطينيين إلى الخارج، إذ سَبَقَ أن طرَحَ الصهاينةُ هذه الفكرةَ عام ١٨٨٢، لكنّها لم تبلغْ مبلغَها إلاّ في ثلاثينيات القرنِ العشرين، أي بالتوازي مع الخطط النازية لنقل اليهود خارج ألمانيا.

أمّا من مَثّلَ الفلسطينيّين في مؤتمر الصلح في باريس، فهو الأميرُ فيصل بنُ الحسين من الحجاز، ولم يكنْ فلسطينيًّا، غيرَ أنّه كان أقدرَ الموجودين ليكونَ المتحدّثَ الرسميَّ في ذلك الحين (وساعده لورنس العرب في صقْلِ مهاراتِه أيّامَ الثورة العربية)، وهو نجلُ الشريفِ حُسين الذي أعطاه البريطانيون وعدًا بالحصول على فلسطين. وصلَ فيصلُ أوروبا برفقة وفد من الفلسطينيّين والسوريّين، وإنَّ بعضَهم يرتدي بِدَلاً داكنةً، وذهبوا في زيارةٍ

لعضو البرلمان العقيد كليفتون براون، في مكتبِه في مجلس العموم البريطاني. فانتظروا هنيهةً في الرواق الرئيس هناك، وجلسوا في انتظاره مدة خمس عشرة دقيقة، لكنّه لم يأتِ. فأرسلوا رسالةً معَ أحد الموظفين هناك، غيرَ أنّ الجوابَ جاءهم بأنّ عضو البرلمان ليسَ في المجلس. ثم انتظروا نصفَ ساعةٍ أخرى، ويصف لنا أحد أعضاء الوفد- وهو عزّت تنّوس- ما جرى بعدَ ذلك، يقول: "تقدّم نحونَا رجلٌ وسألَنا متلطّفًا عمّا نبحثُ عنه، فأجبناه: "نحنُ الوفدُ العربيُّ من فلسطين". فقال متأسّفًا: "أعتذر لكم أشدّ الاعتذار، لقد جعلتكم تنتظرون طويلاً هنا. مضت أكثر من خمس وأربعين دقيقة وأنا أنتظر بشوقٍ حضورَ الوفد العربيّ لأراهم يدخلون بلباسهم العربيّ المتألّق بألوانه الزاهية، فوددت أن أستقبلهم عند المدخل. أرجوكم تفضّلوا"(٥).

كان الأمير فيصل الممثل الرئيس للدول العربية في مؤتمر السلم، ولكنه لم يتمكن من مجاراة الصهاينة، حتى مع المساعدة التي قدمها له لورنس العرب (الثالث من اليمين)

وقف فيصلُ في باريس وألقى خطابًا أمامَ حشدٍ من قادة الحلفاء يُعرَفون جميعًا باسم "مجلس الستّة"، ويقول جيفريز معلّقًا: "لم تسلكِ القضية مجاريَها كما يجب، إذ لم يدرِ أحدٌ ما الذي قاله هناك بالتحديد، حتى إنّ الجلسة انتهتْ قبلَ أن يُنهيَ خطابَه، ولم يتيحوا له المجال بعد ذلك أن يتمّ ما بدأه. وطلعتْ شمسُ نهارٍ جديد، وإذ بمجلس الستّة قد تقلّص، وحلَّ مكانَه المجلسُ الأعلى للحلفاء، أو ما يُعرف بمجلس "الأربعة الكبار"، ثمّ أُجّلَ ما تبقّى من خطاب فيصل لتاريخٍ لاحق يحدّده المجلسُ الجديد، ولم يُعرف لهذا التاريخِ تاريخٌ. استخدمَ فيصل اللغةَ العربيةَ في حديثِه مستعينًا ببعضِ المَلاحظِ التي حبَّرها على ورقةٍ أمامه، ولم يكن هنالك مترجمٌ رسميٌّ، سوى ما كان يقوم به لورنس من ترجمةٍ لبعضِ الجمل على غير نظامٍ واضح. ووُجِّهَت بعضُ الأسئلةِ لفيصل، إلا أنّ لورنس ليس مترجمًا مُحلّفًا، فلم يفهم الأمير فيصل ولا من حضر معه شيئًا ممّا كان ينقله لهم بالإنجليزية، ولم يكن أحد من الأوروبيين هناك على معرفة بالعربية سواه"(٦).

اعترف لورنسُ مرّةً وقال: "إنّ مهارتي [بالعربية] تفتقرُ إلى معرفةِ قواعدِ اللغة؛ ولذا كان من يستَمعُ إلى كلامي يدخُل في مغامرةٍ لا يُعرَف مصيرُها"(٧). وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الترجمةَ التي أدّاها لخطابات الأمير فيصل والأعيانِ العربِ الذين معَهُ شابَها الضعفُ، ولم تخدمِ الغرضَ المرجوَّ منها. وجديرٌ بالذكرِ أنّ فيصلا كان رجلاً مثقّفًا متعلّمًا، وأغلبُ الظنّ أنّه ألقى خطابًا جريئًا مقنعًا حول قضيةِ استقلال فلسطين، إلا أنّ ضعف المهارات اللغويّة لدى لورنس قضى على الأثرِ المقصودَ من الكلام.

حاول وايزمان في باريس التقرّبَ إلى فيصل؛ لأنّه شعر بحاجة لدعم العرب للقضيّة الصهيونية، أو دعمها بوجهها الملطّفِ الآخر الذي يخفي من

وراءه النوايا الرامية لجعل فلسطينَ وطنًا قوميًا لليهود. وأفضى فيصلُ لأعوانه انزعاجَه الشديدَ من إلحاحِ وايزمان وتطفّله، وقالَ لهم مرةً: "ما الذي يبتغيه هذا الرجل؟ هل ثمّة نصيحة لأتخلّصَ منه؟ ألا يكفي أنّه يُبرمُنا بخطاباتِه الطويلة"[^٨].

لم يفلحْ وايزمان في إقناع فيصل، وقد زاد في صعوبةِ مهمّتهِ ذلك الخطابُ الذي ألقاه في ذلك الوقت إسرائيلُ زانجويل أمام الملأ وقال فيه: "إنّ الكثيرَ من عربِ فلسطين أقربُ في طبيعتِهم إلى البداوة، ولم يقدّموا شيئًا لفلسطين، وهم ليسوا أهلاً لأسسِ الديمقراطيّة." فردّ فيصل على زانجويل في مقابلة أجرتْها معه صحيفةُ جُويش كرونيكل (Jewish Chronicle) وقال: إنّ لفلسطينَ شعبًا تعمّقتْ جذورُه بأرضِها، ولا يمكنُ تحويلُها لدولةٍ يهودية.

ويبدو أنّ معظمَ القراراتِ التي اتُّخِذَتْ في شأنِ الشرقِ الأوسط كانت قراراتٍ سريّةً، فالأمر قدْ اختمرَ في ذهنِ كلٍّ من بلفور وليود جورج، ولم يبقَ على الصّهاينة إلاّ أنْ يضعوا مطالبَهم في قالَب حَسَنٍ لطيفٍ، مع أنّ حقيقتَهم بدأتْ تتكشّفُ بين الحينِ والآخر، كما حصلَ مع وايزمان حين سألَه وزيرُ الخارجيّة الأمريكيّ عن حقيقةِ معنى "الوطنِ القومي"، فكانَ جواب وايزمان- بالرغم ممّا سمعَه من تحذيرٍ من المسئولين البريطانيين بعدمِ ذكرِ عباراتِ مثل "فلسطين اليهودية" لما في ذلك من إحراجٍ للحكومةِ البريطانية- كما ينقله لنا جيفريز: "لم يُلْقِ وايزمان بالاً للسياسة المتفق عليها وقالَ: "إنّ الوطن القوميّ يعني لزامًا أن تُهيّأ الظروفُ في فلسطين لتصبح دولةً يهوديّةً خالصةً، مثلما أنّ أمريكا أمريكية، وإنجلترا إنجليزية."... فانقضّت حقيقةُ أمرِه من جُحرِها مستنفرةً، مُكشّرةً عن أنيابِها، يملأُ صوتُها الأرجاء"[^٩].

لم يعلمْ عامّةُ الفلسطينيين شيئًا ممّا يدورُ في مؤتمر الصلحِ في باريس، ولم يكن لرأي الفلسطينيين صدًى يَرِدُ في المباحثاتِ التي تنظرُ في مستقبلِ المنطقة، إلا ما كانَ من شأن الأمير فيصل الذي لم ينجمْ عن تدخله أثـرٌ يُـذكَر، وتلـك المحاولةِ اليتيمةِ التي تلَتِ الحربَ بأشهرٍ قليلة للتعرف على الـشأن الفلـسطيني، والتي تمثلتْ بإرسالِ لجنةٍ من بين ستّ لجانٍ أُخْـرى علـى الأقـلّ سـنتتبعها، ووصلتْ هذه اللجنةُ فلسطينَ لدراسةِ الأوضاعِ التي خلقها إعلان بلفور.

كانت لجنةُ كينج-كرين هي التي أثارتْ قلـقَ الـصهاينةِ والحكومـةِ البريطانيّة بشكلٍ فعلي، وكانت إلى حدّ كبيرٍ في صالح الفلـسطينيين. وقـد وصلتْ هذه اللجنةُ في وقتٍ كانتْ فيه بريطانيا وفرنـسا تتجـادلان حـولَ الأجزاءِ التي ستسيطر عليها كلٌّ منهما من مصرَ حتى تركيا. فأعلنتْ فرنسا رغبتَها في سوريا وفلسطين، وربّما اقتنعتْ بسوريا بعد ذلك، أمّا بريطانيـا فتريدُ فلسطينَ لليهود ولأسبابٍ إستراتيجية أخرى. ولم يكن السوريّون، على الأغلب، ليقبلوا بسلطة انتـداب علـيهم، وفـضّلَ الفلـسطينيونَ الانتـدابَ البريطانيّ، معَ أنّهم لا يريدون أن تتزايدَ أعدادُ اليهود عمّا هي عليه. فأرسلَ الرئيسُ الأمريكيّ وودرو ويلسُن لجنةً إلى الشرق الأوسط لتقصّي الحقـائق. وكان يفترض أن تكون اللجنةُ دوليةً، إلا أنَّ بريطانيا وفرنسا وإيطاليا سحبتْ أعضاءَها، ولم يبقَ من اللجنة سوى أمريكيّين اثنين، وهمـا هنـري كِـنج وتشارلز كرين. وأعجَبُ ما في الأمر أنَّ مصيرَ فلـسطينَ قـد تقـرّرَ دون الالتفات إلى النتائجِ التي خلُصَت إليها هذه اللجنةُ. والحقيقـة أنَّ إجـراءاتِ السفر، وجمعِ الأدلّة، وكتابةِ التقرير قدِ اسـتغرقتْ وقتًـا طـويلاً، وكانـتِ التطورات في باريس تجري على قدمٍ وساقٍ ولم يكنْ في وسعِ كِنج وكـرين مجاراتُها. ولمّا عادتِ اللجنةُ إلى الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيّة كـانَ الـرئيسُ

ويلسن مريضًا، فلم يتمكّنْ من النظر إلى التقرير، فانتهى أمره في مخـــازن الأرشيف الأمريكية، ولم يظهر ثانية إلا بعد سنوات من إغلاق ملف فلسطين، والختم عليه.

ولكنْ كيفَ كانتِ الأمورُ ستحولّ مجراها لو تشكّلتْ لجنة كنج-كـــرين دون تأخيرٍ، ولو أنّها أسرعَت في إعداد تقريرها ليتاحَ لها نشرُه والأمورُ ما زالت تُقلّبُ في مطبخِ مؤتمرِ باريس؟ فتوصياتُ التقريرِ جاءت واضـــحةً لا لبسَ فيها ولا مواربةَ، واقتبسَ التقرير النهائي فقرةً من خطابِ الرئيسِ ويلسُن الذي قال فيه: "إنّ حلّ أي قضيّة، سواءٌ أكانتْ مسألةَ إقليم، أم سيادةَ أم تسويةَ اقتصاديةٍ أم علاقةٍ سياسية، لا بدّ أن يقوم على أساس القَبول الطّوعيّ لذلك الحلّ من الشّعْبِ المَعنيّ"، ثمّ قالتِ اللجنة: "فإنْ أردْنا إنـــزالَ هـــذه القاعـــدةِ منزلتَها، والنظر إلى رغبةِ سكّان فلسطين بوصفها الحكَمَ الفصلَ في تقريـــرِ مصيرِ بلادهم، فإنّ تسعةَ أعشارهم يعارضون البرنامجَ الـــصهيونيَّ برمّتـــه بشكلٍ قاطع. وتُظهر الجداول [في التقرير] أنّ سكّان فلسطين لم يتّفقوا علـــى شيء مثلما اتّفقوا على هذا الرفض. فإنْ حصلَ إخضاعُ شعبٍ يأبى بتاتًا فتحَ الأبوابِ للهجرةِ اليهوديّةِ غيرِ المحدودة، وممارســـةُ الـــضّغوطِ الاقتـــصاديّةِ والاجتماعيةِ عليه ليتنازلَ عن أرضه، فإنّ ذلكَ يُعدُّ انتهاكًا صـــارخًا للمبـــدأ الذي سبقتِ الإشارةُ إليه، واعتداءً على حُقوقِ هذا الشّعْب، حتى وإنْ حـــدثَ ذلك ضمن أطر القانون"(١٠).

ولم يجد كاتبُ السيرة الذاتيّة لويلسن أي وثيقة تثبت أنّه قـــدْ أُتـــيحَ لـــه الاطّلاعُ على التّقرير، بلِ اكتشفَ أنَّ نسخة الرئيسِ كانتْ قـــد أزيلـــت مـــن أرشيفه الخاصّ (١١).

سَعَتِ السلطاتُ البريطانيةُ في فلسطين إلى تهدئــة رُوعِ الفلــسطينيين واستيعابِ غضبهم، وذلك بعد أن راجت الشائعات بشأن مخططات الفرنسيين والبريطانيين والصهاينة. وشعرَ الجنرالُ اللنبي بواجبٍ يحتّم عليه أن يبيّن للناس أنّ بريطانيا ستفي بوعدها لهم؛ لأنّه كان على علم يقينٍ بالوعود التــي قُدّمت للعرب إنْ هم ساعدوا في هزيمة الأتراك، ويعلمُ أيـضًا أنّهــم وفــوا بالتزامهم في هذه الصفقة، فأصدرَ منشورًا في تشرين الثــاني عــام ١٩١٩ في أرجاء فلسطين كافّةً يقول فيه:

قرّرت الحكومة الفرنسية بعد الاتّفاق مع الحكومة البريطانية، أن تُصدرَ الإعلانَ المشترك التالي، من أجل أن تؤكدَ للشعوب غير التركية من جبــال تاورُس إلى الخليج الفارسي، أنّ كلا الدولتين، في حدود سيطرة كلٍّ منهــا، تسعيان لأن توفّر لهمُ الاستقلال التام، وتضمنان حصولهم علــى التحــرر، وتحقيقَ التنمية لحضارتهم.

إنّ الغاية التي جاءت فرنسا وبريطانيا لتحقيقها في الشرق بعد الحــرب التي أطلق لها الألمانُ العنان بمطامعهم، هي منحُ الشعوبِ التي طالَ اضطهادُ الأتراك لها الحريّةَ الكاملةَ غير المنقوصــة، وتأســيس حكومــات وإدارات وطنية، تستمدّ سلطتها من مطالب شعوبها المحلية وخياراتهم الحرّة (١٢).

كُتِبَ هذا الإعلانُ في باريس باللغة الفرنسية، ونالَ الموافقةَ الرسميةَ من بريطانيا وفرنسا، ونُشِرَتِ الترجمةُ الإنجليزيّةُ في صحيفةِ التايمز البريطانيّة، ولكنّ الفقرةَ الأولى، لسببٍ ما، حُذِفَتْ منه، وهي جزءُ الإعلان الذي ينطبــقُ صراحةً على شعب فلسطين، رغمَ أنّه مشمولٌ في عبارة: "الــشعوب غيــر التركيّة بين جبال تاورُس والخليج الفارسي". كان هنالك بالطبع مناطقُ أخرى بالإضافة إلى فلسطين، خاضعةً لحكم الأتراك، والتي ستتمكن فيما بعد مــن

تأسيس "حكومات وإدارات وطنيّة تستمدّ سلطتها من ... شعوبها المحليـــة"، ولعلهم وربّما كانوا يأملون أن يفهم الإعلان على أنه يشمل العراقَ وســـوريا والجزيرةَ العربية وغيرها.

ولسنا نبالغُ حين نقولُ إنَّ الصهاينةَ في هذه المحطّة قد حقّقوا مـــا يُعَــدُّ أعظم انقلابٍ في تاريخهم، إذ يبقى إعلانُ بلفور، بصرفِ النظرِ عن الهالـــة التي وُضِعَت حوله، مجرّدَ رسالةٍ لا تقدّمُ ولا تؤخّر، أمّا الآنَ فقد أصـــبحتْ بريطانيا على مَرمَى حَجَرٍ من الحصول على الانتدابِ على فلـــسطين، وقـــد تشكّل بالفعلِ فريقٌ ليَضعَ الأحكامَ المُنَظِّمةَ للانتدابِ ويحـــدِّدَ الـــسبلَ لإدارةِ الدولةِ الخاضعةِ لهذا النظام، ويرسمَ الخطواتِ نحو تحقيقِ استقلالها في نهاية المطاف. ووُكِلَ هذا الأمرُ إلى لجنةٍ يرأسُها اللورد ميلنَـــر (وهـــو مناصـــرٌ مخلصٌ للصهيونية) وباتت مسألةُ صياغةِ أحكامِ الانتداب تبـــادلاً لوجهـــات النظر بين أعضاء اللجنة وممثّلين عن المنظّمة الصهيونية، ولاسيّما الـــسير هيربرت صامويل، الذي سيضطلعُ بدورٍ أساسيٍّ في السنواتِ الأولـــى مـــن الانتداب. فلا غرابةَ إذنْ أن جاءت الصياغةُ النهائيةُ لأحكامِ الانتدابِ مُشتَمِلةً على إعلان بلفور، وصارَ مبدأً تلتزم به حكومةُ الانتداب، بما فيه تلك العبارة الغامضة التي تتحدّثُ عن "الرابط التاريخيّ بين الشعب اليهودي وفلسطين". واشتملَ نظامُ الانتداب على بنودٍ هي في الحقيقة اقتباساتٌ من بعضِ الوثائق الصهيونيّةِ التي صدَرَت قبل مؤتمرِ الصلح. فقد جاءَ في المادّةِ السادسةِ على سبيل المثال: "تلتزم إدارة الانتداب في فلسطين بتـــسهيل الهجـــرة اليهوديّـــة ويجبُ أن تشجّع توطين اليهود في الأرض"[١٣].

شَعَرتِ الحكومةُ البريطانيّةُ بضرورةِ الاستعجالِ في إقامةِ نظامِ الانتداب في فلسطين، فهو يمنحُها نفوذاً أوسعَ في إدارةِ الدولة، بخلافِ ما عليه الأمرُ

التي تفرضها الأحكامُ الخاصّةُ بإدارةِ مناطق العدوّ المستعمرة، وفلسطينُ جزءٌ منها. ووقفت هذه الأحكامُ عَقَبةً في طريقِ وايزمان ورفاقِــه، وحالــتْ دون تحقيق آمالهم في فلسطين، وقد بدأتِ الحكومةُ العسكريةُ تضيقُ ذرعًا بالبعثة الصهيونية التي باتَتْ تُملي عليْها ما يجبُ فِعلُه، بفضل ما تلقــاه مــن دعــمِ وزارة الخارجية في لندن ومآزرة ليود جورج وبلفور اللّذين لم يدّخرا جُهــدًا في دعم القضية الصهيونية.

وكان من دواعي المفاجأةِ والاستغرابِ لريتشَرد مــاينرزتزاجن نفــسه (وهو الذي قَرَنَ ذِكْرَ العربِ "بسوءِ الأخلاق والحكوماتِ العفنــة والمجتمــع الفاسد الدجّال") أنْ يقع الاختيار عليه ليُصبِحَ كبيرَ المسؤولين السياسيين فــي فلسطين وسوريا في كادر الجنرال اللنبي، فانتهزَ فرصةَ وجوده في الحكومة العسكريّة في فلسطين ليتحكّم بسيرِ المعلومات من الحكومة البريطانيــة فــي وايتهول إلى الشعب الفلسطيني بما يضمنُ في النهاية مصلحةَ الــصهيونية. وأبْرَقَ ماينرتزاجن في أحدِ الأيّام إلى اللورد كيــرزن ليقــول: "إنّ شــعب فلسطين ليس مهيّئًا في الظرف الحالي لأنْ يعلموا بأنّ إقامة دولة للــصهاينة في فلسطين هي السياسةُ التي تتبنّاها حكومةُ جلالة الملك وأمريكا وفرنــسا، وهم غير قادرين بعدُ على استيعابِ هذه الحقيقة. فالمُستَحْسَنُ في ضوء هــذا أن نتأنّى في أمر برقيتك رقم ٢٤٥ المؤرّخة في الرابع من آب ١٩١٩، وأن نرجئ تعميمها إلى حين. وعندما يصل الدكتور وايزمــان، فــإنّني ســأكتبُ بالتعاونِ معه ومع الحاكم العسكري بيانًا يوضّحُ بلغةٍ متّزنةٍ معنى الصهيونية، والسبيلَ التدريجيَّ لإقامتِها، وأنّها بعيدةٌ كلَّ البعــدِ عــن التعــصُّبِ الــدينيِّ والماديِّ، ونوضّحُ فيه المنافعَ التي ستجلبُها لفلسطينَ، معَ نفــيِ مــا يجــري تداولُه من أنّ الهجرة إلى فلسطين ستجلِبُ معها أراذل الأقوامِ مــن أوروبــا

الشرقية"[١٤]. ويضيفماينرتزاجن في مذكّراته: "كنت على ثقة بأنّ المشاعر المناهضة للصهيونيّة مصطنعة ومبالغٌ فيها، سواءٌ ما كان منها محليًا أم في بلادنا، وتأكّدت ثقتي هذه بعدما تقصّيتُ الأمرَ بمزيد من الدقّة. وأستبعدُ أن تطرأ أي مشكلةٍ في المراحلِ التمهيديّةِ من الخطّة الصهيونية ما دام قادتها يلتزمون منهج الاعتدال"[١٥].

بيد أنّ لرأيه هذا مخالفين في الإدارة البريطانيّة، وعلى رأسهم السير لويس بولس، الذي تبرّم لأسياده في وايتهول وقال: "إنّ سلطتي وسلطةَ كلّ فرد في إدارتي مسلوبةٌ أو منقوصةٌ بتصرّفات البعثة الصهيونية، وهذه الأوضاعُ إن استمرّت، فإنّني متأكّدٌ من سوءِ مردِّها على السلم العام، وتهديدِها لسلطاتِ الإدارة البريطانية... ولا جدوى بعدَ ذلك في إخبارِ المواطنين المسلمين والمسيحيّين أنّنا قد التزمنا بالإعلان الذي يقضي بالحفاظ على الوضع الراهنِ كما ألفيناهُ عند دخولنا القدسَ، إذِ الحقائقُ كلّها تشهدُ بغيرِ ذلك: فالعبريّة أصبحتْ لغةً رسميّة، وصارَ لدينا نظامُ قضاءٍ يهوديٌّ، وعجّتِ الحكومةُ بشخصيّاتٍ من البعثة الصهيونية، وأصبحوا على علمٍ بكلّ دقائقها، عداكَ عنِ امتيازاتِ السفر التي تُمنَح لهم. فبات الأفراد غير اليهود في الدولة مقتنعين بأنّنا منحازون لغيرهم. وفوق هذا كلّه، تأتي البعثةُ الصهيونيةُ لتتّهمني وتتّهمَ غيري من المسؤولين حولي بمعاداة الصهيونيّة. ما عادَ يمكنُ تحمّلُ هذا الوضع، ولا بدّ من التعامل معه بإنصاف لي ولضبّاطي"[١٦].

أزمَعَ السير لويس على حلِّ البعثةِ الصهيونية، وتأسيسِ لجنتين استشاريّتين، واحدةٍ للعرب وأخرى لليهود، من دون مزايا خاصّةٍ لأيّ منهما. إلا أنّ رياحَ هبّته هذه أتتْ بما لا تشتهيهُ سفنُها؛ فالبعثةُ الصهيونية مارست ضغوطَها لتنهِيَ مهامَّ السير لويس وإدارتِه، وطالبوا بحكومةٍ مدنيّةٍ

في فلسطين يكونُ لها سلطةٌ أوسع: حكومةٍ لا تقف عقبةً في طريقِ إقامةِ الدولةِ اليهوديّة. لقد قالها السير لويس مرّةً في تقريره: "كيفَ يمكنُ أنْ نُرْضيَ من يدّعي في ميدانِ السياسةِ الحزبيّة أنّه لا يريد سوى "وطن قومي"، وهو في حقيقةِ الأمرِ لن يرضى بشيء أقلّ من دولةٍ يهوديّةٍ بكلّ ما يشتملُ عليه ذلك من مسلّمات سياسية"(١٧).

اتّهم الصهاينةُ السير لويس وإدارتَه بأنّهم يسعَون متقصّدين لإحباطِ مساعيهم، وأنهم يُحابون العربَ في فلسطين عليهم، وهذا في زعمِهم يعكس توجّهًا مناصرًا للعرب، مناهضًا للصهيونيّة في وزارة الخارجيّة البريطانية. والحقُّ أنَّ الإدارةَ العسكريّةَ في فلسطينَ حرِصَتْ على حمايةِ مصالحِ العرب، ولكنْ لأسبابٍ مغايرةٍ لتلك التي ذكرها الصهاينة، نجْمِلُها نحنُ بالإشارة إلى أنّ السير لويس وأفرادَ إدارتِه العسكريّةِ كانوا ضمنَ إدارة مناطقَ العدو المحتلّة، وهم ملزمون قطعًا باحترامِ القوانين الدوليّةِ التي تلزِمُهم بالحفاظ على الوضع الراهنِ والإحجامِ عن تغييرِ طريقةِ إدارة المنطقة إلى حين التوقيعِ على اتفاقيّةِ صلحٍ نهائية. ومن المعلوم أنّ واحدًا وتسعين بالمئةِ من سكّان فلسطين هم من العرب، وتسعة بالمئة من اليهود، وإن وافقت إدارة مناطق العدوّ المحتلّة على فتح أبواب الهجرة للآلاف من اليهود، نزولاً عند رغبةِ الصهاينة، فإنّ ذلك سيعدُّ خرقًا للقانون الدولي.

ورأت الحكومةُ البريطانية المواليةُ للصهيونيّة أنّ أسهلَ طريقةٍ لتحقيق حريّةِ المناورة التي تحتاجُها في فلسطين هي الإسراعُ في تطبيقِ نظامِ الانتداب (الذي يشتمل على إعلان بلفور) في أقرب فرصة تلوح لهم، مستفيدين من عدم سريان أحكامِ الإدارةِ العسكريّة في المناطق المحتلّة على أي إدارة مدنية تقوم فيها. فعمدَ بلفور ولويد جورج ومن سار سيرَهما، إلى

حلَّ إدارةِ مناطقِ العدوّ المحتلّة، وعيّنوا مندوبًا ساميًا في فلسطين (وكان هيربرت صمويل على أهبةِ الاستعداد) يوكَلُ إليه أمرُ تأسيسِ حكومةٍ مدنيّة تمارسُ صلاحياتها بموجب أحكام الانتداب، والتي تنصّ في جوهرها على ضرورة تهيئة الظروفِ التي تصبح فيها فلسطين وطنًا قوميًّا لليهود. وسيكون لليهود ما يبتغونه.

لكنّ نظام الانتدابِ لا يسري إلا بعد الانتهاءِ من اتفاقيّةِ الصلحِ مع تركيا، وتبقى فلسطين حتى ذلك تحتَ الاحتلال البريطاني بموجبِ أحكام الهدنة. شعرت بريطانيا في ربيع عام ١٩٢٠ بقرب تركيا من توقيع اتفاقيّة الصلح، فأسرعت إلى التخلّص من السير لويس بولس ورجاله، وبدأت بترتيب أوراق حكومة الانتداب المنتظرة. ولم يعلم السير لويس بهذا الأمر إلا لمّا أبرقَ إليه هيربرت صامويل، يستأذنه في الإبقاء على طبّاخه الخاص"[١٨].

ثمّ جاء الأمريكيّون ليفسدوا سيرَ الأمور ويعكّروا الأجواء، فبعدَ أنِ اتّفقتْ فرنسا وبريطانيا على تقاسم عائدات نفط العراق بينهما وتأكيد ذلك في معاهدة الصلح مع الأتراك، تحركت الإدارة الأمريكية لتنكّر الطرفين الأوروبيين أنّ هذه الأحكام الخاصّة التي تقضي بتقاسم النفط بينهما تتعارضُ مع الغايةِ من معاهدة الصلح ألا وهي المساواة بين جميع الدول في مجال التّجارة.

وتلك قضيّة هامشيّة لا ارتباط لها بفلسطين في ظاهر الأمر، إلاّ أنّها سلكتْ بمعاهدة الصلح مسلكًا صعبًا، عنى- أو كان حريًّا به أن يعنيَ- صعوبةَ إنفاذِ نظام الانتداب على فلسطين. فكان من سعْدِ اليهود (وبؤسِ العربِ الفلسطينيّين) أنّ الحكومةَ البريطانيةَ قد غضّتِ الطرفَ عن هذه المشكلة، ومضت قدمًا نحو ما خطّطت له، ويكأنَّ أطرافَ النزاعِ قد فرغوا

من توقيعِ اتفاقيّة الصلح. وهكذا أصبح المندوبُ السامي الصهيونيّ في الحكومة المدنيّة الجديدة يتمتّعُ بحريّة أوسعَ تمكّنهُ من تهيئةِ الظروفِ المثلى لإقامةِ الوطنِ القوميّ اليهودي. واستمرَّ هذا الوضعُ الغريبُ الذي خلقته بريطانيا لتحكم فلسطين دون شرعيّة قانونية لمدة ثلاث سنوات، أي إلى أن صادق الحلفاء وتركيا على اتفاقيّة الصلح عام ١٩٢٣.

لم يعرفْ الناس شيئًا عن هذهِ التحرّكات، وكانت الإشارة إلى الانتداب في جلسات البرلمان وفي النشراتِ الرسمية تُضفي صفة الشرعيّة على كلّ شيء، حتى إنَّ الحكومةَ أُسقطَ في يدِها لما اتُّهِمَتْ في مجلس الأعيان البريطاني في تموز ١٩٢٠ بأنّها تحكمُ فلسطينَ بصورة غير قانونيّة. ولم تتمكّنْ من الدفاع عن حكومتها المدنية في فلسطين حين أشار جيفريز في صحيفة الديلي ميل إلى أنّها تمثّل خرقًا للقانون الدوليّ وأنّها ستظلّ كذلك حتى توقيع اتفاقيّة الصلحِ مع تركيا. وجاءَ في كتابات جيفريز لاحقًا: "لا يمكنُ بأيّ حالٍ تجاهلُ الصفةِ الحقيقيّةِ للحكومة التي قامت بين عام ١٩٢٠ و ١٩٢٣، إذ إنّها خرقَتِ القانونَ الدولي مرارًا، حتى أضحى ذلك ديدنُها، واستمرّتْ في خرقِ القانون في شؤون بالغة الأهميّة."[١٩]

خَرَجَ الانتدابُ في فلسطين من رَحْمِ غيرِ شرعيّة، وأضحَتِ الحكومة البريطانية مقيّدةً بوثيقةٍ من اختيارها، ألزمَتْ بها جميع الحكومات من بعدها، ولو على كرهٍ منهم. فالانتدابُ على فلسطينٍ قد جعلَ من إعلانِ بلفور جزءًا من أصول أحكامِه، فكان مَثَلُه كمَثَلِ بطاقةٍ كُتِبَ على وجهها الأول: "إنّ العبارةَ على الوجهِ الآخر من البطاقةِ صحيحة"، وعندما تقلبُها تجد مكتوبًا عليها: "إنّ العبارةَ على الوجه الآخر من البطاقة خاطئة" فكيفما نظرت إليها رأيتَها متناقضةً. وهذا هو حال فلسطين، إذ كُتِبَ على الوجه الأول من

بطاقتها: "ستكون فلسطين وطنًا قوميًا للشعب اليهودي" أمّا الشقّ الآخر فيقول: "إنّ حقوقَ السكّانِ الأصليّين في فلسطين ستبقى مصونةً".

زار فلسطينَ عددٌ كبير من البعثات خلال ثلاثين سنةً بعد تاريخ إقرار الانتداب، وبعثت جميعها في ذاكرة الحكومة البريطانية أثرًا من ذاك التناقضِ الذي صنعتْه في هذه الأرض، وإن جال بخاطر أيّ إدارة بريطانيّة أن تتنصّلَ أو تُعدِّلَ الأحكامَ الخاصّةَ بإعلانِ بلفور، كانتْ تحذيرات المنظّمة الصهيونية لها بالمرصاد.

أمّا العبرةُ التي نستقيها من إعادةِ سرد هذه الأحداث اليوم فلها شقّان؛ الأول: التأكيدُ على أنَّ عداءَ اليهود الصهاينةِ للعربِ وهضمَهم حقوقَهم يعودُ لمئةِ سنةٍ خلَت، فهي ليست ردّةَ فعلٍ فقط على ما قام به العربُ تجاه الإسرائيليين في السنوات القليلة الماضية، وبهذا ندْرِكُ أنَّ تعاملَ الحكومةِ الإسرائيليةِ في عصرنا الحاضر مع العرب الفلسطينيين لا يختلفُ شيئًا عمّا كان عليه حالُ الصهاينةِ في بدايةِ أمرهم، فهم لا يزالون يَعُدّونَ الفلسطينيّين حائلاً دون تحقيقِ الدولةِ اليهوديّة الصِّرفة؛ مع أنّهم لا ذنبَ لهم إلاّ أنّهم يعيشون في بيوتِهم التي يملكونها. أمّا الشقّ الثاني فهو أن الحكومة البريطانيّة بقَبولِها فكرةَ الدولةِ اليهوديّةِ في فلسطين قد تجاهلتِ الأدلّةَ والتوصياتِ التي توفّرت لديها في الأيّام الأولى من إدارتها لفلسطين، والتي دلت جميعُها على أنّ الغاية التي تسلكها ستؤدي إلى كارثةٍ لا مفرَّ منها. وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الحكوماتِ الأخرى التي أدّت دورًا في الشرق الأوسط قد أعرضتْ صفحًا عمّا سيفرزُه تحويلُ فلسطين- والتي أصبحتْ إسرائيل لاحقًا- إلى دولةٍ يهوديةٍ خالصةٍ أو الإصرارِ على ذلك، من ظلمٍ فادحٍ لملايين العرب الفلسطينيين في أرجاء العالم.

بدتْ للعيان منذ مئة عام مضتْ طبيعةُ النتائج التي ستترتّب على الهجرة اليهودية الكبرى لفلسطين: "إنّ تدفّق الهجرة سينتهي بمصيبة، لأنّ استمراره على هذه الوتيرة سيبلغ الحدَّ الذي يشعر عنده السكّانُ الأصـليّون بالتهديـدِ لمصيرهم، وحينها سيُرغمون الحكومةَ على وقفِ هجرةِ اليهود."[٢٠] هذا مـا قاله ثيودور هيرتزل، مؤسّس الحركةَ الصهيونيّة، وكان محقًّا فيما قاله.

هوامش الفصل العاشر

(1) Richard Meinertzhagen, Middle East Diary 1917-1956, Thomas Yoseloff, 1959, pp. 24-5.
(2) Ibid., pp. 24-5.
(3) J. M. N. Jeffries, Palestine: The Reality, Longmans, Green and Co., 1939, p. 267.
(4) National Archives, London EO. 60S/99. Minutes of an informal meeting held on 21 March 1919, quoted in The Rise of Israel, Vol 10, Garland Publishing Inc., 1987, pp. 221-25.
(5) Izzat Tannous, The Palestinians, I. G. T. Company, 1988, p. 182.
(6) Jeffries, Palestine: The Reality, p. 259.
(7) Quoted in ibid., p. 249
(8) Ibid., p. 257.
(9) Ibid., p. 266.
(10) Quoted in ibid., p. 293.
(11) Ibid., p. 301.
(12) Ibid., pp. 236-40.
(13) 'Unless the Lord Build the House They Labor in Vain Who Build It: The Palestine Mandate', The Weekly Review, 2 May 1946.
(14) Meinertzhagen, *Middle East Diary* 1917-1956, p. 52.
(15) Ibid., P, 58.
(16) Jeffries, *Palestine: The Reality*, p. 359.
(17) Ibid.
(18) Ibid., p. 367.
(19) Ibid., p. 393.
(20) Theodor Herzl, A Jewish State, translated by S. D'Avigdor, D. Nutt, 1896, pp. xii, 102.

الفصل الحادي عشر

عِقْدُ العشرينيات

حَدّدَت بوصلةُ الانتداب اتّجاهَ الأحداثِ التي ستشهدُها فلسطينُ على مرِّ عقدينِ من الزّمن، فالوثيقةُ لا تذكرُ كلمةَ "العـــرب" ولا مـــشتقّاتِها إطلاقًـــا، ووردتْ كلمةُ "الإسلاميّ" مرّةً واحدةً في مَعْــرِضِ الإشـــارةِ إلـــى الأبنيـــة في فلسطين، أمّا لفظ "اليهودِ" أو "اليهوديّ"، فيردُ فيها خمسَ عـــشرةَ مـــرة. ويُلزِمُ الانتدابُ من يحكمُ فلسطينَ أن يعملَ جاهدًا على حمايةِ حقوق ســـكّانها "غير اليهود".

وقد بدأ يهودُ أوروبا بالتفاعلِ العمليِّ معَ بندِ "الوطنِ القوميّ" وراحـــوا ينظّمون ذاتَ بينِهم لتحقيق هذه الغاية، ورَنَتْ آمالُهم إلى زيادةِ نسبةِ الهجـــرةِ إلى فلسطينَ حتّى تنقلبَ الأقلّيّةُ اليهوديّة الضئيلةُ فيها إلى مئات الآلاف، مـــع أنّ هذه الأقلّيّةَ اليهوديّةَ عاشتْ في فلسطين منذُ أجيالَ عديدة، وهـــي تقْطـــنُ بأحياءَ معروفةٍ في المدن والقرى القديمة، مع العلمِ بأنّ هجرةً يهوديّـــةً إلـــى فلسطينَ قد حدثتْ قبلَ عقود معدودة، أثناء الحكم التركيّ، وأُنشئَت لهم بعضُ "المستعمرات" (وهكذا كانت تُدْعَى آنذاك)، وقامت هذه المستعمراتُ أحيانًـــا على أرضٍ غيرِ زراعيّة، فقاموا همْ باستصلاحها واستزراعِها. وخـــضعتِ الهجرةُ في السنوات الأولى من الانتداب لسيطرةِ الحكومة البريطانيّة، ولـــم تكنْ أعدادُ اليهودِ الذين يصلون إلى فلسطين كبيرةً مقارنةً بمجمـــوع ســـكّان الدولة البالغ ٧٠٠,٠٠٠ تقريبًا.

بلغَ عددُ المهاجرين إلى فلسطينَ رسميًا بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٣، حوالي عشرة آلاف يهوديٍّ، وليس هذا بالعددِ القليلِ مقارنة مع الأقليّة اليهوديّة الموجودة، (والتي يبلغ عددها ٨٠,٠٠٠ تقريبًا). ثمّ ارتفعت الهجرة (الشرعيّة) في عام ١٩٢٤ لتصل إلى ١٢,٠٠٠ ثمّ بلغت ٣٣,٠٠٠ في عام ١٩٢٥، وبذلك أصبح عدد اليهود عام ١٩٢٦ (١٥٠,٠٠٠) أي ما نسبته عشرون بالمئة من سكّان فلسطين.

وباتتْ نوايا بريطانيا بزيادة عددِ اليهود في فلسطين واضحةً لا تخفَى على أحدٍ، فتولّدَ العداءُ بينَ العربِ واليهودِ في السنوات الأولى من الانتداب، وكان العربُ في الغالبِ هم من يظهرون العداوةَ للمهاجرين الجُدد، وليس العكس. ولم يكنِ الصهاينةُ ليقيموا أيَّ اعتبارٍ في أذهانهم للعرب، فكانوا يتجاهلونَهم، أو يعدّونهم في عدادِ المتخلّفين المفتقرين للحضارة، فلا غرابةَ إذنْ أن لا يروا في خُططهم الراميةِ للاستيلاء على دولتِهم أيَّ اعتداءٍ على حقوقِهم. وسَعَى وايزمان للتغطيةِ على حقيقةِ أنَّ العرب جميعَهم، دونَ استثناء، يعارضون قيامَ الدولةِ اليهوديّة، وادّعى أنَّ من يعارضُ ذلك هم شرذمةٌ لا يُؤْبَهُ لهم، فقال: "هنالك بين العربِ أقليّةٌ حاقدةٌ تنكرُ حقوقَ الشعبِ اليهوديِّ بفلسطين، ولا يمكن بحالٍ الجدالُ معَها، وهؤلاء هم من يقفون حجر عثرة في وجهِ تحسينِ حياةِ الجموع العربيّة"[1]. ولمّا بدأ اليهود يتوافدون على فلسطين بأعداد متزايدة، واجهوا ما كانوا يتوقّعون مواجهتَه، ونزلوا في أحياءَ تفرّقهم عن العرب الفلسطينيّين، الذين كانوا هم السوادَ الأعظم على أرض فلسطين.

"لمْ يُلقِ اليهودُ بالاً للتأقلمِ معَ شكلِ الحياةِ الشرقيّة، ولو فعلوا ذلك لكان فيه إثراءٌ لنمطِهم الثقافيِّ الخاصِّ بهم، ولجنّبهم ذلك أن يظهروا غرباءَ على

البلدِ بصورةٍ تنطوي على استفزازٍ لأهلها." وهذا ما كتبه رجلٌ يهوديٌّ يُدعى آرثر كويستلر، والذي يقولُ أيضًا: "لم يتعلّموا من العرب أن يبْنوا بيوتًا باردةً رحبةً تناسب المناخ وطبيعة الأرض، بل أحضروا معهم طرازَهمُ المعماريَّ من المدينةِ البولنديّة الصغيرةِ، أو نظامَ البناء من المدرسةِ الوظيفيّة الألمانيّة في العشرينيات. ونقلوا لباسهم وعاداتِهم وطريقةَ حياتِهم بكلّ تفاصيلها، وكأنّها قالَبٌ جاهزٌ جلبوه معَهمْ من بلادِهم. ولا ريبَ أنّ بعضَ ذلك أضافَ بعدًا إيجابيًا على طريقة الحياة هناك، إلا أنّ كثيرًا من الأمورِ لم توضعْ في نصابِها ولا تنمّ عن ذوقٍ أبدًا، ولم تتبلورْ في فلسطين بيئةٌ تتعايشُ فيها ثقافةُ العرقين، فاليهودُ جاؤوا بروح الفاتحين"[٢].

لم تُضمْرْ هذه الأفواجُ الجديدةُ من المهاجرين أي نوايا سيّئة بالضرورة، وبالرغم من الكِبْرِ الذي بدا منهم، إلا أنَّ مبدأ الغيظِ كان من العربِ في معظمِ الحالات، فهمْ شعَروا أنَّ هذه الأقوام تتعالى عليهم، إذ سادَ ظنٌّ بأنَّ ثقافتَهم ومجتمعاتِهم القديمةَ لا قيمةَ لها مقارنةً مع الحضارةِ الأوروبيّة التي أتى منها معظمُ المهاجرين اليهود. وهذا ما يوضّحه لنا موريس صامويل، أحد أولاءِ المهاجرين، وكان قد قدِمَ من أوروبا ليعيشَ في تل أبيب في عشرينياتِ القرن العشرين، والتي شهدتْ نموًّا سريعًا في غضونِ سنواتٍ قصار، وهي في جوار مدينةِ حيفا. فيقارن في كتابه: *ما جرى في فلسطين* (What Happened in Palestine) بينَ حيفا وجارتِها اليهوديّة الجديدة:

يافا مدينةٌ ضاربةٌ في القدم، وهي أقرب مثال للشرق الهالك؛ حيثُ الأقليّةُ الثريّة، والغالبيّةُ الفقيرةُ التي تعيش فقرًا مُدْقِعًا يصْعُب وصفه، ولستَ تجدُه إلا في الشرق. هنالك رجالٌ في يافا يحيَوْنَ على عشرةِ فلوس أو خمسةَ عشرَ فلسًا في اليوم، يأكلون الكعْك الرطبَ عديمَ الطعم– وهو، في الواقع، أقرب ما يكون إلى العجين الجّاف– ويبتاعونه من الباعةِ المتجولين على

عرباتهم. وليس لهم مأوًى غيرُ قارعة الطريق، ويجمعون ثيابهم من بين أكوامِ القمامة... وذلك على خلاف تل أبيب، فهي تعجّ بشعرائها ورسّاميها ومفكّريها. أمّا يافا المتخلّفة فقد صارَ التّعليم فيها ترفًا يقرب من الخيال، والثقافة الحديثة – بصورتها المشرقيّة– فتكاد تعدّ أصحابها على أصابع اليد. وقد كنّا في الأمسِ على وفاقٍ جيّدٍ بين بعضنا [وهو يشير هنا إلى الوقتِ الذي سبقَ موجةَ العنفِ بين العربِ واليهود]، إذ اعتاد شبابُ يافا على زيارة تل أبيب في جُمُعاتٍ كلّ أسبوع، كي يروا شيئًا من "أوروبا" ومن "العالم المتحضّر". فيجلسون في المقاهي التي أقمناها عندَ الشاطئ قبالة الكازينو، بل كانوا يحضرون إلى الكازينو أيضًا ويشاركوننا الرقص فيها[٣].

رأى صامويل وجمهرةُ المهاجرين أنّ فوقيّةَ اليهودِ وفِطنتَهم الطبيعيّةَ سببان كافيان لتبريرِ توافدهم المتزايد على فلسطين، ومنحِهم الحقّ في الاستيلاءِ عليها، وهذا الكتابُ الذي وضعه صامويل يعاني من عقدة الكِبْرِ والاقتناع بغير دليل بتفوّقِ الغربِ وتخلّفِ الشرق وهذا ما أشار إليه إدوارد سعيد في حديثه عن "الاستشراق". وإنّ الاستشراقَ عند صامويل لَيَنتقلُ من التذمّرِ– من "انعدام الطعم" في الخبزِ العربيّ [الشهيّ في واقع الأمرِ]– إلى التأكيدِ على أنّ العربَ كانوا فقراءَ في فلسطين في العشرينيات (في الوقت الذي كان فيه كذلك عددٌ كبيرٌ من اليهودِ الفقراء المعدمين). ثمّ يدّعي ندرةَ المثقفين الفلسطينيين، ولو أنّه التقى جدّي لعدلَ عن رأيه.

وهناك من اليهود من بذل جهدًا أكبرَ للدخول إلى العقليّة العربيّة، ومنهم فلاديمير جابوتينسكي، الذي أدرك أنّ العربَ الفلسطينيّين "ينظرون إلى فلسطينَ بالمقدار ذاته من الحبّ الفطريّ، والمحاباة الصادقة، الذي يمتلكها أيّ فرد من بني الأزتك(*) تجاه المكسيك، أو الهندي الأحمر من قبائل السّو تجاهَ

(*) قبائل الأزتك (Aztec): إحدى القبائل العرقية التي عاشت وسط المكسيك.

أرضِه الخصبة. وستبقى فلسطين بنظر الفلسطينيّين، أكثرَ من مجـرد دولـة ذاتِ حدود؛ فهي موطنُهم وجـوهرُ كيـانِهم والأسـاسُ لانبثـاق وجـودِهمُ الوطنيّ."[٤] وبصرف النظر عن حماسة جابوتنسكي للصهيونية، فإنـه أدركَ على الأقلّ أنَّ عشقَ هذه الأرضِ مشترَكٌ بين الطرفين.

ويضعُ العديدُ من رفاقه الصهاينة اللومَ في النـزاعِ الـذي تـصاعدتْ وتيرتُه في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، علـى مـن أشـعلَ جذوتَها من العرب. ولا شكَّ أن من العرب الفلسطينيين من حرّض على هذا النزاع، وذلك بعد أن تبيّن لهم، بوضـوحٍ أكبـرَ، أنَّ الاسـتقلالَ الموعـودَ للشعوبِ التي كانت تحت السيطرة العثمانيّة لن يصلَ إليهم، وإنَّ ما بدا لهـمْ من تعرّضهم للخديعة وما رأوه من معاملتهم معاملةَ المواطنين من الدرجـة الثانية جعلَ غضبَهم لزامًا لا غرْوَ فيه.

* * *

حصل أولُ صِدامٍ عامَ ١٩٢٠، وذلك في أثناء احتفالات الربيع بموسـم النبيّ موسى، وهو الوقت الذي يحتفل المسيحيّون فيه بعيـد الفـصح أيـضًا. ويُعْرَفُ موسمُ النبيِّ موسى بخروجِ آلافِ المسلمين بمسيرة سلميةٍ صاخبةٍ في شوارعِ القدس. ولم يتخلّلْ هذا الاحتفالَ أي مشاكلَ في السنة الماضية- أي عام ١٩١٩- ولكنَّ الحقبةَ التي تلتْ ذلكَ شهدتْ وعيًا متزايدًا بمخطّطـات القـوى الكبرى في الشرقِ الأوسط، وخرجتِ الشخصيّاتُ العربيّةُ تنـدّدُ بالـصهيونيّة في خطاباتِها للجماهير، ونادَوا بالاستقلال ورفَعوا صُوَرَ الأمير فيصل.

وتجمَّع في المدينة القديمـة عـشراتُ الآلافِ مـن العـرب، وبـدأتْ مجموعاتُ الشبابِ أعمالَ شغَبٍ، وراحت بعضُ العصابات تجـوبُ الحـيَّ اليهوديّ. وقد حصل بين الفينة والأخرى نتيجةَ التهديـد بحـصولِ اليهـودِ

تدريجيًا على زمامِ الأمور في فلسطين، والشعورِ بأنَّ الحكومـةَ البريطانيّـةَ تدعمُ هذه الغايةَ، أن يصبَّ الفلسطينيون جامَّ غضبهم على اليهود الأكثرِ قربًا إليهم، إذ قُتِلَ في أحداث النبيِّ موسى خمسةُ يهود، وجُرِحَ مئتان، وحـصلت أعمالُ نهبٍ وتخريبٍ في كثيرٍ من بيوت اليهود. ولـم يـسلمِ العـربُ مـن الإصابات كذلك، فقُتِلَ منهم أربعةٌ، وجُرِحَ ثلاثةٌ وعشرون، وكانت قوّةَ الدفاع اليهوديّة التي نظّمها جابوتينسكي مسؤولةً عن بعض مـا حـصل للـضحايا العرب. وتبع ذلك محاكمة مئتي شخص، من بينهم تسعةٌ وثلاثـون يهوديًـا، واثنان من وجهاء العرب اللذين ألقيا تلك الخطبَ الحماسيّة. وطالَ الاعتقـالُ جابوتينسكي وسُجِنَ بعد إدانته بالتورّط في تلك الحادثة وبتهمةِ حيازة السلاح.

ومهما كان الموقفُ الذي تتبنّاه الحكومةُ البريطانيةُ في وايتهول، فـإنَّ اليهود ظلّوا يشعرون بأنّ إدارة الانتداب في فلسطين تحـابي الفلـسطينيين، ووجّهت انتقاداتٍ لقوى الشرطة والجيش بعدم الحزمِ مع مظاهرِ الفوضى في البلاد. ورأى رِتشارد ماينرتزاجن، المسؤولُ الـسياسيُّ الأعلـى، أنّ الإدارة البريطانية كانت على علمٍ بأنّ أحداثَ الشغبِ ستتفجر، بيدَ أنّها لـم تحـرّك ساكنًا لتمنعَها؛ وذلك لتُظهِرَ للحكومةِ في وايتهول الآثارَ التي مِنْ شـأنها أن تتبعَ الوفاءَ بوعْد بلفور. أضفْ إلى ذلك أنَّ البعضَ يرى وراءَ هذا التصريح من ماينرتزاجن أنّه يحاول دفع اللوم عن نفسِه؛ لأنّه هو الذي أخبرَ الحكومةَ البريطانية قبل أربعةِ أيّام من الأحداث أنّه يـستبعدُ حـدوثَ أيِّ اضـطراب في فلسطين [٥].

والأمرُ لا يستدْعي التفكيرَ بنظريات مؤامرة لتفسيره، فقـد احتـشدَ فـي المدينة القديمة في القدس ٥٠,٠٠٠ شخصٍ أو أكثر، وسيتبع ذلكَ، بـلا شـكٍّ، اعتداءاتٌ بالفعل أو مشاتماتٌ باللسان، وسترْفَع الشعارات، وسـيندفعُ النـاسُ، سيبدأ الاقتتالُ وتعمُّ الفوضى. وإن أضفتَ إلى هذا كلّه تسرُّبَ بعض الشائعات،

ووجودَ قوّة دفاع صلْبَةٍ من اليهود المسلَّحين، الذين كانوا يطوفون الشوارع في الأيّام والأسابيع التي خلت، فإنّ ذلك ظرفٌ مواتٍ لاندلاع أعمال الشغب.

تشكّلتْ لجنةُ تحقيق رسمية عرفت باسم لجنة بالين وذلك للتحقيق بأسباب الاضطرابات التي اندلعت، ثمّ وُكِلَ إليها أن تتوسع في نطاق تحقيقها لتنظر في قضايا أوسع، تشمل النظر في العلاقات بين الأعراق في فلسطين. فاستمعت اللجنة لشهادات ١٥٢ شاهدًا "يتحدثون ثمان لغات مختلفة على الأقل، وهي الإنجليزيّة، والفرنسيّة، والعربيّة، والعبريّة، والإيديش(*)، والرطينة، والهندوسيّة".

المندوب السامي الأوّل على فلسطين، هيربرت صامويل (يمين) والذي كان يدّعي- رغم صهيونيّته- أنّه يتّخذ طرفًا محايدًا في حل النزاع بين العرب واليهود.

(*) Yiddish وهي لهجة ألمانية يستعملها اليهود مع كلمات عبرية (المترجم) المصدر: قاموس المنار، حسن الكرمي.

بقي التقرير "سريًّا" ولم يُنشَر بشكلٍ رسميٍّ أبدًا، إلا أنّ نسخةً منه لا تزال قابعةً في سجلّات الأرشيف الوطنيّ في لندن. وانتهـت لجنـةُ بالين إلى القول بأنّ السببَ المباشرَ للعنف راجعٌ إلى الهجمات التـي شـنّها العربُ على اليهود، ثمّ قدمتِ اللجنـةُ تحليلَهـا المفـصّلَ لأسـبابِ حالـةِ الاضطراب، وقالوا: "إنّ البعثةَ الصهيونيّةَ والصهاينة الرسميّين بما يفتقرون إليه من رويّةٍ وحكمة، وبما يُقْدِمون عليه من محاولاتٍ للتحكّم بإدارة الانتداب يتحمّلون مسؤوليّةَ الكارثةِ الحالية إلى حدٍّ بعيدٍ" (٦).

إنّ تأكيدَ اللجنة بقولها: "يتحمّلون المسؤوليّةَ إلى حدٍّ بعيد" يشيرُ في هذا السياقِ إلى أنَّ لجنةَ بالين قد امتعضت لمّا استمعت إلى الشهاداتِ المتطرّفـة وغير المتسامحة من الصهاينة، ولم يقبلوها منهم على أنّهـا الحـقُّ فعـلاً، ودعمت اللجنةُ هذا الرأيَ بشهادات المسؤولين البريطانيين، الذين أشاروا إلى إصرار الصهاينة على الحصول على معاملة تفضيليّةٍ على حساب العـرب. ولم يتوفّرْ للجنة وقتٌ لتمحيص المسوّغاتِ التي قدّمها الصهاينة حول حقّهـم في فلسطين:

لم يكن مُتَخيّلاً تصديقُ مثل هذه التنميقاتِ التي أحاطتْ بنظريّةِ الكابتن صامويل، التي تقول إنّ "الأغلبيّةَ المحتملةَ لسكّان فلسطين هم خارج الدولـة" أو تلك التي يتبنّاها الدكتور إيدر حول إعادة إنشاء شعب لم يخطرْ من قبـلُ على بالِ [العرب الفلسطينيّين]، ولو شرحتَ هذا أمامهم وفـصّلْت. إنّ حـقَّ اليهودِ القائمَ على ذاكرةٍ تاريخيّة لهذا العرق لا تنخرمُ، وعاطفةٍ دينيةٍ راسخةٍ لها صدىً عميقٌ لدى الشعوب الأمريكية والأوروبية التي تـشرّب أفرادهـا رواياتِ العهد القديم ونبوءاته أثناء طفولتهم بلغتهم الأمّ، لا يعني شيئًا لشعبٍ

يَرى نفسَه مهدَدًا بضياع حقِّه لعرقٍ آخرَ لا يملك تجاهَه سوى الكره والازدراء. وإذا كانَ الادّعاءُ تاريخيًّا، فإنّهم لا يرون في اليهود سوى شعبٍ عاشَ مستقلاً مدّةً تقلّ عن ثلاثمئة سنة، وطردتْه الإمبراطورياتُ العظمى من أرضه مرّتين؛ لأنّه كان يمثّل تهديدًا لاستقرار كل إمبراطوريّة وأمنِها. أمّا من الناحيةِ الدينيّة، فهم يعدونهم عرقًا ارتكبَ أفظعَ جريمةٍ دينيّة في التاريخ ولمّا يُغْتَفَرْ ذنبُها بعدُ. وربّما كانت هذه الآراء غير ممحّصةٍ وغيرَ منصفة، بيد أنه يصعب على السكّان الأصليّين أن ينظروا بعين الإنصاف حتّى إلى أكثر الأهداف الصهيونيّة اعتدالاً (٧).

ولم تُفلحِ اللجنةُ في استئصالِ الأسباب التي تقفُ وراءَ النزاع بعد أن وضعتْ يدَها عليها، فالسنواتُ القليلةُ التي أعقبتْ صدورَ التقريرِ قد شهدتْ تزايدًا في الهجماتِ بينَ العربِ واليهودِ في فلسطين تحت الانتداب، وعادةً ما كان اليهود المسالمون الذين يعيشون في فلسطين منذ أجيال عديدة والذين لم يسعوا للاستيلاء على الأراضي العربية، هم من يتلقّون وطأة هذا العنف. ولاحظتْ لجنةُ بالين أنّ العلاقاتِ بين معظم العرب واليهود قبلَ ظُهورِ الصّهيونيّةِ قد سادَها التفاهمُ على أفضلِ صُوَرِه، إذ جاءَ في التقرير: بالرغم مما يُقَالُ عنِ الحكم التركي، فإن حقيقةً واحدة تَبْرُز بشكلٍ جليّ ممّا توفّر من أدلّة. فالطوائف الثلاثة في فلسطين: المسلمون والمسيحيون واليهود، قد عاشوا معَ بعضهم حتّى الآونة القريبة، في حالةِ وئام لا يشوبُه كدَر. فاليهوديّ الأرثوذكسيّ في فلسطين كان مواطنًا متواضعًا لا يؤذي أحدًا، يعتمد في معيشته بشكل كبير على التبرّعات في مدينة القدس، أمّا في المناطق الأخرى فيكاد لا يختلفُ عن سواه من أهل الفلاحة. ولم تُسَجّل من

قبلُ أيَّ حادثة هجومٍ جديّة على السكّان اليهود منذ زمن إبراهيم باشـــا عـــام ١٨٤٠"[٨]. فجاء الصهاينة بعدوانيّتهم الشديدة، فانقلبت الحال عمّا كانت عليه، وصار العرب الفلسطينيّون يخشَون على مستقبلهم.

تحوّلت حكومة فلسطين بعد مضيّ ثلاثة أشهر بعد أعمال الشغب فـــي موسم النبيّ موسى، من إدارة عسكريّة إلى إدارة مدنيّة، تأهّبًا لتنفيـــذ قـــرار الانتداب الصادر من عصبة الأمم. فاختارتِ الحكومـــةُ البريطانيّـــة الـــسير هيربرت صامويل ليكونَ المندوبَ السامي الأوّل في فلسطين، ويعود الفضل في هذا لحاييم وايزمان، الذي قال أمام جمهور أمريكيّ عام ١٩٢١: " لقـــد بذلت وسعي لتعيين السير هيربرت صامويل في فلسطين، فهو صديقٌ لنـــا، وقد قَبِلَ هذا المنصبَ الحسّاسَ بعدَ أن طلبْنا إليه ذلك"[٩].

كان صامويل تائهًا لمّا تولّى ليود جورج رئاسة الوزراء في بريطانيـــا بعد خلَفه أسكويث، وهو ما زال يتكلّم في مجلس العموم، إلا أنّه لم يحـــصلْ على منصب وزير الداخليّة الذي رأى نفسه أهلاً له، ثمَّ خَـــسِرَ مقعـــدَه فـــي المجلس في انتخاباتِ عام ١٩١٨. وقد زارَ صامويل فلسطين مـــرّة زيـــارةً سريعةً وخامره شكٌّ في إمكانيّةِ أن يصبحَ أوّلَ مندوب سام عليها، بعد ما رآه من قوّةِ مشاعر الفلسطينيين، فهو الذي يقول: "كلّما رأيت المزيد من الظروف هنا ازدادت قناعتي التي أحملها بأنّ تولّي أيّ يهوديٍّ منصبَ أوّل حاكم فـــي فلسطين أمرٌ غير مناسب... لأنَّ من شأنِ ذلك أنْ يجعلَ تحقيـــقَ المُخطّـــط الصهيونيٌّ أكثرَ صعوبةً ولن يُسهّلَ مهمّةَ تحقيقه."[١٠]فإنْ خَطَرَ لكَ أن تسألَ مثلاً، لِمَ يفضّلُ حاكمٌ غير متحيّز في فلسطين أن يكـــون "تحقيـــق المخطـــط الصهيوني" أمرًا يسيرًا، فهذه قضيةٌ أخرى. ولمّا وافق هو في نهاية المطاف

على تولّي المنصب، رأى العديدُ من العرب الفلسطينيين أنّه لم يُعيَّنْ بسبب مهاراته أو قدراته أو خبراته، بل لم يُعَيَّن إلاّ لأنّه يهوديّ. وقد حاولَ صامويل أن يحُدَّ من مخاوفِ العرب بخصوص مستقبلهم في فلسطين، فهوت شعبيّته بين الصهاينة، لأنهم شعروا أنّه لا يتجاوب مع شكاواهم بعد أن تهللوا بادئَ الأمرِ لتعيينه.

يُفْتَرَضُ أنْ يقوم البريطانيون في السنوات الخمسة الأولى من الانتداب أن يعتمدوا على مهاراتهم الإداريّة كي يساعدوا في تعليم الفلسطينيّن سُبلَ تشكيلِ حكومةٍ تمثّل الشعب. فسوريا والعراق والأردن قد أضحتْ مشغولةً ببناء مؤسّساتِ الدولة، من مجلس تشريعيّ ونظام قضائيّ ومجلس للوزراء، وغيرها من المؤسّسات، حتى تصلَ هذه الدولُ إلى مرحلةٍ يُمكن معها للانتداب أن يغادرَ الدولةَ ليَترُكَ أمرَ قيادتِها لشعبِها. إلا أنَّ المحاولاتِ التي بذلتْها بريطانيا لتحقيق ذلك في فلسطينَ قد جوبِهَت بمحاولاتٍ صهيونيةٍ لتأمين أكبرِ عدد ممكن من الوظائف لليهود في الحكومة الجديدة.

ولم تواجِهِ الدولُ الأخرى التابعةُ للانتداب مثلَ هذه الضغوطات، إذ لم يشتملِ الانتداب في سوريا مثلاً على بند يُصرُّ على أن تؤول السلطة إلى الأقليّة الأرمينيّة ليكونَ لها الحكمُ على الأغلبيّة السورية، ولم تحدثْ أيّ ترتيبات في العراق تستلزم أن تتسلّم الأقليّةُ الكرديّةُ زمامَ الحكم في البلاد، بل كانت الحكومة التي حلّت أخيرًا في العراق وسوريا حكومةَ الشعب بأكمله، ومثّلت كلُّ مجموعةٍ نفسَها في صناديق الاقتراع. كانت فلسطين هي الدولةَ الوحيدةَ التي فُرِضَ عليها ذلك البند الإضافيّ الذي أعاقَ تقدمها، وذلك كلّه من تبعات إعلان بلفور.

ثلاثة من أبناء خليل صبّاغ (من اليسار): جورجيت، و كونستانزا (وهي راهبة الآن) وعيسى.

فَطِنَ صاموئيل إلى ضرورة أن تَنال الحكومة في فلسطين، بغضّ النظر عن شكلها، تأييدَ وُجَهاءِ العربِ من مختلف الأطياف في المجتمع الفلسطينيّ، وهو مجتمع يعودُ فيه الرأي لكبرائه، وتنظرُ فيه الطوائف الدينيّة إلى زعمائها

لتختار الأنسبَ لهم. ولم يخلُ المجتمع الفلسطيني كذلك من بعض التوجّهات السياسيّة، كاليسار واليمين، والمعتدلين والمتطرّفين.

وكان المسلمون هم المجموعةَ الأكبر بلا منازع، وتركّزت المنافسة على ولاء المسلمين الفلسطينيين بين عائلة الحسينيّ وعائلة النشاشيبي. ذلك أنّه لمّا احتدمَ النزاعُ بينَ العربِ واليهودِ في العشرينيات والثلاثينيات، تولّى زعامةَ عائلةِ الحسينيّ رجلٌ يدعى الحاجّ أمين الحسينيّ، وهو الرجل الذي نصّبته الحكومة البريطانيّة ليكون المفتي الأكبر في القدس، وهو الذي تولّى رئاسة المجلس الإسلاميّ الأعلى في فلسطين. وكانَ الحسيني ومن انضمّ إليه معارضين بشدّة للتهديد الصهيونيّ للديمقراطيّة في فلسطين. أمّا عائلة النشاشيبي، وعلى رأسهم راغب النشاشيبي (وهو محافظ القدس من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٣٤)، فقد سلكتْ نهجًا أكثر دبلوماسيّة. وترتّب على هذا التنافس بين الفريقين إرباكٌ للعمل السياسيّ العربيّ طوال عشرين عامًا تلت. إلا أنّ نقطةَ توافقٍ واحدة بينهما كانت هي الشوكةَ في خاصرة أى علاقة تقوم مع اليهود، وهي أنّ الحسيني والنشاشيبي والذينَ معهما كانوا وطنيّين فلسطينيّين، وهم لذلك يؤمنون بأنّ الحكم في فلسطين هو من حقّ الفلسطينيين.

لم يترك المندوبون السامون الذين تولّوا إدارة فلسطين أى وسيلة إلا سلكوها لإقناع أعيان العرب بالمشاركة في المجتمع السياسي في فلسطين، فلم يتمكّنْ أيٌّ منهم من إنجاز المهمة التي تسعى إلى التقريب بين عرب فلسطين والصهيونيّة.[11] ولمّا فشلَ صامويل مثلاً في هذا الشأن راح يحاول إرضاء كلّ طرف بمنح صلاحياتٍ منفصلة للعرب من جهة ولليهود من جهة أخرى، وهذا يعني أنّ الفجوة الموجودة بين المجتمعين ستزداد بدلاً من أن

تُهيّأ سُبلٌ للعيش المشترك بينهما. ووُجد بين الموظّفين البريطانيّين في الوقت ذاته تباينٌ في التعامل مع الطوائف الدينيّة المختلفة أثناء إدارتها لهذه الدولة المعقّدة. ويقدّم لنا أشعيا برلين تلخيصًا لهذا الموقف، عن طريق مقارنة الانتداب بمدرسة إنجليزيّة حكوميّة بسيطة، يقول: "المدير في هذه المدرسة، وهو المندوب السامي، يحاول أن يكون صارمًا لا يتحيّز، غير أنّ مساعدي المدير يفضّلون طلابَ السكن الداخلي في المدرسة، والماهرين في الأنشطة الرياضيّة (العرب)، على حساب الطلبة الأذكياء المجدّين، الذين لا يبيتون في السكن الداخلي (اليهود). وهؤلاءِ لهم عادةٌ بغيضة، إذ تراهم يكتبون إلى أولياء أمورهم عند أتفه استفزاز، فيشكون إليهم نوعيةَ التعليم والطعام وغير ذلك."(١٢)

لم يكابدِ المهاجرون الجددُ من اليهود ظروفًا معيشيّةً صعبةً في فلسطين، بل كان مستوى الدّخل لديهم أعلى من نظيره عند العرب؛ نظرًا للدعم الماديّ من اليهود في الخارج وللمعاملة التفضيليّة التي يحظون بها من حكومة فلسطين. واستمرّوا مع ذلك كلِّه بالتذمّر، فهم يرون أنّهم وُعِدوا بأن تكون الكلمةُ لهم في تقرير مستقبل فلسطينَ وسكّانِها، وهم حقًّا يعتقدون أنّهم أهلٌ لذلك. وقد رأى بعض اليهود أحقيّة للعرب في فلسطين الجديدة، ولكنْ ليس لأنّهم أصحاب الأرض، بل بوصفهم أقليّةً ثانويّة في الدولة اليهوديّة. فيقول آرثر كويستلر: "شكّل "العرب" لليهود صداعًا سياسيًا، لا شأن له بالجانب الإنساني ولا الأخلاقي... ففلسطين هي أرض [اليهود] الموعودة، والوعد جاء مرّتين، مرّةً من طور سيناء، ومرّةً من داوننج ستريت، وجاء اليهود ليحكموا قبضتهم عليها لأنّهم أسيادها. أمّا وجود العرب فيها فجاء بسبب حادثةٍ عابرة، ومَثلهم في ذلك كقِطَع الأثاث في بيتٍ هَجَرَه أهلُه لحينٍ ودخله

بعض الغرباء... وكل ما يتوقع منهم أن يجلسوا بغير حراك، وهم ينظـرون إليهم، يسيطرون على الدولة، ويديرون شؤونها"(١٣).

خشيَ العربُ الفلسطينيّون أن تصلَ الأمور بهمْ إلى هذه النتيجة، فتعلموا درسًا من الصهاينة، وأزمعوا أن يكونَ لهم موطئ قدمٍ في لندن، راجين أن يساعدهم ذلك على التواصل بشكل أفضلَ مع الحكومة البريطانية، وأن يوجدوا تيّارًا معاكسًا للدعم الصهيوني الهائل من مجلس الوزراء، متمثّلاً بوزير الخارجية بلفور، ووينستون تشيرشل، الذي أصبح وزير المستعمرات البريطانية. فتوجّه وفدٌ فلسطيني رفيعُ المستوى، يضمّ شخصيّاتٍ من القدسِ ونابلس وحيفا (واثنين من المسيحيين العرب) إلى لندن، وأقاموا فيها تسعة أشهر، عقدوا أثنائها مباحثات مع تشيرشل وبعضِ الموظّفين لديه من الخدمة المدنية، ولم تتمخّضْ هذه المباحثات عن أيّ شيء يُذْكَر. وذهبَ الوفدُ في رحلةٍ إلى جنيف لزيارة مقرّ عصبةِ الأمم، وحاولوا لقاء آرثر بلفور، وزيرِ الخارجية، فرفضَ في البداية مقابلتهم، والعجيبُ أنّه أخبرهم أن يذهبوا ويلتقوا بحاييم وايزمان، ثمّ وافق بلفور على رؤيتهم بعد أن أصرّوا على ذلك، فقابلهم على عَجَل، ورفضَ أن يناقش أيّ مراجعةٍ لتعديلِ أهداف إعلان بلفور.

وتجلّت لهجة الرفض هذه أيضًا في كتابِ أبيضَ جديدٍ كان في طور الإعداد، واطّلع الوفد الفلسطينيّ على مسوّدة منه، وتبعَ ذلك مراسلاتٌ طويلةٌ مفصّلةٌ بين الفلسطينيين ووزارة المستعمَرات البريطانيّة، وضّح فيها الفلسطينيون اعتراضَهم على بعض عباراتها، فَعدّلَ بعضُها في النسخةِ الأخيرة من التقرير. وممّا وردَ في المسوّدة أنّ البعثةَ الصهيونيةَ "لا تملكُ نصيبًا في الإدارة العامّةِ للدولة ولم تبتغِ ذلك أصلاً"، فدحضَ الوفدُ الفلسطينيُّ هذا لمّا أوردوا ما قاله تشارلز كرين (من لجنة كينج-كرين) في صحيفة

التايمز: "يبدو أنّ البعثة الصهيونيّة التي تتحكّم بشكل كبير بالنظام السياسيّ في فلسطين، تتمتّع بنفوذٍ أكبرَ من نفوذ الحكومة المفوّضة." ولم يفتأ البريطانيّون يصرّون على أنّ غايةَ المنظّمة الصهيونيّة لا تعدو عن تحقيق مصالح اليهود في فلسطين، فأجاب الوفد الفلسطيني عن هذا قائلين: "ألا يمكنُ للإدارة البريطانيّة أن ترعى مصالح ٧٪ من السكّان، وهي نفسُها التي ترعى شؤون ٩٣٪ منهم؟"

شابَ التعالي مرّةً أخرى تعاملَ الحكومة البريطانيّة مع العرب الفلسطينيّين، غير أنّه لم يُسقَطْ في أيدي العربِ هذه المرّة، وحيالك مثالٌ على مسألةٍ صغيرةٍ أثارتْها الرسالةُ الأولى من الوفد الفلسطيني إلى تشيرشل، والتي جاء فيها اقتباس يشير إلى السلطاتِ التي سيضطلع بها المندوب السامي "والذي نفترض عدم تحيّزه لأيّ طرف"، ثمّ تقول الرسالة: "أمّا المندوب السامي الحالي، فهو صهيونيّ..." فردّ تشيرشل في رسالة له، وقال: "لا يصحّ ما قيل عن المندوب السامي بأنّه عضو في المنظّمة الصهيونيّة." غير أنّ هذا في الواقع ليس ادّعاءً يطلقه الوفد الفلسطينيّ على عواهنه، ولذا وضّحوا عبارتَهم هذه في رسالة أخرى، وقالوا: "أمّا وصفُ المندوب السامي بأنّه صهيونيّ، وهذا محلُّ اعتراضِ وزيرِ الدولة، فإنّ الوفدَ كانَ يقتبس كلماتِ وزيرِ المستعمرات نفسِه في خطابٍ له في الحادي عشر من تموز ١٩٢١، في مجلس العموم البريطاني، إذ أشار إلى السير هيربرت صامويل بأنّه "صهيونيّ متحمّس."(١٤) ولا ريبَ أنّ الحكومةَ البريطانيّة قد انزعجت لمّا رأت بعض العرب قادرين على دحضِ المزاعم الصهيونيّة التي قامت السياسة البريطانية على أساسها، لكنّ الوقت متأخّر جدًا الآن للتأثير في سياسة الحكومة.

شاطئ تل أبيب في الثلاثينيات. ويظهر أنّ معظم المهاجرين اليهود قد جلبوا معهم قيم أوروبا وعاداتها إلى هذه الدولة الشرقية.

خشيتِ المنظّمةُ الصهيونيّةُ من الردود المفحمةِ التي قد يطرحها الوفد الفلسطيني، ولذلك تأنّت كثيرًا قبل أن تنتشر ردًّا بعنوان: *الحقيقة حول فلسطين*. ويصرّ كاتبُه في مَعرِض تبريرِه إعلانَ بلفور على أنّ يهودَ العالم ليسوا كغيرهم من الناس، ولا يتراجعُ عن ذلك قيدَ أنملة. فجاء في الكتاب: "بقيت فلسطين على مرّ ألفي سنةٍ منارةً تمثّل تهدي إلى الحقيقةِ اليهوديّة... وإن كان اليهود يطالبون بفرصةٍ لإعادة بناء وطنهم القوميّ، فإنّ مطلبهم لا يقوم على وجود دولة يهوديّة كانت في الماضي البعيد فحسب، بل يقوم على تركّز الآمال والصلوات اليهوديّة، التي لم تنقطع منذ عصر التيه حتى الحاضر. وإنّ خيرَ النظام العالميّ الجديد ليكمُنُ في إنهاء التنافر في الروح اليهوديّة، وإعادةِ العقلِ العبريِّ إلى الثرى العبريّ، كي يحصل على فرصة مضمونة لتضع بصمتها مرّة أخرى على الجموع البسيطة"[١٥].

صدرَ الكتابُ الأبيضُ عام ١٩٢٢، وأكّدتِ صيغته الأخيرة التزامَ بريطانيا بإعلان بلفور، وعزمَها على استمرار الهجرةِ حتى يتمكّن اليهود من كافة أرجاء العالم أن يحلّوا فيها "كحقٍ لهم لا منّةً عليهم". وأشار الكتابُ إلى عدم وجودِ عهدٍ قُطِعَ أثناء الحرب العالمية الأولى يَقضي بمنح الاستقلال لفلسطين، مع أنّه قد تأكّدَ لاحقًا فسادُ هذه الدعوى. بيدَ أنّه رفضَ في المقابلِ ما ادّعاهُ اليهودُ من ضرورةِ أن تصيرَ فلسطينُ "يهوديّةً مثلما أنّ إنجلترا إنجليزيّة"، وجاء فيه: "إنّ حكومةَ جلالةِ الملكِ تعدّ مثل هذه التوقّعات غيرَ قابلة للتطبيق، وهي لا تسعى لمثل هذه الغاية... ولم تضعِ الحكومةُ في اعتبارها في أيّ لحظةٍ طردَ السكّان العرب أو تهميشَهم، أو لغتِهم أو ثقافتِهم... وعليه فإنّ حكومةَ جلالةِ الملكِ تُعلن الآن وبوضوح لا لُبسَ فيه أنّ سياستَها لا تنضوي على جعل فلسطينَ دولةً يهوديّةً".

أمّا الصهاينة فلهم رأي آخر، ويظهر هذا جليًّا فيما قاله منتاجيو إيدر، وهو أحدُ الأعضاء المرموقين في البعثة الصهيونيّة، لمحكمةِ التحقيق أثناء صياغة مسوّدة الكتاب الأبيض، حولَ أعمال الشغب في موسم النبيّ موسى، إذ يقول: "لا يمكن أن يقومَ في فلسطين سوى وطنٍ قوميٍّ واحد، وهو الوطنُ اليهوديّ، ولا يمكن أن تقومَ شراكةٌ متساويةٌ بينَ اليهود والعرب، بل ستكون هنالك أغلبيّةٌ يهوديّةٌ حالما تزداد أعدادُ هذا العرق بما يكفي"(١٦).

هوامش الفصل الحادي عشر

(1) Quoted in Paul Goodman (ed.), The Jewish National Home, J. M. Dent and Sons Ltd, 1943, Chaim Weizmann, Introduction, p. xiv.

(2) Arthur Koestler, Promise and Fulfillment: Palestine 1917-1949, Macmillan, 1949, pp. 34-5.

(3) Maurice Samuel What Happened in Palestine, The Stratford Company, 1929, pp. 76-7.

(4) Quoted in Mordechai Bar-On, In Pursuit of Peace, United States Institute of Peace, 1996, p. 12.

(5) Tom Segev. One Palestine Complete, Abacus, 2000, p. 140.

(6) Report of Palin Commission, 7 July 1920, quoted in Aaron S. Klieman (ed.), The Rise of Israel, Vol. IS, Garland Publishing, 19S7, p. 81.

(7) Report of Palin Commission, 7 July 1920, quoted in Klieman (ed.), The Rise of Israel, Vol. IS, pp. 8-9.

(8) Quoted in Klieman (ed.), The Rise of Israel, Vol. 18, p. 5.

(9) J. M. N. Jeffries, Palestine: The Reality, Longmans, Green and Co., 1939, p. 371.

(10) Bernard Wasserstein, Herbert Samuel: A Political Life, Clarendon Press, .1992, p. 243 .

(11) Bernard Wasserstein, The British in Palestine, Royal Historical Society, 1978, pp. 16-17.

(12) Quoted in Avi Shlaim, The Politics of Partition: King Abdullah, the Zionists, and Palestine, 1921-1951, Oxford University Press, 1990, p.54.

(13) Koestler, Promise and Fulfillment: Palestine 1917-1949, pp. 33-4.

(14) Quoted in Kliernan (ed.), The Rise of Israel , Vol. 17, pp. 16,22,27.

(15) Leonard Stein, The Truth About Palestine, Zionist Organization, 1922.

(16) Sami Hadawi, 'Bitter Harvest', quoted in The Origin of the Palestine-Israel Conflict, 3rd edn (including Intifada 2000), published by Jews For Justice in the Middle East, http://www.cactus48.com/truth.html.

الفصل الثاني عشر

أعمالٌ عدائية

أصبح جدّي خليل أثناء سنوات الانتداب يجاهرُ في مناهضتِه للإدارةِ البريطانيّة، وتقول الحكايةُ إنَّ رئيسَ بلديّةِ المدينةِ التي كان يقطن بها خليل في السنوات الأولى من حقبة العشرينيات، أتاه وأخبرَه أنَّ تعليقاتِه العامّةَ التي ينتقد فيها الإدارةَ البريطانيّة قد أدخلتْ اسمَه ضمن قائمة المطلوبين، فإمّا أن يغادر المدينة، وإمّا أن يُعتَقَل. فبادر خليلُ وجوزفينا وأطفالهم الأربعة بالانتقال إلى جزء آخر من فلسطين.

وثمّةَ حكايةٌ أخرى تتحدّث عن مسيرة احتجاج نظّمَها خليل، انطلقتْ من طولكرم حيث كان يسكنُ وصولاً إلى منزل المندوب السامي، هيربرتْ صامويل، في جبل الزيتون في القدس. وألقى خليلُ خطابًا حماسيًا في أحد مساجد طولكرم، وانطلقَ مع الناس، وتعاظمَ الجمعُ أثناءَ مرورِه بين القرى والمدن. وكان معظمُ الناس راجلين، أمّا ابنته تيكلا فقد صعدت على ظهر جمل، وعمرُها وقتذاك تسعُ سنوات أو عشر. ولمّا وصلتِ المسيرةُ الاحتجاجية مقرَّ إقامة صامويل، وقف خليلُ بالناس، وألقى خطابًا هاجمَ فيه بريطانيا، وأخبرَ المندوبَ السامي بأنّه غيرُ مرحّب به هنا. وزاد أحدُ أعمامي أنّ الجمع الهائج من الفلسطينيين هاجموا منزل صامويل فاختبأ في الحمّام، أو مكان الاستحمام، فدخلوا عليه هناك واعتدوا عليه، وكُسِرَت يدُه، غير أنّي لا أجد دليلاً يثبت هذه التفاصيل المثيرة للاهتمام.

انتهت ولايةُ صامويل في منصبه بعدَ خمس سنوات، وكان ذلك في عام ١٩٢٥، بعد أن شَهِدَ عهدُ إدارتِه مزيدًا من أعمال الشغب، وتفجّرَ عددٌ منها في يافا، وقُتِل فيها سبعةٌ وأربعون من اليهود، وثمانيةٌ وأربعون من العرب، وقُتِل معظم الضحايا من العرب بيد رجال الشرطة البريطانية. وتولّى منصبَ المندوب السامي بعد ذلك اللورد بلومر، وأصبحتِ الأوضاعُ في عهدِه أكثرَ هدوءًا، فتعافتْ فلسطينُ في منتصف العشرينيات من آثار الحربِ الكبرى، ويعود الفضل في هذا للاستثمارات البريطانية لتحسين شبكة الطرقِ والسكك الحديديّة، ورفع مستوى الخدمة الصحيّة والنظافة، وتوسيع المدن والقرى، وما لحقَ ذلك من زيادةٍ في عدد السكّان.

عمل جدّي محاميًا في طولكرم، وهي واحدةٌ من بين عشرين مدينةً تقريبًا في فلسطين تحتاج- نظرًا إلى سعتها- إلى مجلسٍ بلديّ. ويشير كتاب فلسطين (Handbook of Palestine) الصادرُ عام ١٩٣٠، إلى أنّ لطولكرم محطّةَ قطارٍ على خطِّ اللد-حيفا، ولكنّ هذا على ما يبدو "غير مؤرّخ". وعاش إخوة خليل الثلاثة، ميخائيل، وحنّا، و جميل في قرية دير حنّا، ولم يتوفّر في هذه القرية مدرسة ثانويّة، فاضطرهم ذلك إلى إرسال أبنائهم إلى مدرسة ثانويّة في طولكرم، وهكذا أصبح للعائلة الكبيرة امتداد في هذه المدينةَ.

بلغت نسبةُ الأطفال الذين يرتادون المدارس أثناءَ الحكم العثمانيّ أربعةَ أطفال من كلّ عشرة، (وأغلبهم ذكور) واقتصرت لغة التدريس على التركيّة. فجاءت الإدارة البريطانية فجعلت العربية لغةَ التدريس، ووضع هيربرت صامويل من بين أهدافه إنشاء مدرسة في كلّ قرية، لكنَّ الترددَ سادَ بعد رحيل صامويل، فيما يخصّ رفعَ مستوى التعليم كثيرًا بين العرب، تخوّفًا من

أن يشجّعهم ذلك على الانخراط في الأنشطة السياسيّة. فلمْ تتجاوزِ الميزانيــةُ المخصّصةُ للتّعليم خمسةً بالمئة من الإنفاق العام، وحصلتِ المدارسُ اليهوديّة على الثلث من هذه النسبة، مع أنّ اليهود لم يزيدوا على عشرين بالمئة مــن السكّان تقريبًا، وكانوا كذلك ينشؤون مدارسَهم الخاصّة. بيدَ أنّ هذه الظروفَ جميعَها لمْ تحلْ دونَ أن يحصلَ الأطفالُ، كوالدي وإخوته وأبناءِ أعمامِه، على تعليم جيّد، بل إنّ بعضَ المدارس، أو المدارسَ الخاصّةَ بالذات أو تلك التابعةَ للكنائس، كانتْ متميّزةً بحقّ. وتقول هيلدا ويلسُن، وهــي معلمــة إنجليزيّــة عملتْ في مدرسة في بير زيت، إنّ طالبًا اسمُه خالد تساءل يومًا وقال: لماذا توجَدُ حريّة الصحافة في بريطانيا ولا توجَدُ في فلسطين؟ وحصل ذلك أثناء درس كان الطلابُ يقرؤون فيه كرّاسًا كتبه جون مِيلتُن بعنوان آريو باجيتيكا (Areopagitica) ، وهو خطابٌ له عن حريّة الصحافة [١].

سكن أبناء عمٍّ والدي في منزلٍ في طولكرم أثناءَ الفصل الدراســي، وهم رزق الله، وفضل الله، وعبد الله، وعطا الله، وشكر الله. وتزوّج عبد الله من عمّتي جوروجيت، وكانا من القلّة القليلة من عائلة صبّاغ التي لم تغــادر فلسطين بعد النكبة، وتزوّج ابنهما من فتاة يهوديّة.

لا شكّ أنّ جدّي كان مسموعَ الكلمة في فلسطين، إذِ اعتــادَ النــاسُ أن يلجؤوا إليه دائمًا ليساعدهم في بعض القضايا القانونيّة والإدارية. وأتاهُ أحــدُ رجال القرية يومًا- وكان فلاّحًا أميًّا مثل كثير من الفلسطينيين كبــارِ الــسن في تلك الأيّام، قد عاد قبل مدّة وجيزة من مكّةَ بعد أداء فريضة الحجِّ هناك، ولكنّه فَقدَ نطاق المالِ الذي يضعه حول خصره وحذاءً له- يريــدُ منــه أن يكتبَ رسالةً للملك عبد العزيز يطلب منه فيها أن يذهب هو أو واحــد مــن

خدمه ليبحثوا له عما فقد. فاستجاب خليل لطلب الفلاّح، لكنّه نصَحَهُ ألاّ يعلّق آمالاً كبيرةً على ذلك. وأقبل الرجل بعدَ مرور شــهرين مــسرورًا ينــادي: "أبو عيسى، أبو عيسى، يا لهذا الملك العظيم في الحجاز! الملكُ وجَدَ حذائي، ونطاقَ المال الأحمر، والمال ما يزال فيه!"

وكان خليل عضوًا مرموقًا في الماسونيّة. ففي زيارة له لأحد القــضاةِ في أحد الأيّام، اصطحب معه زوجتَه الثانيةَ، فأرادتْ أن تقرعَ البابَ عنــه، فمنعها، وقال لها: "اتركي هذا لي"، فطرق البابَ طرْقةً ماســونيّةً خاصــةً، فدخلا وتلقّى ترحيبًا يليق بالأخ الماسونيّ.

وتشيرُ كتيّباتُ المعلومات من تلك المرحلة إلى وجودِ عدد كبير مــن الشركات والخدمات في المدن الكبيرة في فلسطين، وهذاً دليلٌ على أنّ الطبقة المتوسّطة كانتْ ثريّةً ومتعلّمةً، وتتوفّر لديها السلع الاستهلاكيّة بشتّى أشكالها. ونذكر من هذه الشركات: الشركة التعليميّة الفلسطينيّة في القدس ويافا، والتي كانت توفّر "الروايات والقصصَ والمجلاّت في شتّى المجالات، بالإضافة إلى البطاقات البريديّة، وصور فلسطين، ودفاتر الصور. ولــديها كــذلك نــسخ مشروحة من الكتاب المقدّس، والعهد القديم، والعهد الجديد، وكتب الصلوات بدفّتين من خشب الزيتون"، وكانت الشركة تستورد كذلك "أقلامَ الحبر السائل من ماركة ووترمان (Waterman)، وواهل (Wahl)، وأقلام الرّصــاص مــن ماركة إڤر شارب (Eversharp)". وصاحبا هذه الشركة هما: بــولس ووديــع سعيد، وابنُ هذا الأخيرِ ذهبَ للدراسةِ في أمريكا؛ ليصبح بعد ذلــك المفكّــرَ الفلسطينيَّ الأمريكيَّ، إدوَارد سعيد.

ترتب على التزام إعلان بلفور بجعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود مظاهرات وأعمال شغب من الأغلبية العربية فيها.

وكانت هنالك أيضًا شركة تأمين إيطاليّة تُعرف باسم (Assicurazioni Generali-Trieste)، وعرضت أن تقدّم خدمات التأمين على برنامج للرحلات الجويّة (Journeys Even by Air). أمّا فندق جراند (Grand Hotel) في القدس، فكان يعلن عن "أجنحة خاصّة، مع حمّام خاص وغرفة للملابس والخدم". وهنالك تادرُس (D.N Tadros) المختص "بشحن صناديق البرتقال اليافاويّ من مزارعي إلى زبائني دون واسطة"، وكان فندق اللنبي في القدس يُعلن عن حفلات "عزف موسيقي قبل وجبة العشاء وبعدها، ورقصات قصيرة كلّ ليلة سبت"، وكانت هذه الإعلاناتُ تحملُ عبارةً تقول: المترجمون من بين الحاشية."

غير أنّ الأمرَ مختلفٌ في المدن الصغيرة (التي لا يصلُها السيّاحُ إلاّ قليلاً)، فتكاد لا تجد فيها مؤسّساتٍ تجاريّة كتلك التي تراها في المدن الكبرى، وعادةً ما يعتمد زوّار هذه المدن على حسنِ ضيافة أقاربهم فيها. ففي صفد مثلاً، كانت منازل بيت صبّاغ مفتوحةً دومًا للزوّار، من الأصدقاء والأقارب والضيوف، الذين يأتون لتناول طعام الغداء أو العشاء أو للسَّمَرِ عندهم. وكان اثنان من مطارنة الكنيسة الكاثوليكيّة اليونانيّة، وهما المطران حليم والمطران حجّار، ينزلان عند بيت صبّاغ عند زيارة الأحياء في صفد(٢).

* * *

لم يولِ العربُ والإدارةُ البريطانيةُ اهتمامًا كبيرًا للهجرة اليهوديّة بين عام ١٩٢٥ و ١٩٢٧؛ لأنّ نسبةَ الهجرة انخفضتْ بفضلِ الإجراءاتِ الأكثرِ تقييدًا، والظروفِ الاقتصاديّة المتدهورة، وما تبعها من انخفاض الإيرادات الماليّة للمجموعاتِ الصهيونيّة في الخارج، حتّى إنّ عدد اليهود الخارجين من فلسطين قد زادَ عن عدد القادمين إليها عام ١٩٢٧. ثمّ انعكستِ الآيةُ بحلول عام ١٩٢٨، وغرقتْ فلسطينُ في مستنقعِ العنف بعد سنوات سادها الاستقرار إلى حدّ كبير؛ ويعود ذلك للنزاع الذي نشأ بين الطائفتين اليهوديّة والمسلمة، على مساحة تبلغ بضع مئات من الأمتار المربّعة في قلب القدس، والتي فيها موقعان مقدّسان متنافسان.

وانطلقت شرارةُ العنف في أيلول ١٩٢٨، بعد حادثة عابرة عند حائطِ المبكى في القدس، ومَعلومٌ أنّ المنطقةَ التي تعلو هذا الحائط تضمُّ المسجدين: مسجد قبةِ الصخرة والمسجدَ الأقصى. وتُعرَفُ هذه المنطقةُ عند اليهود باسم جبل الهيكل، أو جبل المريا(*)، وهم يعتقدون أنّه في هذه البقعة قدّم إبراهيمُ

(*) Mount Moriah: ورد في سفر أخبار الأيام الثاني-الإصحاح الثالث: "وشرع سليمان في بناء بيت الرب في أورشليم، في جبل المريا، إذ تراءى لداود أبيه..." (المترجم)

ابنَه إسحاق أضحيةً، وعلى ذلك نشأ هيكل القدس. وقد احتفل اليهـود قبلهـا بعدّة أشهر بعيد الفصح اليهوديّ، وقال أحد القادة الصهاينة، واسمه منـاحيم أوسيشكين، في احتفال تلا هذا العيد، عبارةً يملؤها الاستفزاز، جـاء فيهـا: "يريد الشعب اليهودي دولة يهوديّة، بلا تنازلات ولا تسويات، من دان إلـى بئر السبع، ومن البحر الكبير إلى الصحراء(*)، ومعها عبر الأردن... فلنأخذ العهد أمام الرب ألاّ يهدأ للشعب اليهوديّ قرارٌ، ولا يكلّ لسان، حتى يرتفـع وطننا القوميّ على جبل المريا"(٣).

سُمِح لليهود أثناء حكم الأتراك أن يؤدّوا شعائرهم عند حائط المبكـى، غير أنّهم مُنعوا من رفع أيّ بناء يعتدي على المقدّسات الإسلاميّة في الساحة العلوية، وأصدر العثمانيون قرارًا عام ١٩١٢، يحظر على اليهود أن يجلبوا إلى أرض حائط المبكى أيّ حاجزٍ أو قطعة أثاث. وظلّ هذا القانون سـاريًا حتى في ظلّ الإدارة البريطانيّة، بيدَ أنّ هذا لم يثنِ المسلمين عن مراقبة أيّ خرْقٍ مُحتمل لهذا الوضع. واشتعلت أحداث أيلول عام ١٩٢٨، عندما نصَبَ اليهودُ حاجزًا على رصيف حائطِ المبكى لفصل الرجال عن النساء أثناء أداء الصلوات اليهودية، فطلب إليهم شرطيٌّ بريطانيٌّ إزالتَه، لكنّهم أبَوا، وعادوا إلى الموقع، وثبّتوا الحاجز بدعامة مثلّثة على بلاط الأرضيّة هناك، وانقضّت مجموعة من النساءِ وكبارِ السنّ من اليهود على رجال الشرطة لمّا حـاولوا إزالة الحاجز، فوصلَتْ قوّة مساندة إلى الموقع، فلم يسلموا همْ كذلك من ذاك الاعتداء، وكتب رئيسُهم بعد ذلك يقول: "حمـل علينـا النـسوةُ بـالمظلات والعصيّ، وضربتني عجوز على ظهري بشمسيتها حتى كُسرت. لقدْ مـزّقنَ ملابِسَنا، وبصقْن في وجوهنا، وتفحّشن بالشتيمة علينا."(٤)وتجمّعَ المـسلمون من جميع أطراف المدينة لمّا سمعوا بنبأ الاعتداء، وحاولوا التـدخّل، إلا أنّ الشرطة حالت دون ذلك.

(*) إشارة إلى البحر الأبيض المتوسط، وصحراء سيناء (المترجم)

وتُظهر هذه الحادثةُ العارضة مقدارَ التوترِ الذي هيمنَ على العلاقة بين الطائفتين في ذلك الحين، رغم سعيِ المسلمين واليهودِ على مدى أشهرٍ بعدَها إلى التوصّل إلى اتّفاق بخصوص الحائط، يبعدُ هاجسَ التهديد لدى الطّرفين. ووصل المندوب السامي الجديد السير جون تشانسلر في وقت متأخر من عام ١٩٢٨، وانتهى إلى رأيٍ بخصوصِ إعلانِ بلفور، يصرّح فيه أنّـه "خطـأٌ شنيعٌ لا يُعقل"، وأنّ فيه إجحافًا للعرب، وتهديـدًا لمـصالح الإمبراطوريّـة البريطانية".(٥) لكنَّ بريطانيا في العام التالي قلّصت أعداد قواتها في فلسطين، وتجرأت لتكتب في تقريرها للجنة شؤونِ الانتداب في اجتماع عصبةِ الأمـم في تموزِ ١٩٢٩، أنّه "لا تزالُ العلاقاتُ بين المجتمعين تشهد تحـسّنًا وقـد انخفضتْ حدّةُ التوتّرِ بينهم إلى حدٍّ كبير."

وبعد شهرٍ واحد فقط، اندلعت أفظعُ موجةٍ من العنفِ الشعبي، وحـدثَ هذا لمّا سمحت السُّلطات ببعض أعمال البناء في ساحة الحرم الشريف فـوق حائط المبكى. ونشرت الصحافة اليهوديّة "مقالات متعصّبةً... ذاتَ أسـلوبٍ استفزازيّ"(٦)، ووقعت بعض المناوشات بين العرب واليهود، جُرِحَ فيها اثنان من اليهود. واحتشدَ في الرابع عشر من آب مجموعةٌ من الشّباب اليهود في تل أبيب للاحتجاج على أعمال البناء التي يقوم بها المـسلمون، والمطالبـةِ بطرد المسؤولين الحكوميين "الذين يسعون بوضوح إلى تعطيل بناء الدولـةِ اليهوديّة". وانطلق مئات الشباب في اليوم التالي، مسافرين من تل أبيب إلـى القدس، وتظاهروا قرب الحائط ضدّ العرب، فما كان مـن المـسلمينِ إلاّ أنْ خرجوا في مظاهرةٍ مُضادّة، فسادت الأجواءَ حالةٌ من التوتّر، وركلَ يهوديّ كرةً إلى حديقةِ أحدِ العرب، فبدأ عراكٌ بينهم، وتفاقمَ إلى اشتباك طُعِنَ فيـه ذلك اليهوديُّ، وماتَ على إثر ذلك. وخرجَ في جنازتِه كثيـرٌ مـن النـاس، وتبعها مزيدٌ من المظاهرات، والمظاهراتُ المُضادّة من العرب، واجتهـدتْ قوّاتُ الشرطة للسيطرةِ عليها، غير أنَّ الاعتـداءاتِ ازدادتْ سـوءًا لأيّـام أُخرى، وانتهى ذلك بمقتل وجرح عددٍ من كلا الفريقين.

اندلعت مظاهرات عام ١٩٢٩ بسبب نزاعٍ بسيط بخصوص بعض الشعائر الدينية عند حائط المبكى عند الجهة السفلية من قبة الصخرة.

ما كان في استطاعة الناس من خارج القدس أن يدركوا حقيقة ما يجري فيها، فالراديو والهاتف، لم يكونا متوفرين إلا عند القليل، فكانوا يعتمدون على ما يسمعون من غيرهم. وبات العرب متيقّظين للتصدّي لأيّ اعتداء من اليهود، وانتقلت أنباء ما حصل إلى الخليل، التي تبعد ٢٠ ميلاً إلى الجنوب من القدس، ولكن معَ تهويلٍ للعراك والإصابات التي حدثت عند حائط المبكى، حتى حَسِبَها أهل الخليل هجومًا منظمًا شنّه اليهود على العرب. واندلعت في الرابع والعشرين من آب ١٩٢٩، حالةُ عنف في الخليل ذات الأغلبيّة العربيّة، قتل فيها العربُ أكثر من ستّين يهوديًّا، وقُتلِ من العرب مثلُهم أيضًا، ولكن على أيدي الشرطة البريطانية، التي لم يتوفّر لديها ما يلزم لمنع مثل هذه الهجمات، وقد قدّم رئيس الشرطة كلّ ما في وسعه، إلا أنَّ الأوضاعَ لم تهدأ إلا بعدَ وصولِ التعزيزات من غزّة ومصر.

كانتْ مجزرةُ الخليلِ في نظر الصهاينة دليلاً آخرَ على تواطؤ الإدارة البريطانيّة مع العربِ لقَتْل اليهود، ونَعَتَ بعضُهم ما حصل بالإبادة المنظّمة، وهذا أمرٌ غيرُ واردٍ طبعًا؛ فليستِ الحكومة البريطانيّة من بدأ العنف، ولم تقف قوّات الشرطةَ مكتوفةَ الأيدي دون محاولة وقف القتل، لكنّها عانت من نقص في العَدد والعَتاد في وجه هذه الظروف. ولم تمضِ سوى أيّامٍ معدودة حتى تعرّض اليهود في صفد لهجمات مماثلة من العرب الثائرين، فقتل عشرة يهود في المدينة، وجُرِح أربعون تقريبًا، وحاول قائدُ الشرطة البريطانيّ المحليّ أن يوفر الحماية لليهود، بنقل أربعة آلاف منهم من منازلهم إلى ساحات مقرّ الحكومة، فعرّضه ذلك للانتقاد؛ لأنّ بيوتهم تُركت بلا حماية، ونُهب عدد كبيرٍ منها.(٧) وكانت والدة حسيب صبّاغ، فادوق، واثنان من أبنائها الكبار، يقدّمون وجبات طعام يوميًا لأصدقائهم من العائلات اليهودية، لمّا حُرقت البيوت في الحيّ اليهوديّ (٨).

اعتقدَ كثيرٌ من اليهود أنَّ العربَ جميعَهم مشاركون في الهجماتِ التي وقعت في القدس، والخليل، وصفد، وغيرها من المدن، وباتَ كلُّ عربيٍّ هدفًا للميليشيات اليهودية غير الشرعية التي نظّمَ صفوفَها جابوتنسكي وغيرُه،

فيقول رحيفام زئيفي: "العرب كلُّهم في الخليل مسؤولون عمّا حصل، عدا أولئك الذين قدموا المأوى لجيرانهم اليهود."[٩] وقيل في وصف تاريخيٍّ صهيونيٍّ آخرَ لمجزرة الخليل: "قام المتظاهرون العرب في الخليل عام ١٩٢٩، وعلى مرأى من الإدارة البريطانية، بقتلِ من في الحيِّ اليهوديِّ وشرَّدوا أهلَه"[١٠]. وتناسى الكاتبُ أنَّ العائلاتِ العربيةَ أنقذتْ ثُلُثَي اليهود في الخليل، وقدَّموا لهمُ المأمنَ والحمايةَ منِ المتظاهرين، وأنّ بعضَ العائلات العربية قد آوتْ عشرات منهم، وهذا ما أكّدَه تقريرٌ صادرٌ عن المجتمع اليهوديِّ المحليِّ في الخليل بعد ذلك وجاء فيه: "لولا العائلاتُ العربية لما بقي يهوديٌّ واحدٌ في الخليل"[١١].

استمرّت اعتداءاتُ العربِ على اليهود لعدّةِ أيامٍ ثلث، وطالَ التهديدُ أربعةَ عمّالٍ يهودٍ في محجر قرب بيت لحم، وذلك يومَ مجزرة الخليل، فاعترضَهم بعضُ العرب، فهربوا ليحتموا بديرٍ هناك، إلا أنّ الراهبات خشين من إيوائهم، ويقول أحد هؤلاء الأربعة: "رجعنا إلى المحجر، وعمدنا إلى المسؤول عن العمّال العرب، واستشرناه في أمرنا، فأخبرَنا أنَّ الموقفَ صعب، لكنّه أخبرنا كذلك أنّه وبقيّةَ العمّال سيدافعون عنّا حتّى آخر قطرةٍ من دمائهم، ولم يكدْ حديثُنا ينتهي حتى وصلَ خمسة عشر عربيًّا ببنادقهم ومسدّساتهم وعِصيّهم وسكاكينهم، وطوّقوا المكانَ، فوقفنا عند البوابّة نستمع إلى ما كان يدور بين المتظاهرين والعمّال، فبعضهم مالَ إلى التخلّي عنّا... لكنّ العمّال المسلمين من كفر صور باهر وعين كارم وكفر عرتيس، وقفوا عند المدخل، ومنعوا المعتدين من الدخول."

قدّم العمّالُ العربُ لليهود ثيابًا عربيّة ليستخفوا بها وأخذوهم إلى قريةٍ قريبة، لكن سُرعانَ ما علمَ أهلُ القرية بمخبئهم، فحوّطوهم غاضبين، واضطرَّ صاحبُ المنزل، وثلاثةٌ من العرب، إلى تهريب اليهود فجرًا بعد يومين، وأخذوهم إلى القدس، حيث التئم شملهم مع عائلاتهم. وقد أورد هذه القصة موريس صامويل، في كتابه: ماذا حدث في فلسطين

(What Happened in Palestine) ويضيف قائلاً: "من كريات أنافيم، ومن طولكرم، ومن سواها من الأماكن، وردتنا قصص مشابهة. ففي كريات أنافيم، قام أحدُ الوجهاء العرب، من عائلة أبو غوش، وقدّم أطفاله رهائن مقابل حقن دماء اليهود، وجاء المختار من قرية بيت عكيبا، قرب كريات أنافيم، وعرض ضمانات للحماية والصداقة"[١٢].

في مثل هذه القصصِ دليلٌ على أنَّ العداءَ بين اليهود والعرب في فلسطين لم يكن هو القاعدةَ العامّةَ والحتميّةَ لطبيعة العلاقة بينهم، حتى إنَّ كثيرًا من المسؤولين العرب في المجتمع الفلسطيني رفضوا أن يُنظَرَ إليهم بوصفهم معادين لليهود، بل قالوا إنّهم يرفضون الأعداد المتزايدة من اليهود الألمان، والبولنديّين، والروس، الذين أصبحوا مواطنين في فلسطين، وأنّهم يخشون من تدفّقِ الهجرةِ غير المقيّدة.

وتَسْمَعُ اليوم من المهاجرين الفلسطينيين كبارِ السنِّ شهاداتٍ تؤكّد العلاقاتِ الطيّبةَ التي سادَتْ بين اليهود والعرب في بعض المناطق، إذْ كانَ أهل الطائفتين يعيشون جنبًا إلى جنب، وقد زرت بنفسي عام ٢٠٠٣ رجلاً يقيم في مخيّم للاجئين قرب بيروت، وسمعته يتحدّث عن اليهودِ الذين عاشوا في فلسطين باسم "اليهود العرب"، وهو تعبير لم أسمعْه من قبلُ إلا منه. كان هذا الرجل يقطن بعكّا، ووصفها بأنّها "المنطقة الوحيدة في الشرق الأوسط بأكمله التي عاش المسيحيّون والمسلمون واليهود فيها بانسجام... فإن كنّا بالطابقِ العلويّ، كانت عائلة يهوديّة تقيم بالطابق السفليّ... وكنّا يعرف بعضنا الآخر كظاهرِ اليدِ. ولمّا ولدتْني أمّي، طلبت إلى السيّدة اليهوديّة المقيمة أسفلَ منا أن تعتني بأختي، فقالتْ لها: "بالتأكيد، فهي ابنتنا كذلك".

عاش اليهود والعرب جنبًا إلى جنب في طبريّة أيضًا، حتى إنّه لمّا امتدَّ العنفُ نحو الجنوب، لم يألُ أعيانُ المدينةِ وكبارُها جُهدًا إلا بذلوه كي يمنعوا وصولَ الشرِّ إلى مدينتهم، ووقّعَ اليهودُ والعربُ تعهّداتٍ لضمان السلم والصداقة، كُتبت بالعربيّة والعبريّة، وجاء في النسخة العربيّة:

بسم الله الرحمن الرحيم(*)

اجتمعنا مع أعيان المجتمع اليهودي في منزل سعادة المفتي الأكبر الشيخ عبد السلام أفندي الطبري وتشاورنا في شأن حفظ السلم والأمان في مدينتنا. واتفقنا على أن من واجب كلا الفريقين أن يحثوا أفرادهم على الحفاظ على السلم والهدوء وتحذيرهم من مخالفة ذلك. وإنا نعلن أننا نرفض بشدة أي عمل من شأنه أن يثير الفوضى بين الناس، وإننا لندعو الله القدير أن يهبنا العزيمة على ذلك. وإننا نهيب بإخواننا لكي يستمسكوا بالسلم ويستمروا في أعمالهم اليومية، لأن ذلك وحده هو النافع، ولا بد لهم أن يمتنعوا عما هو محرّمٌ ومرفوض في مجتمعهم، وأن يحجموا عن العدوان لأن الله لا يحب المعتدين.(١٣)

ولم تخلُ الساحةُ من أصوات المعتدلين من اليهود، من أمثال يهودا ماجنِس، رئيسِ الجامعة العبريّة في القدس، الذي كان يقول: "إن ضاقت حيلتنا عن إيجاد سبل للسلام والتفاهم، وإن لم يكن بالإمكان سوى إقامة الوطن القوميّ اليهوديّ على حراب إحدى الدول الإمبراطورية، فإنّ مشروعنا بأكمله لا قيمة له، والأفضلُ للشعب الخالد الذي صمد بوجه الإمبراطوريات العظمى، أن يلجأ إلى مخزون الصبر في روحه... إنّ الشعبَ اليهودي ليضطلعِ بأعظمِ مهام المدنيّة قاطبةً لو هو أخذَ على نفسِه ألا يدخلَ الأرض الموعودةَ على طريقة يهوا، بل أن يعمدَ إلى ترسيخ السلامِ ورفد الثقافة والإخلاص في العمل وتقديم التضحية والمحبّة والتصميم على الإحجام عمّا لا يمكن تسويغه أمام ضمير العالم"(١٤).

(*) نقلتُ هذا النصَّ عن الإنجليزية بعدما عجزت عن العثور على النص العربي الأصليّ في المراجع التي رجعت إليها، ولعلّي أجد النص الأصلي وأدرجه في طبعات لاحقة من الكتاب (المترجم)

الأخت الكبرى لعيسى، تيكلا، في العشرينيات من عمرها

ويوجد في سجلاّت الأرشيف الصهيونيّة وثيقةٌ مطبوعة، تسعى إلى استثمار العلاقات التقليديّة الجيّدة التي سادت بين اليهود والعرب في فلسطين في الماضي. وتعود هذه الوثيقة لحاييم كلفاريسكي، وهو يهوديٌّ فلسطينيٌّ عمَّرَ طويلاً، وقضى في فلسطينَ خمسةً وثلاثين عامًا، وهو يعرفُ العربَ جيّدًا، وذلك بمقتضى عمله في شراء الأراضي للمستوطنات اليهودية في الجليل من أصحابها العرب، وقد شَعَرَ هذا الرجلُ، حتى قبل صدور إعلان بلفور، أنّ في عمله شيئًا من الظلم، فيقول: "كنت أُدرك العلاقةَ بين البدويّ وأرضِه، وقد استلزم عملي مع الاستعمار مدّة خمسة وعشرين سنةً، أن أسلب كثيرًا من العرب أراضيهم، ولك أنْ تعْرِفَ ما في سلبِ الناسِ أرضَهمُ التي ولدوا هم فيما، وربّما وُلد آباؤهم كذلك بها، من مرارة وحسرة. وقد يزداد إدراكنا لهذه الحقيقة إن نظرنا إلى هؤلاء الناس بوصفهم بشرًا... ولم أتمكّن من التنصل من هذا العمل؛ لأنّ هذا ما طلبتْه إلينا إدارة المستوطنات اليهوديّة (إيشوف)، لكنّني حاولتُ أداءَ عملي بأفضل طريقة ممكنة... فأصبحتُ قريبًا من العرب والقضيّة العربيّة من وقتٍ مبكّر"[١٥].

ورفض كاتب يهوديٌّ آخرُ هذه العواطف، وأنكرها بتعبير يهوديّ قريب من قولهم "ضربني وبكى"[١٦]، لكنّ كلفاريسكي يبدو صادقًا في تعاطفه مع العرب، حتى إنّه كتب اقتراحًا للمنظّمة الصهيونيّة عام ١٩٣٠، يشير فيه إلى ضرورة التوصّل إلى ميثاق بين العرب واليهود في فلسطين، يقضي بتحقيق المصلحة المتبادلة، والتقاسم العادل لأرض فلسطين، ويقول فيه : " إنّ الخطرَ المزعوم والمحيقَ بالعرب بسبب النشاط اليهودي، هو محض خيالٍ وليس واقعًا، ذلك لأنّ قيام عرق سامي بالدخول إلى الدول الساميّة عمومًا، وفلسطين بشكل خاصّ، لن يشكّل خطرًا على العرب، بل سيرفع من فاعليّتها، ويزيد من قوّتها الكامنة. ولن نقوم نحن اليهود بإقحام أنفسنا لنصيرَ

جسمًا غريبًا في قلبِ الأمّة العربيّة، كما يعتقد العديد من الوطنيّين المُغـالين، لكنّنا سنصنعُ حلقةً جميلةً في سلسلة الاتّحاد الكنفدراليّ العربيّ، فإنّا لا نـرى بهذا الاتّحاد تهديدًا لنا"(١٧).

قد تبدو فكرةُ الميثاق التي طرحها كلفاريسكي ساذجةً في يومنـا هـذا، لكنّها تمثّل تيارًا معتدلاً لا يسعى لبناء الدولة اليهوديّة بقدر ما يسعى لتحقيق تشاركٍ حقيقيٍّ في هذه الأرض. ولم تلقَ رسالة كلفاريسكي أيَّ ترحيب مـن اليهود، وقال عنه أصاف حليفي: "هذا الحشرة، هذا المحرّضُ البغيضُ، يسير في شوارع القدس، ويصلُ شارعَ يافا، ولا يقوم إليه أحدٌ ليصفعَه على وجهه لترنَّ أذناه! لا أحد؟ ماذا عساني أن أقول؟ أنحن أمّة؟ أمّةٌ فيها روح؟ كـلاّ، لسنا كذلك. إنّما نحن جثّة هامدة تتحلّل وتتعفّن وتفوحُ ريحُها. نحن جثّةٌ يفعل بها الآخرون ما يحلو لهم"(١٨).

أمّا على المستوى الإعلاميّ العامّ، فقد كتب موشيه بيلينسُن، في الرابع من كانون الأوّل ١٩٢٩، في صحيفة عبريّة في فلـسطين، مقـالاً يعـوزه المنطق بصورة غريبة، قال فيه: "لا جواب عن مسألة [ادّعـاء الحـقّ فـي فلسطين] ولا يمكنُ أن يوجدَ جوابٌ لهذه القضيّة، ولسنا ملزمين بتقديم جوابٍ لهذا، ذلك أنّنا غيرُ مسؤولين عن شخصٍ وُلد في مكان ما، وليس على بُعـد عدّة كيلومترات من هنا"(١٩).

ستجلّي لنا الأحداث التي ستحلّ في لندن على مدار سـنة تقريبًـا، أنّ الصهاينة قد امتلكوا بالفعل ما يمكنهم من التحكّم بالحكومة البريطانيّة بأكملها، وتحقيقِ تحوّل كامل في سياستها، في وقت كانت هذه الحكومـة فيـه قـاب قوسين من تغيير الأوضاع في فلسطين لِما أظهرتْه من مقاومـةٍ للـضغوط الصهيونية. ففي ظرف عام واحد فقط، شكّلتِ الحكومة لجنـةً للنظـر فـي

الأسباب وراء أعمال العنف التي حدثت عام ١٩٢٩ وكانت اللجنةُ ستُصدرُ تقريرًا يشتمل على فهم واقعيّ للأوضاع، ويضع بعض التوصيات التي قد تحقّق تقاسمًا يحفظ السلم في فلسطين. بيد أنَّ هذا التقاسمَ يختلف عما يطمح إليه الصهاينة، فسلكوا سبلاً تشبه تلك التي اتبعوها أوّل مرّة لاستصدار إعلان بلفور، وقاموا باستبدال وثيقة أعدّوها هم أنفسهم بذلك التقرير، وهذه الوثيقة هي التي أدارت فلسطين لمدّة تسع سنوات أخرى.

هوامش الفصل الثاني عشر

(1) Tom Segev, One Palestine, Complete, Abacus, 2000, p. 357.
(2) Mary-Jane Deeb and Mary E. King (eds), *Hasib Sabbagh: From Palestinian Refugee to Citizen of the World*, Middle East Institute, University Press of America, 1996, p. 2.
(3) Segev, *One Palestine*, Complete, p. 304.
(4) Douglas V. Duff, Baling with a Teaspoon, John Long, 1953, quoted in Edward Horne, A Job Well Done, Palestine Police, 1982, p. 127.
(5) Segev, One Palestine, Complete, pp. 334-5.
(6) Report of the Commission on the Palestine Disturbances Cmd. 3530, HMSO, London, 1930, p. 45.
(7) <http://www.adl.org/ISRAELIRecord/david_hacohen.asp>
(8) Deeb and King (eds), Hasib Sabbagh: *From Palestinian Refugee to Citizen of the World*, p. 2.
(9) Quoted in Segev, *One Palestine*, Complete, pp. 324-5.
(10) Joseph Katz, 'Origins of the Arab-Jewish Conflict', in <http://www.eretzyisroel.org/~peters/depopulated.html>
(11) Segev, One Palestine, Complete, pp. 325-6.
(12) Maurice Samuel, *What Happened in Palestine*, The Stratford Company, 1929, pp. 205-7.
(13) Ibid., p. 199.
(14) Judah Magnes, *Chancellor*, Hebrew University, Jerusalem, 1929.
(15) Presentation of Haim Kalvaryski entitled 'Relation with the Arab Neighbors', Central Zionist Archive (CZA) J 1/8777.
(16) <http://www.jqf-jerusalem.org/2004/jqf21/alternative.html>
(17) Quoted in Aaron S. Klieman (ed.), The Rise of Israel, Vol. 17, Garland Publishing, 1987, p. 163.
(18) Segev, One Palestine, Complete, p. 309.
(19) Nur Masalha, Expulsion of the Palestinians, Institute for Palestine Studies, 1992, p. 20.

الفصل الثالث عشر

حُمّى اللجان

في يوم التاسع والعشرين من آب ١٩٢٩، وبعدَ ستّةِ أيّام على مجـزرة الخليل، تلقّى اللورد باسفيلد، الذي عُرِفَ سابقًا باسم سـيدني ويـب، وهـو اشتراكيّ فابي(*) وعُيّن وزيرًا لشؤون المستعمرات في الدولة، رسـالةً فـي مكتبه في وايتهول، اشتملتْ على أوامرَ صارمةٍ تبيّن له كيف يـدير شـأن فلسطين. وقد جاءت هذه الرسالةُ بعد يوم من إعلام الإدارة البريطانيّة فـي فلسطين أنّها ستنزع السلاحَ من السكّانِ جميعِهم عربِهم ويهودِهم. غيـرَ أنّ الرسالةَ التي وصلت باسفيلد، أصرّتْ على إبطالِ هذا القرار؛ لأنّـه يطـالُ رجالَ الشرطة اليهوديّة الخاصّة وأعضاءَ قوّةِ الـدّفاع اليهوديّـة. ونـصّتِ الرسالةُ على ضرورة "نسخ هذا القرار على الفور". وأمَـرَتْ أيـضًا بـدفع التعويضات للضحايا اليهود الذين تضرّروا من أعمال العنف، بالإضافة إلى تزويد الوكالة اليهوديّة "بمبلغ مالي مناسب" ليكون تحت تصرّفها، وتلك وكالةٌ تأسّستْ تحت إشراف الانتداب البريطانيّ لترعى مصالح اليهود في فلسطين. ثمّ طلبت الرسالةُ إلى باسفيلد أن يُصدرَ عددًا كبيرًا مـن شـهادات الهجـرة للوكالة اليهوديّة، وذلك من أجل استئناف حركة الهجرة، التي كانت الحكومة قد أوقفتْها من قبل.

(*) نسبة إلى الجمعية الفابية (Fabian Society) في بريطانيا، وهـي جمعيـة اشـتراكية تأسست عام ١٨٨٤، تتبنى منهج التغيير الإصلاحي التـدريجي وتـرفض التغييـر الثوري. (المترجم)

إنّ لهجةَ هذه الرسالة مألوفةٌ بعضَ الشيء، ذلك لأنّها من وضع المنظّمة الصهيونيّة، وكتبَها حاييم وايزمان نفسُه، وهي الرسالةُ التي عُدّت الرصاصةَ الأولى للحملة الصهيونيّة الرامية لإحكامِ السيطرة على إدارة فلسطين. وهي تسعى كذلكَ إلى التخلّصِ من شخصيّتين بارزتين في الإدارة البريطانية، كانا يُعدّان مناصرين للعرب؛ ويقول وايزمان: "يؤسفني أن أجدَ نفسي مُلزَمًا بأنْ أطلُبَ إلى حكومة جلالة الملك أن تنظرَ في إمكانيّة إعفاء السيد لوك والسيد كوست من مهامّهما، وذلك لأسباب جليّة لا تفوتكم"[1].

شكّلت الحكومةُ البريطانيّةُ لجنةً بعد مرور أسبوعين على موجة العنف في فلسطين، برئاسة السير وُولتر شو، "للبحث في الأسباب الرئيسة التي أدّتْ إلى اندلاعِ أعمالِ العنف الأخيرة في فلسطين، وتقديم توصيات بالإجراءات اللازم اتّباعُها لتفادي تكرارها". انطلق الفريق بأعضائه السبعةِ إلى فلسطين، ومكثوا فيها من الرابع والعشرين من تشرين الأول، إلى التاسع والعشرين من كانون الأول، وأجروا مقابلات مع أكثر من مئة شاهد، وتوصّلوا إلى نتيجة مفادها أنّ الأسباب التي وقفت وراء العنف متعدّدةٌ، غير أنّ الحادثةَ الأكبرَ تأثيرًا في هذا هي المظاهرة اليهوديّة عند حائط المبكى، يوم الخامس عشر من آب ١٩٢٩، ويلي ذلك في الأهميّة أنشطةُ الجماعات العربيّة واليهوديّة، والتي دافعت من باب الغيرة، عن حقوقها في حائط المبكي والحرم الشريف. وألقتِ اللجنة اللومَ أيضًا على المقالات التحريضيّة التي نشِرَتْ في الصّحف العربيّة واليهوديّة.

وخلصت اللجنة إلى توصياتٍ كان أهمُّها الدعوةُ إلى توضيح الفقرات المعنيّة بحماية حقوق عرب فلسطين في نصّ قانون الانتداب وإعادةِ النظرِ في سياسةِ الهجرة، ودعمِ البحث العلميّ حول الاستخدام الأمثل للأرض للنظر في إمكانية أن تسفر بعض الطرق الزراعيّة الجديدة عن زيادة عدد السكّان العاملين في الزراعة من العرب واليهود.

وتوصلتِ اللجنةُ إلى مفهومٍ جديد يُدعى "المقدرة الاقتصاديّةُ الاستيعابيّةُ" في فلسطين، وكان يُعتَقَدُ أنَّ تحديدَ هذه المقدرةِ سيفيدُ في وضعِ النِّسَبِ المعقولةِ للهجرة- وذلك للردّ على المطالب الصهيونيّة التي تدعو لهجرة اليهود بأعداد غير محدودة إلى فلسطين.

تبع ذلك فورًا تشكيلُ لجنةٍ جديدة، قامت في الواقع على جهد رجل واحد يُدعى السير جون هوب-سيمبسُن، وأُرْسِلَتْ إلى فلسطينَ للنّظرِ في قضيّة الأراضي الفلسطينيّة، وتوصّل سيمبسن إلى أنَّ شراءَ اليهودِ للأراضي وتقديمَها للمستوطنين يؤدّي إلى حرمان الفلسطينيّين من ممارسة أنشطتهم الزراعيّة التقليديّة. ويقول إدوارد سعيد في هذا الشأن: "ذكَرَ سيمبسُن سهلاً زراعيًا شمالي فلسطين، كان خصبًا مثمرًا، فأصبح "بحرًا من الأشواك" وباتَ وكرًا لفئران الحقول؛ وذلك لأنَّ الصهاينة حصلوا على مساحة من الأرض أكبرَ ممّا يحتاجونَها، أوْ ليس في مقدورهم زراعتُها. فالحركة الصهيونيّة لم تجرّدِ العربيَّ الفلسطينيَّ من أرضه فحسب، بل إنّها حرمتِ المزارعَ اليهوديّةَ، والأنشطةَ التجاريّة والصناعيةَ من مُنتجات العرب وأيديهم العاملة. وتنصّ العقود التي تقدّمها الوكالات الصهيونيّة التي امتلكت معظمَ الأراضي التي اشتراها اليهود، على أنّه لا يمكن لغير اليهودي العملُ فيها"[٢]. وقد أوصى تقرير هوب-سيمبسُن بفرض قيودٍ على هجرةِ اليهود وشرائهم للأراضي في فلسطين وجاء فيه: "تبيَّنَ بشكلٍ قاطعٍ أنّه لا مجالَ لمنح الأرض لاستيطان المهاجرين الجُدد في الأراضي الزراعيّة في هذا الظرفِ الراهن، وفي ظلِّ الطّرقِ الحاليّة التي يتّبعها العرب لزراعة الأرض"[٣].

لجنة شو، في عام ١٩٢٩-١٩٣٩ ، وهي واحدة من بين لجانٍ عديدة لتقصّي الحقائق التي أبدت نزاهة في عملها في فلسطين أثناء الانتداب البريطانيّ.

عقدٌ كامل توالت فيه البعثات واللجان، توصلت كلُّها إلى نتيجةٍ مشابهة: إنَّ سياسةَ الوطن القوميّ في فلسطين والتي تبنّتها بريطانيا "قامت علىً أساسٍ من التّضليل والإجحاف، ولا سبيل لتطبيقها"(٤) هذا ما قالَه الكاتبُ الإسرائيليّ توم زيجيف. وأعلن مجلس الوزراء البريطانيّ ضرورةَ ربط الهجرةِ بشكلٍ أقربَ معَ ما يُمْكن لفلسطينَ تعزيزُه من النّاحيةِ الاقتصاديّة، وهذا يعني تخفيضَ أعدادِ المهاجرين عمّا يريده اليهود. وأكّدَ مجلسُ الوزراء في بيانٍ له موجّهٍ للعربِ واليهود، أنَّ الحكومةَ تتعاملُ بجديّةٍ معَ التزاماتِ إدارةِ الانتداب، بشرطِ ألاّ يترتّبَ على إقامةِ الوطن القوميِّ اليهوديِّ أيُّ تأثيرٍ على حقوق العرب.

صدر الكتابُ الأبيضُ الذي يقرّرُ سياسةَ الحكومة في تاريخِ ٢١ تشرين أوّل ١٩٣٠، وأعدّه اللورد باسفيلد، وزيرُ المستعمراتِ البريطانيّة، وانشرحتْ له قلوبُ العرب الفلسطينيّين؛ لأنّه أكّدَ ما كانوا يقولونه منذ صدور إعلان بلفور، مع أنّه لم يتراجعْ عن النيّة بإنشاء وطن قوميّ لليهود في فلسطين. وقد وردت فيه كلمة فلسطين ("في فلسطين") و ("...ألاّ تصيرَ فلسطينُ وطنًا قوميًّا لليهود.") وقد اقترح باسفيلد إمكانيّة تأسيس مجلسٍ تشريعيّ للعرب واليهود ليتشاركوا في الحكم الذاتيّ للدولة، غير أنّ العربَ رفضوا الفكرة عام ١٩٢٢ نظرًا للتمثيل غير المتكافئ للنسبة الضئيلة من السكّان اليهود في هذا المجلس. ثمّ انعقدت آمال باسفيلد على التوصّل إلى طريقة أكثرَ إنصافًا من سابقتِها، فاعترضَ اليهود هذه المرّة، بحجّة أنّ معظمَ الفلاّحين العربِ غيرُ متعلّمين، ولذلك يسهلُ أن يقنعهم الأفنديّات– والأفندي هو لقبٌ كان يُطلَقُ على الرجل من طبقة الإقطاعيّين الفلسطينيّين– بمعارضة السياسة البريطانيّة والوقوف ضدّ تأسيس الوطن القوميّ اليهوديّ، مع أنّ الفلاّحين في واقع الأمر لا يحتاجون كثيرَ إقناعٍ لفعل ذلك.

اجتمعَ وايزمان في لقاءٍ خاصّ مع باسفيلد، ووضع أمامه المخطّطات الصهيونيّةَ التي تسعى لتهجيرِ العرب من فلسطين؛ فالمال اليهوديّ سيُستغلّ لشراء أراضٍ في عبر الأردنّ، خارج فلسطين، ويمكن هناك "تأسيس أرضٍ بديلة" للعرب الفلسطينيين، على غرار الأراضي البديلة التي خُصّصت للهنود الحمر في أمريكا.(٥) وطالب صهيونيّ مبرّز آخر، وهو مناحيم أوسيشكن، بتسليم فلسطين بأكملِها لليهود، وقال مرّةً لحشدٍ من الصحفيّين: "إن كان فيها سكّان آخرون فيجب ترحيلهم إلى مكان آخر." (وقد تبيّن لنا الآن بشكل قاطع أنّ هنالك سكّانًا آخرين في فلسطين.) وتابع قائلاً: "لا بدّ أن نأخذَ الأرض، فإنّ غايتنا أسمى وأكبرُ من الإبقاءِ على بضع مئات ألوفٍ من

الفلاّحين فيها."[٦] وقد غلبتْ هذه اللهجة المنتقصةُ من قدر العرب على الكتابات الصهيونية أثناء فترة الانتداب، ذلك لأنّهم أدركوا أنّ العرب هم أغلبية السكّان في فلسطين، ومن ذلك ما قاله وايزمان مرّة: "أرضٌ عظيمةُ الامتداد... لا يقطنُها إلا القليلُ من الناس، وهم على ذلك شبه متخلّفين، ومستوى عيشهم حقير..."، وقال فيلكس فرانكفورتر، وهو يهوديّ أمريكيّ: "إنّ ما يشغلُ بالَنا هو الارتقاء بالعرب البُسطاء، وتأسيسُ وطنٍ لليهود التائهين..."

ومن دواعي السرور أنّ باسفيلد أدركَ إدراكًا عميقًا طبيعةَ المجتمع الفلسطيني، وبدا مقتنعًا بحقّه في تقرير مصيره، فوضَعَ الكتاب الأبيض نصْب عينيه، وعدّه تقديرًا مُنصِفًا ودقيقًا لواقع الحال في فلسطين، فيه تأكيدٌ قاطعٌ على التزام الحكومةِ بحمايةِ العرب، مع أنّ اللورد باسفيلد نفسَه يُقِرُّ أنَّ ذلك قد يُزعج "الجهاتِ الصهيونيّةَ الأشدَّ إصرارًا على رأيها".[٧] وهو مُصيبٌ فيما ذَهَبَ إليه؛ لأنّ الصهاينةَ السياسيّينَ قد تحرّكوا ثائرين، وتوجّه عزمُهم لإلغاءِ الكتابِ الأبيض وسياساته، فاستقال وايزمان من رئاسةِ المنظّمة الصهيونيّة احتجاجًا على الكتاب، وتبعه في ذلك شخصياتٌ بارزةٌ في المنظّمة الصهيونيّة في بريطانيا، والولايات المتّحدة، وخرجَ عشراتُ الآلاف في شوارع أمريكا في مسيرة حاشدة ندّدوا فيها ببريطانيا، وشتموها بأقذعِ العبارات ونالوا من اللورد باسفيلد وسخروا منه. أمّا وِينستُن تشيرشل الموالي للصهيونيّة فقال: إنّ اللورد باسفيلد العجوز "لم يُعْطِ الرعايةَ الشخصيّةَ الدقيقة الكاملة ولا الجهد المخلص الذي يتطلّبه النظر في الكتاب الأبيض بموضوعه الدقيق المثير للجدل، وأهميّته البالغة".[٨] وكانت فلسطين وحدها هي المكانَ الوحيدَ الذي لاقى فيه الكتاب الأبيض قبولاً، حتى إنّ الذكرى السنويّة لإعلان بلفور- التي درج اليهود على الاحتفال بها، والعربُ على شجْبِها- قد مرّتْ دونَ مظاهراتٍ تُذكر.

أعلنت الحكومةُ البريطانيّةُ بعد ثلاثةِ أسابيع من إصدار الكتاب الأبيض أنّها تخشى أن يُساءَ فهمُ بعض فقرات الكتاب، ودعت لذلك ممثّلين من الوكالة اليهوديّة للتباحث معهم، وأشار هذا الإعلان في إحدى عباراته التي تبوح بما خفي، إلى أنّ الوكالة اليهوديّة هي إحدى "الجهات المعنيّة بالانتداب" مع أنّها لا تتمتّع بهذه الصفة القانونيّة، ولم يتلقّ العرب دعوة لتكون من هذه الجهات.

قام الصهاينةُ بعرضٍ مُماثلٍ لِما حصلَ في إعلان بلفور، وأعدّوا مسوّدة إعلان للسياسة البريطانيّة، تتحلّل من القيودِ الواردةِ في الكتابِ الأبيض على الهجرةِ وشراءِ الأراضي، وتُهملُ ما سبقَ تأكيدُه على حقوق العرب الفلسطينيين. وانتظرَ الصهاينةُ من الحكومة أن تستبدلها بالكتاب الأبيض. وتنقلتِ الوثيقةُ مرارًا بين مجلس الوزراء والصهاينة لإجراءِ تعديلاتٍ على صياغته، ورسا القرارُ في النهاية على المسوّدةِ الخامسة، وكُتِبت هي الأخرى على صيغةِ رسالةٍ من رئيسِ الوزراء رامزي ماكدونلد إلى حاييم وايزمان.

بيد أنّ ماكدونلد قد أثارَ حفيظةَ الصهاينة وأغضبَهم حين قال في مجلس العموم، ردًا على سؤال وُجّه إليه، إنّه لم يشأ أن يمنحَ تلك الرسالةَ الوضعَ الشرعيّ نفسَه الذي يتمتّع به الكتاب الأبيض. وفي مساء ذلك اليوم اتّصل ماكدونلد بوايزمان؛ ليسترضيَه، وتشتمل سجلّات الأرشيف الصهيونيّ على وقائعِ هذه المكالمة، التي توحي أنّ الكلمةَ اليهوديّة (chutzpah)– التي تعني فرطَ الثقة بالنفس– قد وُضِعَت أوّل ما وُضِعَت في هذا الموقف بالذات. فقد قال وايزمان لرئيس الوزراء: "نريد تأكيدًا منكم على أنَّ هذه الرسالةَ هي التفسيرُ الرسميُّ لما جاءَ في الكتاب الأبيض، وأنّها هي أساسُ أيِّ تشريع في فلسطين. ولا يزال اللورد باسفيلد، لسوءِ الحظّ، يتخيّل أنّ شيئًا لم يطرأ أو يتغيّرْ منذ إصدار الكتاب الأبيض، وهو لا يكفُّ أبدًا عن التسبّب بالمتاعب. فإن تلقّيتَ سؤالاً في المجلس في الغد، فما زال بإمكانك أن تعالجَ

الموضوع، وحبّذا لو استشرتَ وزير العدل، فإنّه سيدلّك على الصيغة الأمثلِ التي يَحْسُنُ استخدامُها. إنّه يتحتّمُ علينا أن نتوجه إلى الناس الذين استقرّتِ الحماسةُ والحرصُ في صدورهم، ونرجو ألاّ يبقى أيُّ مجالٍ لسوء الفهم... إنّنا نتعامل مع إدارة لا نثق بها، وأظنّها غيرَ خليقةٍ بثقتك أنتَ كذلك"(٩).

ظهرت بشائرُ نجاح هذه المكالمة في الثالث عشر من شهر شباط، حين وضع ماكدونلد أمامَ مجلسِ العموم نصّ "الرسالة" لتأخذَ مكانَ كتاب باسفيلد الأبيض، وهي تفصيلٌ للسياسة في فلسطين صاغها الصهاينة، ونعتها العرب الفلسطينيون "بالرسالة السوداء". وكتب جي إم إن جيفريز، في وصفه لهذه المرحلة: "لا بدّ، كيلا نظلمَ كاتبَ هذه الرسالة، من الإقرار بأنّ رئيس الوزراء، ووزير المستعمرات، مهما حادا وبدّلا، أو تنصّلا لاحقًا من مواقفهما، هما الوحيدين اللّذين أظهرا تعاطفًا مع العرب وإن قلّ، وأنهما أنصتا إلى مظالمِهمُ الأساسيّة، أو شعرا بشيء من صحوة الضمير في أنفسهما وأحسّا بالظلم الواقع عليهم، أو امتلكا رغبةً، ولو للحظة واحدة، في تحسين ظروفهم." أغضبتْ هذه الرسالة العربَ في فلسطين، رغم أنّهم لا يعلمون شيئًا ممّا يجري في أروقة وايتهول، ولا الضغوط الصهيونية التي يتعرّض لها رجالُ السياسةِ وموظّفو الخدمة المدنيّة في بريطانيا، فإلى أيِّ مدًى يا تُرى سيبلغُ غضبُهم لو أنّهم علموا تفاصيلَ التحوّل الكاملِ في موقف ماكدونلد؟

استؤنِفَتْ حركةُ الهجرةِ من جديد، وبأعداد أكبر بكثيرٍ من ذي قبل، حتى أدّت الهجرة بين عام ١٩٣١ و ١٩٣٦، إلى زيادةِ أعدادِ اليهودِ في فلسطين فوقَ الضعف، فأصبح تعدادهم ٣٨٤,٠٠٠ بعد أن كان ١٧٤,٠٠٠، وأضحوا يشكّلون ٣٠٪ من مجموع السكّان، وحصل هذا دون أدنى مراعاة "للمقدرة الاقتصاديّة الاستيعابيّة" للدولة". ومن حسنِ الطالع أنّ الأوضاعَ الاقتصاديّة

في فلسطين شهدت ازدهارًا بعد توالي عدّة مواسمَ وفيرةٍ من محاصيل الحمضيّات، وعاد هذا بالنفع على عائلات الطبقة الوسطى، كعائلة بيت صبّاغ، التي وإن كان أربابُ الأسرِ فيها يمتهنون أعمالاً أخرى، إلا أنّ الأراضي التي تملكها العائلة، والتي تنمو فيها أشجار الزيتون والبرتقال، أمدّتهم بمصدر دخلٍ إضافيّ، وساعدَهم هذا على توفيرِ أفضلِ فرص لتعليم أطفالهم في المدارس الحكوميّة، أو المدارس الدينيّة الخاصّة. فوالدي، على سبيل المثال، التحقَ بالمدرسة الثانويّة في طولكرم، أمّا ابن عمّه حسيب، فدرَس في مدرسة كاثوليكيّة مختلطة في صفد، أمّا أخواته فارتدنَ المدرسة البرسباتينيّة قرب صفد. ولم يكن المسيحيّون الفلسطينيّون يجدون أيّ مشكلة في الاختِلاط مع اليهود والمسلمين، متى سُنِح لهم ذلك، نظرًا لطبيعة الدولة بأطيافها الدينيّة المتعدّدة. حتى إنّ حسيب رفضَ في إحدى المرّاتِ مغادرةَ فصله في المدرسة لمّا حان موعدُ درسِ الدين الإسلاميّ؛ لأنّه أرادَ أن يتعلّم عن الإسلام.

وقفَ العربُ الفلسطينيون في عام ١٩٣٣، في وجه الحكومة البريطانيّة لأوّل مرّة على هذا النحو الجاد، فصبرُهم قدْ نفَدَ، وضجَّتْ حشودُ العربِ في مظاهراتٍ حاشدةٍ عند المباني الحكوميّة في القدس ويافا وحيفا ونابلس. واشتعلتْ جذوةُ الغضبِ في المظاهرات، وتحوّلتْ إلى أعمالِ شغب، فردّتِ الشرطةُ البريطانيّةُ، وأردتْ ستّةً وعشرين فلسطينيًّا، وجرحت مئتين تقريبًا. وتأكّد بعد ذلك أنّ الدعم البريطانيّ لحقّ الفلسطينيين في الحكم الذاتي لن يصمدَ في وجه المطالب الصهيونيّة بوطن قوميّ يهوديّ. ثمّ باتتِ المصالحُ البريطانيّة في فلسطين عرضةً لمزيد من العنف، من العرب في المقام الأول، ومن اليهود أيضًا بشكلٍ متصاعدٍ (ولأسباب عديدة).

ثمّةُ دواعٍ عديدة- عدا الضغط اليهوديّ- تسوّغُ موافقةَ الحكومة على زيادة أعداد المهاجرين إلى فلسطين. فأحد المندوبين السامين في حقبة الثلاثينيات، السير آرثر ووكُب، قد رأى في الواقع، أنّ التوازن بين المجتمعات سيجعل "الذئب يبيت بين الخراف". وارتأت وزارة المستعمرات في لندن أنّه سيتمكّن من توفير من الضرائب التي يدفعها البريطانيّون لو سمحوا بلا قيدٍ لأيِّ يهوديٍّ بحوزته أكثر من ١٠٠٠ جنيه إسترليني أن يغادر البلاد. فترتّب على ذلك وصول ٤٠,٠٠٠ مهاجر يهوديّ بصورة شرعية إلى فلسطين عام ١٩٣٤، معظمهم من بولندا، ويعزى ارتفاع هذه الأعداد في جانب منه إلى تزايد العداء ضدَّ الساميّة في أوروبا.

وسَعَتِ الحكومةُ البريطانيةُ من جهودها لتأسيسِ حكومةٍ مبدئيّة تمثّل الشعبَ في فلسطين، واقترحتْ إنشاء مجلسٍ تشريعيٍّ لا يختلفُ عن ذاك الذي رفضه العرب عام ١٩٢٢، غير أنّ العرب لم يرفضوه هذه المرّة، بل رفضَه الصهاينةُ، وهو ما انتقده وايزمان نفسُه، مقرًّا بأنّ رفض الصهاينة لأيّ مجلس تشريعيّ منتخبٍ ديمقراطيًّا قد أضرّ بمساعيهم: "إنّ الموقف الذي وضعنا فيه أنفسنا لمّا رفضنا النظرَ في أمرِ المجلسِ التشريعيِّ كانَ غير موفّق. فالناسُ سمعتْ بأمر "المجلس التشريعيّ في فلسطين"، وسمعوا أنّ الصهاينة يقفون في وجه ذلك، فبدتِ الصورة بخلاصتها أنّ الصهاينةَ غيرُ ديمقراطيّين، أو مناهضين للديمقراطيّة"[١٠]. ولا شكّ أنّ الصهاينة على أيّ حال، كانوا يتجاهلون مطالب الأغلبيّة في فلسطين منذ أن صدرَ إعلان بلفور، وقد كان هذا هو أكبرَ اعتداءٍ على الديمقراطيّة.

بذلت الطبقة المتوسّطة من العرب في فلسطين بقيادة مفتي القدس (وسط) قصارى جهدها لتنظيم الاحتجاجات الرسميّة ضدَّ التزام الحكومة البريطانية بإعلان بلفور.

لكنّ الأمر بَدا وكأنّ فكرة المجلس التشريعيّ تشقّ طريقها نحو تبلورها إلى حقيقة على أرض الواقع على الرغم من الرفض الصهيونيّ لها، فلجأتِ الوكالةُ اليهوديّةُ بسرعةٍ إلى أصدقائِها في البرلمان لتحاولَ إجهاضَ الدستور الفلسطينيّ الجديد، وكان كبشَ الفداءِ في هذه العمليّة وزيرُ المستعمرات البريطانيّ، جي إتش توماس، وهو أحد أعضاء نقابة التجّار البريطانيين، وشخصيةٌ يُبْغِضُها الصهاينة. وأوردت بلاننتش (بافي) دُجديل، الصهيونيّةُ البريطانيّة، وابنة أخ آرثر بلفور، في بعضِ ما كتبت، أنّ "جيمي توماس سيكون من وجهة نظرنا، أسوأَ وزيرٍ للمستعمرات، فهو ضعيفٌ جاهلٌ وأهوجٌ طائش، وهذه الصفات تجلّت بوضوح... في قضيّة المجلس التشريعي"(١١).

وكعادة البرلمان لمّا يتباحث بالشأن الفلسطينيّ، كانت وجهةُ النظرِ الصّهيونيّة تُلقي بظلالِها على جميع الخطابات، ويشير تقريرٌ حكوميٌّ صدرَ بعد حين، إلى أنَّ "النقاشَ كان توضيحًا يلفت الأذهان إلى الأذى اللاحق بالعرب كلّما انتقل ميدان التباحث من فلسطين إلى المملكة المتّحدة. فلا يتبدّد حقّ اليهود أبدًا في انتهاز كافّة الفرص التي تتوفر لهم لضمان أن يفهم الجميع بشكل تامّ ما يسعون وراءه، إلا إنّنا نرى أنّ خدمة مصالحهم بصورتها النهائيّة كانت ممكنة لو أنّ الرأيّ العام البريطانيّ تلقّى منذ البداية بيانًا غامضًا غيرَ قطعيّ بشأن القضيّة العربيّة."[١٢] وكان الكولونيل جوزايا ودجوُود واحدًا من أعضاء البرلمان البريطانيّ الذين لا يرفضون أمرًا للصهاينة في مجلس العموم، وقد كتب هذا الرجل يومًا إلى ابنته رسالة جاء فيها: "أمضيتُ أسبوعًا ناجحًا... لقد قضيت على الدستور الفلسطيني، فجعلت تشيرتشل وتشامبرلين، وإيميري، وسنكلير يتكلّمون، فما كادوا يفرغون من خطابهم حتّى ترقرقَ الدّمع في عينيّ وزيرِ المستعمرات البريطاني، جي تي توماس"[١٣].

حملتْ بافي دوجديل تارةً أخرى على توماس، وخطّطت لإجراء تعديل حكوميّ بقيادة امرأة واحدة: "إن جي توماس لا يكفُ عن التصرّف المزعج في شؤون فلسطين، وقد توصّلتُ إلى قرار يقضي بضرورة أن يُعفى هذا الرجلُ من منصبه... لن يهدأ روعي حتى يتبوّأ بيلي جور مكان جي إتش توماس. فلا يُعقَل أن يبقى مستقبلُ صهيون معلّقًا بيد شخص كان سائقًا سكّيرًا"[١٤]. ولم تملكْ وقتًا للانتظار، ومن عجائب الأمور أنّ عدوّها اختفى فجأةً من الساحةِ السياسيّة بعد فترة وجيزة، وتبيّن أنّه اضطر لتقديم استقالته بعد أنْ سرّبَ معلومات سريّةً لخزينةِ الدولة إلى بعض رجال الأعمال، وهو يلعب معهم الجولف، إذْ لمّح إليهم أثناء اللعبِ ذات مرّةٍ أنّ الضرائبَ المفروضةَ على الشاي في طريقها إلى الارتفاع.

رحّبتِ الصحافةُ اليهوديّةُ في فلسطينَ بقرارِ البرلمان البريطاني بإلغاءِ المجلس التشريعي الفلسطيني، ووصفته بأنه "انتصار يهودي عظيم"، أمّا العربُ فعدّوا هذا القرارَ رفضًا جديدًا لحقوقهم في الحكم الذاتي، وتمكّنتْ مخاوفهم وهم يرقبون الهجرةَ اليهوديةَ المطّرِدةَ في أعدادها، والتي وصلت عام ١٩٣٥ إلى ما يقارب ٦٠,٠٠٠ مهاجر شرعي، وهي نسبةٌ إن ارتبطت بأعداد السكان في فلسطين، فإنها تعادل قَبول المملكةِ المتحدة ثلاثةَ ملايين مهاجرٍ في العام ٢٠٠٥. وقد ازدادت معدلاتُ الهجرة إلى فلسطين بشكلٍ كبيرٍ مع ازديادِ الظروفِ القاسية التي تعرَّض لها اليهودُ في أوروبا. فالقوانين التي فرضتها ألمانيا، والمعروفة بقوانين نورمبيرج، سَعَتْ إلى الحفاظ على "نقاء" العرق الآري عن طريق منع اختلاط نسَبِهم وتجريد اليهود من هُويّتِهم الألمانية.

وقد ازدادت مع أمواج المهاجرين نسبةُ تهريب الأسلحة إلى فلسطين، وكانت تذهب لتسليح الميليشيات التي عَمِدَ اليهودُ إلى تنظيمها، وذلك كلُّه مخالفٌ للقانون. وكان الهدف الأساسي من تأسيس هذه الميليشيات هو حماية المجتمعات اليهودية من هجمات العرب، ولكنَّ اليهودَ انقلبوا بعد ذلك على الإدارة البريطانية. ولما ضُبِطت على الطريق إلى تل أبيب بضعُ صناديقَ أسمنتيةٍ كانت تحتوي على ٢٥٤ مسدس ماركةِ ماوسر، و ٩٠ مسدسًا، و٥٠٠ حربة و ٥٠٠,٠٠٠ طوق من الذخيرة، كتبَ اتّحادُ العُمّالِ العربِ في يافا برقيةً إلى الإدارة البريطانية جاء فيها: "لِمَ كلُّ هذه الذخائر المهرَّبة؟ ألقتلِ العرب أم لِطَردِ الإنجليز؟ إننا نطالب بالمساواة في التسليح أو مصادرةِ السلاح اليهوديّ، الشرعيِّ منه والمهرب"[١٥]. وهذه الأنباءُ التي انتشرت عن الهجرة اليهودية غير الشرعية، وتهريب الأسلحة لهم قدْ أرّقتِ العربَ، وزادت من تخوفهم من اليهود.

تواصلَ نفوذُ الوكالة اليهوديّة في الحكومةِ البريطانية حتى منتصف الثلاثينيات، ويُذكَرُ أنَّ الحكومةَ عام ١٩٣٦ منحَتِ شركةً يهوديةً عقدًا لبناء ثلاثِ مدارسَ عربيةٍ في قلب مدينة يافا العربية، ورفضت هذه الشركةُ أن تستخدمَ أحدًا سوى اليهود، مع أنَّ العرب حينها كانوا بحاجة للعمل، وهذا ما دفعَ باتحادِ العمّال العرب لأن يعترضوا أمام مندوب المنطقة فقال ممثّلٌ عنهم:

أرغب في تنبيه حضرتِكم على أنَّ منحَ المقاولِ اليهوديِّ العقدَ لإنشاءِ ثلاث مدارسَ، وإصرارَ المقاولِ على استخدامِ العمالةِ اليهوديةِ فقط قد أثارَ حفيظةَ العمّال العربِ وسخطهم؛ لأنّهم رأوا في ذلك هضمًا كاملاً لحقوقهم القانونية، وذلك للأسباب التالية:

١- إنّ موقع الإنشاء في منطقة عربية.

٢- لم يسبق أن منحتِ الحكومةُ عقدًا لمقاول عربي في منطقة يهودية.

٣- تعرّضَ العمّالُ العربُ في المناطق اليهوديّة للطرد بالقوّة أكثرَ من مرّة.

٤- إنّ البطالة بين العرب بلغت مستوى خطيرًا.

إنّني على ثقة بأنّكم ستوافقونني الرأيَ بأنّه كان جديرًا بالحكومة أن تدرسَ الحالةَ النفسيّةَ للعمّالِ العرب في هذه الآونة، قبل توقيعِها على مثل هذا العقد. فإنّ في هذا استفزازًا لهم، علمًا بأنّهم يعانون قسوةَ الأزمة الاقتصاديّة الراهنة، ويبحثون عن أيّ فرصة للعمل، لتأمين قُوتِهم ولقمةِ عيشِ أسَرِهم.

وقد عقد العمّالُ في الآونة الأخيرة اجتماعات عدة ، ولا أرى إلاّ أنّهم عازمون على الحصول على حقوقهم تامّةً في هذه المباني، وقد ألحّوا عليّ بأن أطلب إليكم أن تتّخذوا إجراءً بشأن هذه القضيّة الجادّة، وأن تطلعونا على قراركم الأخير في أسرع وقت ممكن. كما طُلب إليّ أن أبلغكم، أنّ اتّحاد العمّال العرب مستعدّ لتزويدكم بأيّ عدد من العمّال لأيّ مهنة، وفي أيّ وقت، سواء في هذا المشروع، أو في أيّ مشروع آخر [١٦].

وكان احتجاجُهم كالنقشِ على الماء.

* * *

حاول الفلسطينيّون في هذه الأثناء أن يعيشوا حياتهم الطبيعيّة، فوالدي عيسى (وهو وقتها شاب لم يبلغ العشرين) تقدّم بطلب للدراسة في الكليّة العربيّة في القدس؛ للحصول على الشهادة العليا، ومعروف أنّ هذه الكليّة هي الأفضل في فلسطين، وتحتدم المنافسة بين الطلبة من شتّى أرجاء فلسطين على المقاعد الدراسيّة فيها، و تبلغ نحو مئة تقريبًا. كان الطلاب في هذه المدرسة يدرسون ليل نهار طوال ستّة أيام، واليوم السابع من الأسبوع يكون لممارسة الرياضة. ويجمع منهاج الكليّة بشكل متوازن بين العلوم الإنسانية والطبيعية، بالإضافة إلى دراسة الثقافة العربية الإسلامية، والتراث الغربي الكلاسيكي، ولاسيّما اليوناني واللاتيني [١٧]. وحصلَ عيسى بالفعل على قبول في الكلية، وتبعه بعد عدة سنوات ابنُ عمه حسيب. ولو أنَّ فلسطين حققت الاستقلال، لكانت الكليّة العربية جامعتها الوطنية.

كانت الدولة لمّا أنهى والدي دراسته عام ١٩٣٦ في إحدى نوبات الاضطراب التي اعتادت عليها، وحال ذلك بينه وبين تقديم الامتحانات، فلم يجدْ بُدًّا من التدريس لأشهر معدودة، وكان يحدوه أملٌ بعودة الأوضاع إلى الهدوء، حتى يتمكّن من العودة إلى القدسِ مجدّدًا. وعلَمَ والدي أنّ مدرسةً في كفر ياصيف تحتاج إلى مدرّس، وفي هذه القرية عدد من أصدقاء جدّي خليل؛ فانتقلتِ العائلةُ بأكملها إلى القرية، ونزلت في بيت رحْبٍ هناكَ مع زوجة جدّي الجديدة، عفيفة، وهي امرأةٌ لبنانية من مدينة صور، وهي التي اعتنت به بعد وفاة جدّتي.

يذكر عمّي غسّان، وكان عمره خمس سنوات تقريبًا حينها، أنّ جدّي كان شديدًا صارمًا فأخبرني مرّة وقال: "لا أذكرُ أنّي جلست في حضنه، أو أنّه قبّلني في أحدِ الأيام، وتوجّب علينا نحن الأطفال أن نلزمَ الجِدَّ في حَضرتِه." تعلَّمَ غسانُ القراءةَ والكتابةَ في البيت، وقامت عليه أختُه الكبرى تِكلا، والتحق بالمدرسة التي يدرّسُ فيها والدي عيسى، مع أنّه لم يكن قد وصل بعدُ إلى سنِّ الدراسة، ولم يرهُ والدي إلا قليلاً. حدّثني غسّانُ: "أذكر مرةً واحدة فقط، لمّا كنّا في درس الدين، وكان المعلّم غائبًا، دخلَ علينا عيسى ليشغلَ مكانه، فسألَ الطلابَ: "من هو "أبونا"؟ وكانت العادةُ أن يرفع الطالب يده للإجابة، فرفعتُ أنا يدي وناديت: "عيسى! عيسى! عيسى!" وفي طريقِ عودتنا إلى المنزل قال لي: "لا تناديني باسمي في الفصل، اسمي هناك "أستاذ صبّاغ"، أمّا في المنزل فعيسى".

الصورة صفحة ١٩٦: حصل عيسى خليل صبّاغ، وهو طالب في الكلية العربيـــة فـــي القـــدس على منحة للدارسة في إنجلترا.

كان "أستاذ صباغ" في السابعة عشرة، أو الثامنة عشرة من عمره، غير أنّه برعَ في فنِّ الخطابة حتّى في تلك السنّ، وهذا ما يذكره غسّان ويقـول: "تُوفّي مديرُ المدرسة، وطلبوا إلى عيسى أن يتحدثَ ببعض كلمات الرثـاء، فرأيت الجميع يبكون." وقد حصل والدي بعد انقضاء مدة التدريس في كفـر ياصيف، على منحةٍ من الحكومة الفلسطينية لدراسة التاريخ في جامعة إكستِر في بريطانيا، فحزم والدي حقائبَه، وغادر فلسطين.

هوامش الفصل الثالث عشر

(1) Aaron S. Klieman (ed.), *The Rise of Israel*, Vol. 17, Garland Publishing, 1987, p. 179 ff.
(2) Edward W. Said and Christopher Hitchens (eds), *Blaming the Victims*, Verso, 1988, p. 243
(3) Palestine, Report on Immigration, Land Settlement and Development, Sir John Hope Simpson, Cmd. 3686, HMSO, 1930, p. 141.
(4) Tom Segev, *One Palestine*, Complete, Abacus, 2000, p. 333.
(5) Nur Masalha, Expulsion of the Palestinians, Institute for Palestine Studies, 1992, p. 33.
(6) Ibid., p. 37.
(7) Lord Passfield, White Paper Cmd 3692, HMSO, 1930, p. 5.
(8) J. M. N. Jeffries, Palestine: The Reality, Longmans, Green and Co., 1939, p. 631.
(9) Minutes of a telephone conversation between the Prime Minister and Weizmann from the Zionist office at 9.30 p.m., quoted in N. A. Rose, The Gentile Zionists, Frank Cass, 1973, p. 26.
(10) Rose, The Gentile Zionists, p. 42.
(11) Ibid., pp. 63-4.
(12) Palestine Royal Commission, Report, Cmd. 5479, HMSO, 1937, P.92.
(13) Rose, The Gentile Zionists, p. 62.
(14) Ibid., pp. 63-4.
(15) Nevill Barbour, Nisi Dominus, George G. Harrap, 1946, p. 161.
(16) Ibid., p. 162.
(17) Mary-Jane Deeb and Mary E. King (eds), Hasib Sabbagh: From Palestinian Refugee to Citizen of the World, Middle East Institute, University Press of America, 1996, p. 33.

الفصل الرابع عشر

لجنة بيل وفكرة التقسيم

توسّعت دائرةُ العنفِ بين العرب واليهودِ مع استمرار اليهود في إجهاض أيّ محاولةٍ لحلّ المظالم التي يتعرّض لها العرب. وفي الخامس عشر من نيسان ١٩٣٦، وعلى الطريق الذي يربط بين طولكرم ونابلس، قُتل اثنان من اليهود، فردّ اليهود بقتل اثنين من العرب في الليلة التالية ثأرًا على ما يبدو لمقتل اليهوديين. وخرجَ اليهود في مظاهراتٍ رافقتْ جنازةَ أحدهم في تل أبيب، وراحوا يعتدون على العرب، فوصلت إلى يافا أنباءٌ بأنَّ بعضَ العربِ قد تعرضوا للقتل، فاندلعتْ أعمالُ شَغَبٍ هناك وقُتِلَ ثلاثةٌ من اليهود، واضطرّت الحكومة الفلسطينيّة إلى فرض حظرٍ للتجول في يافا وتل أبيب وأعلنتْ حالةَ الطوارئ في البلاد.

أسّس العرب ما يُعرف باللجنة العربيّة العليا، التي تضمُّ عددًا من وجهاء المجتمع الفلسطيني، ولاسيّما أعضاء الأحزاب السياسيّة الفلسطينيّة، وترأّس هذه اللجنةَ المفتي الأكبر. وبدأتِ هذه النهضةُ الوطنيّةُ المنظَّمةُ تؤرّقُ اليهودَ، وراحوا ينعتون الحركةَ الوطنيّةَ الفلسطينيّة بالحركة "النازية"، حتى ينالوا منها ويشوّهوا سمعتَها. ليس هذا فحسب، بل تحدّثَ اليهود كذلك عن "عطش العرب المعهود للدماء" و "الفاشيةِ والإمبرياليّة العربيّة" و "الهتلريّة العربيّة" [١]. ودعتِ اللجنةُ العربيةُ العليا في نهاية المطاف إلى إضرابٍ

عامٍ يشملُ فلسطينَ كلّها، وبدأت بهذا ما يُعرف بالثورة الفلسطينية الكبرى، وعزلت بريطانيا منافسي الحاج الحسينيّ من أصحاب الخطّ المعتدل، ولاسيّما راغب النشاشيبي، من مناصبهم العليا، فبات منهج الحسينيّ بالمقاومة المسلحة هو السائدَ، فتشكّلت الميليشيّات العربيّة، كما فعلَ الصهاينة من قبل، وهُرّبَتِ الأسلحةُ إلى فلسطين وبدأت سلسلة هجمات على المستعمرات اليهوديّة.

وباتَتْ بريطانيا مستهدفةً في تلكَ المرحلة، وهذا ما حصلَ في أحدِ الأيّامِ لمّا انطلقتْ قافلةٌ من الشاحناتِ من حيفا إلى صفد، يرافقها مجموعة من الجنود البريطانيين، ولمّا وصلت القافلة إلى طريق جبليّ في منطقة الجليل، مرّتْ إحدى الشاحنات على لغمٍ أرضيّ، فانفجر بها وتناثرت أجزاؤُها وقتل سائقها. ثمّ تابعتِ القافلة مسيرَها، ولمّا اقتربتْ من صفد، هاجمها المقاتلون العرب، واستمرّ تبادل إطلاق النار بينهم وبين الجنود قرابةَ ساعة، فقُتِل بعضُهم ونجا الجنود.

تقع قرية كفر ياصيف في الطريق بين حيفا وصفد، وكانت عائلة صبّاغ تقطن هناك في ذلك الحين، فداهم القريةَ جنودٌ بريطانيّون، ذهبوا في إثْر الرجالِ العربِ الذين زرعوا اللّغم على الطريق. وتعجّب غسّانُ لمّا رأى غرفةَ صفّه في المدرسة تعجُّ برجال القرية، وكان بعضهم يختبئ من الجنود. توجّهتِ الأوامر للجميع بالخروج من المدرسة والتجمّعِ في ساحةٍ بجوارها، ووجّهَ الجنودُ البريطانيّون الأسلحةَ الرشّاشة على الرجال، أمّا الأطفال فلم يبرحوا الأرضَ، وأمهلوهم حتّى يخرجَ من بينهم من زرعَ القنبلة، فإن لم

يفعلوا أحرقوا كلّ منزل في القرية. لم يتحرّك من الرجال أحدٌ. وقصّ علـيّ عمّي غسانُ ذلك الخبر، فقال: "شاهدنا الدخان يتصاعد من المنازل، ولم يتبيّن لي إن كان ذلك منزلنا أو لا؛ لأنّ النارَ اشتعلتْ في المنزل الذي وراءه أيضًا. ولم يشغلْنا حرقُ منازلِنا بقدْر ما أرهبَتنا أسلحتهم الرشّاشة، مخافةَ أن يقتلونا برصاصها. ثمّ ما لبثوا أن أطلقوا سراحنا كلّنا، وقفلتُ راجعًا إلـى المنـزل لأرى أنّ كلّ المنازل حولنا احترقت، إلا منزلَنا".

تبيّنَ أنّ مجموعةً من الظروف التي لم تكن في حسبانِ أحدٍ قد تركـت منزل عائلةِ صبّاغ سالمًا. كانت عمّتي جورجيت تقطـن بالبيـت حينـذاك، وكانت معلّمة في إحدى مدارس الحكومة الفلسطينية، فأظهرتْ للجنديِّ الذي أتى ليحرقَ المنزلَ ما يثبت ذلك فقال: إنّ ذلك لن يعفيَ العائلـةَ مـن هـذا القِصاص، ثمّ تقدّمتْ إليه زوجةُ خليل، وأخرجتْ له واحدةً من الرسائل التي أرسلها والدي من بريطانيا، وعليها الختم البريطانيُّ الرسميُّ، فقال الجنـديّ مجدّدًا: "سيدتي، أنا آسف، ليس هذا من شأني بل هو شأن النقيب، وهو ليس هنا الآن." فما كان من الجنديّ واثنين معه إلا أن وضـعوا بعـض الأثـاث في وسط المنزل، حتى يشعلوا اللهبَ فيه، لكنّ أحدًا منهم لم يكن معه عـود ثقاب، فحاولوا الحصولَ على أعواد ثقابٍ من العائلة، غير أنّهمْ لمْ يُفلِحـوا، وقال لي غسّان: "ثمّ حدَثتِ المعجزةُ لمّا انحنتْ أمّي للصلاةِ وقالـت: "أنقـذْ أرواحَنا يا ربّ"، فظهرَ النقيبُ من الباب ليرى ما يحصل، فـأخبروه بـأمر عيسى، فنهاهم عن إحراق المنزل، وأبقى على اثنين منهما لحراسته مـن أيّ متطفّل. أذكر تلك الليلةَ والليالي التي تلتْها، وأذكرُ كيف صار منزلنا مخيّمًـا للناس في القرية يبيتون فيه."

الصورة صفحة ٢٠٠: عيسى صبّاغ (يمين)، مع والده خليل، وأخته إقبال، وأخيه غسّان.

تكرّرت الهجمات على الأحياء العربيّةِ حتى باتتْ مألوفةً لدى النـــاس، وقد كتب جنديّ بريطانيّ يومًا رسالةً إلى خطيبته في إنجلترا، يــصف لهــا أحداث يوم ليس ببعيد، فقال: "تحولّتِ الأوضاعُ هنا، منذ يوم الأربعاء، إلـــى فوضىً عارمة، وكنّا في مستهلّ الأسبوع قد قرّرنا... أن نبدأ حملة ترهيــب صغيرة ضدّ سكّان القرى، فوضعنا خطةً مع الجيش لتفجيرَ أربعة بيوت في

قريتين على طول الطريق، وكان موعد العملية صباح يوم الخميس... فلم نفلحْ في تفجير البيوت حتى الثانية ظهرًا، ثمّ سارت الأمور بشكل جيّد. لكنّ عملَنا يبعثُ في النفسِ الإحباطَ، إذ يلزمُنا أن نأخذَ جانبَ الحيطة دومًا وأنْ نتأكدَ أنّ الناس جميعَهم بعيدون عن محيط عمليات التفجير، ويراودنا شعور بغيض من الترقّب لمّا يَشعَل فتيلُ القنبلة، خشيةَ أن يقترب من المنزل أحد القرويين السذّج..."[٢].

أضفْ إلى ذلك أنّ رجال الشرطة اتّخذوا إجراءاتٍ قاسيةً ضدَّ العرب، فكتب أحدُهم مّرةً إلى أسرته في إنجلترا يقول: ما أبغضه في هذه الحرب أنّ الأبرياء هم غالبًا من يقاسون مرارتها، فمستشفياتنا هنا تعجّ بالنساء والأطفال، ومنهم المشوّه ومنهم من فقد بصره إلى الأبد... وحياةُ الشرطيّ منّا اليوم، عملٌ بلا راحة، وإن كانتِ الحياةُ في فلسطين كئيبةً وهي في أفضل أحوالها، فإنّها تبدو مع قوانين حظر التجوال، وذلك الجزَعِ من الموتِ الذي تراه في أعين الناس، كالعيشِ بين الموتى في قبورهم"[٣].

كان في الخليل طبيبٌ بريطانيٌّ يتعاملُ كلَّ يومٍ معَ عشراتِ الضّحايا من العربِ الذين تعرّضوا للأذى على يدِ البريطانيّين، وعَرِفَ الطبيبُ دونَ تردّدٍ مَنِ الملومُ في هذا، وقال: "أرى أنّ أحدَنا لو عقدَ مقارنةً بين الأفعال الخسيسة والوحشية من كلا الطرفين، لتبيّن له دون أدنى شكّ أنّ واحدًا منهما هو الخاسر في هذه المقارنة. فالثوّار يقاتلون ببسالةٍ دفاعًا عن حقّهم، ويحكمون بتلطّف، أمّا البريطانيّون، فيقتلون الأبرياء إن لم يجدوا العدوّ قربهم، وينهبون الفقراء المعدمين، ولا يذَرون لهم شيئًا"[٤].

ولمّا حاولتِ القوّاتُ البريطانيّة كبحَ جماح العنفِ بين العربِ، أصبحتْ بعض إجراءاتِها المتّبعةِ محطَّ أنظارِ جمهورٍ أوسع، ولم يكن مدى العنف

البريطانيّ ضدّ العرب الفلسطينيين قد انتشرت أنباؤه حتى ذلك الحين، ولذلك أسبابٌ معروفة تفسّره، بَيْدَ أنّ بعض الأعمال التي قامت بها الحكومة البريطانية لردع العرب كانت ورقةَ ضغطٍ يمسك بها أعداء بريطانيا، وهذا لمّا بدأت الحملات الإعلامية الإيطالية، ومن بعدها الألمانية، بنشر تفاصيل ما وصفوه "بالأعمال الوحشيّة" التي تقوم بها القوّات البريطانيّة في فلسطين، وقد بلغ من مدى هذه الحملات، أن اضطرّت وزارة الحرب البريطانية أن تصدرَ بيانًا من لندن، ينفي ما قيل عن لجوء الجنود ورجال الشرطة البريطانيين للوحشيّة في عملهم ، وجاء في هذا البيان: "لا يدركُ من يحلو لهمُ انتقادُنا أنّ العربَ الفلسطينيين يتفهمون مبدأ المسؤوليّة الجماعية للمجتمع عمّا يُرتَكَبُ ضمن حدوده من جريمة وشَغَب. وقد يكون العقابُ الجماعيُّ أحيانًا هو السبيلَ الوحيدَ لتُدْرِكَ الأغلبيّةُ المسالمةُ الخاضعةُ للترهيب، أنّ عدم مساعدة القانون والنظام قد تكون عواقبه أشدَّ قسوةً من عدم الخضوع للتهديد"[٥].

وحين صدر هذا البيانُ الذي يسوّغ ما تقوم به بريطانيا، كتب رجلُ أعمالٍ بريطانيٌّ مقيم في فلسطين، رسالةً خاصّة فيها معلوماتٌ من "مسؤولين بريطانيين يعيشون حالة من الرعب لاحتمال تورّطهم في "تسريب" الحقائق وذكر اسم واحد منهم "استقلّ أولى السفن العائدة إلى وطنه" بعد أن أفشى أمرًا سريًّا. وقد أورد هذا الرجل في رسالته قائمةً طويلة من أصناف المعاملة السيّئة التي يرتكبها البريطانيون، و تحدّث أيضا عن بيان رسميّ يناقش إجراءات التفتيش الخاصّة بالجيش:

إنّ البيانَ يتضمّن الالتزام عند إجراء التفتيش بأن يُوجَّه تحذير مسبق للعامّة بذلك، وأن يطلب إليهم ترك جميع الأبواب مفتوحة، غير أنّ الواقع يكذّب هذا، ولا يعدّ هذا هو الإجراء الطبيعيّ في مثل هذه الحالات أصلاً؛

فما الطائل من التفتيش إن كان الناس يعلمــون سـلفًا بــأمره؟ إنّ الإجــراء الطبيعيّ هو أن يداهم الجنود على حين غرّة مدينةً قبل بــزوغ الفجــر، وأن يفرضوا حظر تجوّل فيها دون الحاجة لبيان رسميّ لذلك؛ لأنّ معظم النـــاس سيكونون نائمين وقت الإعلان عنـــه... فيفيقــون علـــى صـــوت إطـــلاق الرصاص، فيكون إشارةً على فرض حظر التجوال. ثمّ يبدأ التفتيش. وتكون المحالّ التجاريّة في الأسواق مغلقةً أبوابها كما تُركَت في الليل. ولا يجرؤ أيُّ رجل على مغادرة منزله، ولا يسمح له أصلاً أن يغادره إلى الـــسوق ليفـــتح متجره، وإن فعل كان القتل مصيره. وتتلخّصُ مهمّةَ فرق التفتيش التي تضمّ مجموعةً من الرجال بقيام كلّ فرد منهم بحمل فأس في يده، فيتقدّمون إلـــى السوق، ويكسّرون الأقفال عن أبواب المتاجر، متجرًا تلو الآخر، فـــي كـــلّ شارع من شوارع المدينة، ويفتّشونها كلّها، فتنقلب جميع الخزائن ودُروجُهـــا ويحل الخراب بالمكان، وهذا أمر متوقع في عمليات التفتيش.

وهكذا إذن تكُسَّر أقفالُ جميعِ أبواب المتاجر في الأســـواق ثـــمّ تُتـــرك أبوابُها مفتوحةً على مصارعها، حتى إنْ أتى أهلُ القرية يسألون عمّن قـــام بنبش صناديق النقود الفارغة أو خزائنِ المال التـــي اخترقهـــا الرصـــاص أو البضائعِ التي فقدت، كان الجواب الرسميّ: "ألديك دليل يُثبت هـــذا؟ لقـــد تركنا المكان مفتوحًا بعد التفتيش، وقد يكون أيُّ شخص مسؤولاً عن ذلك"[٦].

ثمّ يصف الكاتب كيف يتعامل الجـــيش مـــع الأهـــالي أثنـــاءَ تفتـــيشِ إحدى المناطق:

تتوقّف أرتالُ الجنود عندَ كلّ بيت وفي كلّ شارع، وعند تفتـــيش أحـــد البيوت، يُخرجون من فيه من الذكور، وتنقلهم دوريّات عسكريّةٌ إلى مركـــز تجمّع واسع في ساحة مفتوحة في أغلب الأحيان، ويفرضون عليهم هناك أن

يجثوا على الأرض، أو يجثموا على الرصيف. ثمّ يحين الوقت لتمرين قصير مع الجنود، إذ يوضّحون لهم بواسطة المترجمِ أنَّ أيَّ رجلٍ يقف على قدميه دون أن يأمروه بذلك سيُطلق عليه الرصاص. ثمّ يبدأُ الجنودُ بإعطاء أمر الجلوس والوقوف بالإنجليزيّة: Up و Down، Up و Down، ويستمرّ الأمر هكذا، ولكن على وتيرة أسرع، وإن أبطأ أحدُهم تلقّى ركلةً على ظهره. وبعد هذا الإذلال الجماعيّ يكون الرجال كلُّهم على موعدٍ مع التحقيق الانفراديّ. "أين تسكن؟ ما عملك؟ وهكذا حتى الغروب، وإنْ كان ثمّةَ بقيةٌ لم يجرِ التحقيق معها، فإنّها تُساق إلى معسكر اعتقالٍ حتى ينفلِقَ الصبْح. أمّا من يثبت للمحقّق سلامة جانبه وعدم صلته بالثوّار فيؤخذ إلى عملية "الوصم".

وهذه عمليّة رسميّة يقوم الرجل فيها بثني كُمّ قميصه من الجانب الأيسر، ليُطْبَعَ على الجهة العليا من ساعدِه وصمةٌ حبرٍ يَصْعُبُ محوُها، فإن أظهرَها للجنود كانتْ أمانًا له من الاعتقال فيما تبقّى من مراحل التفتيش. ولا فرق في تنفيذ هذا الوصم بين رجل وغيره، حتى لو كان قاضيًا في المحكمة أو طبيبًا أو لو كان زبّالاً أو موزّعًا للصحف (٧).

في الثالث عشر من أيّار ١٩٣٦، تواصل وولتر إليوت، وزير الزراعة في مجلس الوزراء البريطاني، مع بافي دُجديل، ليخبرَها أنَّ الحكومةَ البريطانيّة قد حدّدت موعدًا لإرسال بعثةٍ ملَكيّةٍ أخرى إلى فلسطينَ للنظر في حالة الفوضى التي تشهدها البلاد هناك. وكانت هذه المعلومات في غاية السريّة، غير أنّكَ لا تعدَمُ وجودَ عددٍ من "المسيحيّين الصهاينة" من أمثال إليوت، الذين يغتنمون كلَّ فرصة لهتك أسرار مجلس الوزراء إن كانَ ذلك يُعينُ الصهاينةَ في سعيهم لجعل فلسطين وطنًا قوميًا لهم. وحاول إليوت أن يحشدَ معَه لفيفًا من أصحابه لمعارضة إرسال البعثة، لكنَّ "أصحابي بالغوا في

تقديم الضمانات فانثنوا عن المعارضة". وقد كانت دجديل تـدركُ أنّ إليـوت يخرق ميثاقَ السريّةِ في عمله، فحثّته على أخذ الحيطة(٨) في أفعاله، بيدَ أنّه لم يتوقّف عن تسريب الأسرار للصهاينة. وصدرَ إعلانٌ عن إرسال بعثة يرأسها اللورد بيل لزيارة فلسطين، حالما تنتهي حالة الإضراب العام في البلاد، وكان ذلك في شهر تشرين الأول بعدما توسطت الدولُ العربيةُ المجـاورة. وكانـت مهمّة البعثة (وصارت مهامّ البعثات معروفةً عن ظهـر قلـب الآن)، تحديـدَ الأسباب وراء أعمال العنف في نيسان، والتحقيق في الطريقـة التـي اتُبِعَـت لإقامةِ حكومة الانتداب، ولكي تقدم اللجنة توصياتها من أجل تجاوز المظـالم الواقعة على العرب أو اليهود. وعلمتِ البعثة، وهي في طريقها إلى فلـسطين، أنّ اللجنةَ العربيّةَ العليا لن تشارك في الأنشطة التي ستؤدّيها البعثة، وهذا يعني بالضرورة أنّ على البعثة أن تقتـصرَ علـى الاسـتماع لـشهادات اليهـود والمسؤولين البريطانيين. لكنّها مع ذلك تجولّت مع ذلك في العديد من المناطق في فلسطين، ولاسيّما أماكن تجمّع السكّان العرب، كما أنّها استمعت إلى بعض الشهادات في الأيّام الأخيرة من بعض الشهود العرب.

وتبيّن أنّ أحدَ الخيارات المطروحة هو تقـسيمُ الدولـةِ بـين اليهـود والعرب، وهذا ما رفضه جابوتنسكي، وكان من بين الشهود، وقال: "أيكـون لنا إحدى البقع في فلسطين أو إقليمٌ فيها؟ كيف لنا أن نعدَكم بأنّ ذلك يرضينا؟ إن هذا مستحيل، وإنّا لن نرضى بذلك أبدًا. أقسمُ لكمَ أنّنا نخدعُكم إن قلنا إنّ ذلك سيرضينا." لكنّ الفكرة استهوت بعضَ أفرادِ البعثة، وقد وقـفَ أحـدُهم يتكلّم أمام حشد من اليهود في لندن، بعد مدّة من الزمن، وأكّدَ لهم أنْ لا شيءَ يوجب القلقَ، وهو السير لوري هاموند، الذي قـال لهـم كـذلك فـي ذاكَ الاجتماع: "إنّ تأسيس وطن قوميّ في فلسطين، إن أنتم استطعتم أن تجمعـوا

فيها ما يكفي لتلبية المتطلّبات اللازمة لتحقيق سلطة السيادة، سيكون في رأيي هو الخطوةَ الأولى نحو فرض السيطرة على بقيّة الدولة، وقد يستغرق هذا بعض السنوات، لكنّه مضمون"[٩].

* * *

ليس صعبًا أن تلاحظ أنّ البلاد كلّها قد هوت في سبخةِ النزاع في النصف الثاني من الثلاثينيات؛ فالعرب ضدّ اليهود، واليهود ضدّ العرب، والعرب واليهود ضدّ البريطانيين. لكنَّ الحياة استمرت في المدن والقرى البعيدةِ عن بؤرة الصراع على طبيعتها المعهودة، حتى في ذروة التوتر السياسي في فلسطين، ولم يتأثرْ بذلك ما يربط العربَ واليهودَ فيها من علاقاتٍ مستقرّة ووديّة.

ويروي لي عمّي حكايةَ نزهةٍ عائليّة لم تسرِ على ما يرام، خرجتْ لها العائلةُ لمّا كانوا في كفر ياصيف، إذ كانت النية أن يتوجّهوا إلى قرية قرب الساحل لزيارة أحد أقرباء جدّي، وكانت تكلا متزوجةً في ذلك الحين من ابن عمّها فايز، وهو الذي أمّن السيّارة للرحلة من أحد معارفه. أمّا من قادَ السيّارة في هذه الرحلة فهو جورج، وهو ابن عمّ آخر لتكلا، وهو الذي سيتزوّج بعد ذلك من إقبال، أختِ غسّان. والعجيب أنّ العائلة كلّها، وهم سبعة أشخاص أو ثمانية، حشروا أنفسهم في السيّارة، وانطلقوا بها. "وفي الطريق، ولمّا وصلنا نهاريا، بدأتِ السيّارة تنتفض إلى الأمام تارة، وإلى الخلف تارة أخرى، وهكذا ثلاثَ مرّات أو أربع، حتى انقلبتِ السيّارة على أحد جنبيها. كان اليهود يقطنون بتلك المدينة، وكانت أراضيهم تحيط بالطريق من كلّ جهة. فرأيناهم ينطلقون نحونا، وكانت بعض الجراح الطفيفة قد لحقت ببعضنا، فأخذنا اليهودُ إلى بيوتهم، وقدّموا لنا الشايَ والكعكَ وما توفر من طعام... ساعدونا كثيرًا، وكانوا لطفيفين معنا، فهم أُناس طيّبون جدًّا."

احتار عزمي عودة في صغره، وهو ابن نجّارٍ في الناصــرة، بــشأن "المشكلة اليهوديّة" التي سمعَ والديه وأقاربَه يتحدّثون عنها. فهو يتذكّر والده مثلاً حينَ كان لا يجد سمكًا طازجًا في سوق العرب، فيقول: "كــان والــدي يمسك يدي لنذهب سويةً إلى بائع يهوديّ ونشتري السمك منه، وهو رجل ذو ذاكرة قويّة؛ لأنّه لمّا كان يلمح والدي كان يرحّب به قائلاً: "أهلا وسهلا يــا أبو نصر"، ودرجتِ عادة الرجل على أن يُدْخِلَ أبي إلى المتجر حيث يوجــد صندوق ثلجٍ مركونٌ في إحدى الزوايا، فيفتحه لوالدي حتّى يختار بيده السمك الذي يريد، وكان ذلك على ما أظنّ هو صندوق السمك الطازج الذي يوضع فيه السمك فور اصطياده، واعتاد أبي على الشراء منه كلّما ذهــب هنــاك، وكانا يتساومان في كلِّ مرّة على السعر، لكنَّ أبي كان يشتري منه دائمًا. كان اليهود مثلنا: فلهم مثل لون بشرتنا وهم يتحدّثون العربيّة مثلنا، ويلبسون مثلما نلبس، حتى إنّ أنوفَهم كأنوفنا. لقد بدا ذلك الرجلُ لطيفًا سمحًا، فكيف يمكــن أن يكون مشكلة؟ كان عسيرًا عليّ أن أفهم ذلك"(١٠).

وعَوْدًا إلى لندن، حيث تعكف لجنة بيل الآن علــى تحــضير مــسوّدة لتقريرها الذي يوصي بتقسيم فلسطين إلى دولتين: دولــةٍ عربيّــة وأخــرى يهوديّة. ولمّا سمع وايزمان بهذا الأمر من أحد أعــضاء البعثــة، الأســتاذ ريدجنالد كوبلند، قال لمجموعة من اليهود: لقد أرسينا اليوم أســاسَ الدولــة اليهوديّة"(١١).

التقت بافي دجديل، في الثاني والعشرين من حزيران ١٩٣٧، بــوولتر إليوت، في مطعم سافوي جريل في لندن، وكان الليل قد انتصف تقريبًا لمّــا ناولها إليوت مسوّدةً من تقرير بعثة بيل، حتّى تطّلعَ عليه على مائدة العشاء، وكان مجلس الوزراء لا يزال يتباحث في شأنها، ولن يُصدر التقريرَ إلاّ بعد أسبوعين.(١٢) وطلبَ وايزمان في يوم الأولِ من تمّوز نسخةً من التقرير قبل

صدوره، لكنَّ طلبَه قوبِلَ بالرفض. فقال وايزمان في اتّصال هاتفي مع دبليو أورمسبي جور، بلهجة عاطفيّة مؤثّرة: "تريدون أن تغدروا بنا في الظلام إذَن". وهذا الرجل هو "بيلي جور" الذي أرادت له بافي أن يحلَّ مكان جي إتش توماس، ونجحت في ذلك. وقد أثبتَ كما هو متوقّع، جدارةً في دعم الصهيونيّة حتى ذلك الحين، غير أنّه رفضَ أن يقدّم لوايزمان نسخةً من التقرير قبل صدوره رسميًّا؛ لأنّ ذلك لم يكن ضمنَ مهامّ مناصرته للصهيونيّة.[١٣] وقد علم وايزمان بجوهر ما يحتويه التقرير، بفضل ما قدّمته له دُجديل وسواها، لكنه اضطرّ أن ينتظر مع بقيّة العالم حتى يرى تقرير بعثة بيل بأكمله في السابع من تموز ذلك العام.

استهلّت البعثة تقريرها بوصف نطاق المجموعات التي طُلِبَ إليها أن تستجوبها:

هنالك إقرارٌ بأنّ عرب فلسطين قادرون، كأقرانهم في العراق وسوريا، على حكم أنفسهم. أمّا يهود فلسطين، فلا ريب أنّهم قادرون على حكم أنفسهم كأيّ مجتمع متعلّم ومنظّم في أوروبا أو غيرها. لكنَّ الطرفين خاضعان لحكومة الانتداب، ويبدو أنّ الحكم الذاتيّ لكلا الشعبين أمْرٌ لا يستقيم. وهذا وضعٌ بلغ تعقيدُه حدًّا لا يُتَصوّر معه تسويةٌ من أيّ شكل، بخلاف الحال في المناطق الأخرى الخاضعة للانتداب. ولا يمكن تطبيق الانتداب بشكل كامل ومُشرِّف، إلا إن تحقق الوفاق في النزاع الوطنيّ الحاصل بين العرب واليهود بأي وسيلة كانت. غيرَ أنَّ الانتداب هو الذي خلق هذا العداء، وهو الذي يحافظ عليه، وما دام الانتداب قائمًا، فإنّه لا يمكننا أن نتخيّلَ أنَّ العربَ، أو اليهودَ، سيكونون قادرين على أن يضعوا آمالَهم أو مخاوفَهمُ المتعلّقةَ بالوطن جانبًا، أو يتجاوزوا الخلافاتِ القائمةَ لتحقيق المصلحة العامّة لفلسطين[١٤].

بدأت خلاصة تقرير بيل، في الفصل الثالث والعشرين، بعبارة من اللغة الإنجليزيّة القديمة، تقول: "نصف رغيفٍ أفضل من عدمه"، ثمّ أوردت الحُججَ التي تدافع عن مقترحٍ يقضي بمنح قسم من الأرض للعرب، وقسم آخرَ لليهود- وهي تُعرَف بفكرة "التقسيم"- وقد صار تقسيمُ فلسطين، الذي بدأ فكرةً ثمّ صار حقيقةً واقعةً، هو محور النّزاع الأساسيّ بين العرب واليهود. وقد يبدو هذا الحلُّ مقنعًا في ظاهره لمن لا يعرف شيئًا عن فلسطين، لكنّه لأناس، مثلَ عائلة صبّاغ، وبقيّة العرب الفلسطينيين في الثلاثينيات والأربعينيات، كان محضَ السرقة، ولا شيء غير ذلك.

كان أفرادُ عائلتي الذين عاشوا في صفد أو دير حنّا أو كفر ياصيف أو طولكرم، ينتمون إلى مجموعةٍ ما زالت تشكل ٧٠٪ من السكّان، حتّى في نهاية حقبة الثلاثينيات، بعد سماح الحكومة البريطانية بهجرة أعداد هائلة من اليهود إلى فلسطين. أمّا في الجزء الشمالي من فلسطين، حيث يقطن معظم أفراد العائلة، فما زال العرب يشكّلون حوالي ٩٠٪ من السكّان، غير أنّ الحكمة العظيمة التي يتمتعُ بها أعضاءُ بعثة بيل (ومن جاء بعدهم من رسّامي الخرائط في أحد عشر عامًا) جعلتْهم يقترحون أن تكونَ بعض المناطق العربيّة، ولاسيّما الجليل، تحتَ السيطرة اليهوديّة.

ليست العنصريّةُ هي التي أذكت جذوةَ الغضب لدى العرب الفلسطينيين؛ لأنّ مقاومتهم لم تكن لتختلفُ لو كان سيتولّى أمرَهم شعبُ ويلز أو الفيجيّون أو الصينيّون أو حتى السوريّون أو العراقيّون أو السعوديّون. وقد فات لجنةَ بيل، وجميعَ من سعى إلى حلِّ القضيّة، أن يفكّروا في حلٍّ واضح (لا يزال تطبيقه ممكنًا حتّى اليوم) وهو إقناع الصهاينة أنّ أي دولة في العالم الحديث تقوم على الخصوصيّة العرقيّة هي بطبيعتها غيرُ ديمقراطيّة إن كان فيها

مواطنون لا ينتمون للعرق الأسمى في هذه الدولة، وسيترتّب على هذا حرمانُهم من حقوقهم. حتى لو بدت هذه الفكرة غير مألوفة بين الناس إلى حدّ بعيد، فإنها تتّفق مع الدعوة التي أطلقها الرئيس وودرو وِيلسُن بعد الحرب العالميّة الأولى لمنح الشعوب التي كانت تحت الحكم العثمانيّ حقّ تقرير المصير، وهي دعوةٌ تجاهلها بقيّة الحلفاء.

حذّر يهودا ماجنِس، رئيسُ الجامعة العبريّة في القدس، بعد مدّة وجيزة من إصدار تقرير بعثة بيل، من الأخطار التي ستواجه اليهودَ والعربَ لو سارت الأمور في طريق التقسيم، وقال ماجنِس في مناظرة في أحد اجتماعات الوكالة اليهوديةّ في زيورِخ، غيرَ مكترثٍ بالمضايقات والاستهزاء من الحاضرين: "ما هي الدولة اليهوديّة المعروضة أمامَنا؟ إنّها دولةٌ يهوديّة ستقودنا على ما أعتقد إلى الحرب وستضعنا في خط المواجهة مع العرب." (وأثار ما قاله بعضَ الضحك في القاعة) ثمّ تابع قائلاً: "ربّما لم يشهدْ هذا الذي يَضحك الآن ما حصل في العام الماضي [في فلسطين] حيث كنت أنا هناك، وأولادي كانوا هناك، وأبناء أصدقائي وبناتهم كانوا هناك، وليس الأمر مضحكًا لهم... وتسألونني لماذا ستؤدّي إلى الحرب؟ لأنّ الدولة اليهوديّة المقترحة في المقام الأول تقوم على أرض ثلاثة أرباعها للعرب"[١٥].

* * *

قُتِل المندوب البريطاني المسؤول عن منطقة الجليل في شهر أيلول عام ١٩٣٧ قُرْبَ مدخلِ الكنيسة الإنجيلية في الناصرة، واقتنع المندوب السامي بأنّها فِعلةُ المفتي وأنصارِه، فأمَرَ باعتقالهم، وحلَّ اللجنةَ العربيّةَ العليا، فلاذ المفتي هاربًا إلى لبنان متخفيًا بزيّ امرأة عجوز.

وعكف الصهاينة في هذه الأثناء على البحث في قضيّة التقسيم، ومال بعض القادة إلى قبول الفكرة، ودافع عنها وايزمان في المؤتمر الصهيونيّ العشرين عام ١٩٣٦، وعبّر عن وضع اليهود القائم آنذاك بعبارة من التلمود فقال: "يتحطّم الإبريق إن سقط على الحجر، ويتحطّم الإبريق لو هو سقط على الحجر"[١٦]. وتقدّم بتوصية خجولة إلى المؤتمر بتبنّي فكرة التقسيم، ورآها خطوة في الطريق الصحيح، حتى لو لم تكن مستساغة.

وقف مع التقسيم قائدٌ صهيونيٌّ آخر وهو ديفيد بن جوريُن، ولكن لأسباب أخرى. وبن جوريُن من مواليد بولندا، وارتحل إلى فلسطين وهو ابن عشرين عامًا. وهو لم يرغب في أن يكون للسكّان العرب نصيب في فلسطين، لكنّه أوضح في إحدى مراسلاته الخاصّة وقال: "لمّا يشتدّ ساعدنا بعد قيام الدولة، فإنّنا سنبطل قرار التقسيم، وستمتدّ سلطتنا على كلّ فلسطين." وقد عاش هذا الرجل حتّى رأى دولة إسرائيل بعد ثلاثين عامًا تتجز ذلك كما رسم.

أمضى بن جوريُن جلّ سنيّ حياته في فلسطين، وهو يعرف العرب جيّدًا، وقد قال في خطاب له عام ١٩٣٨: "أرجو ألاّ نتجاهل الحقيقة بيننا... فإننا نحن المعتدون من الناحية السياسيّة وهم يدافعون عن أنفسهم... وهذه الدولة إنّما هي دولتهم، لأنّهم سكّانها، أمّا نحن فنريد المجيء إليها والاستيطان فيها، وهم يرون أنّنا نريد أن نسلبهم أرضهم... فهذا الإرهاب [العربيّ] له حركةٌ تقف من ورائه، وهي وإن كانت بدائيةً، إلا أنّها لا تعدمُ السعيَ نحو المُثل العليا والتضحية بالنفس"[١٧]. وأسرَّ مرّةً حديثًا لأحد أصدقائه وقال: "لو كنت أنا عربيًّا صاحبَ وعي سياسيّ... لما ترددت في الثورة في وجه الهجرة التي سيترتّب عليها في المستقبل أن تؤول الدولة وجميع سكّانها العرب في يد الحكم اليهودي. أتحسبُ العربيَّ يجهلُ قواعدَ الحساب؟ أتحسب أنّه لا يدرك أنّ هجرة ٦٠,٠٠٠ في السنة تعني أنّ الدولة اليهوديّة ستقوم على فلسطين بأسرها؟"[١٨].

إنّ المشكلةَ الأولى التي تواجه فكرةَ التقسيم هي وجودُ بعض العرب في كلّ منطقة تُمنح لليهود؛ وإنّك لواجدٌ ذلك كيفما قُسّمت فلسطين. وهذه مشكلةٌ وصفها بيل بأنّها "قضية الأقلّيات" وقال: "إن كان المطلوب أن تكون المستوطنة نظيفةً وجاهزة، فلا مفرّ من مواجهة قضيّة الأقلّيات بقلبٍ شجاعٍ وعزيمة ماضية، وإنّها لقضيّة تتطلّب حنكةً سياسيّةً عالية من الأطراف المعنية قاطبةً"(١٩). ثمّ إنّ قوله: "نظيفة وجاهزة" تقدَح في نفسِ من يسمعُها في العصر الحالي صورةً خبيثة، وبكأنّ بيل يقترح حملة "تطهير عرقيّ" للمناطق اليهودية من سكّانها العرب، واستشهدَ هو بمثالٍ على تبادل السكّان بين اليونان وتركيا بعد الحرب العالميّة الأولى، فقال: "كانت الأقلّيتان اليونانيّة والتركية، قبل إتمام هذه العمليّة مصدرَ توتّرٍ دائم، ولكنّ الشأفةَ استُؤصِلت، وعادت العلاقات اليونانية التركية، على ما نعتقد، أفضلَ ممّا كانت عليه من قبل."

لقد كانت فكرةُ نقل السكّان فكرةً رعناء، تمامًا مثلَ مشروع إقامة دولة يهوديّة في فلسطين، وحُقّ أن تسمًّى رعناءَ لأنّ من ينظر إلى الأمور من الخارج، يدرك أنّ عملاً كهذا يفتقر إلى أيّ مسوّغٍ أخلاقيٍّ أو قانونيّ، وسيقاومها كلُّ عربيّ إنْ طُلِبَ منه مغادرة منزله. فغابت المسوّغات إلا مسوّغًا واحدًا، وهو الصهيونية نفسها؛ لأنّه قد بدا ولا يزال يبدو في بعض الأحيان، أنّ أيّ أمر فيه مصلحة اليهود يعدّ أمرًا مشروعًا، أو يجدر على أقل تقديرٍ أن يكون موضع اهتمام(*). ثمّ إنّ فكرة طرد العرب الفلسطينيين من أرضهم ليستْ بالأمر الجديد عند الصهاينة، ففي بداية العشرينيات، وسريعًا

(*) هنالك نكتة يهودية تبين بوضوح ما نحن بصدده. طلب إلى الأطفال في فصل مدرسي أن يكتبوا مقالًا عن الفيل، فكتب الطفل الفرنسي مقالًا بعنوان: "حياة الحب عند الفيل" أما الإنجليزي فكتب عن "أخلاق الفيل الكريمة" والطفل الألماني كتب عن "النظام العسكري عند الفيل"، أما الولد اليهودي فكتب مقالًا وأسماه: "الفيل: هل هو مفيد لليهود؟"

بعد استصدار إعلان بلفور، وما تبعَه من مباحثات في بريطانيا لإيجاد الوسيلة التي تحقّق تسوية بين المطالب المتعارضة بين اليهود والعرب، وتضمّهم معًا في دولة واحدة، كتب إسرائيل زانجويل: "لا يمكن أن نسمح للعرب [وهم ٩٠٪ من السكّان] أن يحولوا دون إعادة إنشاء هذا الصرح التاريخيّ العريق... ولا بدّ أن نقنعهم بعمومهم أن يمتطوا "رحالهم" ويغادروا. فها هي أرض الحجاز أمامهم لا تنقضي أميالها... ولا يوجد ما يدعو العرب ليتشبّثوا بهذه الكيلومترات الضيّقة. أليسَ هم الذين يقولون في أمثالهم "طوى خيمته ورحل بليلٍ": وقد حان الوقت ليطبّقوا ذلك"(٢٠).

وقويت شوكةُ هذه الفكرة لمّا نادتْ لجنة بيل بوضعها في الحسبان، وتبع ذلك أن صارتْ قضيّة التهجير القسريّ للعرب الفلسطينيين من أرضهم موضوعًا بارزًا في الاجتماعات والمؤتمرات الصهيونية المتعددة. وتناول هذا الجانبَ بتفصيل عميق الباحثُ والأكاديميُّ الفلسطينيّ، نور مصالحة، إذ استخرج من التقارير، وسجلاّتِ الأرشفة أدلّةً يشيب لها الرأس، تكشف عن الموقف الذي يتّخذه كثيرٌ من الصهاينة تجاهَ السكّان الأصليين في فلسطين، مع أنّ الصهاينة قد بدؤوا يضعون هذه المقترحات على موائد نقاشاتهم، في وقتٍ وصل فيه الاضطهاد النازي ضدّ اليهود في أوروبا ذروته. ويصعبُ أن تقرأ المذكّرة التالية التي عُرضت على المؤتمر الصهيوني العشرين في عام ١٩٣٧، دون أن ترى أوجه الشبه بينها وبين الوثائق النازية التي رفضت أن يُسمح لليهود بالبقاء في الدولة:

إنّني... أصرّ على النقل القسريّ لجميع السكّان العرب القرويّين من الدولة اليهوديّة إلى الدولة العربيّة، وهذه خطوة لا محيد عنها لبناء الدولة اليهوديّة، ولا بدّ أن يدرك رجال الدولة المعنيّين بهذه القضيّة ضرورة هذه

العمليّة... كما يجب أن تُستبدل الأرض والسكّان، أي لا بدّ من نقل السكّان القرويّين العرب، في أسرع فرصة ممكنة. إنّ هذا تحرّك ثوريّ، وضروري أن ننتهي منه على عجل، خاصة إذا ما عرفنا أنّ نقل هذه الأعداد من العرب على فترةٍ طويلة قد لا يحقّق الهدف المرجوّ، وهو تخليص الدولة من عبء ثقيل يسبّبه مواطنون من الدرجة الثانية ومنتجون أشحّاء (٢١).

وليست هذه تعليقاتٍ مقتطعةً بلا سياق، وهذا ما يشير إليه نور مصالحة(٢٢)، لمّا أكّد أنّ طرد الفلسطينيين من أرضهم أضحى أمرًا مُعتَبرًا بين المنظّمات الصهيونيّة الكبرى. وحصلَ أنّ لفيفًا من الصهاينة أحسّوا يومًا بأهميّة بيان الجانب الأخلاقيّ لهذه العمليّة، فتوجّهت أذهانهم برهة لذلك، ثمّ ما لبثوا أن آبوا إلى دعمها بأشدّ من ذي قبل:

أثارت مسألة نقل السكّان نقاشًا بيننا وراح السائل يقول: أذلك شرعيٌّ أم محرّم؟ وأجيبُ بأنّني لا أرتاب في هذا الشأن البتّة، فجارٌ بعيدٌ أفضل من عدوّ قريب. ثمّ إنّهم لن يخسروا شيئًا إن انتقلوا إلى مكان آخر، ولن يضيرنا ذلك بشيء أيضًا. ويظهر في تحليل أخير للقضيّة، أنّ هذه العمليّة تنضوي على تسوية سياسيّة فيها مصلحة الطرفين، وقد كنت على الدوام أرى أنّ هذا هو أفضل الحلول... غير أنّه لم يخطر لي يومًا، أنّ نقل السكّان خارج أرض إسرائيل سيعني الاكتفاءَ بنقلهم إلى نابلس على مقربةٍ منّا، بل كنت أعتقد أنّهم سينقلون إلى سوريا أو العراق (٢٣).

ويعلّق نور مصالحة ويقول: "إنّ المباحثات التي دارت في تنفيذيّة الوكالة اليهوديّة في حزيران من ذلك العام، تمثل مرحلةً تشكّل العمليّة التي كان مبدؤها في ذلك التحقيق والتقرير الصادرين عن البعثة الملكيّة [بعثة بيل]، وخاصّة ما قامت به من جعل الحلّ المتمثّل بنقل السكّان حقيقة واقعة،

وخيارًا عظيمًا، كيف لا وقد نال المصادقةَ من هيئــة بريطانيــة رســميّة!. وقد اشتملت هذه العملية على نقاشٍ لا سابق لــه حــول خيــار التهجيــر، وحصوله على تأييد الأغلبية في معظــم الهيئــات الــصهيونيّة المــشاركة في صنع القرار"[٢٤].

* * *

أطرقتُ شيئًا أفكّرُ بفكرة "النقل" الصهيونيّة، أو فكرة "الطرد" بالأحرى، لمّا زرتُ قرية البُقَيعة، وهي بُقيعة جميلة حقًّا على أحد تلال الجليل الشرقيّ في إسرائيل الحديثة، وذهبت هنالك لألبّي دعوة ابن عمّي أليف، لأمكثَ مــع العائلة هناك. لقد عاش أجدادُه في البقيعة طيلة مئتي عام تقريبًا، وذهبتُ معه في جولةٍ في أنحاء القرية، فأشارَ لي إلى بيتٍ عاشَ فيه أحد الأجداد، وآخــرَ كان لأحد الأعمام، وتابعنا المسيرَ في الشارع، فأشارَ إلى بيتٍ قطنــت بــه إحدى عمّاتي، وعند ساحة القرية رأينا بناية قديمة تعود لفرع آخر من عائلة صبّاغ. وكانت مدرسة القرية في مركز المدينة، وقد أسّسها أحــد أعمامــه الأوائل، ثمّ وصلنا بعدها إلى الكنيسة، وكان أحد أجداده، ويدعى خليل أيضًا، كاهن القرية. ثمّ ركبنا بالسيّارة أنا وهو، وعمدنا إلى واد خصيب، زرعــتْ فيه عائلة صبّاغ أشــجار الزيتــون لأجيــال عديــدة، وقــال لــي أليــف: "هذه أرضي، وتلك المزرعة لأخي".

فقلت بين نفسي وذاتي: ما الذي كان يدور في رأس زانجويل لمّا قــال عن العرب الفلسطينيّين إنّ عليهم "أن يطووا خيامهم ويرحلوا بليل"؟ وبم كان يفكّر أمثاله لمّا تحدّثوا عن "مواطنين من الدرجة الثانية" أو "منتجين أشــحّاء" أو "فلاحين"؟ إنّ الفكرة التي تدّعي أنّ مئات النــاس، مــن عائلــة صــبّاغ،

أو خوري، أو سواها من العائلات العربيّة الفلسطينية، الــذين ســكنوا هــذه الأرض، وقلبوا ثراها طوال أجيال، لا يملكون سببًا يدعوهم "ليتشبّثوا بهــذه الكيلومترات الضيّقة" كانت في منتهى السخف، فلم يكن ثمّة ما يــدعوهم لأن "يرتحلوا" ويستبدلوا وديان الحجاز وكثبانها الرملية بالتلال والأودية اليانعــة في فلسطين، إلا العنف والإرهاب. أمّا ما عدا ذلك فهو وهمٌ وليــدُ الازدراء. هنالك صهيونيٌ آخر، يدعى جوزيف فايتز، كشف الستر عن مبرر لـــ "خطّة النقل"، يقول:

"لا شكّ أنّ هذه الدولة لا تَسَعُ الشعبين. ولن تُفلحَ "التنمية" فــي جعلنــا أقربَ إلى غايتِنا، وأنْ نصبحَ شعبًا مستقلاً في هذه الدولة الــصغيرة. فــإن غادرها العرب، فإنّها ستصبح رحبةً وواسعةً لنا، أمّا إن جثموا بها، فــستبقى ضيّقة مزريةً... إنّ الحلّ الوحيد... هو أن تكون إسرائيل بــلا عــرب. ولا مجال للتفاوض على هذه النقطة! إنّ المشروعَ الصهيونيّ في أحــسن حــال حتى الآن، ويمكن أن يستفيد من "شراء الأراضي"، لكنّ هذا وحدَه غيرُ كفيلٍ بإقامة دولة إسرائيل؛ فتأسيس الدولة شأنٌ لا مماطلة فيه، ولا بــدَّ أن يأخــذ صورة الخلاص، وهذا هو سرّ فكرة المُخَلِّص، ولا محيدَ عن نقل العرب من هنا إلى الدول المجاورة، وأن يُنقَلوا كلُّهم، وقد يُستثنى من ذلك: بيتُ لحــم، والناصرةُ، والقدس القديمة. فيجدر بنا ألاّ نتــرك قريــة، ولا حتــى عائلــة إلا أخرجناها... وهذا هو السبيل الوحيد!"(٢٥).

هوامش الفصل الرابع عشر

(1) Nur Masalha, Expulsion of the Palestinians, Institute for Palestine Studies, 1992, p. 19.

(2) A. J. Sherman, Mandate Days, Thames and Hudson, 1997, p. 112.

(3) Ibid., p. 114.

(4) Ibid., p. 115-16.

(5) The Times, 9 January 1939, quoted in 0. S. Edwardes, Palestine: Land of Broken Promises, Dorothy Crisp & Co., 1946, p. J08.

(6) Edwardes, *Palestine: Land of Broken Promises*, p. 109.

(7) Ibid., p. 110.

(8) N. A. Rose, *The Gentile Zionists*, Frank Cass, 1973, p. 124.

(9) Nevill Barbour, Nisi Dominus, George G. Harrap, 1946, p. 179.

(10) Azmi S. Audeh, *Carpenter from Nazareth*, Audeh Publishers, 1997. PP.34-5.

(11) Rose, The Gentile Zionists, p. 128.

(12) Ibid., p. 134.

(13) Ibid., p. 136.

(14) Palestine Royal Commission, Report, Cmd. 5479, HMSO, 1937, P.362.

(15) Speech by Judah Magnes, during debate at the Session of the Council of the Jewish Agency, Zurich, 18 August 1937, Jud. Press Zentrale, Zurich, No. 956.

(16) Rose, The Gentile Zionists, p. 140.

(17) David Ben-Gurion, quoted in Noam Chomsky, Fateful Triangle, Pluto Press, 1983, pp. 91-2.

(18) Shabtai Teveth, Ben-Gurion: The Burning Ground, 1886-1948, Houghton Mifflin, 1987, pp. 171-2.

(19) Palestine Royal Commission, Report, Cmd. 5479, HMSO, 1937, P.390.

(20) Masalha, Expulsion of the Palestinians, p. 14.

(21) Selig Eugen Soskin, memorandum to 20th Zionist Congress, quoted in Masalha, Expulsion of the Palestinians, p. 81.

(22) Masalha, Expulsion of the Palestinians.

(23) Berl Katznelson, quoted in Masalha, *Expulsion of the Palestinians*, P.7I.

(24) Masalha, Expulsion of the Palestinians, p. 118.

(25) Joseph Weitz, My Diary and Letters to the Children, Massada, Tel Aviv, 1965, Vol. II, pp. 181-2, quoted in Edward Said, The Question of Palestine, Vintage, 1992.

الفصل الخامس عشر

شبل العرب

شَقَّ والدي طريقه إلى إنجلترا عام ١٩٣٧ بعد أن حـازَ منحـةً مـن الحكومة الفلسطينية لدراسة التاريخ والجغرافيا في جامعة إكستر، وقد أثـار رحيلُ الابنِ البكر لواعجَ شوقٍ عميقةً عندَ أهله. قال لي عمي: "لما وصـلتْ أولى الرسائل من عيسى عمَّتِ الفرحةُ المنزل بأرجائه، كأنّـه يـومُ عيـد. ابتهجنا جميعُنا بالرسالةِ وخاصةً أبي. وأرسل لنا في إحدى المراتِ صورةً له وهو في قاربٍ على نهر التايمز في لندن، يحملُ في يده سيجارةً، وكتب في الرسالةِ كأنّه يوضّح الأمر لأبيه الذي سيقرؤها: "كنتُ في هذه الصورةِ أحملُ السيجارة فقط، فأنا لا أدخّن." ورُغْمَ أنَّ جدّي خليلا يدخّن بإفراطٍ إلاّ أنَّ عادةَ الناس في فلسطين درجَتْ على ألاّ يسمحوا لأبنائهم بالتدخين إلا بعدَ الزواج.

كان عيسى لا يزال طالبًا لما بدأتِ البي بي سي خدمـةَ البـثِّ باللغـة العربية في الشرقِ الأوسط، فالثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ قد كشفت عن عداءِ العربِ لبريطانيا، ولا شكَّ أنَّ تدهور الأوضاع في فلسطين قد بذرَ مشاعرَ الكراهية ضدَّ بريطانيا في العالم العربي أجمع. وأطلقت إيطاليا فـي ذلك الوقت أيضًا محطةً إذاعيّةً باللغة العربية للنَّيلِ من صورةِ بريطانيا فـي الشرق الأوسط، لأنّها عارضت غزوَ إيطاليا للعبيسينية عام ١٩٣٥. فقررت بريطانيا أن تفعلَ شيئًا حيالَ هذهِ الحملةِ الإعلاميةِ ضدَّها، وبحثتْ عن وسيلةٍ تمكّنها من بيانِ مواقفها في العالم العربي.

وبدأتْ خدمةُ البثِّ الإذاعيِّ باللغة العربية في البي بي سي في الثالث من كانون الثاني ١٩٣٨. وجاءَ في فقرة الأنباء الخاصة بفلسطين: "قضتْ محكمةٌ عسكرية بتنفيذ حكم الإعدام شنقًا لرجل فلسطيني آخرَ ونُفِّذَ الحكمُ صبيحة هذا اليوم في عكّا. يُذكَرُ أنَّ الرجلَ قد اعتُقِلَ في أعمال الشغَبِ الأخيرةِ التي اندلعت في جبالِ الخليل، وكان في حوزته بندقيةٌ وبعضُ الذخيرة... حصلت مناوشاتٌ ليلةَ أمس بين قوةٍ تابعة للشرطة وميليشيا مسلّحة في صفد... أطلقت النار على القطار الذي يعبر التلال قرب القدس دون وقوع إصابات... تعرضَ أحد أنابيب النفط التابعة لشركة البترول العراقية للتخريب، واقتصرت الأضرار على بعض الثقوب في مكانين من الأنبوب... قامت مجموعةٌ اليومَ باقتلاع جزء من سكّة الحديد قرب القدس، وكُشِفَ عن ذلك قبل مرور أيّ قطار من هناك"[١].

عيسى صبّاغ في مرحلة الدراسة في إنجلترا الباردة

لم تكن مثلُ هذه الأنباء غريبةً عن فلسطين في ذلك الوقت، غير أنّ بثّها في الوطن العربي، بواسطة المحطّة الإذاعية للدولة المسؤولة عما يجري من أحداث، قد وضع وزارةَ الخارجية البريطانية والدبلوماسيين البريطانيين في الشرق الأوسط في موقفٍ حَرِج. وكان السير ريدر بولارد، الوزير البريطاني المبتَعث عند الملك عبد العزيز بن سعود في المملكة العربية السعودية، جالسًا وقتَ إذاعة تلك النشرة في خيمةٍ مع الملك ليستمعا معًا إلى أوّل بث للبي بي سي، وهذا من سوء طالعه، ونترك السير ريدَر نفسَه يروي لنا ما حصل:

عمّ الصمتُ في الخيمة، وتوقّفَت حفلتُنا، وسكتَ الجميع. لما رأيتُ ابن سعود في اليوم التالي، تحدّث معي عمّا ورد في تلك النشرة، وأخبرني أنّه كان قد أخذَ على نفسِه منذ أربعة أشهر ألاّ يستمعَ إلى أيِّ نشرةِ أخبارٍ عربيةٍ من القدسِ، لأنّ ما يرد فيها مؤلمٌ يفطر قلب السامع، وأنّه كان ينتظر بشوقٍ بدءَ البثّ العربي من لندن، حتى إنّه دعا جمعًا من الناس إلى خيمته ليستمعوا هم أيضًا. ثم أردَف قائلاً: "لما ذكرَ المذيعُ خبرَ إعدامِ ذاك الرجل العربي الفلسطيني، بكى الحاضرون جميعُهم، وبكيتُ أنا"، وانسابت دمعةٌ على خدّه وهو يتحدّث وكفكفها بمنديلٍ يحمله، ثمّ قال: "أنا حاكمٌ وأعرفُ أنّ أولويّةَ أيِّ حكومة هي الحفاظ على النظام، وإني لأعلم أنّ البريطانيين لم يعاقبوا الرجل لرأي سياسي فقط، بل لجرمٍ يعاقب عليه القانون، ولكنْ لولا السياسةُ الصهيونية للحكومة البريطانية لما قُتِلَ هذا الرجل"[٢].

وقد ارتاع أحد المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية، ويدعى ريكس ليبَر لمّا رأى أن البي بي سي تذيع الحقيقة كما هي، وتساءل قائلا: "هل ستذيع البي بي سي نبأ إعدام كلّ عربي [يصدر حكمٌ عليه بالإعدام]

في فلسطين؟ أمّا أنا فلا أرى حاجةً لذلك، غير أنّي أعتقد أنّ ضميرهم لن يبقى نقيًا مُشعًّا في نظرهم إن لم يفعلوا ذلك". وتبيّن أنّ معارضة البي بي سي - للمحاولاتِ التي سعت لإخضاعها للرقابة أو لتوجيه نشراتها الإذاعية - منحًى معينًا، قد جعلتْها مصدرًا أساسيًا للأخبار لكلّ من يمتلك المذياع في الشرقِ الأوسط، وأصبحتِ المصدرَ الوحيد للمعلومات الدقيقة عن الحرب. والحقُّ أنّ البي بي سي هي التي جعلت من أبي، عيسى خليل صبّاغ، واحدًا من أشهرِ المذيعين في العالم العربي طوال عقدٍ من الزمن أو أكثر.

كان والدي لمّا اندلعت الحرب طالبًا في جامعة إكستِر، وقد أبدى شغفًا كبيرًا بالأدب العربيّ والإنجليزيّ، إضافةً إلى الموادّ التي يدرسها في التاريخ والجغرافيا. وجاء إعلانٌ من خدمة البي بي سي العربيّة، التي كانت تبحث عن زيادة كادرها من المتحدّثين باللغة العربية الذين يرغبون في العمل معها، ولم يُلْقِ أحدٌ بالاً للموضوع، إلا عيسى صبّاغ، وكان الوحيدَ الذي قدّم طلبًا إلى البي بي سي من بين أقرانه، وأرفق معه نصًّا مكتوبًا لبرنامج إذاعي من إعداده، وجاءه الردّ منهم يدعونه إلى الحضور إلى مقرّ الإذاعة. ويروي هو تلك التجربة بعد حين لمشروع التاريخ الشفهيّ في الولايات المتّحدة، فيقول: "أخبروني في المقابلة أنّهم أُعجِبوا بالنصّ المكتوب، ثمّ قالوا: "حسنٌ إذن، نريد منك أن تقرأ هذا البرنامج الليلةَ على الهواء"، فقلت لهم: "ماذا تقصدون بأنّي سأقرؤه "الليلة على الهواء"؟ كنت أظنّ أنّي سأسجّلها ثمّ تذيعونها أنتم في أيّ وقت تشاؤون.""

وبالفعل، ذهب عيسى إلى الأستوديو في الوقت المحدّد وفعل ما طلبوه، ويقول هو في هذا: " عرفت لمّا خرجْتُ من الأستوديو أنّهم كانوا يستمعون إليّ من غرفةٍ من دون ذلك الفاصلِ الزجاجيّ، وتعجّبوا من أنّي قلت لهم

في المقابلة الأولى إنّني لم أرَ الأستوديو من قبلُ ولا الميكروفون، ولا غيره. كلّ ما أخبرتهم إيّاه هو أنّني رجل أحبّ الحقيقةَ، وهذه حقيقةٌ. فسألوني بماذا كنت أفكّر لمّا كنت أقرأ النصّ، فأجبتهم: "بصراحة، وقد أتيتم على ذكر هذا، إنّي لمْ أقرأ، بل كنت أتكلّم عن ظهر قلب، وفكّرتُ بالتأكيد بأصدقائي وعائلتي وسواهم من الناس. أمّا البرنامج فقد تحدّث عن بعض الأمور الغريبة في الغرب. فأنا على سبيل المثال، رجل عربيّ في مَيعة الشباب، أنتقل إلى مجتمع جديد، ولا ريب أنّ كلّ واحد مثلي سيعقد بعض المقارنات، ويتبيّن أوجه الشبه والاختلاف وغيرها، وهذا هو موضوع ذلك النصّ. ثمّ سمعت أحدهم يقول بحماسة: "أقسم أنّك مذيع بالفطرة!" فقلت: "لماذا؟ وكيف؟" فأجابني: "لأنّ الناس يُصرّون عادةً على القراءة من النصّ، وأنت تقول إنّك ألقيته عن ظهر قلب."، فقلت له: "إنّك محقّ، وهذا ما يُفترَض أن يكون عليه العمل الإذاعيّ أصلاً"[٣].

* * *

كانت فلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى منطقة تابعة للعدوّ فاحتلتها بريطانيا، وبقيت إبّان الحرب العالمية الثانية في بؤرة اهتمام الألمان والطليان، ولم يكنِ استهدافُها مُستبعَدًا لو فشلتِ الحملة التي شنّها الحلفاء في شمال إفريقيا في دحر الألمان عن مصر. بيدَ أنّ جانبَ الحرب الذي ألقى بأثقاله على فلسطين وثرواتِها وشعبِها هو الاضطهاد النازيّ لليهود، الذي بدأتْه ألمانيا في حقبة الثلاثينيات. فقد فكّر النازيّون بادئَ الأمر بطرد اليهود كلهم من ألمانيا، ثمّ وصلوا بعد ذلك إلى ما يدعى "الحلّ الأخير": الإبادة الجماعيّة ليهود أوروبا. واستغلّ الصهاينةُ تنامي عداء ألمانيا النازيّة ضدّ الساميّة للضغط على بريطانيا لزيادة الهجرة إلى فلسطين، ورفضوا الحجج

التي قدّمها وايزمان وسواه من الصهاينة بأنّ منطقةً يهوديّــة فــي فلــسطين ستكون موطئ قدم لا غنى عنه، ورَفضَ المؤتمر الــصهيوني فــي نهايــة المطاف فكرة التقسيم من أساسها. أمّا الفلسطينيون فلم يبدوا استعدادًا لتــسليم الصهاينة نصيبَ الأسَدِ من أرضِهِمْ، أرضِهِمُ التــي مــا زال مئــات الآلاف من العرب يقطنونها.

حطّت بعثةٌ حكوميّة أخرى أقدامَها على أرض فلــسطين عــام ١٩٣٨، ونقضتِ التوصياتِ التي قدّمتها بعثة بيل بشأن التقسيم، وترتّب على أعمــال البعثة مؤتمرٌ في عام ١٩٣٩ تلتقي فيه الأطرافُ جميعُهــا، لكــنَّ العــرب رفضوا أن يجتمعوا في المكان ذاته مع اليهود، بل إنّ مجموعةً من العــرب رفضت أن تكون طرفًا آخر قِبالةَ اليهود فــي هــذا الاجتمــاع. وعرضــتِ الأطرافُ مطالبَ لا يمكن الجمعُ بينها بوجهٍ من الوجوه. فوصلتِ القضيّةُ إلى طريق مسدود، واضطُرّ وزيرُ المستعمراتِ البريطانية، مالكوم ماكدونَلد، إلى أن يصرّحَ بأنَّ حكومةَ جلالة الملك ترغب في إنهاء حكم الانتداب، وتأسيسِ دولةٍ فلسطينيّة حليفةٍ لبريطانيا. وأصدر ماكدونلد كتابًا أبيضَ يحــدّدُ نِــسَبَ الهجرة إلى فلسطين في خمس سنوات كي لا تتجاوز ١٠,٠٠٠ سنويًا، مــع السماح فورًا بدخول ٢٥,٠٠٠ من اللاجئين اليهود. وما زاد عن ذلك فلا بدَّ أن يوافق عليه العرب. وسيمهّد الكتابُ لمنح الاستقلال السياسي لفلــسطين، وتأسيس حكومة نيابية في مدّة لا تتجاوز عشر سنوات.

رأى الصهاينةُ في هذا التصريح وأدًا لأيِّ أملٍ بالحصول علــى دعــم من الحكومة البريطانية لجعل فلسطين وطنًا قوميًّا لهم. وهذا يكشف- حسبما ورد في الكتاب الأبيض- عن أنّ إعلان بلفور لم يضمنْ لهم ذلــك أصــلاً. وعزا الكتابُ هذا "الفهم الخاطئ" إلى "غموضٍ في العبارات التي اســتخدمت

في بعض الأجزاء التي تحدد هذه الالتزامات [في إعلان بلفور]، ممّا أثار جدلاً بين الأطراف المعنية، وجعل تفسير تلك العبارات أمرًا في غاية الصعوبة".(٤) ويقول الكتاب: "تؤمنُ حكومةُ جلالة الملك أنّ الأطرَ الخاصّةَ بقانون الانتداب والتي أُدرِجَ ضمنها إعلان بلفور لم تُرسَم بقصد تحويل فلسطين إلى دولةٍ يهوديّة، من دونِ التفاتٍ إلى معارضة السكّان العرب في الدولة." وربّما كان وقع هذه الأنباء سيئًا لبلفور وليود جورج، اللذيَن تسامرا مع وايزمان في أحد الأيّام على مائدة غداء سريّ عام ١٩٢١، وسجّل رتشارد ماينرتزاجن في مذكّراته ما قالاه حينها بهذا الخصوص: "قال ل. ج [ليود جورج] و أ. ج. ب [آرثر جيمس بلفور] إنّ الإعلان يعني لهما تأسيس الدولة اليهودية في يوم من الأيّام"(٥).

وجاء أيضًا في الكتاب الأبيض: "تعلن حكومةُ جلالة الملك بناءً على ذلك وبشكل قاطع أنّ سياستها لا تشتملُ على جعْلِ فلسطين دولةً يهوديّة، بل إنّ إرغام السكّان العرب في فلسطين ليصبحوا مواطنين في دولة يهودية لَيُعَدُّ مخالفًا لالتزاماتها أمام العرب بموجب الانتداب، ومناقضًا للضمانات التي قدّمتْها للشعب العربيِّ في السابق"(٦). إلا أنّ هذا الإعلان "المناقض لإعلان بلفور" جاء متأخّرًا ولم يجد نفعًا.

عُدَّ ذلك في نظر الصهاينة غدرًا بهم، لكنَّ الظرفَ لا يسمح لهم أن يقفوا في وجه بريطانيا. وكانت الحرب مع ألمانيا النازيّة من جهة أخرى تعني أنّ بريطانيا تحتاج كلّ الدعم الذي يمكن أن تحصل عليه. وتولّى بن جوريُن الآن زعامة الحركة الصهيونية، ورسم الطريقَ التي سيتّبعها الصهاينةُ وقال: "سنحارب هتلر كما لو لم يكن هنالك كتابٌ أبيض، وسنحارب الكتابَ الأبيضَ كما لو يكن هنالك حرب".

وقد انصبّت الجهود الأولى للنازيّين في ألمانيا في اتجاهِ طرد اليهـود، وليس إبادتهم. فأدار أدولف آيخمان وحدة عسكريّة للتوصّل إلى أنجع الطرق للتخلّص من اليهود، بدءًا من المناطق التي احتلتها ألمانيا، ثـمّ بالأراضـي الألمانيّة نفسِها. ولم يكترثْ لهم أينَ يغادرون، ما داموا يغـادرون. وكانـت الحكومة البريطانية قد فرضت قيودًا على الهجرة إلى فلسطين، فضغطَ اليهودُ عليها حتى يدخل المزيد منهم إليها. وتزايدت فـي الثلاثينيـات الاتّهامـات الموجّهة لمفتي القدس، الحاج أمين الحسيني، بأنّه يسعى لمحاربة الصهيونية بالتعاون مع النازيّين. غير أنَّ هنالك مقابلاً مضحكًا لهذه الاتّهامات، إذ يُذكَر أنّ بعضَ ممثّلي الصهيونيّة قد جلسوا في مكتب آيخمـان نفـسِه، وأحـسنَ المسؤولون هناك استضافتَهم، وكانوا يتفاوضون على ختم ألفِ جواز سـفر يهودي لمغادرة النمسا، وكسر الحصار البريطاني المفروض على فلـسطين للحدّ من الهجرة غير الشرعيّة إليها. وبفضل هذا التعاون بين الإدارة الأمنيّة في الحزب النازيّ والعملاء الصهاينة تمكّن ١٧,٠٠٠ يهودي مـن النمـسا وتشيكوسلوفاكيا من الدخول إلى فلسطين رغم أنوف البريطانيين، وذلك بين شهر كانون الثاني وشهر أيلول من عام ١٩٣٩ (٧).

أمّا الأمر الأكثر طرافةً فهو أنّ مجموعة سريّة من اليهود الفلسطينيين، التي تعرف بعصابة شتيرن (على اسم زعيمها أفراهـام شـتيرن) اتّـصلت بالنازيّين لعقد تحالف معهم ضدّ بريطانيا.

درج شتيرن على وصف العرب بأنّهم "وحوش الصحراء، وأنّهم ليسوا شعبًا شرعيًّا" وكتب عام ١٩٤٠ يقول: "إنّ العرب ليسوا أمّة، بل هم حيوانات نمت في البريّة الأبديّة، فهم ليسوا سوى حفنة من القتلة"(٨). ويعتقدُ شـتيرن وعصابتَه، ومنهم إسحاق شامير، الذي أصبح فيما بعـد رئيـسًا للـوزراء

في إسرائيل، أنّ لليهود الحقّ في أرض إسرائيل كما يحدّدها الكتاب المقدّس، والتي تضمّ أجزاء من مصر والعراق، ويرون حتميّة طرد جميع العرب. وأثبتت هذه العصابة أنّها شوكةٌ في خاصرة بريطانيا، وفي خاصرة اليهود والصهاينة المعتدلين، إذ قامت بحملة إرهابيّة بدأت عام ١٩٣٦ ولم تنته حتى عام ١٩٤٨، وقد كانت هذه العصابة جزءًا ممّا يدعى *المنظّمة العسكريّة الجديدة* (New Military Organization) أو التي تعرف بالعبريّة باسم إرجون تسفاي لومي (Irgun Zvai Leumi) أو الإرجون اختصارًا. وقد أعادت المنظّمةُ تنظيم صفوفها لتصبح مجموعة مستقلّة بعد وفاة شتيرن، ولجأت إلى أساليب أكثر تطرّفًا لمهاجمة البريطانيين.

توجّه ممثّل لعصابة شتيرن عام ١٩٤١ إلى بيروت لمقابلة شخصيّتين ألمانيّتين، إحداهما من الاستخبارات العسكريّة، والأخرى من وزارة الخارجيّة الألمانية. فقد ترسّخ في أذهان قوّات الإرجون وقتذاك أنّ ألمانيا وحلفاءها سينتصرون في الحرب لا محالة، ولذلك رسمت خطّةً للتعاون معها. وجاء في إحدى فقرات هذا الاقتراح: "لا بدّ من رؤية المصالح المشتركة بين قيام نظام جديد في أوروبا يتوافق مع المبادئ الألمانية، ويحقق المساعي الوطنيّة للشعب اليهودي كما تمثّلها المنظّمة العسكريّة الوطنيّة [The National Military Organization]." وهذا "النظام الجديد في أوروبا [الذي] يتوافق مع المبادئ الألمانية" يشير إلى الخطط النازيّة الرامية إلى تفريغ أوروبا من اليهود. ويقول الاقتراح الصادر عن منظّمة الإرجون: "إنّ تأسيس الدولة اليهودية التاريخيّة على أساس وطني وشمولي، ملتزم بمعاهدةٍ مع الرايخ الألماني، سيساعد في بناء مركز راسخ ومهيمن لألمانيا في المستقبل المرتقب للشرق الأدنى."

وخلاصة الفكرة هي مساعدةُ ألمانيا لتهزم بريطانيا مقابلَ إقامة الدولةِ اليهوديّة في فلسطين: "إنّ التعاونَ معَ حركة التحرّر الإسرائيلية يتوافق مع آخر خطاباتِ زعيم الرايخ الألماني، إذ أكّدَ السيدُ هتلر أنّه سيستعين بكلّ اتّحاد وتحالف من أجل إلحاق الهزيمة بانجلترا [أي بريطانيا] وعزلها."

وأوضحتْ منظّمةُ الإرجون ما في وسعها أن تقدّمه لألمانيا في المستقبل القريب، فراحت تتبجّح بإنجازاتها التي تأسّست على قواعد راسخة فتقول عن نفسها: "بدأت الأنشطة الإرهابيّة للمنظّمة العسكرية الوطنية في وقت مبكّرٍ من خريف عام ١٩٣٦، وأصبحتْ بعد إصدار بريطانيا للكتاب الأبيض في صيف عام ١٩٣٩ أكثرَ حضورًا، وذلك بعد أن كثّفت من نشاطها الإرهابيّ، وأعمال التخريب ضدّ المصالح البريطانية. وقد صارت هذه الأنشطة وما رافقها من بثّ إذاعي سريّ محلّ نظر واهتمام من جميع الهيئات الصحافيّة في العالم."[٩](من الطريف أنّ الإرجون تصف أعمالها في وثيقة رسميّة لها بأنّها "إرهابية"، ويبدو واضحًا أنّها تفتخر بذلك.)

ليست آراء الإرجون إلاّ آراء أقليّة عدوانيّة من الصهاينة، كانوا معارضين للكتاب الأبيض وثائرين على الموقف الجديد الذي تبنّته بريطانيا. غير أنّ استعداد مجموعة صغيرة من اليهود إلى التمادي بهذه الصورة، واستجداء مساعدة ألمانيا النازية لتساعدهم في حلّ "القضيّة اليهوديّة"، يُظهر جليًا طبيعةَ المعارضة التي تواجه بريطانيا في فلسطين بسبب سعيها لتطبيق قوانين الهجرة الجديدة.

نهض عددٌ من الصهاينة لمهمّة تنظيم الهجرة غير الشرعيّة من أوروبا إلى فلسطين، وترتّب على ذلك في بعض الأحيان حوادثُ فاجعة، مثلما حصل في تشرين الأول عام ١٩٤٠ لمّا حطت في حيفا سفينتان قادمتان من

أوروبا، وعلى ظهرهما ٣,٥٠٠ يهودي تقريبًا، وانتقل معظمهم إلى سفينة واحدة واسمها (باتريا)، ورست السفينة عند الشاطئ. لكنَّ السلطات البريطانية منعت دخولهم إلى فلسطين لأنّهم لا يحملون تأشيرات للدخول إليها، وأعلنت أنّها ستنقلهم إلى معسكرات الاعتقال في جزيرة موروريشيوس، وسيُنظَرُ في أمرهم بعد انتهاء الحرب. غيرَ أنّ عصابةَ الهاجانة، وهي ميليشيا الدفاع اليهودية، قرّرت أن تقوم بتحرك سريع، فعَمِدَت إلى إحداث خرْق في السفينة باتريا، وبهذا فإنّها لن تبحر ولن تتمكن السلطات البريطانية من نقل اليهود. واستخدمت قوّات الهاجنة قنبلة في هذه العملية، إلا أنّ الضرر الذي لحق بالسفينة فاق المتوقّع، ولسوء الحظ غرقت السفينة باتريا، مع أنّ المقصودَ هو تعطيلُها لتبقى راسيةً في مكانها، وراح ضحيّةً لهذا الحادث مئتان من اليهود، وسُمِحَ للناجين البقاء في فلسطين لدواع إنسانيّة، لكنّ المسافرين اليهود الذين وصلوا في سفينة ثالثة نُقلوا فورًا إلى موريشيوس، وكان عددهم ١,٨٠٠ يهودي.

بذلت بريطانيا جهدها للحدّ من الهجرة غير الشرعيّة؛ وممّا فعلته في هذا الصدد أنّها حذّرت من تزايد عدد المهاجرين غير الشرعيّين الذين يُلقى عليهمُ القبض، وهدّدتْ باقتطاع ذلك العدد من النسب التي حدَّدها الكتابُ الأبيضُ لهجرةَ اليهود. وقالت أيضًا إنهّا سترسل المهاجرين غير القانونيّين إلى معسكر اعتقال في عتليت قرب حيفا. بيد أنّ بريطانيا كانت في مأزق كبير. فالعالم أجمع قد بدأ يدرك حقيقةَ العداء النازي للسامية، ولا ريبَ أنّ اعتقال بريطانيا لليهود الهاربين من الاضطهاد النازيّ سيبدو منافيًا للمبادئ الإنسانية. بيد أنّ هذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع التناقض القائم بين ما جاء في إعلان بلفور وما نصّ عليه قانون الانتداب على فلسطين.
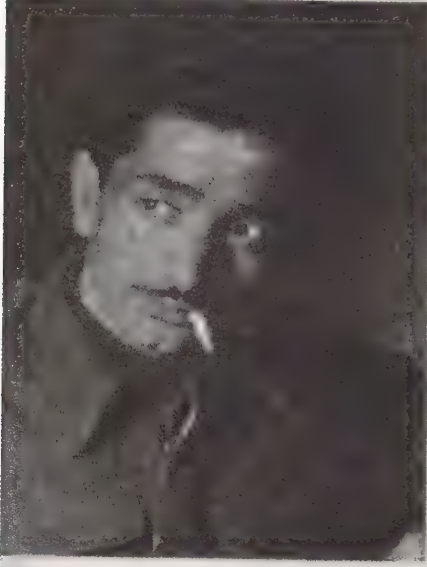
الأستاذ عيسى خليل صباغ من شباب فلسطين المشهود لهم بالكفاءة والذكاء، أوفدته حكومة فلسطين إلى جامعة «إكستر» بإنكلترا. وقد انتخب فى الجامعة منظما للاحتفالات الرسمية. والأستاذ عيسى يمتاز بطلاقته، وقد طاوعته الانكليزية نثرا وشعرا. وهو يؤلف الآن رواية شعرية بالانكليزية عن «عليا وعصام». وحضرات القراء يذكرون أحاديثه الطلية: «ماذا قالوا» و «لغتهم تدل عليهم» و «بين اللغتين» وغيرها.

نال عيسى خليل صبّاغ شهرة وكان أحد أهمّ المذيعين في الشرق الأوسط، وكان يرد اسمه عادة في مجلة "المستمع العربي"

ليست هذه المشكلة إلا قطرة واحدة من بحرِ معضلات الشرق الأوسط، و كان والدي يحدّث أخبارها أيّام عمله في البي بي سي، بعد أن صعدَ نجمُه بسرعة، ليصبحَ الصوتَ المألوفَ على أثير الخدمة العربية في الإذاعة البريطانية. وقد حرص عيسى على أن يسمعَ أهلَه في كفر ياصيف أولى النشرات الإذاعية التى يلقيها، فأرسل برقيّةً كتبَت بالإنجليزية- لأنّها اللغة الوحيدة التي كان مكتب البريد يستطيع التعرّف عليها- ويقول لي عمّي: "لم تكن أمّي تعرف الإنجليزيّة، وجورجيت في حيفا، وإقبال لا تزال في المدرسة الداخليّة، فلم نجد أحدًا يقرأ لها ما جاء في البرقيّة. فذهبت بها أمّي إلى زوجة مدير

مدرستنا- فالكلّ يسمع أنّها تلقّت تعليمها باللغة الإنجليزيّة- فنظرتْ إلى البرقيّة، وقالت: "يا سلام! هذه البرقيّة من عيسى، ولكن ما من شيء مهمٌ فيها، إنّه يخبركم أنّه بعافية، وهو يتمنّى لكم كلّ الخير." فقالت أمّي: "طيّب!"، ثمّ مالت إليّ وسألتني: "أيُعقَل أن يرسِلَ لنا برقيّةً ليخبرنا بذلك فقط؟" ثمّ أتت جورجيت بعد ثلاثة أيّام أو أربعة فقرأتها وقالت: "إنّه يخبرنا عن برنامج سيقدّمه على الإذاعة، لكن الأوان قد فات الآن".

كان عيسى يعدّ ويقدّم برنامجًا أسبوعيًّا يدعى (أبو شام) تدور فكرتُه حول شخصيّة زائرٍ سوريٍّ إلى لندن يصف ما يراه فيها، ويعرض بعض الصور الغريبة التي يحملها البريطانيون في أذهانهم عن العرب. ولم يكن في قرية كفر ياصيف إلا مذياعٌ واحد، فكانت عائلة عيسى تذهب إلى بيت الرجل صاحب المذياع كلما أرادوا الاستماع إلى برنامج عيسى، ثمّ قرّروا أن يشتروا مذياعًا لهم، ففعلوا، ولم تكن خدمة الكهرباء قد وصلت حينذاك إلى القرية، فكان المذياع يعمل على (المراكم) الثقيلة الممتلئة بالحمض، وكان يلزم شحنها طوال الوقت. أصبح بيتُنا بعد ذلك كعبةً للناس عند حلول موعد برنامج عيسى، وقال عمّي: "صار بيتنا مثل مكّة".

وكان عيسى في لندن لمّا توفي جدّي خليل عن عمر لم ينف عن الستين، لكنّه كان يعاني من مرض السكّري (وهذا مرض سارٍ في عائلتنا)، ومرض القلب. دخل علينا فصل الصيف، والعائلة ما زالت تعيش في كفر ياصيف، لكنّ خليلا وزوجتَه ذهبا إلى حيفا لزيارة تكلا وجورجيت. ويذْكر عمّي ذاك الموقفَ ويقول: "جاءني أحدُ أبناء عمّي، عطاالله أو رزق الله، وقال لي إنهم يحتاجون إلينا في يافا، قلنا "ولماذا نذهب إلى حيفا؟" فأبي وأمي

سيصلان اليوم من هناك. فقال لي: "لا، فأنا أتيتك لهذا السبب، فهما قررا أن يمكثا مدة أطول في حيفا." وافقنا على ذلك، مع أننا لم نفهم ما يجري، وارتابت أختي إقبال وقالت: "أخشى أنّ مكروهًا وقع." فردّوا بسرعة : "كفّي عن ذلك! لم يحصل أيّ مكروه." فاكترينا سيارةَ أجرة إلى حيفا، وكانت الأجرة عالية حينها، وهذا ما جعل الريبة تدبّ في قلب إقبال. ثم سمعنا ابن عم لنا يقول لأحدهم "أرجو أن تخبر بقية أصدقائنا أنّ الجنازة قد تكون في صفد." فعلمنا أنّ والدنا قد توفي، وتابعنا إلى حيفا، دون أن ننقطع عن البكاء، وظللنا على ذلك طوال الطريق. كان أبي قد فارق الحياة في تلك اللحظة. أخبرتني تكلا بعد مرور مدّة على وفاته أنّ صحته شهدتْ تحسنًا قبل ذلك، ولكنّه لزمَ فراشَه، وطلب إليها يوم وفاته أن تعدّ له طبق السباغيتي، وهي أكلة لم تطب له من قبل قطّ، ولا أدري ما الذي دفعه لاختيار السباغيتي، لكنه قال: "أرغب في تناول السباغيتي على الغداء." فأجابت طلبَه، ثمّ قال: "أريد قبل ذلك كوبًا من الحليب." كانَ في بيت تكلا خادمة، غير أنّه يأبى أن تخدمه، ولم يكنْ ليقبل منها شيئًا، إذ يجب على البنت أو الزوجة أن تخدمه، وليس الخادمة. فذهبت تكلا إلى المطبخ لتحضر كوب الحليب، واستغرق ذلك دقيقتين فقط، ولمّا عادت وجدته قد فارق الحياة على إثر نوبة قلبية".

أبرقتِ العائلةُ إلى عيسى، واستمعت بعد فترة وجيزة إلى مسرحية من تأليفه، بُثّتَ على البي بي سي، وشارك عيسى في تمثيلها. تتحدّث المسرحية عن جندي فَقَدَ بصره في الحرب، فعاد إلى وطنه، وعلم أن والده قد مات أثناء خدمته العسكرية، وكان مقرّبًا جدًا من أبيه، فبدأ يبكي، وكان عيسى يمثّل هذه الشخصية، يقول غسان: "لكنّه بكى حقًّا أثناء التمثيل، وقد أثّرت قصة المسرحية في كل من استمع إليها، أمّا نحن فعرفْنا ماذا تعني".

قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، ولِقَطع الطريق على النـــازيين قبـــل قطع إرسال البي بي سي، تقرّرَ نقلُ بعض أقسام الإذاعة من لندن إلى قلـــب الريف الإنجليزي. وطلبت الإدارةُ إلى طاقم الإذاعة في لندن في أحد أيام آب عام ١٩٣٩ أن يحضروا مبكرًا في صباح اليوم التالي، وأن يجهّزوا حقيبـــة صغيرة. حدّدوا مكان اللقاء، واستقلّوا حافلة من هنـــاك إلـــى موقـــع غيـــر معروف. فوصلوا إلى منزلٍ ريفيٍّ من العصر الفكتوري يدعى (وود نورتُن هول)، قرب إيفشام في وستِيرشاير. كان منزلاً ضخمًا، وقد سكنه مرة الدوق دومال (Duc d'Aumale)، وهو الابن الرابع للويس فيليب، آخرِ ملوك فرنسا. وكان المنزل- ولا يزال- مزخرفًا بأشكال زهرة الزنبق، وهي رمز العائلـــة المالكة في فرنسا.(١٠) وكان قسم الإذاعة العربية، الذي يعمل فيـــه والـــدي، من بين الأقسام التي نُقِلتْ إلى وود نورتُن هول، بالإضافة إلى قسم الترفيه، وهو القسم الذي تعمل فيه سكرتيرة في مقتبل عمرها تدعى باميلا جريدون.

ألزم القانونُ البريطانيُّ المجتمعَ المحليَّ أن يُبقيَ أبوابَه مفتوحة ليستقبل النازحين من أهل لندن، وأن يوفروا لهم الغذاء والمأوى، وقد كـــان معظـــم هؤلاء من المغتربين الذين يعملون مع قسم المراقبة في البي بي سي، الـــذين تمثّلتْ وظيفتُهم بالاستماع إلى البث الإذاعي من المحطّات الأجنبية للحصول على معلوماتٍ مهمةٍ عن وضع العدو ونواياه وما إلى ذلك. وكان هنالك كادر أقسام الإذاعة باللغات الأجنبية. وعمل بعض أفراد كادر البي بي سي علـــى نظام المناوبة، وكتب أحد الذين جلوا عن منطقة الخطر في صباح أحد الأيام: "تلمسُ أهدابُ النورِ أولَ ما تلمسُ كتلَ الـــضبابِ المتجمعـــةِ عنـــد النهـــر،

وقطراتِ الندى المائيةَ التي تحملُها. وترى ورود الياسمين البريّة وورود الحُلوة على جدران الكوخ، وترى الأزهار تتعانق على أرض الحديقة الأمامية. ثم تنظرُ فتلحظُ بريقَ قطرات الندى في كلِّ صفٍّ من صفوف المحاصيل اليانعة- وهذه ألحانُ أغنية لا يمكن حتى لعييّ الذهن ألاّ يطرب إليها. أمّا المشيُ ليلاً إلى العمل فله سحر خاصّ، إذ تلحظ البساتينَ تملؤها الأزهار، وينعكس عليها ضوء القمر فتشعُّ في ضيائه، وترى على صفحة النهر المتجمّد انعكاس نجوم السماء"(١١).

هذه هي الأجواءُ الرومانسيّة التي التقى فيها المذيعُ في خدمة البث العربي بالموظفةِ الجميلة التي تعمل في قسم الترفيه.

هوامش الفصل الخامس عشر

(1) Peter Partner,Arab Voices, BBC Publications, 1988, p. 18.

(2) Quoted in Partner, Arab Voices, p. 18.

(3) Foreign Affairs Oral History Program, Association for Diplomatic Studies and Training, c/o Bentley, 2814 N. Underwood St., Arlington, VA 22213, Box: I Fold: 411 Sabbagh, Isa K.

(4) Palestine: Statement of Policy, Cmd. 6019, HMSO, 1939.

(5) Richard Meinertzhagen, Middle East Diary 1917-1956, Thomas Yoseloff, 1959, p. 104.

(6) Palestine: Statement of Policy, Cmd. 6019, 1939.

(7) David Cesarini, *Eichmann: His Life and Crimes*, William Heinemann, 2004, p. 75.

(8) Nur Masalha, *Expulsion of the Palestinians*, Institute for Palestine Studies, 1992, p. 30.

(9) Grundzuge des Vorschlages der Nationalen Militarischen Organisation in Palastina (Irgun Zewai Leumi) betreffend der Losung der judischen Frage Europas und der aktiven Teilnahme der NMO am Kriege an der Seite Deutschlands, David Yisraeli, *The Palestine Problem in German Politics* 1889-1945, Bar Ilan University (Ramat Gan, Israel), 1974, PP.315-17.

(10) Olive Renier and Vladimir Rubinstein, Assigned to Listen, BBC, 1986, p. 146.

(11) Ibid., p. 57.

الفصل السادس عشر

بينَ الحبِّ والحرب

أذكرُ أمّي امرأةً فيها نبضُ الحياة وحبّ الناس، وكانت صبيّةً لـــم تبلـــغِ التاسعةَ عشرة أو العشرين من عمرها عندما وَصَلَتْ إلى وود نورتُن هـــول. وُلِدَتْ أمّي في مدينةٍ تُدعى برِيكستون جنوب لندن، ونشأتْ بين إخوةٍ ثلاثـــةٍ وأختين اثنتين. أمّا والدُها فكان ذا شخصيّةٍ عظيمة، وله قصّة يرويهـــا لـــي خالي أليس، ويقول:

هو أمريكيُّ الميلاد، ينحدر من هارِسبيرج في بنسلِفينيا، وقد قُدّر لـــي مرّةً أن أزورَ هذا المكان، فأدركتُ لماذا لم يطق البقاء فيه. يـــدعى والـــدي وِليَام مَرِي جريدُن، وكان متعلمًا مثل آبائه الذين عرفت سيرتهم. فأحدُهم تتبّع مراحلَ دستور الولايات المتحدة، وكتبَ الآخرُ سفرًا ضخمًا عن الحياة فـــي بنسلِفينيا في القرن الثامن عشر، وعمل أحدُهم صحفيًا وحققَ شهرةً في زمنه. واجتمعتْ هذه المواهب كلّها وظهرت في النهاية في فكْرِ وليَام مَري. بـــرع وليَام في تأليف قصص المغامرات للأطفال، ومن القـــصص التـــي كتبهـــا "مخاطر البط" و "الصبْيَةُ المحاربون في ديفون" و "جزّار في كونبور" [١].

وكتب وليام مري جريئن حكاياتِ سكستون بليك (Sexton Blake)، وكان عمره خمسة وستين عامًا لمّا أنجبت له جدّتي ليليان الطفلَ الأول، أمّا ليليان فكانت في التاسعة عشرة من عمرها فقط، وهي امرأة أيرلنديّة نحيلةٌ وعيناها زرقاوان. ويبدو أنّ وليام مَري لم ينعم بالاستقرار في حياته، إذ لم يكن يرى زوجه إلا إذا اشتهى إنجابَ طفلٍ آخر، ولم يكن يمكث طويلاً حتى يـذكرَ وجهَه أيٌّ من أطفاله. وهنالك قيْدٌ في دليل (كُتّاب أدب الأولاد) جاء فيه أنّ جدي قَدِمَ إلى إنجلترا مع زوجه بيرل وطفلين منها، وأنَّ وفاتَها في أواخر الثلاثينيات أو أوائل الأربعينيات كانت "صدمة عظيمة" كما يقول الدليل، إلاَّ أنّ بيرل قد كانت على موعدٍ مع صدمةٍ أعظمَ لو أنّها اكتشفت أنّ لزوجها ستّةَ أطفال من سواها في جنوب لندن.

وكلّ ما يستحضره خالي أليس عن ماضي والده هو أنّه كان يتلقّى القليل من الأوراق النقديّة التي كانت تصله في مغلّفٍ من باريس- والتي عُدَّت موئلَ الكتّاب في العشرينيات- ولم يكن ما يردُه كافيًا لإطعام ستّة أطفال، فأرسلَ الأولادَ إلى ميتمٍ والبناتِ إلى ميتم آخر.

السكرتيرة الإنجليزية الشابّة، باميلا جريدُن، التي أحبّها عيسى خليل صبّاغ لمّا انتقلا إلى مقـرّ الإذاعة في إيفشام في ورستشاير.

أمّا ابنته باميلا فلم تصلْ إلى مراحلَ متقدّمةٍ في التعليم، لكنّهـا أثبتـتْ جدارتها في العمل في البي بي سي، وساعدها على ذلك ظرَفُهـا وذكاؤُهـا الفطريّان. كانت مدينة إيفشام تفتقر إلى ما تتمتعُ به لندن من صخب الحيـاة وحيويّة العيش، لكنّ مجموعة الشباب التي انصهرت في بوتقة هذه المدينة قد

كوّنت خليطًا اجتماعيًا رائعًا. وقد حُمّ غيظُ مدير قسم الشرطة في ورستشاير في أحد الأيّام لمّا رأى بعضًا منهم مستلقيًا تحت الشمس في ساحات وود نورتُن في الوقت الذي ينغمس جميع الناس "العاديين" أعمالهم. فكانت البي بي سي قد أنشأت ناديًا للعاملين فيها، يشتمل على بارٍ ومسرحٍ للرقص، وصالة رياضيّة وحديقة وحمّامات، لأنهم لا يجدون مثل هذه المرافق في المساكن التي يقيمون فيها. ولمّا ازداد عددُ الأقسامِ التي انضمّت إلى وود نورتُن صار يتمتّع يجدون التسلية بالحفلات الموسيقيّة المسجّلة، والقراءات الشعريّة والمحاضرات. وكان لهم زيادةً على هذا كلّه فرصة زيارةِ الحانات المنتشرة في القرية والتي تقدّمُ نبيذَ التفاح القويّ ونبيذ الروانـد، ليتناسى الناس- ولو لساعةٍ من يومهم- مآسيَ الحرب، وليطلقوا أحيانًا حبلَ نزواتِهم على غاربِه.

لا أعرف كيف التقى أبي وأمّي للمرة الأولى لكنّ فرصَ اللقاءِ ليستْ قليلةً في تلك الأجواء، ولا أدري لِمَ يروقُ لي أحيانًا أن أرسمَ لهما صورةً وهما يسيران بين الأشجار حول وود نورتن، حيثما كان يسير الأحبابُ مساءً بعد العمل. وقد جاء في كتابات أحد موظّفي البي بي سي وصفٌ لمنظر حشَرة اليراع بين العشب، وهو يستمع إلى زقزقة العندليب، في وقت كانت الأضواء الأرضيّة تلاحق الطائرات التي قصفت فوق كوفنتري أو بيرمنجهام (٢).

وباميلا فتاةٌ من جنوبِ لندن ترعرعت في دارٍ للأيتام، ولم يكنْ لمثلها أن يقاومَ جاذبيةَ ذاك الشابِّ العربيِّ الوسيمِ، صاحبِ العينين العسليّتين الغامقتين والذي يتقنُ الإنجليزيةَ. ولعلّه كان يذكّرُها بواحدةٍ من أغانيها

المفضّلة- وكانت على لسان الجميع في تلك الأيّام- وهي أغنية "الشيخ العربي" (The Sheik of Araby). أمّا عيسى في المقابل فلم يرَ شيئًا في هذه البيئةِ الجديدةِ يشبه ما فُطمَت عليه عينُه من تلال الجليل وقراها في بلاده. وبَدا البونُ شاسعًا بين نمط الحياة الإنجليزيّة الموغلةِ في التحرّرِ وبين ونمط الحياة في العائلة الفلسطينية، هناك حيثُ عروسُك تُنْسَب إليك وأنت طفلٌ صغير، وحيث يملك والدُك أن يمنعَك عن التدخين.

لم تعلمْ عائلةُ صباغ بأمر باميلا إلا لمّا تلقّوا برقيّة من عيسى كتبَ فيها: "جميعنا بخير". وموقّعة باسم "عيسى، باميلا، خليل". ومهما تكن صعوبةُ التواصلِ أثناءَ الحرب، فإن هذا لا يفسّرُ هذه الطريقةَ الغريبةَ لإعلان نبأ زواجِه وميلادِ طفله الأول. وقد كانت العائلة حينها لا تزال في حداد على وفاة جدي، غير أنّ عمّاتي نزعن ملابس الحداد السوداء لمّا علمن بخبر ولادتي. أمّا زوجة جدّي فقد استمرّت في حدادها عشر سنوات أُخَر.

وتفرضُ تقاليدُ العائلةِ أن يتزوّجَ والدي إحدى بناتِ عمّه، وما أكثرَهنّ، فالفروعُ كثيرة في شجرة العائلة، وقد درجتِ العادةُ على أن يُسَمَّى أحدُ أبناء عمِّ الفتاة لها وهي صغيرةٌ ليتزوّجَها لمّا تكبُر. ووقع الاختيار على شقيقتين في صفد، واحدةٌ لعيسى والأخرى لعمّي غسّان، حتى إنّ عيسى في إحدى المرّات كتب قصيدةً وألقاها في برنامجه الإذاعيِّ حتى تسمعَها عروسُ المستقبل في فلسطين.

ولمّا حكى لي غسّانُ حكايةَ زواج أولاد العمومة من الشباب والفتيات أخرجَ من جعبةِ ذاكرته أمورًا عديدةً غيرَها، فقال لي مرّة: "أنجبَ عمّي جميلُ ابنًا واحدًا وسبعَ بنات، فتزوج ابنه بولص من ابنةِ عمّه الأقربِ فوزيّة، وهي ابنةُ عمّي ميخائيل، والذي عنده ثلاث بنات وخمسة أولاد، وبناته هنّ:

سميرةُ التي تزوّجت من ابن عمّها رزق الله، وفوزيّة التي تزوّجت من ابـــن عمّها بولص، والثالثة هي فايزة، التي لم تتزوّج ابن عمّها بل ابنَ ابْـــنِ عـــمٍّ لها، وهو ابن خُرجيّة.

المؤلّف وأمّه تحمله على صدرها

لكنّ عيسى أعلنَ تمرّده على هذه التقاليد، مع أنَّ ذلك لم يكـــن الـــشيءَ الذي ملكَ عليه تفكيرَه وقتذاك، وقتَ الذي كانَ يعلمُ جيّدًا مـــا يحـــدث فـــي فلسطين، لأنّه هو الذي يصدّع بأخبارها كلّ يوم على الأثير، وهو لا يعلم أبدًا ميقاتَ عودته إلى بلاده.

***

شعرتِ الحكومةُ البريطانية أنّها لن تتمكّنَ من وضع توصيات الكتاب الأبيض موضعَ التنفيذ؛ فحالةُ العنف قد تزايدت، وأجّجَ ذلك أنَّ اليهودَ في فلسطين قد نظّموا أنفسَهم في الميليشيات المسلحة، وأنَّ العربُ أيقنوا أنّ القوّةَ هي وحدَها الكفيلةُ بالحفاظ على أرضِهم. وانخفضت في بداية الأربعينيات حدّةَ المقاومة العربيّة للقوّات البريطانيّة، ولم يحصل سوى اشتباكاتٍ خفيفةٍ بين الفينة والأخرى. وفي شباط من عام ١٩٤٠ قرّرَ جورج منصور، وهو أحد قيادات الحركة العمّالية في فلسطين، كتابةَ خطابٍ شديدِ اللهجةِ إلى وزير المستعمرات، اللورد لويد، قال فيه: "إنّ السلطات العسكريّةَ تتّبع سياسةً طائشةً في قتل شعبنا وتعذيبه، فهنالكَ تسعةَ من أهل قرية علار قرب طولكرم اعتُقلوا وعُذِّبوا بوحشيّةَ، وضُربوا بكلِّ قسوة، فمات أحدُهم من فوره إثر ذلك، واسمه محمد شريم، ونُقِلَ رجلٌ آخر واسمه نسّان العنيني إلى مستشفى البلديّة في نابلس ومات هو الآخر بعد أسبوع. وحقّقتِ السلطاتُ في القضيّة، ودفعوا إلى ذوي القتيلين ٢٥٠ جنيها فلسطينيّا عن كل منهما، مع العلمِ بأنّ هذه الحادثة المشينة قد حصلتْ قبلَ شهر تقريبًا، أي في وقت كان فيه نشاط المقاومة العربية قد توقّف"(٣).

وعلى الرغم من بُعدِ فلسطين عن الميادين الرئيسة للقتال أثناء الحرب العالمية الثانية، فإنها قُصِفَتْ من ناحية الشمال أحيانًا، فسوريا كانت تحت سيطرة سلطة فيشي الفرنسية الحليفةِ للألمان، وكانت القوّاتُ الجويّةُ الإيطاليةُ قدْ أنشأتْ قواعدَ لها في سوريا، ومنها تنطلق طائراتُها لمهاجمة فلسطين.

اجتهدتْ عائلةُ صبّاغ لتطويع ظروفهمُ الصعبةِ من أجل تأمين حياةٍ كريمةٍ لأبنائها، فأسرة أبي مثلاً قد اعتمدتْ على مصدرِ دخلٍ واحدٍ يأتيها من عمل جورجيت في التدريس. فلمّا تزوّجت توقّفتْ عن العمل، والتحقت إقبالُ

بإحدى المدارس لمزاولة مهنة التدريس. أمّا غسّانُ الذي لم يبلغ العشرين من عمره فقد اجتازَ امتحانَ القبول للكليّة العربيّة في القدس بنجاح، مع أنَّ عمرَه لا يسمح له بالدراسة فيها فإنه حصل على مقعد مع مئة تقريبًا من الطلبة من أرجاء فلسطين. وهنالك حسيب، ابن عمّ عيسى، الذي التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت لدراسة الهندسة، وعاد إلى فلسطين بعد التخرّج عام ١٩٤١ ليبحث عن عمل في مجال الإنشاءات.

كان اليهودي يُقَدَّمُ عن العربي في فلسطين في مجال العمل والوظيفة، حتى في المشاريعِ التي تنفّذها الحكومة، وذلك بسبب الضغوطات التي يمارسها الصهاينةُ. فحاولَ حسيبُ في البداية أن يبحث عن وظيفةٍ في دائرة الأشغال العامّة في القدس ليعمل مهندسًا فيها، لكنَّ الأجر الذي عُرِضَ عليه يقلُّ عن أجرِ العامل العاديِّ، فرفضَ ذلك وتوجّه إلى تل أبيب، وتقدّمَ للعمل مع شركة يهودية تعمل مع الجيش البريطاني، فطلبوا إليه أن يملأ بعض النماذج، وأن يكتبَ الأجر الذي يطلبه، فكتب حسيبُ الراتبَ الذي يتقاضاه غيرُه في وظيفة مشابهة، فرفضوه لأنّه طلب أجرًا مرتفعًا. فيئس من القطاع العام وتوجّه إلى الشركات الخاصّة، فاستثمر قرضًا بقيمة ٥٠٠ جنيه إسترليني، وخسر المبلغ في شركة هندسة صغيرة، واشترك معه في ذلك اثنان من العرب الفلسطينيين، وبعد أن طال به التجوال والبحث، جمعَ أمرَه على أن يبدأ عملاً خاصًّا به، فبدأ يعمل مستشارًا عقاريًا لثلاثة محامين، كان من بينهم أحمد الشقيري، أولُ قائدٍ لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة عام ١٩٦٤.

عاد عيسى وباميلا في هذه الأثناء للاستقرار في لندن عندما توقفتِ الغاراتُ الجويّةُ العنيفة، ومكثا في منطقة تدعى هِندون، وأحاط بهما هناك مجموعة من عربِ لندن، وكان عيسى يقامرُهم في الليل. وممّا يؤسَفُ له أنّ

الحياةَ الزوجيّةَ قد فقدتْ بريقَها في لندن التي مزّقتْها الحربُ كلَّ مُمَزَّق، فقَطَعَ الطلاقُ الرباطَ المقدّس بين والديّ بعد سنوات قليلة من مولـــدي، واســـتمرّ والدي يعمل مع البي بي سي خمس سنوات أو ستٍّ بعد ذلك.

وعملتْ أمّي في قسم الترفيه في الإذاعة معظمَ مدّة الحرب، واستمرّتْ معهم عدّةَ أعوام أُخَر، تعيشُ مع أمّها وإخوانها وأخواتها في منطقة كلابَم. ثمّ انتقلت أمّي للعمل مع الجيش الأمريكي في لندن بعض الوقت، ولديّ صورة لها مع ١٥٠ جنديًّا وجنديّةً من الجيش الأمريكي في ميدان جروفنار، كُتِـبَ على ظهرها بعضُ التعليقات، فكتبتْ بيتي ليي: "إلى الأميرة الصغيرة التـــي ستصبح ملكةً بالتأكيد ولو طال الزمن"، وكتبت إلين بنجيلي تعليقًا يضمر أكثر ممّا يعلن: "إلى الفتاة التي لم تلعب لعبة "الحقْني والمسني"[١] قرب شـــجيرات الهليون."، وهنالك تعليق من ألين فريمان تقول فيـــه: "فلتقولـــوا عنّـــي مـــا تشاؤون، فإنّي ما زلت أعرضُ ثلاثة أزواجٍ من الجوارب[٢]"، أمّا المقدّم جي فولي فعجزَ عن مجاراةِ هذه الروح الغزليّة فاكتفى قائلاً: "إلى الفتاة اللطيفة. أتمنّى لك كلّ التوفيق."

وأخبرني خالي الأصغرُ بيتر أنّ صاروخًا من طراز V2 قد سقط على كلابَم، وألحق ضررًا بالغًا بشقّتهم، فحاول هو وأخته كاي أن يخرجا من بين الحطام، وحاولا مساعدة امرأة عجوز تسكن في الطابق السفليّ هَوَتْ عليهـــا خزانةُ الثياب. ثمّ سمعوا بعد لحظات صفّارات الإنذار وأبـــواق الـــسيّارات،

---

[1] لعبة يلعبها الصغار إذ يلحق أحدهم الآخرين ويحاول لمس أحدهم، ويحصل الهـــارب على حصانة من اللمس حين يجلس القرفصاء.(المترجم)

[2] يُذكر أن الفتيات البريطانيات كنّ مفتونات بالجنود الأمريكيين الذين أقاموا في بريطانيا إبانَ الحرب العالمية الثانية، وكنّ يعرضن ما يملكن من سجائر أو أزواج الجـــوارب هديّة للجنود كي يوافقوا على إقامة علاقاتٍ معهنّ. (المترجم)

وقال لي بيتر: فرأينا الأمريكيين، كانوا في سيارتَي جيبٍ مليئتين بـالجنود، ورأيتُ باميلا بينهم، وكانوا قد سمعوا عن التفجير، وحضروا ليقـدّموا مـا يستطيعون من خدمة."

تلقيتُ عام ٢٠٠٢ رسالة مفاجأةً من امرأةٍ من ويلز، سمعَتْ اسمَ عائلتي في برنامج إذاعيّ من إعدادي، وقالت في رسـالتها: "اسـمك لـيس كبقيـة الأسماء، فأحببتُ أن أسألَ إن كنتَ في صغرك، أي قبل الخامسة بالتحديـد، تأتي مع أمّك إلى حضانة في كلابَم. إن كنت أنت هو ذلك الطفل، فإنّ أمّـك كانت تَحضِرُكَ إلينا كلّ صباح، وكانت تأخذُ الألبابَ بجمالها، بشعرِها الأشقرِ ومعطفها "الورديّ البهيّ". كنتُ أنا وبقيّةُ الحاضنات نغبطُها. أمّا أنتَ فكنـت ولدًا وسيمًا ذا شعر جَعِدٍ بعض الشيء." وافت المنيّةُ أمّيَ عام ١٩٩٩، ولـو أنّها عاشت حتى ترى هذه الرسالة التي ترجع بها خمسين عامًا إلى الماضي لكانت قد سعدت بها بالتأكيد.

تبوّأ والدي مكانةً مهمّةً في البي بي سي العربيّة بعد طلاقه لأمّي، وذاعَ صيتُه واشتهر، وليسَ أدلَّ على هذا من كميّةِ الرسـائلِ التـي تلقّاهـا مـن المستمعين العرب، حتى أثناءَ الحرب. ونشرت البي بي سي مجلـةً تـدعى "المستمع العربي"، وتزيّنتْ صفحاتُ أعدادها في مرّات كثيرة بين عام ١٩٤٠ و١٩٤٨ بالعديد من صور والدي، وهو يحمل الميكروفون في يـده، غيـر مصفّف الشعر، مع شخصيّةٍ معروفة يحاورها، أو يبدو في هيئته كأحد نجوم السينما.

وعمل أحيانًا مراسلاً حربيًا على الجبهة الغربيّة للحرب لينقل الأخبـار عن تقدّم قوّات الحلفاء، وركب في إحدى الرحلات في طائرة نقلٍ عـسكريّة تدعي ليبيريتر (Liberator)، وهي معروفةٌ بمـشكلاتها، كتـسريب الوقـود

واشتعال الحرائق بها وهي في السماء. ويقول أبي: "كانت طائرةَ ليبيريتر جديدةً، غير أنّي كشفت لهم عن حريقٍ في الطائرة، بعد أن رأيتُ شررًا في الجوانب، وقلت: "يا إلهي! أنا أعرف أنّ الشررَ لا يحدثُ في الطائرة إلا عند الإقلاع!" وكان الطيّارُ أمريكيًا سمينًا، ولم تلبث دماثتُه مختفيةً طويلاً حتى أحسستُها فيه بعد حين. أمّا سماء إنجلترا في ذلك اليوم فكانت جميلةً وزرقاءَ صافيةً على غيرِ عادتِها، ورأيت مساعد الطيّار يهمهم عند النافذة، فذهبتُ إليه، ونقرتُ رقَبَتَه من الخلف، فقال: "ما الخطب؟" فقلت: "أعلمُ أنّ هذا ليس من شأني، ولكن هل ثمّةَ ما يدعو لوجود الشررِ في الطائرة؟" فقال هَلِعًا: "شرر! أين؟" فقلت: "عند جهة قدمك اليمنى"، فنظرَ وراح يصرخ: "جاك، أحضر المُطفِئةَ الملعونةَ"، وكانت هذه هي المرّةَ الأولى التي أسمع بها تلك الكلمة: "ملعونة"(*)، ثمّ ملأَ الدخانُ المكانَ قبل أن يرتد إليّ طرْفي، وكانَ معي في الطائرة ثلاثةٌ من زملائي في البي بي سي. وهبطتِ الطائرةُ، وكلُّ ما أعيه بعد استيقاظي هو أنّني كنت مطروحًا جنب الطائرة وكلّ ثيابي مبلّلة. الحمد للهِ أنّي لم أمت"(٤).

وقد تعرضت أستوديوهات خدمة البثّ العربيّ في البي بي سي في لندن للقصف الألماني أحيانًا، وكان يبرزُ عند الهجوم ضوءٌ في الأستوديو يقول: "**خطر - غادرِ المكان**"، ويعمد المذيع الموجود إلى تشغيلِ مقطوعةٍ موسيقيّةٍ طويلةٍ ثمّ ينطلق مسرعًا إلى أستوديو الطوارئ في الطابق الأرضي، ويتابع البرنامج كأنّ شيئًا لم يحصل.

***

(*) وهو يقصد إحدى المقابلات الإنجليزية لكلمة "ملعون" وهي في النص الإنجليزي: "God-damned" و لم تكن هذه العبارة شائعة الاستعمال في بريطانيا. (المترجم)

كان عامُ ألف وتسعمئة واثنين وأربعين عامًا حاسمًا للصهاينة، ففي هذا العام عُقِدَ مؤتمرٌ لصهاينةِ أمريكا في فندق بيلتمور في نيويورك، وقرّروا فيه الاستغناء عن الدعم البريطاني لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين، وأصدروا إعلانًا يؤكّد "التزامهم بتحقيق الحريّة الديمقراطية والعدالة العالميّة"، ثمّ تابع المؤتمر أعماله ليصوّت الحاضرون على مسألة الهجرة غير المحدودة إلى فلسطين، وأنكر المؤتمر أيّ "شرعية أخلاقية أو قانونية" للكتاب الأبيض.

وبدا ذلك أشبهَ بإعلان حرب ضدَّ بريطانيا، واشتدّ عضدُ الصهاينة الأمريكيين لمّا انضمّت إليهم جماعات صهيونية أُخرى، بالإضافة إلى اليهود الذي يعيشون في فلسطين. وقد تنامت مقدراتهم العسكريةُ بفضل التجنيد المستمرّ وتهريب الأسلحة، وكان على رأس المنظّمات العسكرية اليهوديّة في فلسطين منظّمة الهاجانة، التي أعلنتْ بريطانيا عدمَ شرعيّتها، وداهمَ الجيش البريطانيُّ مقارَّها لمّا كان العرب أو البريطانيون يتعرّضون لِهجوم منهم. وبرزت أيضًا عصابتان أخريان أصغرُ حجمًا من الهاجانة لكنّهما تزيدان عليها وحشيّةً، وهما منظّمتان تعرفان باختصاريهما باللغة العبرية: ليهي وإرجون. وقد كانت العصابتان في الأصل مجموعة واحدة- وهي الإرجون- غير أنّ ليهي انفصلت عن الإرجون بعد خلافات على قضايا مهاجمة البريطانيين في فلسطين، وإشكاليّة التعاون مع النازييّن.

كثّفتْ بريطانيا من جهودها للحدّ من الهجرة، فصار ذلك دافعًا للمتطرفين اليهود لتوجيه ضرباتهم نحو المصالح البريطانية المدنية والعسكرية في فلسطين، فسُجِنَ كثيرٌ منهم، أو طردوا خارج البلاد. لكنّ الأوضاع ازدادت سوءًا مع انقضاء الأيّام، وقام الصهاينة أصحاب الحظوة عند الحكومات الأخرى- خاصة حكومة الولايات المتّحدة- بتشويه صورة بريطانيا ونعتها بأقبح الأوصاف.

لم يكن الرئيس الأمريكي فرانكلين دي روزفلت على معرفة عميقة بالشرق الأوسط، فدسَّ الصهاينةُ مكرَهم وأخبروه أنَّ بريطانيا قد نكثتْ وعدًا قطعتْه على نفسها بتسليم فلسطين لليهود. فعزمَ هوَ على النظر في مسألة فلسطين بتدبّر أعمق، وأن يصل إلى حل لها. وفي حوار طويل مع أحد الوزراء عام ١٩٤٢ أعربَ روزفلت عمّا يدور في ذهنه، وقال:

إنّني أفكّر بما يلي؛ أوّلاً: سأجعل فلسطين دولةً دينية، وستبقى القدسُ على حالها، وتكون إدارتها تابعة لكنيسة الأرثوذكس اليونان الكاثوليكية والبروتستانت واليهود، ويكون هنالك لجنة مشتركة لتسيير أمورها... وأفكّرُ في وضع أسلاكٍ شائكة حول فلسطين، وأن أبدأ بطرد العرب منها... وسأعمل على توفير الأراضي للعرب في منطقة أخرى من الشرق الأوسط... وكلّما خرج عربي منها أحضرنا مكانه عائلة يهودية... لكنّي لا أريد أن يزيد عدد اليهود عن قدرتهم الاقتصاديّة... وستصبح بعد ذلك دولةً مستقلّةً كبقية الدول... فإن بلغتْ نسبةُ اليهود تسعين بالمئةِ فلا ريب أنّ الأغلبيّة في الحكومة ستكون لهم... هنالك العديد من الأماكن التي يمكن للعرب أن ينتقلوا إليها، كلّ ما عليك فعله هو حفر بئر للماء، لأنّ المياه الجوفية متوفّرة بكثرة، ولن يصعب علينا نقل العرب إلى مناطق يمكنهم حقًّا أن يعيشوا فيها[٥].

العجيبُ في الأمر أنّ رئيس الولايات المتّحدة الأمريكية، وبعد عشرين عامًا أو أكثر من تداول "القضية الفلسطينية" على صعيد المباحثات الدولية، لا يعرف إلا النزرَ اليسير عن تاريخ الشرق الأوسط وجغرافيّته، ويبدو أنّه لا يدرك الدور الأساسي للإسلام في المجتمع الفلسطيني، بل يبدو أنه لا يرى العربَ الفلسطينيين أكثرَ من بدوٍ يمكن لأيٍّ من كان أن يسلبَهم أرضَهم وأن ينقلهم إلى أيّ مكان يريده، ما دامَ البئر موجودًا.

* * *

ازداد شغفُ والدي باللغة العربية أثناء عمله في ميدان الإذاعة، وتعدّدتْ أمامه الفرصُ ليظهر إتقانه للغته. فكان معظم قارئي النشرات الإخبارية في الخدمة العربية مصريّين، واعتاد عيسى على تصحيح أخطائهم- حتى إنه كلّف نفسه عناء تسجيل ملاحظات دقيقة بذلك، وأظهرها مرّة لمدير القسم بعد أن كتبها في مفكّرة لونها أسود، واستغرق في إعدادها شهرين من الزمن، ووضّح فيها الوقت والتاريخ، واسم المذيع، وعنوان الموضوع، والمواضع التي لَحَنَ بها كلُّ مذيع، وتصحيحها المقترح. وقال للمدير "لا تسلّم بكلّ ما ورد في هذه المفكّرة، وأرجو أن تبعثَها إلى القاهرة، إلى جامعة الأزهر التي تخرّجوا فيها. ومضى شهران آخران ودعا المديرُ إلى اجتماع، وأشارَ إلى أنّه قام بذلك حقًّا، وأن الأزهرَ قد أكّد أنَّ المذيعين المصريين يلحَنون في كلامهم، وأثنى على التصحيحات التي اقترحها عيسى. وكان ذلك كفيلاً بأن يحصل والدي على أعلى ترقيّة حصل عليها أجنبيٌّ في محطّات البي بي سي باللغات الأجنبية.

كتب جمهور محطّة البي بي سي العربية من الشرق الأوسط رسائل يتحدّثون فيها عن "رونق الكلام الذي يمسّ شغاف قلوب العرب"، ووصفه المعجبون على نحو غريب بأنّه "شبل العرب".(٦) وقد وصلت شهرة عيسى في العالم العربي مكانةً شامخةً حتى صار يدعى إلى استقبال كبار الزوّار، كالأمير السعودي فيصل بن سعود وأخيه الأمير خالد، وأصبح كلاهما لاحقًا ملِكين على المملكة العربية السعودية، وصديقين طيّبين لعيسى.

تحولّتِ الأنشطةُ المحظورةُ لبعض اليهود في فلسطين عام ١٩٤٤ إلى الاغتيالات السياسية، ففي السادس من تشرين الثاني من ذلك العام اشترك اثنان من عصابة شتيرن بقتل اللورد موين في القاهرة، وهو وزير دولة

بريطاني. وكانت هذه الحادثة هي الطلقةَ الأولى لما يُعرف باسم "الموسم"، وذلك لمّا انهمرت هجمات المتطرّفين اليهود على البريطانيّين، علمًا أنّ المعتدلين من اليهود قد ساعدوا بريطانيا في إلقاء القبض عليهم ومحاصرتهم، وصدرَ حكمٌ بالإعدام على قتلة اللورد موين، وقالا في المحاكمة إنّهما قتلاه لتحذير بريطانيا من التدخّل في الهجرة إلى فلسطين في المستقبل.

انتهت الحربُ العالمية الثانية في أوروبا في الخامس من أيّار ١٩٤٥، لكنّ القتال استمرّ في الشرق الأدنى حتى أعلنت اليابانُ استسلامَها في شهر آب. وفي بثٍّ حيٍّ للعالم العربي من ميدان ترافالجَر(*) في لندن، أشار والدي إلى احتمال اندلاع حرب عموميّةٍ أخرى إن لم يتعلّمْ القادةُ العِبَرَ من الحرب التي أدبرتْ. فاستُدْعي والدي على إثر هذا التعليق، وحضرَ أمام مدير المحطّات الأجنبية في البي بي سي، وقرّعه رسميًّا على ذلك.

اجتاحت قوّات الحلفاء أوروبا بأسرها، وانكشف الستارُ عن فظاعة الإبادة النازيّة المنظّمة لليهود بعد أن فُتحَت بوّابات معسكرات الاعتقال، وفُكَّ الأسرُ عن مئات الألوف منهم، ونُقلوا إلى مخيّماتٍ للمشرّدين، وقال الصهاينة للعالم إنّ لهم مكانًا واحدًا يريدون إليه ذهابًا.

(*) وهو الميدان المشهور باسم ميدان الطرف الأغر أو طرف الغار أحيانًا والواقع في وسط لندن (المترجم)

هوامش الفصل السادس عشر

(1) Alec Graydon, *The Details*, Ex Libris Books, 2003.

(2) Olive Renier and Vladimir Rubinstein, *Assigned to Listen*, BBC, 1986, P.146.

(3) George Mansur to Lord Lloyd, Middle East Centre, StAntony's College, Oxford, Barbour Papers Box II, File 3.

(4) Foreign Affairs Oral History Program, op. cit.

(5) W. Roger Louis and Robert W. Stookey (eds), The End of the Palestine Mandate, University of Texas Press, 1988, p. 36.

(6) Peter Partner, Arab Voices, BBC Publications, 1988, p. 61.

الفصل السابع عشر

المشرّدون

عُثِرَ في أحدِ الملّفات في مكتبة هاري ترومان في الولايات المتّحدة على اقتراح وضعتْه منظّمةٌ لليهودِ الأمريكيّين، تبيّن فيه ما يمكن تقديمه لأولئك اليهود الذين نجوا من المعسكرات النازيّة. ويعود تاريخ الاقتراح إلى الرابع من كانون الأول لعام ١٩٤٥، وفي ذلك إشارة إلى أنّ أصوات الاعتدال في المجتمع اليهوديّ كانت حاضرة في تلك الأوقات.

وَجَّهَ رئيسُ المجلسِ الأمريكيِّ لليهوديّة، ليسينج جي روزِنفالد، انتقاداتٍ شديدةً لإصرار الصهاينة على أنَّ اليهوديّةَ هي صبغةٌ وطنيّةٌ وصبغةٌ دينيّة في آنٍ معًا، وأكّد أنَّ فلسطينَ هي "مُلكٌ لأهلِها فقط، وليست مُلكًا لليهود قاطبةً". ويقول روزِنفالد: "إنّ مستقبل اليهود المشرّدين في أوروبا لا يزال غامضًا، وإنّ النازلةَ التي حلّت بهم معَ ما ينتظرهم من قسوة الشتاء، تبقى مأساةً فظيعة. ولكنّا نرى في الوقت ذاتِه أنَّ الأحوال في فلسطينَ قد وصلت إلى مرحلة تهدّدُ السِّلمَ العالميَّ؛ فقد انتقلنا من مرحلة التّهديد إلى مرحلة المقاطعة، ثم انتقلنا إلى تبادل الاتّهامات، ثمّ إلى أعمال الشغب وسفك الدماء، وتنذر التهديدات بمزيد من سفكِ الدماء... ولقد أزف الوقت لقطع الطريق على هذه التحوّلات الخطيرة"(١).

وقد استصدرَ المجلسُ قرارًا من الأمم المتّحدةِ يمنعُ أن تكونَ فلسطين مسلمة أو مسيحيّة أو يهوديّة، ولكنْ دولةً يكونُ لأهل الأديان جميعًا دورٌ فيها، وأن يُسندَ أمرُ التحكُّمِ بإجراءات الهجرة إلى ممثّلين عن جميع السكّان في فلسطين، يضعون في حسبانهم قدرة الدولة على استيعاب مواطنين جدد. ثمّ طالب المجلس بوجودِ هيئة دوليّة تشرف على إنشاء المؤسسات الضروريّة لبدء الحكم الذاتي في فلسطين. وهذه المقترحات معقولةٌ غير أنّ الصهاينة رفضوها كلّها.

وقدّمَ المجلسُ الأمريكيُّ لليهوديةِ مقترحاتٍ لمعالجةِ قضيّةِ المشرّدين اليهود، فرأى ضرورةَ أن يفهمَ من نجا من اليهود أنّ فلسطينَ ليستْ حصرًا على اليهود، وأن يُجرى استفتاءٌ بينهم على هذا الأساس لمعرفةِ الأماكن التي يفضّلون الانتقال إليها. وينتقل الأمر بعد ذلك إلى هيئةٍ دوليّةٍ تسعى إلى تنظيم عمليّة إعادة توطينهم، مع الالتزام قدر الإمكان بالآراء التي قدّمها الناجون في الاستفتاء.

إنّه بالفعل حلٌّ سهلٌ ومنطقيٌّ ومنصفٌ؛ لأنّ كثيرًا من الناجين من الهولوكوست لم يرغبوا في الذهاب إلى فلسطين، بل كانوا يفضّلون الهجرة إلى الولايات المتّحدة أو كندا أو بريطانيا، بيد أنّ تلك الدولَ التي اقتُرِح ذهابُ اليهود إليها عارضتْ هذا الحلّ، وألقت بأثقال هذا العبء على شعب فلسطين، فصار الفلسطينيون "ضحايا الضحايا" كما قال إدوارد سعيد. ومع أنه لا يدَ للعرب الفلسطينيين في ما جرى في الهولوكوست، لكنَّ بعضَ الناجين من تلك الفاجعة فَجَعوا الفلسطينيين لمّا حرموهم من حقّهم في حكم بلادهم.

زار مبعوثون صهاينةُ مخيّماتِ المشرّدين لتقديم "دعوة" لليهود للانتقال إلى فلسطين، فرموا في زيارتهم هذه حجرًا واحدًا، ليُصيبوا عُصفورين؛

الأول هو إيجاد مأوًى للناجين من الهولوكوست، والثاني تأسيس وطن قومي في فلسطين رغمَ أنفِ بريطانيا، وذلك بزيادة أعداد اليهود في فلسطين بأقصى سرعةٍ ممكنة. ولم يكن الصهاينة ليرضوا بأن يستوطنَ اليهودُ في أيِّ دولةٍ أخرى، واستعانوا أحيانًا بالتهديد والترهيب لإقناع يهود أوروبا باختيار فلسطين. وممّا يثير العجبَ أنّ جوريُن قد قال عام ١٩٣٨- لمّا بدأت تتسرّب أنباء معسكرات الاعتقال النازيّة- : "لو علمتُ أنّه يمكن إنقاذُ أطفال اليهود جميعِهم في ألمانيا لو أنّهم نُقِلوا إلى إنجلترا، أو نصفِهم فقط لو نُقِلوا إلى أرضِ إسرائيل، لاخترت الثاني على الأول؛ لأنّنا لسنا معنيّين بأعداد هؤلاء الأطفال وحسب، بل بالحساب التاريخي الذي يرتقب شعب إسرائيل"[٢].

أشرفَ على عمليّات الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين عددٌ من المجموعات الصهيونية في المخيّمات اليهودية، وهي مجموعات قدّمت معوناتٍ كبيرة للناجين، ولكنّها في الآنِ ذاته كانت تستقطب المزيد منهم ليهاجروا إلى الوطن القومي في فلسطين. وتطرّق جنرالٌ بريطاني يدعى السير فريدريك مورجَن إلى هذا الموضوع يومًا وكشف ما سُتِرَ من أمره، فانهال عليه وابلٌ من انتقادات اليهود في بريطانيا وأمريكا، حتى قال المجلس اليهوديّ العالميّ في بيان رسمي إنّ "ادّعاءات الجنرال مورجَن بشأن "نفوذٍ يهوديٍّ سريٍّ داخل أوروبا يهدفُ إلى هجرةٍ جماعيّةٍ كبيرةٍ إلى فلسطين هي محضُ افتراء." ثمّ أتى باحثٌ معاصر، اسمُه بيتر جروس، ليثبتَ أنّ مورجَن كان محقًا وأنّه قد وُضِعَتْ فعلًا "خطّةٌ محكمةٌ تخالفُ في نشاطها سلطاتِ الاحتلال المدنيّة والعسكريّة، وتهدف إلى نقل اليهود الناجين من أوروبا، طائعين أو مرغمين، إلى فلسطين" [٣].

وبالرّغم من الجهود التي بذلها الصهاينة في هذا الصدد فإنه لم يستجبْ لدعواتهم من بين الملايين الثلاثة من اليهود في أوروبا إلا عشرةٌ بالمئة، فانتقلوا من تلك البلاد واستقرّوا في فلسطين. وكتب مرّةً مبعوثٌ أمريكي إلى مخيّمات اليهود يدعى إيرل هاريسُن، تقريرًا للرئيس الأمريكي هاري أس ترومان، يقول فيه: "إنّ فلسطين هي الخيارُ الأول بلا ريب ولا منازع"(٥). وبعد انقضاء أشهرٍ اعترف ديفيد نايلز، أحد مستشاري الرئيس الأمريكي من الصهاينة المخلصين، أنّ هاريسُن لم يمتلك البراهينَ الكافيةَ لإثبات ما ادّعاه، فالوضعُ كان معقدًا، ولم يكن له أن يتوثّقَ من تقديره هذا بزيارة قصيرة قام بها إلى هناك؛ لأنّ هنالك عددًا كبيرًا من اليهود البولنديّين الذي أرادوا العودة إلى بولندا، ومثلهم من المناهضين للصهيونيّة الذين أبَوا الانصياعَ للضغطِ الصهيونيِّ للاستيطان في فلسطين (٦). ويطرح موريس إيرنست، وهو شخصيّة يهوديّة بارزة في نيويورك ولا ينتمي للصهيونيّة، سؤالًا يقول فيه: "ماذا كان سيحدث لو فتحت كندا وأستراليا وأمريكا الجنوبيّة وإنجلترا والولايات المتّحدة أبوابَها لبعض المهاجرين؟" ويجيب نفسه قائلًا: "لن يختار فلسطينَ سوى أقليّةٍ من المشرّدين من اليهود"(٧).

وقد أظهرتْ تقاريرُ الاستخبارات الأمريكيّة أنّ كثيرًا منَ اليهود الألمان الذين هاجروا إلى فلسطين هربًا من النازيّين، رغبوا بعد انتهاء الحرب في العودة إلى ألمانيا. وتساءل وزير الخارجيّة في الحكومة الجديدة لحزب العمّال إرنست بيفن، في جلسةٍ في مجلس العموم البريطاني، عن صحّة ما قيل عن "ضرورة إخراج اليهود من أوروبا". وحتى وينستن تشيرتشل، الصهيونيُّ الذي ناصر الصهيونية بكلّ عزمه على مدى ثلاثين سنة مضت، قد قال يومًا: "إنّ الفكرة التي تدّعي أنّ حلّ المشكلة اليهوديّة أو التخفيفَ منها يكمن في إغراقِ فلسطينَ بأمواج الهجرةِ اليهوديّة من أوروبا لفكرةٌ سخيفةٌ لا تستحق أن تسلبَ منّا وقتنا في المجلس في هذا النهار"(٨). ولم يلنْ مع هذا إصرارُ المنظّمات الصهيونيّة الرسميّة في بريطانيا والولايات المتّحدة على أنّ بقيّة اليهود في أوروبا يرغبون في العيش في فلسطين، وأنّ هذا هو العلاج الوحيد لحالتهم البائسة.

تضمّنتْ جولةُ اللجنةِ الخاصّةِ للأمم المتّحدة بشأنِ فلسطين زيارةً إلــى مخيّمات المشرّدين في أوروبا، وقال أحد المسؤولين الصهاينة في أحد هــذه المخيمات إنّه يَعُدُّ يهودَ أوروبا جميعَهم "مواطنين فلسطينيين فــي المنفــى"، ويحتِّمُ هذا الرأيُ التعاملَ مع فلسطين على أنَّها ذات أغلبية يهودية- أو أغلبيةٍ مُنتَظَرة.[١٣] وأخبره حاخام يعمل في أحد المخيّمات عن المــصاعب التــي تكبّدها أثناء سعيه لإقناع الدول لاستقبال اليهود الذين يرغبون فــي العــيش فيها، وقال: "لقد طوّفتُ العديد من العواصم حول العالم لحشد الدعم لقضيتي، ولقد لمست التعاطف منهم إلا إنني لم أحصل علــى أيٍّ نتيجــة."[١٤] ولكــنّ اللجنة وضعت يدها على بعض الأدلّة التي تثبت أنّ الأشخاص الذين يديرون هذه المخيّمات يتواطؤون مع الجماعات الصهيونية التي تتولّى أمرَ الهجــرة غير الشرعية إلى فلسطين، وهذا أمر دفع أحد الصحفيين إلى توجيه ســؤال إلى مسؤولين في المنظّمة الدولية للاّجئين عن مجموعة من الأطفال الــذين فُقِدوا من المخيّم، ثمّ تبيَّنَ أنّهم على ظهر ســفينة تحمــل مهــاجرين غيــر شرعيين، فكان جواب المسؤولة الرسميّة أنَّ الأطفالَ قد ذهبوا فــي نزهــة ولكنَّهم لم يعودوا.

"أليس مُستَهجَنًا حقًّا أنْ تسمحوا للأطفال بالذهابِ فــي رحــلات تنــزّه وحدَهم؟ أليستْ لديكم احتياطات أمنية؟ وهل صَعُبَ على أحد الموظّفين هنا مرافقتهم؟"

هزّتِ المسؤولةُ رأسَها وقالت: "أرسلْنا معَهم أحــدَ أعــضاء كادرنــا، ولكنَّه لمْ يَعُدْ أيضًا"[١٥].

غنى عنه. وقد طلبت المنظّمات الصهيونيّة من المجتمعات اليهودية في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا، وهي الدول التي كانت محطّ أنظار اليهود في أوروبا، أن يُحجموا عن الضغط على حكوماتهم لإدخال اليهود إليها، مع العلم أنّ السماح لهجرة مزيد من اليهود إلى أمريكا مثلًا كان يستلزم ممارسة ضغوط كبيرة على الحكومة هناك؛ لأنَّ أمريكا قد تجنّبت أن تبذل جهدًا خاصًّا لإيواء اليهود إليها، على الرغم ممّا تسرّبَ من أنباء الجرائم النازيّة طيلة مدة الحرب.

وفي العام الذي سبق غرق السفينة باترياء، رفضتِ الولايات المتّحدة إدخالَ ٩٠٠ يهودي كانوا قادمين من ألمانيا على متن سفينة تدعى سانت لويس، وأرغموا السفينة على أن تعود أدراجها إلى ألمانيا، إلى نيران النازية التي يحاولون الفِرار منها. ورفضت الولايات المتحدة في بداية الحرب طلبًا سويديًا لإيواء ٢٠،٠٠٠ طفل يهودي من ألمانيا، وأبتْ كذلك أن تفتحَ ألاسكا المتجمدةَ أمام الهجرة اليهودية. وقد حذّر الجيش الأمريكي في مذكّرةٍ بعد الحرب من السماح لليهود بالدخول إلى المنطقة التي احتلتها أمريكا في ألمانيا، وجاء فيها: "كلّ يهوديٍّ صاحب مبدأ صهيوني يحلُّ في المنطقة الأمريكية هو مصدر قوّة خفيٌّ لموسكو". وكان ذلك انعكاسًا لتصوّرٍ راسخ يرى تورّط يهود روسيا في الثورة الروسيّة.

تزامن وصول حزبِ العمّال إلى سدّة الحكم بتفوّقٍ هائلٍ في بريطانيا عام ١٩٤٥، مع تولّي هاري أس. ترومان رئاسةَ الولاياتِ المتّحدةِ الأمريكيّة، بعد أن فجأ الموتُ الرئيسَ روزفلت. وممّا يندى له الجبينُ أنّ فهمَ ترومان لفلسطين لم يكن أفضلَ من فهم سابقه، فلمّا وفد إليه بعض السفراء العرب من الشرق الأوسط ليوضّحوا له بعض الجوانب الدقيقة في القضيّة الفلسطينية رفضَ ما جاؤوا به وقال لهم: "عذرًا أيّها السادة، إنّ الواجب يحتّم

عليّ أن ألبّي مطالب مئات الآلاف التوّاقين لنجاح الصهيونية، ولا أجد بين شعبي مئات الآلاف من العرب"[٩].

جلبتِ الحكومتان الجديدتان في بريطانيا والولايات المتّحدة مع مقدمهما مجموعةً جديدة من التساؤلات واللجانِ والتحقيقاتِ بشأن القضيّة الفلسطينية، فزارت فلسطينَ عام ١٩٤٦ لجنةُ تحقيقٍ بريطانيّة أمريكيّة، في وقت كانت الأنشطة الإرهابيّة اليهوديّة ضدّ بريطانيا في تزايد كبير. ففي الثالث والعشرين من نيسان من ذلك العام هاجمت قوّة مسلّحة من الأرجون مخفرًا للشرطة البريطانية، وخطفت واحدًا من هناك، وقتل بعد يومين سبعةٌ من المظلّيين البريطانيين على أيدي عصابة شتيرن. وقال أ.ج. شيرمان: "على الرغم من الاستنكار الرسمي للإرهاب في المجتمع اليهوديِ فإنَّ السكانَ أبوا أن يفصحوا عن معاقل الإرهابيّين أو هُويّاتهم... وتعجّبتْ قوّات الجيش والشرطة البريطانيةِ من طبيعة هذا الولاء وأحبطَها ذلك، وأغضبَها ما رأتْه من تناقضٍ بين ما تُظهره الوكالة اليهوديّة أمام العامّة وما في جعبتهِم من معلومات، إذ تبيّن لهم لمّا اخترقوا شيفرة سريّةً للوكالة وجودُ تعاون بين مسؤولين فيها وبين قادة في قوّات الهاجانة، إن لم يكن قد تعاونت أيضًا مع عصابات شتيرن والإرجون"[١٠].

وقد وقفَ بن جوريُن شاهدًا بين يدي لجنةِ التحقيق البريطانية الأمريكية، وسألتْه إن كانت الوكالة اليهودية والهاجانة قد قدمتا دعمًا لأنشطة التخريب ضدّ قوّات الجيش والشرطة البريطانية، فكذَب وأنكرَ بشكل قاطع أيَّ صلةٍ للجهتين بتلك الأفعال [١١].

عادتِ اللجنةُ من الشَّرقِ الأوسطِ وقد وضعتْ مجموعةً من التوصيات تحثّ على فكّ القيود عن الهجرة وإنشاء دولةٍ بقوميّتين، إلا أنّ بريطانيا

وقفت لهذه الفكرة بالمرصاد. فجاءت من بعد ذلك بخطّة تعرف باسم خطّة موريسُن-جريدي، التي وضعها هيربرت موريسُن، نائب رئيس الوزراء البريطاني، وسفير أمريكي يدعى هنري جريدي، وأوصت الخطّة بإدخال ١٠٠,٠٠٠ يهودي، وتطبيق الفدرالية في فلسطين ليكون لليهود فيها مقاطعة صغيرة ومقاطعة كبرى للعرب، فلاقت هذه التوصيات قبولًا عند الحكومتين البريطانية والأمريكية، بيد أنّ الصهاينة قابلوها بالرفض.

أغضبَ وزيرُ الخارجية البريطانيُّ إيرنست بيفن الأمريكيين في شهر حزيران من عام ١٩٤٦ لمّا قال إنّ اقتراح الأمريكيّين نقلَ ١٠٠,٠٠٠ يهودي إلى فلسطين نابع من "عدم رغبتهم في وجود العديد منهم في نيويورك."[١٢] وقد زادتْ هذه الحقيقةُ المرّة من مرارةِ العلاقات بين حكومتي بريطانيا والولايات المتّحدة في كلّ ما ارتبط بالقضيّة الفلسطينية. فردّ الأمريكيّون بانتقاد بريطانيا لِمَا تفرضه من قيودٍ على هجرة اليهود إلى فلسطين، فتفجّرَ الحنقُ في صدر عضو البرلمان البريطاني ريتشرد كرُسمان (مع أنه صهيوني) وقال: "ما الذي يدفعُ هؤلاء الناسَ أن يتكلّموا وهم في بحبوحة من الأمن عبر الأطلسي، لينالوا من دولتي لأنّها رفضتْ أن تخوض حربًا مع العرب نيابةً عن اليهود؟... إنّ أمريكا لم تُبْدِ استعدادًا لاستقبال اليهود من أوروبا، أو المخاطرةِ بحياة جنديٍّ أمريكيٍّ واحدٍ في فلسطين"[١٣].

عَمِدَ المتطرّفون الصهاينةُ طيلة هذه المدّة في فلسطين إلى بذل مزيد من الضغوط، فقاموا بسلسلة من الهجمات الإرهابيّة الأكثر وحشيةً ضدَّ الإدارةِ البريطانيةِ وجيشِها هناك، مع أنّها لا تسعى إلّا لحفظ الأمن. ففي أحد الأسابيع من شهر تشرين الثاني عام ١٩٤٦ قُتِلَ في فلسطين تسعةَ عشر شخصًا (أحد عشر بريطانيًّا وثمانية عرب) بسببِ الألغام الأرضيّة والحقائب المتفجّرة التي زرعها الإرهابيّون اليهود. وهاجموا بعد شهرين أيضًا خمس

مدن أخرى، مستخدمين القنابل والأسلحة الرشّاشة وقاذفات اللهب، وفي الشهر ذاته أعلنَ متحدّثٌ باسم الهاجانة بكل فخرٍ أنّ مئتي ألفِ يهوديٍّ قد تمكّنوا من الهجرة إلى فلسطين بطريقة غير شرعيّة في غضون خمسةَ عشر شهرًا مضت.

نشطت في فلسطين ثلاثُ منظمات يهوديّةٍ ذاتُ نظامٍ عسكريٍّ، تسعى كلٌ واحدة منها بطريقتها إلى مهاجمة الجانب البريطاني، وأكبرها هي الهاجَانة، وهي قوّة منظّمة تنظيمًا جيّدًا، ولديها من الموارد الشيء الكثير، ونفّذتِ عددًا كبيرًا من العمليات ضدّ بريطانيا، ومنها تحرير المهاجرين اليهودِ المحتجزين في معتقل عتليت، وهي التي فجّرت شبكةَ القطارات في الدولة، وشنّتِ حملات تخريب عديدةَ على مراكز الشرطة البريطانية في فلسطين، وساعدت في تنظيم حركة الهجرة غير الشرعية إليها. غير أنّها حرصت دائمًا على أن تظهر بصورةٍ أخلاقيّة، بخلاف عصابتي الإرجون وشتيرن، ولم تكن لتحجم عن الأعمالِ الإرهابيّة إلاّ لأسباب سياسيّة بحتة لا علاقةَ لها بالأخلاق؛ لأنّها كانت ترى أنّ قتلَ الجنود والمدنيّين بدمٍ باردٍ سيؤثّر سلبًا في علاقاتها العامّة.

* * *

عاد أبي إلى فلسطينَ بعدَ أن وضعتِ الحربُ العالميةُ الثانيةُ أوزارَها، وهي المرّةُ الأولى منذ عشرِ سنوات تقريبًا، ولم تكن أفضلَ مكان ليمكث الإنسان فيه. وحيالكَ وصف للحال هناك على لسان لجنةٍ من الأمم المتّحدة زارت فلسطين فتقول:" تسيطر على الأجواءِ في فلسطينَ اليومَ حالةٌ عميقةٌ من التوتّر، وكأنّ الدولة في غير جانبٍ تعيشُ ضمنَ نظام شبه عسكري، فترى الشوارع في القدسِ وسواها من المناطق الأساسيّة تقسّمُها حصونُ الأسلاك الشائكة، وترى حواجزَ الطرق ومنصّات الأسلحةِ الرشّاشةِ

والدوريّات العسكريّة المدجّجة، وهذا كلّه يبدو جزءًا من الإجراءات الوتيريّة اليوميّة. أمّا المناطقُ غير الآمنة، فيمكث المسؤولون الإداريّون وأفراد الجيش فيها ضمن معسكرات أمنيّة لا تنقطع عنها الحراسة، ويعملون في مبانٍ محصّنة تخضع للمراقبة المشدّدة. وكانت حريّة التنقّل محدودة جدًّا، وصار حظر التّجوال وقانون الطوارئ من الأمور المعتادة في الحياة هناك"(١٤).

تلقّى عمّي غسّان، الذي يعمل ضابطَ جمارك في حيفا، إتصالًا بالهاتف من أخيه عيسى يخبره أنّه وصلَ الساعةَ إلى فلسطين، وأنّه سيمكثُ في القدس، وأخبره عيسى كذلك أنّه سيأتي إلى حيفا بسيارة أجرة، وحدّد له الموعد باليوم والساعة. طربتِ العائلة فرحًا بالخبر الذي انتشر سريعًا بين الناس، واجتمع في تلك الساعة التي حدّدها عيسى جمعٌ غفير من الناس، وانتظروه خارج مكتب التاكسي، فقد امتلك عيسى في ذلك الحين شهرةً واسعة في الشرق الأوسط كلّه، وكان في انتظاره أعدادٌ كبيرة من أفراد العائلة الأقارب وغيرهم ممّن تبعد قرابتهم به، بالإضافة إلى كثيرٍ ممّن يحبّه ويتمنّى له الخير. وقال لي غسّان: "تجمّع هناك قرابة مئتين، أو ثلاثمئة، أو قلْ أربعمئة أو خمسمئة شخص- الله يعلمُ كم عددهم... توقّفتْ حركة السير، وتوقّفَ معها كلّ شيء، وذهبنا إلى مكتب التاكسي لنستقبل عيسى ونزفّهُ إلى البيت." غير أنّ أبي لسوء الحظّ أجّلَ رحلتَه إلى حيفا؛ لأنّ إذاعة البي بي سي استدعتْه لإحدى المهام في اللحظة الأخيرة، فاضطر لتأجيل رحلته إلى اليوم التالي، واستقبله حشد أصغر "لم يتجاوز مئتين تقريبًا"، على حدّ رواية عمّي غسّان.

أصبح ابن عمّ أبي، حسيب، رجلَ أعمال ناجحًا في حيفا، وكان قد بدأ أعماله عام ١٩٤٥، فأنشأ شركة هندسيّة أسماها شركة اتّحاد المقاولين (Consolidated Contractors Company)، ودخل معه عددٌ من الشركاء.

وبالرغم من المصاعب العديدة في الطريق- وأوّلها زوال فلسطين- فإنّه لا يزال إلى اليوم(*) مديرَ هذه الشركة التي تدرُّ أرباحًا سنويّة تبلغ مليارًا وأربعمئة مليون دولار (١٥).

فندق الملك داود في القدس بعد قيام الإرهابيّين اليهود بتفجيره عام ١٩٤٦، وقتل في الحادثة واحد وتسعون شخصًا.

باعتْ جهودُ الأطرافِ السياسيّة واللجانِ الحكوميّة جميعِها بالفشل، ولم ينجمْ عنها أيُّ تقدّم، وأضحى الوضع في فلسطين ينحدرُ من سيّءٍ إلى أسوأَ منه، بالرغم من اعتقال عدد كبير من المتّهمين بالإرهاب. أمّا في لندن،

(*) توفي حسيب صباغ في شهر كانون الثاني من عام ٢٠١٠ ودفن في بيروت. (المترجم)

فما زال للصهيونيّةِ السياسيّةِ أنصارُها في على مقاعدِ البرلمان؛ ففي مجلس العموم البريطاني، وفي شهر تموز تحديدًا، وقف ريتشرد كروسمان، وقال: "لا يمكن أن نكسب تأييد أيّ يهودي في أيّ مكان ليقدّم دعمه للحكومة إن ذهبنا نعتقل آلافًا من إخوانهم، ويستحيلُ أن تجهض حركة مقاومة يدعمها السكّان."(١٦) وهذا الكلامُ ينطبقُ على الوضع في فلسطين في وقتنا هذا.

صودرتِ أعدادٌ كبيرة من الأسلحة، واكتُشِفَتْ مخابئُ لها في فلسطين، ووصلت إلى ميناء حيفا المزيدُ من السفن المحمّلة بالمهاجرين غير الشرعيّين، فأُعيدوا من حيث أتوا، وفُرِضَت قوانين حظر التجول، وجرت اعتقالات جماعيّة في المناطق اليهوديّة، وتفجّرت الألغام الأرضية من تحت السّيارات الرسميّة، وأُلقِيَتِ القنابلُ على الأهداف البريطانيّةِ خارجَ فلسطين. وقد طلبتِ الحكومةُ البريطانيةُ في شهر شباط من عام ١٩٤٧ إلى الوكالة اليهوديّة أَنْ توجِّهَ نداءً للمجتمع اليهودي للتعاون مع الشرطة والجيش ليَلْقى الإرهابيّون جزاءَهم أمام القضاء. فرفضتْ جولدا مائير، نيابةً عن الوكالة اليهودية، هذا المطلب، وأعلنَتْ ذلك على رءوس الأشهاد. ومعلومٌ أنَّ مائير ومناحيم بيجن (زعيمي الإرجون)، وإسحاق شامير، وبن جورين قد تبوّءوا منصبَ رئاسة الوزراء في دولة إسرائيل، والغريبُ أنه جُنَّ جنونُهم وهم في ذلك المنصب لمّا لجأ بعضُ العرب الفلسطينيين إلى الإرهاب.

حصل تنسيقٌ في أحيانٍ عديدةٍ لبعض الأنشطة بين الهاجانة وعصابة الإرجون وشتيرن، واتضح ذلك لمّا فجَّرتْ عصابةُ الإرجون فندقَ الملك داود في القدس، وكان مقرَّ الإدارة البريطانية وقتذاك. وقد وضع الخطّةَ أوّل مرّة عصابةُ الإرجون (بقيادة مناحيم بجين)، إلّا أنّ الهاجانة رأت الخطّةَ مبالِغةً في طموحها، ثمّ عدَلَتْ عن رأيها ووافقت على الخطة بعد أنْ داهمتِ القوّاتُ البريطانيّةُ مقرَّ الوكالة اليهوديّة، واعتقلوا عددًا من قادتها. وكشفَ الجيش

البريطانيُّ في تلك العمليّة عن وثائق تُثبِتُ تعاونَ الهاجانـــة مـــع عـــصابة الإرجون، وهي حقيقةٌ أنكرَها بن جورين زمنًا طويلًا. وقد نُقلَتْ هذه الوثائق إلى فندق الملك داود، فرغبتِ الهاجانة في التخلّص منها قبل أن يُكْشَفَ عـــن تفاصيلها بشكل أعمق.

بعد يومين من عملية المداهمة، وفي الأيّام الأخيرة من شهر حزيـــران ١٩٤٦، تلقّى بيجن الإشارةَ الخضراءَ من قيادةِ الهاجانـــة، ونفّـذَتْ عمليـــةُ التفجير بعد ثلاثةِ أسابيعَ فقط، إذْ أدخلَ الإرهابيون إلى الطابق الـــسفليِّ مـــن الفندق عددًا من مماخض الحليب المعدنية المليئةِ بالمتفجّرات، ودمّروا جناحًا بأكمله من المبنى، وقُتِلَ في التفجير واحد وتسعون شخصًا من البريطـــانيين والعرب واليهود، وأصيب سواهم. وقد كتب بيجن في مذكّراته يقـــول: "لقـــد فُجِعْنا بمقتل المدنيّين الغرباء الذين لم نقصدْ إيذاءهم، وبسقوط خمسة عـــشر من اليهود المدنيين الذين ابتُلينا بمقتلِهم." نفت عصابة الأرجـــون والهاجانـــة مسؤليّتهما عن العمليّة وما خلّفت وراءها من القتلى والجرحى، وقـــالوا إنّـــه كان يتوجّب على الإدارة البريطانية أن تخلي المبنى بعد أن تلقّـــتْ تحـــذيرًا بالهاتف قبل ربع ساعة من التفجير، ولكنّ الإدارة البريطانية كانت تتلقّى مثلَ هذه التحذيرات يوميًّا، ولم يكن هنالك ما يفرّق بين هذا التحذير وما سبقه من البلاغات المضلّلة.

ثمّة أمر طبيعي يترتبُ على مثل هذه الأفعال الإرهابيّة، ألا وهو تأجّجُ الصراع. فقد أجرت الواشنطن بوست مقابلة في حقبة الثمانينيات مع عربـــيّ فلسطينيّ، حُكِمَ عليه بالسجن ثمانية عشر عامًا في إسرائيل لارتكابه أعمالًـــا إرهابيّة، وتبيّن أنّ والد هذا الرجل كان من بين من قُتِل في الهجوم اليهوديّ الإرهابيّ على الفندق عام ١٩٤٧ (١٧).

رمى وزيرُ الخارجية البريطاني، إيرنست بيفن، آخرَ سهم في كنانته لإنقاذِ الحالة المتدهورة في البلاد بداية عام ١٩٤٧، وطــرح خطّــةً جديــدةً أخرى لفلسطين تنادي بتمديد السيطرة البريطانيّة على البلاد لخمس ســنوات تحصل فلسطينُ بعدَها على استقلالها. وارتأتِ الخطّةُ ضرورة السماح بهجرة ١٠٠,٠٠٠ يهوديّ، وتأسيس مجلس استشاري عربي يهودي مشترك. فرفض العرب واليهود الخطّة، ودعت الحكومة البريطانية إلى جلسة خاصّة للجمعيّة العامّة في الأمم المتّحدة للنظر في الإرهاب اليهودي المتزايد في فلــسطين، وهيَ منظمةٌ شابّة بعد، لم تبلغ سوى عامين من عمرها في ذلك الحين، فهي وليدةُ عصبة الأمم التي كان قبولُها لقانون الانتداب الذي يستحيل تطبيقه أحدَ أسباب المشكلة من أساسها، وها هي ذا المنظّمة الجديدة تواجه أولَ اختبــار حقيقي لها.

هوامش الفصل السابع عشر

(1) Proposal from Lessing J. Rosenwald to President Truman at their meeting in the White House, 4 December 1945, Truman Presidential Museum and Library <http://www.trumanlibrary.org/ whistlestop/study collections/israel/large/ documents/ index. php ?pagenumber= 1 &documentdate= 1945-1204&documentid=67 &coliectionid=ROI>

(2) Shabtai Teveth, Ben-Gurion: The Burning Ground,1886-1948, Houghton Mifflin, Boston, 1987, pp. 855-6.

(3) Peter Grose, Israel in the Mind of America , AlfredA. Knopf, 1983, pp. 209-10.

(4) Ilan Pappe, *A History of Modern Palestine*, Cambridge University Press, 2004, p. 119.

(5) W. Roger Louis and Robert W. Stookey (eds), The End of the Palestine Mandate, University of Texas Press, 1988, p. 42.

(6) Ibid.

(7) Grose, *Israel in the Mind of America* ,p. 196.

(8) Ibid.

(9) Richard H. Curtiss, A Changing Image, American Educational Trust, 1982, p. 30.

(10) A. J. Sherman, Mandate Days, Thames and Hudson, 1997, p. 177.

(11) Menachem Begin, *The Revolt*, Henry Schuman, 1951, p. 215.

(12) Sherman, Mandate Days, p. 178.

(13) Ibid., p. 189.

(14) United Nations Division for Palestinian Rights, The Origins and Evolution of the Palestine Problem: 1917-1988, PART II 1947-1977, U nispal website, <http://domino . un. org/unispal. nsf/>

(15) Mary-Jane Deeb and Mary E. King (eds), Hasib Sabbagh: From Palestinian Refugee to Citizen of the World, Middle East Institute, University Press of America, 1996, p. 34.

(16) Martin Gilbert, Exile and Return, Weidenfeld and Nicolson, 1978, p.286.

(17) Edward W. Said and Christopher Hitchens (eds), Blaming the Victims, Verso, 1988, p. 120.

الفصل الثامن عشر

لجنة فلسطين الخاصّة واللصوص

زرتُ قلعةَ عكّا صبيحةَ أحد أيام أيلول عام ٢٠٠٣، وهيَ القلعةُ التي كانت يومًا حصنَ ظاهر العمر، وهي الآن مَعْلَمٌ سياحيٌّ إسرائيليّ. طوّفتُ بنظري في الساحات النظيفةِ عند القلعة، فرأيتُ مجموعةً من أطفال المدارس اليهود، وزمرةً صغيرةً من السيّاح اليابانيّين مع المرشد السياحيّ، ورأيت البستانيَّ يسقي أحواض الزهور. فقلعةُ عكا تُفتَحُ للزائرين على أنّها متحف، على الرغم منْ أنَّ جزءًا صغيرًا منها فقط يعود لحقبةٍ ما قبل القرن العشرين. أمّا الجناح الأساسي الذي أُعِدَّ هناك فهو متحف "البطولة" الذي يخلّد ويُكبِرُ الأعمالَ التي نفَّذَها اليهودُ ضدَّ بريطانيا في أربعينيات القرن العشرين.

كانت القلعةُ في ذلك اليومِ مُغلقةً لترميمها، إلاّ أنّ واحدًا من الموظفين الُلبقين هناك أخبرني أنّهم لمّا يغلقوا بعدُ تلكَ القاعةَ التي تحتوي على المقاصلِ التي استخدَمها البريطانيّون لتنفيذ أحكام الإعدام، فقادتني إلى هناك فتاة ترتدي زيًّا رسميًّا داكنَ الزرقة، ونشَزَتْ بنا الطريقُ حتّى خرجْنا إلى باحةٍ أخرى، ثمّ دخلْنا من بابٍ حديديٍّ عظيم، وصعِدنا بعضَ الدرجات، لنَلِجَ

إلى رُدْهَةٍ رأيتُ على جدرانها صورَ تسعةٍ من اليهود وُصِفوا بـ"الشهداء"، نُفِّذَ فيهم حكمُ الإعدام في الغرفة المجاورة أيام حكم الانتداب البريطانيّ. ويتدلّى من سقف الغرفة ربقة حبلِ المشنقة، ووضعت بشكلٍ متقنٍ كي يَظهرَ معناها المشؤومُ على صفحة الحائط. وكانت أرضيّة الغرفة خشبيّة يتوسّطُها بابٌ له مصراعان وينتهي إلى أرضيّةٍ حجريّةٍ على عمقِ خمسةِ أقدامٍ أو ستّة، ورأيت علَمَ إسرائيل في إحدى الزوايا، ومصباحًا على صورة شمعةٍ قرب الباب.

سألتُ الدليلَ التي حضرتْ معي عن "الشهداء" التسعةِ الذين تظهر صورهم في الغرفة المجاورة، فقلت لها: "لماذا تعدّونهم "شهداء"؟ ألم يقتلوا الناس؟" فاشتدّ غيظها وأغضبَها كلامي، وقالت على الفور: "كلاً! لم يقتلوا أحدًا." وصمتَتْ، ثمّ استدركتْ وقالتْ: "واحدٌ منهم قتلَ شخصًا عربيًّا..."

تتوالى أجيالُ الإرهابيين الذين يقلّدون ما فعله اليهود ضدَّ البريطانيين والعرب في فلسطين في الأربعينيات، ومنهم عناصرُ من منظّمة التحرير الفلسطينية وحماس وكتائب الأقصى وتنظيم القاعدة.(*) فهذه الجماعات لا تختلف عن عصابتي الإرجون وشتيرن، لأنها لا تنظر إلى ضحايا أعمالِهم

(*) جدير بالذكر أنّ أول حادثة اختطاف طائرة مدنية هي تلك التي نفّذتها الحكومة الإسرائيلية عام ١٩٥٤، وذلك لمّا حاولت أن تطلق سراح اثنين من جواسيسها من قبضة سوريا، فاختطفتْ طائرةً مدنيّةً سوريّة، واحتجزت من فيها من الركّاب الآمنين رهائنَ لديها.

بالعين ذاتِها التي ينظرون بها إلى أنفسهم. وحال الضحيّة الذي قتلَه اليهوديُّ الذي شُنِقَ في عكّا بعد أن ظنَّ أنّه هدفٌ مشروعٌ لأداةِ قتله لأنّــه "شــخص عربي"، مثلُ حالِ الضحايا الذينَ قُتِلوا في هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، والذين عدّهم الإسلاميّون المتطرّفونَ أهدافًا شــرعيّة لعمليّــتهم بالنظرِ إلى "غيريّتهم" ولا شيءَ غير ذلك. بيد أنّ هنالك جانبًا آخرَ للإرهاب الحديثِ ترجِعُ أصوله إلى الإرهابِ اليهوديِّ في الأربعينيات، وهو الاعتقــادُ بأنّهُ الوسيلةَ التي ستجدي نفعًا أو تحدثُ تغييرًا. فما حصل في فلسطين فــي نهاية الأربعينيات يثبتُ أنَّ الأفعال الوحشيّةَ قد اضطرّت الحكوماتِ "لتخضع للإرهاب"، بعد أن زعمتْ أنّها لن تفعل ذلك.

وتناولتِ الجمعيّةُ العامّةُ للأممِ المتّحدة في مباحثاتها بشأن فلسطين عــام ١٩٤٧ قضيّةَ اللاجئين اليهود، ونَظَرَتْ فيما إذا ما كانتْ مشكلتهم مرتبطــةً بوضع فلسطين في المستقبل. فاعترضَ أحدُ المندوبين الأوروبيين على هــذه الفكرة وقال: "إنّ الجميعَ هنا يعلمُ أنَّ الربطَ بين هاتين المشكلتين ســيجعلهما تستعصيان على الحلّ، وواضحٌ أنَّ المأساةَ المروّعةَ لليهود المــشرّدين فــي أوروبا تحثّنا على إيجاد مخرج لقضيّة فلسطين ما دامت هي المكانَ الوحيــدَ الذي يراه اليهود وطنًا لهم. إنّ مسألةَ التشرّد اليهوديّ ستنتهي لــو منَحَــتِ الدولُ الأعضاءُ للاجئين اليهود وطنًا مؤقّتًا أو دائمًا"[1].
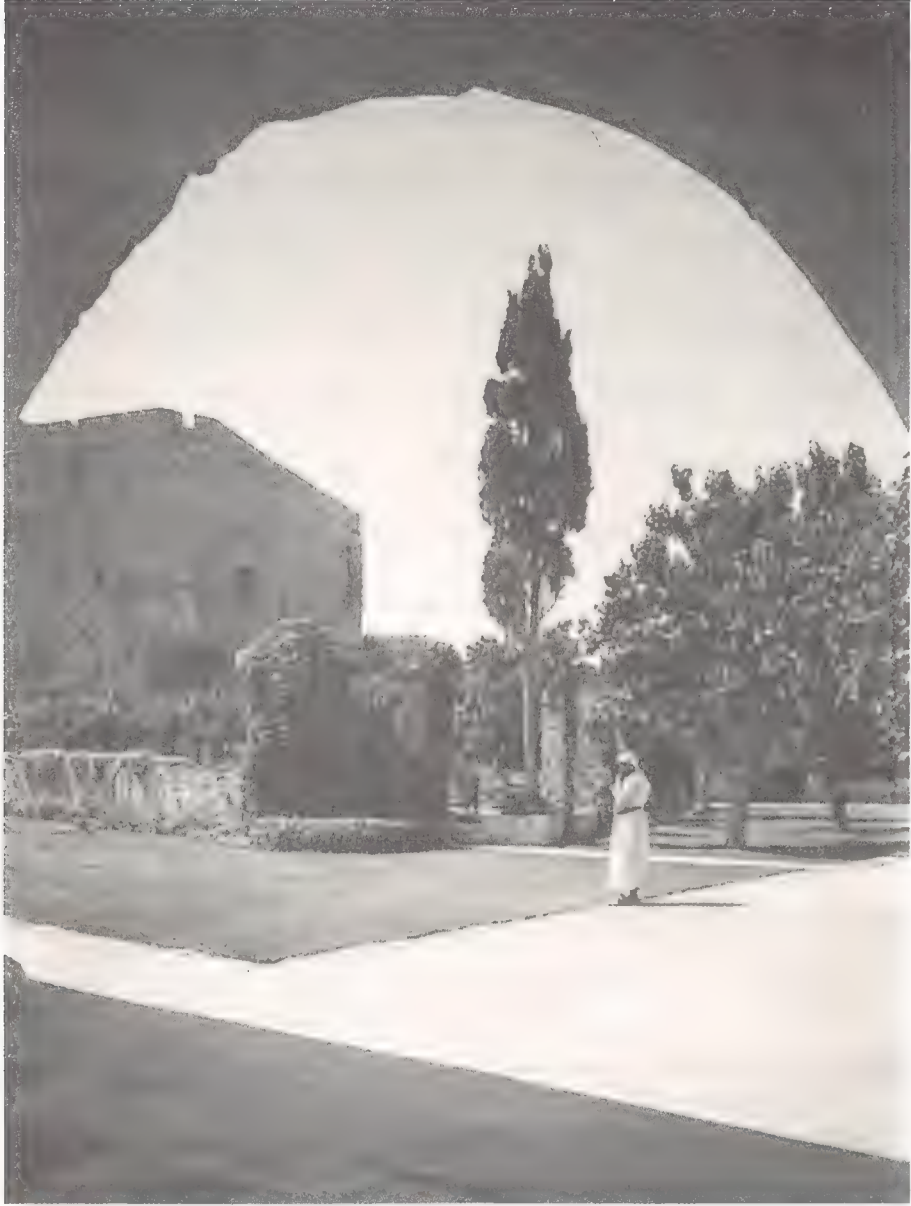
قلعة ظاهر العمر في عكّا، والتي حوّلتها الإدارة البريطانية إلى سجن للإرهابيين اليهود.

وردّ أحد المندوبين العرب وقال: "إنّ العرب في فلسطين ليسوا مسئولين بشكل من الأشكال عن اضطهاد اليهود في أوروبا، وهو اضطهادٌ شجبه العالمُ المتحضّرُ بأسره، والعرب ينضمّون إلى جموع المتعاطفين مع من اضطُهِدَ من اليهود. لكنّ حلّ القضيّةِ لا يقعُ على عاتقِ فلسطين، وأنّى لها ذلك وهي الدولةُ الصغيرةُ التي ناءتْ بأولئك اللاجئين وغيرهم منذ عام ١٩٢٠ إنّ أيّ دولة بيننا تتعاطف مع اليهود لها سعةٌ في أرضها أكثرَ من فلسطين، ولها من القدرات ما يمكّنها من استيعاب هؤلاء اللاجئين ومساعدتهم"[٢].

صَمَّتِ الآذانُ عن سماعِ هذا الرأيِ السليم، وصوّتَ الأعضاءُ في الجمعية العامّة أوائل عام ١٩٤٧ على قرار لإرسال لجنةٍ أخرى إلى فلسطين لتحدّدَ توصياتِها الجازمةِ للوصول إلى الطريقة الأنسبِ للتعامل مع قضيّةِ فلسطين، وقد أكّدت اللجنةُ في تقريرها أنّ قضيّةَ اللاجئين اليهودِ وثيقةُ الارتباطِ بفلسطين.[٣] واشتملتِ اللجنة الخاصّة في الأمم المتّحدة بشأن فلسطين (UNSCOP) على أحد عشر مندوبًا من الدول الأعضاء في الأمم المتّحدة، وتوجّهوا لزيارة فلسطين وأوروبا في ربيع ١٩٤٧، متسلّحين "بكامل الصلاحيات التي تمكّنهم من التحقّقِ من المعلومات وتسجيلِها، والتحقيق في جميع المسائل والشئونِ المتعلّقة بقضيّة فلسطين."

رفضَ العربُ الفلسطينيّون التعاملَ معَ هذه اللجنة كذلك؛ لأنّهم رأوا أنّها ما قامتْ إلاّ لإيجاد وسيلةٍ لنقلِ أكبرِ عددٍ من يهودِ أوروبا إلى فلسطين. وما زال العرب في تلك اللحظة يناهزُ تعدادُهم ثلثي السكّان، على الرغم من الهجرةِ الجماعيّة الضخمةِ إليها طوال عقد من الزمن، وهي هجرة لم تكنْ كلّها شرعيّةً. أمّا الصهاينةَ فوجدوها فرصةً أخرى لتأكيد ادعائهم بحقّ لهم في هذه الأرض منذ ٤٠٠٠ سنة.

انتقدَ ديفيد بن جوريُن بريطانيا لأنَّها قصَّرت في تسليم فلسطينَ لليهود، وقال: "إنّ فلسطين هي حقٌ لنا كلُّها". وردّتِ الحكومةُ البريطانيّةُ على ذلك أمامَ اللجنة الخاصّة بأنها ملتزمةٌ بإعلان بلفور، وأنها أسّستِ "الوطنَ القوميَّ" في فلسطين، والذي استقرَّ فيه عددٌ كبيرٌ من اليهود، وقالت بريطانيا: "إنّ إنكارَ هذه الحقيقةِ وكفْرَها والعجزَ عن إدراكِ سببٍ واحدٍ يَحولُ دونَ الموافقة على أكثر المطالب اليهوديّة تطرّفًا مع وجود معارضة كبيرة من سكّان الدولة يجب أن يظهر لجميع المراقبين المحايدين وهمًا كبيرًا على أقلّ تقدير"[٤].

لمّا مَثَّل حاييم وايزمان أمامَ اللجنة نبّهَ أعضاءها إلى أنَّه يصعبُ على اليهود أن يقبلوا بتقسيمٍ على غرار التقسيم الذي اقتُرِحَ في الكتاب الأبيض الصادر عام ١٩٣٩؛ لأنّه وسواه من الصهاينة كانوا يطمعون في مساحة تفوق تلك التي حُدّدت في الكتاب الأبيض بثمانية أضعاف.[٥] وقد أوضح هو من قبلُ لمستشارٍ خاص لتشيرتشل أنّه يمكن القبولُ بخطّة للتقسيم "إن كان بالإمكان أن تُؤْكَلَ الكَتِفُ من ناحيتين. فإن هم حصلوا على موطئ قدم جيّد بادئ الأمر، فإنّه لا يرى ما يدعو لأنْ يتحمّلَ جيلُه العنتَ كلَّه، ورأى أنّ المستقبل لا بد أن يتمخّضَ عن فرصة جديدةٍ للتوسّع *بوسيلة أو بأخرى*"[٦].

اختَطَفَتْ عصابةُ الإرجون رقيبين عسكريين بريطانيين أثناءَ وجود اللجنة الخاصة (UNSCOP) في فلسطين واحتجزتْهما رهائنَ لديها كي تُثنِيَ السلطاتِ البريطانيةَ عن إعدام ثلاثة من أفرادها أُدينوا بجرائم إرهابيّة في محكمة عسكرية بريطانية. وتمكَّن اثنان من أعضاء اللجنة الخاصة من الإفلات من رقابة الشرطة البريطانية والوصولِ إلى مناحيم بيجن، زعيمِ عصابة الإرجون. فلمّا قالا له إنّ الرقيبين لا شأنَ لهما بحُكْمِ الإعدام الصادرِ

بحقِّ أفرادِ الإرجون، اكتفى بيجن بأن قال: "إنّهما جنديّان في جيشٍ يغزو أرضَنا"(٧). وكان أحد الشخصين اللذين تحدَّثا إلى بيجن هو رالف بنتش، أمريكيٌّ أسود، وقد تأثّر هذا الرجل لمّا استمع إلى آراء الصهاينة، واعترف أنّ مشاعرَهُ قدْ استيقظتْ من غفلتها، وأنّه أدركَ قيمةَ "الهُويّة العاطفية". وقد قال هذا الرجل وهو يغادر مخبأ بيجن عبارةً لم ينسها قطّ ذلك الزعيم الإرهابي (ورئيس وزراء إسرائيل في المستقبل) قال فيها: "أفهمك جيّدًا. فأنا كذلك أنتمي إلى أقلّيةٍ مضطهدة"(٨).

نفّذتْ بريطانيا حكمَ الإعدام برجال الإرجون، فردَّ رجالُ بيجن بقتلِ الرقيبين البريطانيين، وفخَّخوا جثّةَ أحدهما كيْ تقتُلَ من يأتي لإنقاذه، فثارت ثائرة رجال الشرطة البريطانيين، وأطلقوا أيديهم في تل أبيب ثأرًا لما حصل، فقتلوا خمسةَ يهودٍ وارتكبوا أعمالَ عنفٍ عديدةً أخرى، وأبوا جميعُهم، شرطةً وعسكرًا، أن يكشفوا عن هُويّة من ارتكب ذلك، ولم توجَّه الإدانة إلى أيّ شخص(٩).

روّعت حوادثُ القتل المستمرّةُ التي يتعرض لها الجنودُ والإداريّون البريطانيّون في فلسطين أفرادَ الشعبِ البريطاني الذي أنهكتْه الحرب، وراحتِ العامّةُ تتساءل عن السبب الذي يدفع بريطانيا إلى البقاء إلى هذا الحين هناك. فقالت مجلّةُ الإكونُمِست متسائلة: "ما ضرورةُ استمرار تعرّض الجنود البريطانيين إلى هذا الشكل من الموت؟ ولِمَ يدفعُ المجتمعُ البريطانيُّ الثمن؟... إنّ خسارة بريطانيا في فلسطين لا تقدَّر بثمن."(١٠) وكتب إيلان بابي: "قد بلغ السيلُ الزُّبى في بريطانيا بحلول شهر شباط ١٩٤٧." ولكنّ الضغوطَ تعدّدتْ على بريطانيا في تلكم الأيّام، ويوضّح ذلك بابي نفسُه

فيقول: " تكالبتْ على بريطانيا بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ قسوةُ الشتاء وقسوةُ التعامل الأمريكي مع الديون المترتّبة عليها، فكانت النتيجةُ أزمةً اقتصادية في بريطانيا، وكانت تلك هي القشّةَ التي قصمتْ ظهرَ الاستعمارِ البريطانيّ، وخاصةً وجودها في الهند وفلسطين"(١١).

استمعتْ لجنةُ الأمم المتحدة الخاصّة في هذه الأثناء إلى عدد من الشكاوى التي قدّمها يهوديٌّ فلسطينيٌّ يُدْعى ليفيتسكي ضدَّ بريطانيا، وخصّ بالذكر قوانينَ الطوارئ التي فرضتْها في البلاد حتى تتمكّنَ من محاربةِ الإرهابِ الصهيونيّ. فنقلتِ اللجنة بدورها هذه الشكوى التي تقول: "ما ظنُّكم بدولةٍ يحقُّ للحاكم العسكري فيها أن يضعَ أيَّ شخصٍ أو عائلةٍ تحتَ مراقبة رجال الشرطة على مدار سنةٍ كاملة، لمجرَّد أنّ الشكَّ ساوَرَهُ في أنَّ رصاصةً قد أُطلِقَت من محيطهم؟! بل إنَّ له أكثرَ من ذلك؛ فهو قادر على إصدار قرارٍ بإجلائهم من المنطقة، ومصادرةِ منزلِهم، وقد تصلُ الأمور في بعض الأحيان إلى إصدارِ حكمٍ بإعدامهم. وفي وسْعِه أيضًا أن يوجِّهَ أوامرَه بتدمير أيّ منزلٍ في أيّ شارعٍ أُطلقَ الرصاصُ منه... وتابع يقول: "وليستْ هذه الحوادث استثنائية ... فأنا أعلمُ بمئات من هذه الحالات؛ فبيوتٌ كثيرةٌ هُدِّمت بتهمةِ العثورِ على أسلحة فيها، ولا شيءَ غير ذلك." يقول أحد أعضاء اللجنة المكلّف بكتابة تقرير تفصيلي بالشكاوى التي قدّمها ليفِتسكي: "تزايدَ سخَطي وأنا أستمعُ إلى ما يقول، حتى كِدْتُ لا أتمالك نفسي من شدّة السخط."[١٢] وأجزمُ أنَّ سخطَه لن يتبدّلَ لو أنّه علم أنّ كلّ هذه الإجراءات ستلجأ إليها حكومةُ إسرائيل نفسُها في تعاملها مع الفلسطينيين.

تضمّنتْ جولةُ اللجنةِ الخاصّةِ للأمم المتّحدة بشأنِ فلسطين زيارةً إلـى مخيّمات المشرّدين في أوروبا، وقال أحد المسؤولين الصهاينة في أحد هـذه المخيمات إنّه يَعُدُّ يهودَ أوروبا جميعَهم "مواطنين فلسطينيين فـي المنفى"، ويحتّمُ هذا الرأيُ التعاملَ مع فلسطين على أنّها ذات أغلبية يهودية- أو أغلبيةٍ مُنتَظَرة.(١٣) وأخبره حاخام يعمل في أحد المخيّمات عن المـصاعب التـي تكبّدها أثناء سعيه لإقناع الدول لاستقبال اليهود الذين يرغبون فـي العـيش فيها، وقال: "لقد طوّفتُ العديد من العواصم حول العالم لحشد الدعم لقضيتي، ولقد لمست التعاطف منهم إلا إنني لم أحصل علـى أيِّ نتيجـة."(١٤) ولكـنّ اللجنة وضعت يدها على بعض الأدلّة التي تثبت أنّ الأشخاص الذين يديرون هذه المخيّمات يتواطؤون مع الجماعات الصهيونية التي تتولّى أمرَ الهجـرة غير الشرعية إلى فلسطين، وهذا أمر دفع أحد الصحفيين إلى توجيه سـؤال إلى مسؤولين في المنظّمة الدولية للاّجئين عن مجموعة من الأطفال الـذين فُقِدوا من المخيّم، ثمّ تبيَّنَ أنّهم على ظهر سـفينة تحمـل مهـاجرين غيـر شرعيين، فكان جواب المسؤولة الرسميّة أنَّ الأطفالَ قد ذهبوا فـي نزهـة ولكنّهم لم يعودوا.

"أليس مُستَهجَنًا حقًّا أنْ تسمحوا للأطفال بالذهابِ فـي رحـلات تنـزّه وحدَهم؟ أليستْ لديكم احتياطات أمنية؟ وهل صَعُبَ على أحد الموظّفين هنا مرافقتهم؟"

هزّتِ المسؤولةُ رأسَها وقالت: "أرسلْنا معَهم أحـدَ أعـضاء كادرنـا، ولكنّه لمْ يَعُدْ أيضًا"(١٥).

انتهَتِ اللجنةُ من جولتها المزدحمةِ بالأعمالِ في فلسطين وفي أوروبا بعد أن انتهتْ فيها الحرب، واجتمع أعضاؤها للتباحث في بنود التوصيات، وأصعِب بها من مهمة!.

إنَّ القضيّةَ التي حاولَ العربُ الفلسطينيون توضيحَها على الدوامِ لجليّةٌ من دون ريب، فهم ما زالوا الأغلبيّةَ في فلسطين، بيدَ أنَّهم دونَ غيرهم من السكّان الأصليين في الإمبراطورية العثمانية السابقة لم يحصلوا على استقلالهم حتى الآن. وهم تأمّلوا أنَّ اللجنةَ الخاصّةَ للأممِ المتحدةِ بشأن فلسطين ستتوصل إلى أفضلِ السبل لتحقيقِ مصالحِ السكّانِ كافّةً في فلسطين عن طريق حكومة يُراعى عند تشكيلها الإنصافُ والعدلُ، بعد أن أدخلوا إلى دولتهم أعدادًا كبيرةً من اللاجئين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. ولا شكّ أنّ معظم الدول الحديثة تضمّ مواطنين ينتمون إلى إحدى الأقلّيات، وتحاول الحكومات الوطنية في الدولِ جميعِها أن تساويَ بين سكّانها، فتنبذُ بشدّةٍ أيَّ شكلٍ من أشكالِ التمييز المنهجي لمجموعة دون الآخرين، وأيُّما تجاوزٍ لهذا الوضع المثاليّ سيُجابَه باستنكارٍ عريضٍ من المجتمع الدَّوليّ، وهذه هي الغاية التي نهضتْ حركة حقوق الإنسان من أجلِ مراقبتها وإقامةِ صرحِها.

كان إنشاءُ حكومةٍ ديمقراطيةٍ في فلسطين ممكنًا في أيّ وقت بين عام ١٩١٧ وعام ١٩٤٧، ويخطئ من يقول (كما قد قيل في تلك المرحلة) إنَّ العربَ واليهودَ لا يجتمعان في دولةٍ واحدة، وأن الحلَّ الذي لا محيدَ عنه هو حل الدولتين المنفصلتين. ولكنَّ المؤسفَ أنَّ اللجنة الخاصّة للأمم المتحدة قد رأتِ الأمورَ من هذا المنظار، فقالتْ في تقريرها: "إنَّ أساسَ الصراع في فلسطين هو صراع بين قوميتين متدافعتين.. هنالك في فلسطين الآن نحو

٦٥٠,٠٠٠ يهوديٍ، و ١,٢٠٠,٠٠٠ عربي، ولكلٍّ منهم أسلوبُ حياةٍ يختلف عن الآخر، وتفرّقَ بينَهم في الوقت الراهنِ المصالحُ السياسيةُ التـي تجعـل التعاون السياسي الكاملَ والفعّالَ بينهم صعبَ المنال، سواءٌ أكانوا هم أنفسُهم من يبادرون إليه، أم فُرِضَ عليهم بموجب الأحكام الدستورية"(١٦).

وقد يبدو هذا للوهلة الأولى وصفًا متوازنًا لكلا المجتمعين ومصالِحِهما، إلا إنّه يتجاهلُ الحقيقةَ التي تفيدُ أنّ أولئـكَ اليهـود الـذين يبلـغ عـددهم ٦٥٠,٠٠٠ هم المختلفون عن بقيّة العرب لأنَّ معظمَهم قـدموا مـن ثقافـةٍ أخرى، واستقدموا معهَم ثقافتهم الدخيلة. أمّا اليهود الذين عاشوا في فلسطين مذ قرونٍ عديدة فهم والعرب سيّان، لا تكاد تميّزُ بينهم إلا في الشعائر الدينية، فهم لا يختلفون عن العربِ إلا بمقدار ما يختلف المـسلمونَ العـربُ عـن المسيحيّين العرب، غير أنّه لم يقترحْ أحدٌ من قبل أن يكون للمسيحيين العرب الذين تصلُ نسبتهم إلى عشرة بالمئة من السكّان حقٌّ في حكم فلسطين ومـن فيها من المسلمين واليهود الذين يشكلون التسعين بالمئة المتبقية.

سعى الصهاينةُ لإقامة دولة يهودية خالصة، أمّا العربُ فلم يطلبوا دولةً عربيةً خالصة، فهم عاشوا مع جيرانهم اليهود الفلسطينيين لعقود طويلة، بل لم يكنِ الفلسطينيون ليضيقوا ذرعًا باليهود، وكانوا سـيقبلون أن يـستمرّوا بالعيش بسلام حتى لو هاجر بعض اليهود إلى فلـسطين فـي العـشرينيات والثلاثينيات، إن كانوا راغبين في العيش في دولة فلـسطين الديمقراطيـة. لكنّهم أولاء المهاجرين كانوا صهاينةً، ويرغبون في العـيش فـي فلـسطين اليهودية ذات الثقافة الأوروبية المهيمنة.

الدولة اليهودية التي اقترحتها الأمم المتحدة في خطّة التقسيم نصف سكّانها يهود والنصف الآخر عرب، وهي تضع نصف مليون عربي تحت الحكم اليهودي.

لم يفلحْ أعضاءُ اللجنة الخاصّة للأمم المتحدة بشأن فلسطين في فهم هذه الحقيقة، وهذا واضح في مذكِّراتِهم وما نشروه في تقريرهم النهائي. فهمُ انساقوا إلى الاعتقاد بأنَّ العربَ الفلسطينيين لن يرضوا بحلّ يتضمّن السماحَ

لليهود بالعيش في فلسطين، مع أنّ الحلَّ الوحيدَ الذي يرفضُه العربُ هـو أن يكونَ لليهودِ سيطرةٌ كاملةٌ على فلسطينَ أو جزءٍ منها، لأنَّها دولةٌ يعيشُ فيها مئات الآلاف من العرب، وهذا هو للأسفِ الحلُّ الوحيد الذي يقبله الصهاينة.

وانضمّت اللجنة الخاصّة في عجزها عن التعامل مع القضيّة إلى ركب من سبقها من اللجان العديدة التي زارت فلسطين في ثلاثين سنة تقريبًا التـي وإن لم ينطوِ أعضاؤها على خبيئةِ سوءٍ فإنهم كانوا في هذه اللجنة وسـواها غريبّين تغلب عليهم السذاجة. فكان "الحلّ" المقترح في نظر اللجنة الخاصـة هو تقسيم فلسطين إلى دولتين مختلفتين: دولةٍ يهودية ودولةٍ عربية، وهو حلٌ لا يقلُّ صعوبةً عن تقسيمِ بريطانيا على سبيل المثال إلى منطقةٍ للمـواطنين أصحاب الشعر الأحمر، وأخرى لبقيّة الناس. ولا شكَّ أنّ هنالكَ أحياءً لليهود في فلسطين، ولكنَّ هذا لا يعني بالضرورة وجودَ مناطق واسعةٍ يحتلُّها اليهود بأكملها. ولمّا جلسَ أعضاءُ اللجنةِ الخاصّة وفرشوا أمامهم الخرائطَ وأمسكوا بالأقلام الملوّنة، بدءوا يدركون أنّهم يواجهون مهمّةً مستحيلة، وفيمـا يلـي وصفٌ يقدّمه لنا أحد أعضاء اللجنة للعمليّة المتّبعة، وقد وضعَ أسماء أعضاء اللجنة بالخطّ الغامق:

أراد **فابرجات** أن تضمَّ الدولةُ اليهودية منطقةَ الجليل بأكملها، ومنطقـة النقب قرب بئر السبع، ومنطقةً واسعة تربط السهل الساحلي بالقدس، فيصبح القسمُ اليهوديُّ من القدس تابعًا للدولة اليهودية، واقترح أنْ تكون يافا وصيدا يهوديةً ضمن الدولة العربية.

أمّا **راند** فقد اقترح أن تكونَ القدسُ والمناطق التي تكتنفها مدينةً دوليـةً لا تتبع لا للدَّولة اليهودية ولا للدولة العربية.

وكان موقفي أنا [خورخيه جارسيا جرانادوس] قريبًا لما ذهب إليه راند، غير أنّي لم أوافق على ما قاله عن جعل القدس مدينة حرّة، لأنّ هذا يجعلها أداة تفاوض في المستقبل.

وارتأى ليزيسكي أن تشتملَ الدولةُ اليهوديةُ على النّقب وبقيّةِ المناطق، ولكنّه يرى ضرورة أن نترك مصير الجليل الغربي لتحدّده الجمعية العامة.

في حين وافق جارسيا سلازار على منح اليهود منطقةَ الجليل، فإنّه عارضَ إعطاءهم النقَب. واتّفقَ ساندسترُم مع هذه الخطّة في بدايةِ الأمر، إلا أنّه تردّدَ في النهاية في شأن الجليل الغربي.

وقد بدا بلوم ميّالاً هو الآخر إلى رأيِ ساندسترُم، ولكنّه لم يطرَح رأيه بشكل واضح حتّى الآن (١٧).

وتابع جارسيا جرانادوس ليبيّن بعض ما أسماه "الصعوبات التطبيقيّة" فقال: "أوّلاً: يوجد في الجليل نسبةٌ كبيرة من السكّان العرب، ونسبةٌ أقلّ من اليهود، وأراضي الجليل هي الأكثر خصوبة في فلسطين. وقد أنشأ اليهود بعض المستوطنات هناك، وأظهروا قدرتهم على تطوير المنطقة، وهي مناسبة جدًّا لاستقبال المهاجرين... وشعر بعضُنا أنّ منحَ الجليل للعرب سيقضي على الاستثمارات الهائلة التي بدأها اليهود هناك وسيُجهضُ جميع خططهم للتنمية المستمرّة فيها"(١٨). ولكنْ أينَ يا ترى ذهبت كلُّ "الاستثمارات الهائلة" التي صنعَها العرب الفلسطينيون على مرّ عقود بأكملها في الزراعةِ وتنميةِ القرى والمدن والحياة الدينية وغيرها من المظاهرِ التي سيُقضَى عليها إذا منحت الجليل لليهود؟

وكتب جارسِيا جرانادوس: "إنْ قامت الدولة اليهودية فإنّها ستكون دولةً صناعية في المقام الأول، وسيكون أثرها في المنطقة بأسرها عظيمًا للغاية، وسينعكس وجودُها على الحالةِ الاقتصادية المترهّلة للدول العربية المجاورة، وسيمكّنها ذلك من التحولِ من دولٍ شبه إقطاعيةٍ وشبه مستعمَرةٍ إلى دولٍ حديثةٍ لا تتوقفُ فيها عجَلةُ التنمية. وقد كنّا نعلم بالتأكيد أنّ القادة السياسيين العرب يعارضون الفكرة من أساسها، بحُلوِها ومرِّها، وإن نحنُ أوصينا بمنح اليهود استقلالهم بأيّ شكل كان- وهذا أمر وافقت عليه بالفعل الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة- فإنَّ سفك الدماء سيبدأ. لكنّي شعرت أنّ ذلك لن يطول، وأنّه لا شكّ سينتهي"[١٩]. ولكن ها قد مضت ستون سنةً تقريبًا وما زال سفك الدم على أشُدّه.

جاءتِ التوصيات النهائيّة للجنة الخاصّة للأمم المتحدة بشأن فلسطين في جزأين: أوصى أغلبيّة أعضاء اللجنة بالتقسيم، أما القلّة الباقية فأوصت بأنْ تكونَ فلسطينُ فدراليّة بين اليهود والعرب، وهذا حلٌّ لا يخلو من مشاكله أيضًا على أرض فلسطين، لكنّه يرى على الأقلّ إمكانيّة وجود حكومة مشتركة بين اليهود والعرب.

وانتقلتْ فكرة التقسيم للتباحث في شأنها في الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة، وهي فكرة تنادي بإنشاء دولتين: دولةٍ يهوديّة في منطقة يقطنها ٤٩٨,٠٠٠ من اليهود و ٤٩٧,٠٠٠ من العرب (من بينهم ٩٠,٠٠٠ بدوي)، ودولة عربية فيها ٧٢٥,٠٠٠ من العرب، و ١٠,٠٠٠ يهودي. ونظرًا إلى الوضع المعقّد في القدس بسبب تكوينها الديني والثقافي فإنها ستُوضَعُ تحت الوصاية الدوليةِ لتشرف عليها الأمم المتحدة.

ولم يملكِ اليهودُ في المناطق التي ستخضع لسيطرتهم سوى ٦% من الأراضي، وعلى الرغم ممّا لاح لهم من أنّهم حصلوا على صفقة جيّدة، فإنّ الزعيم الصهيوني ديفيد بن جوريُن لم يكن سعيدًا، وقال: "لو أضفنا يهود القدس إلى سكّان الدولة اليهودية وقتَ تأسيسها لصار عدد سكّانها مليون نسمة تقريبًا، منهم أربعون بالمئة تقريبًا من غير اليهود. ومثلُ هذا التركيب [السكّاني] لا يُعدُّ أساسًا متينًا للدولة اليهودية، ولا بدّ من النظر إلى هذه الحقيقة [الديمغرافية] بما تستحقّه من الوضوح والدقة، فهذا تركيبٌ لا يضمنُ بشكلٍ قاطعٍ أن تبقى السيطرةُ في يد الأغلبيّة اليهودية... ولا يمكن أن تكون الدولة اليهودية مستقرّةً وقويّةً ما دامت الأغلبيّة اليهودية لا تتجاوز ستين بالمئة فقط"[٢٠]. وهذا يكشف مرّة أخرى عن أهداف الصهاينة التي تحاول أن تجعلَ فلسطين، عاجلاً أو آجلاً، وبأيٍّ وسيلة كانت، دولةً يهوديّة صِرفَة، وهذا ما جعلهم يقبلون توصيات اللجنة الخاصّة على مضض. أما العرب الفلسطينيون فرفضوها من أساسها.

وستوضع هذه التوصيات أمام أنظار الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، وهي تحتاج الآن إلى أغلبيّة الثلثين من الأصوات لإقرارها رسميًّا.

أُرسِلَ والدي إلى مقرّ الجمعيةِ العامة للأمم المتحدة، وشَهِدَ التصويتَ على قرار التقسيم، وعُقِدَ الاجتماع في ملعب تزلّج سابقٍ في منطقة ليك سَكسِيس في نيويورك. ولم يعلّقْ والدي بالقلمِ أو باللسان عن عمله مع البي بي سي في تلك الفترة لتغطية المباحثات التي جرت بين أعضاء الأمم المتحدة بخصوص فلسطين، غير أنّي أكادُ أجزمُ أنها كانت لحظات قاسية عليه، فعملُه يستلزم منه أن يكون متابعًا موضوعيًا للقضية، على الرغم من

أنه كان يشهدُ بعين اليقين تفاصيلَ تقطيع أوصال الدولـــة التـــي هـــي مهـــدُ طفولته.

هوامش الفصل الثامن عشر

(1) United Nations Division for Palestinian Rights, The Origins and Evolution of the Palestine Problem: 1917-1988, PART II 1947-1977, Unispal website, <http://domino.un.org!unispal.nsf/>

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Ibid.

(5) Ibid.

(6) Peter Grose, Israel in the Mind of America, Alfred A. Knopf, 1983, P.238.

(7) Jorge Garcia-Granados, The Birth of Israel, Alfred A. Knopf, 1949, P.159.

(8) Grose, Israel in the Mind of America, p. 235.

(9) A.J. Sherman. Mandate Days, Thames and Hudson, 1997, p. 207.

(10) Ibid., p. 208.

(11) Ilan Pappe, A History of Modern Palestine, Cambridge University Press, 2004, p. 122.

(12) Garcia-Granados, The Birth of Israel. p. 120.

(13) Ibid .. p. 149.

(14) Ibid .p. 217.

(15) Ibid., p. 218.

(16) United Nations Division for Palestinian Rights, The Origins and Evolution of the Palestine Problem: 1917-1988, PART II 1947-1977, Unispal website. <http://domino.un.org!unispal.nsf/>

(17) Garcia-Granados, The Birth of Israel, p. 244.

(18) Ibid., p. 245.

(19) Ibid., p. 93.

(20) Nur Masalha, Expulsion of the Palestinians, Institute for Palestine Studies. 1992. p. 176.

الفصل التاسع عشر

قرار الأمم المتحدة: ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧

ازدادَ اعتمادُ الفلسطينيين في الأشهر التي سبقتِ الإعلانَ عن قرار الأمم المتحدة النهائيِّ بشأن بلادِهم على إذاعة البي بي سي، لأنها كانتِ المصدر الوحيدَ الذي يزودهم بالأنباء الدقيقة. وقد فرضتْ حكومة الانتداب في فلسطين، وهي تتبع لوزارة الخارجيّة، رقابةً شديدة وتكتمًا على أنباء المباحثات التي تدور في أروقة الحكومة، وعلى الرغم من أنّ محطة البي بي سي العربيّة كانت تتمتّع بحريّة أكبر فيما يمكنها أو لا يمكنها إذاعتُه عبرَ أثيرها، فإنها تلقّتْ في بعض الأحيان عددًا من الأوامر في قالب "النصيحة" من إحدى المؤسسات الحكوميّة، تخوّفًا من الأثر الذي قد يتبع الإعلان عن بعض الأنباء[1].

نُشِرَتْ توصياتُ اللجنةِ الخاصّة للأمم المتّحدة بشأن فلسطين (UNSCOP) في الثامن من أيلول ١٩٤٧، ورأى معظم الصهاينةِ أنَّ التقسيم هو أفضلُ الطرق لتحقيق المزيد من الأهداف في ظلِّ الظروفِ القائمة، مع أنَّ بعضَ اليهود حذّروا من مغبّةِ التقسيم، ومنهم الدكتور جودا ماجنس، الذي كتب رسالة إلى النيويورك تايمز يتنبأ فيها ويقول: "إنَّ التقسيمَ لا يعني نهايةَ الهجمات الإرهابيّة اليهوديّة، وهم إن استصدروا التقسيم بالإرهاب فإنّهم لن يتورّعوا عن تأمين بقيّة الدولة لليهود بالطريقة ذاتها"[2].

وقرّرت الحكومة البريطانيّة بعد ثلاثة أسابيع أن تنهيَ انتدابَها على فلسطين، وحدّدتْ مدّة ستّة أشهر، ابتداءً من شهر تشرين الأول، حتى تخليَ الدولة، إنْ لم يكن ثمّة تسوية للقضية بين الأطراف المعنيّة. وراحَ العرب واليهود في الشهرين اللذين تليا هذا الإعلانَ ينظّمون الميليشيات المسلّحة؛ إمّا لشنِّ أعمال العنف أو لردِّها، لأنَّ العنفَ على كلا الحالين واقعٌ لا محالة.

وصلتِ الأحداث في الأمم المتّحدة ذروتَها في شهر تشرين الثاني ١٩٤٧، فتوصياتُ اللجنة الخاصّة بشأن التقسيم قد وُضِعَتِ الآنَ أمامَ لجنةٍ طارئةٍ للجمعيةِ العامّة، وتمخّضَ التصويت عن موافقة خجولةٍ غير حاسمةٍ على قرار التقسيم؛ إذ صوتتْ خمسٌ وعشرون دولةً لصالح القرار، ووقفت ثلاث عشرة ضدَّه، وامتنعت سبع عشرة دولة عن التصويت، أيّ إنّ ثلاثين دولةً لم تكن موافقة على هذا المخطط، أو إنّها غيرُ راغبة بالتعبير عن رأيها فيه. وكانَ عددٌ غير قليل من هذه الدول على قناعةٍ بأنّ منظمةَ الأممِ المتّحدة ليستْ مخوّلةً قانونيًّا بفرض التقسيم على العرب الفلسطينييّن، فهذا الشعب لا يريدُ ذلك من أصله، ولم يناقشْ أحدٌ الأمرَ رسميًّا معهم. إلا أنَّ الأصواتَ الخمسةَ والعشرين في اللّجنة الطارئة كانتْ كفيلة برفع الأمر إلى الجمعيّة العامّة، ولكنَّ الأمر يتطلّب الآن موافقةً بأغلبيّة الثلثين لاعتماد القرار.

عادة ما يُقال إنَّ الدولةَ اليهوديّةَ في فلسطين كانت نتيجةَ فيضِ العطفِ على اليهود من جميع دول العالم، وحيالك مثالٌ من موقع إلكترونيّ يهوديٍّ يوضّح ذلك: "إنّ تصويت الأمم المتّحدة لصالح تقسيم فلسطين في تشرين الثاني ٤٧ كان في أحد أوجهه "إذنًا" من العالم *لإعادة* [لاحظ هذه الكلمة] تأسيس الدولة اليهوديّة"[٣].

لو غضضنا النظرَ الآن عن الاستخدام المريب لقولهم "إعادة تأسيس"، فإنّ كلمة "العالَم" هي التي تنضوي على تزويرٍ كبيرٍ لحقيقة ما حصل في ليك سكسيس عام ١٩٤٧. فالأمم المتّحدة كانت في السنة الثالثة من عمرها فقط، وأثبتَ لنا التاريخُ أن قراراتها الصادرةَ عنها لَهِيَ أبعدُ ما تكون عن التمثيل الحقيقيّ للرأي العالميّ المطلوب في مثل هذه المنظّمة، هذا على فرض إمكانيّة ذلك. أمّا حقيقة ما حصل، وما تكرّر حصوله طوال خمسين سنة مضت، فيشير إلى أنّ ما اقترحتْه الدول- أو ادّعت أنّها اقترحته- كان خاضعًا للمصالح الشخصيّة في المقام الأوّل، وليس خارجًا من رَحْم الاهتمام الصادق بالقضايا الطارئة، ولا السعيِ للوصول إلى حلٍّ لإحدى القضايا الأكثر تعقيدًا في العالم بأسره. وعلى الرغم ممّا يشيع الآن من توجهات تشكّك في مصداقيّة الأمم المتحدة كمنتدى حقيقيّ للرأي العالميّ، فإنَّ قلّةً قليلةً فقط هي التي تدرك كيف كانت هذه المنظّمة- حتّى في السنوات الأولى من تأسيسها- فريسةً بين براثنِ مصالح الدول الكبرى. ولم يسبقْ أن استُخدمَتْ عصا التهديد وجزرةِ الرّشوة للتأثير على التصويت في الجمعيّة العامّة بمثل هذه الطريقة المفضوحة التي لجأ إليها الصهاينة في فلسطين وأوروبا وأمريكا عام ١٩٤٧. وإن هم حصلوا على دعم الولايات المتّحدة الأمريكيّة فالنتيجة معلومة من مقدّمتها.

وصل عددُ الدول التي يحقّ لها التصويت في الأمم المتّحدة عام ١٩٤٧ خمسا وستين دولة، وكانت الولايات المتّحدة والاتحاد السوفيتي معَ قرار التقسيم، ولكلٍّ أهدافه السياسيّة الخاصّة، أمّا بريطانيا فقرّرت أن تعارضَ القرار، وعارضَه أيضًا خمسُ دول عربيّة، وثلاث دولٍ أخرى شعوبُها إسلاميّة، وتبقّى الآن خمس وأربعون دولة، وبات التكهّن بمعرفة القرار الذي سيفرزه التصويت غير ممكن.

كشف ديفيد نايلز، أحد الشخصيّات الصهيونيّة في البيت الأبيض، وصاحب التأثير الكبير في الرئيس ترومَن، عمّا كانت الشخصيّات الرسميّة في الحكومة الأمريكيّة على استعداد لفعله من أجل دعم الصهيونيّة. فدول أمريكا اللاتينيّة كانت ستتّفق على الأغلب، على رأي واحد، غير أنه تبيّن أنّه يمكن التأثيرُ في قرارها لو ضغطتْ إسبانيا عليها. وكان الجنرال فرانكو- الدكتاتور الإسباني الفاشي- يسعى إلى الحصول على عضويّةٍ في الأممِ المتحدةِ، فرأى نايلز أنَّ الأمريكيين الليبراليّين لا بدّ أن يدعموا طلبَ عضويّة إسبانيا (ولو لم يشعروا بالارتياح في مؤازرتها في ذلك) وقال: "إنّ السماح لإسبانيا بالدخول إلى الأمم المتّحدة لا يقدّمُ شيئًا ولا يؤخّر، بَيْدَ أنّنا لو دعمناها، فإننا سنضمن الحصول على أحد عشر صوتًا مع التقسيم"(٤).

وأظهرَ أحدُ أعضاء الوفد الصهيونيّ، آبا إيبان، كيف أنّ التصويت الأخير لم يقم على تقييم مدروس للحجّج المطروحة، يقول: "وقف الشعب اليهوديّ في تلك اللحظات على أعتاب التحوّلات الكبرى، إلاّ أنّه أحسَّ بناقوسٍ خطر قد يحكم عليه بضياع كلٍّ ما تحقّق بسبب بعض الظروف الهامشيّة في الدول التي يَظهر أنّها بعيدةٌ عن القضيّة"(٥). فكان لزامًا عليهم إذن أن يجدوا سبيلاً للتأثير في هذه "الظروف الهامشيّة".

ويتساءل بيتر جروس في كتابه حول إسرائيل وأمريكا، ويقول: "إلى مَن سينصت الوفد الليبيريّ؟ ومن يمكنه التواصل مع الوفد الفلبّينيّ بواسطة صديق في مانيلا؟ ومن ذا الذي يعرف كيف كانت الأوضاع في هاييتي يوم

الثلاثاء؟ كلّ ذلك كان من مهام فرق الوكالة اليهوديّة التي كانت تـدنو مـن الوفود وتتحدّث إليهم في كلّ فرصة تسنح، في ردهات الانتظار في ليك سكسيس، وفي قاعات الغداء الدبلوماسيّة في مانهاتن، واستخدموا في ذلك فنون الإقناع التي أتقنها وايزمان نفسُه في لندن على عهد بلفور في الجيل الذي سبقهم. فكانت كلُّ حجّةٍ لديهم مصمّمةً لتناسب أهـواءَ كـلِّ مخاطَب ومشاعرِه، فتجد ممثّلي فلسطين اليهوديّة لمّا يتكلمون مع الدبلوماسيين من هولندا يشدّدون على أهميّة التنمية الاقتصاديّة، ويثنون على الجهود الهولنديّة التي بذلوها في عمليات الإصلاح، فقال لهم [ديفيد] هوروفِتز: "نحن نريد قطف ثمارَ البريّة كما استخلصتم أنتم ثرواتِ المحيط." أمّا أمامَ الوفد الإثيوبى فبدّلَ الصهاينة لسانهم، وراحوا يستعرضون التاريخَ القديم، وقصصَ ملكة سبأ، والوشائج التي تربط أثيوبيا بأرض إسرائيل منذ عصر التوراة"[٦].

وجاء على لسان ديفيد هوروفِتز نفسِه، وهو أحد أعضاء الوفد الصهيونيّ: "لم تتوقّف الهواتف عن الرنين، وأبرقنا الرسائل إلى أصقاع العالم كلِّها، وكان بعض اليهود يساقون من نومهم في منتصف الليل ليقوموا ببعض المهام الخاصّة، وأعجب ما في الأمر أنّه ما من أحد من اليهود، صهيونيًّا كان أو غير صهيونيّ، رفضَ أن يقدّم المساعدة في أيّ وقت من الأوقات. فالجميع قد نفروا خفافًا وثقالاً، لتقديم الجهود المخلصةِ لجعل الموازين تميلَ في صالحنا"[٧].

ووقف الرئيس ترومان في معرض تنبيهه واعتراضه على الجهود الساعية لدفع أمريكا إلى دعم التقسيم وإقناع الآخرين بذلك، وقال: "لن نعمد

بأيّ شكل من الأشكال إلى إجبار الوفود الأخرى على أن تحذو حذونا." ولكنه كتب بعد فترة من الزمن وقال: "لا أعتقد أنّهُ سبق لي أن تعرّضتُ لمثل تلك الضغوط والحملات الإعلانيّة في البيت الأبيض كما حصل في ذلك الحين، فقد كان إلحاح بعض المتشدّدين من قادة الصهاينة وما أضافوا عليه من الدوافع السياسيّة والتلميح إلى التهديدات السياسيّة، مصدرَ قلق وإزعاج لي."[٨] ومع أنّ ترومان قد وقف إلى جانب دولة إسرائيل، فإنه لم يكن دومًا مُحبًّا لليهود، وهو الذي يقول: "أخشى كثيرًا أنْ يكون اليهودُ مثلَ غيرهم من المستضعفين؛ إنْ آلت لهم السيطرةَ صاروا مثل من اضطهدهم في التعصّب والوحشيّة. وإنّني لأتحسّر على هذه الحال لأنّ تعاطفي كان دومًا إلى صفّهم"[٩].

ووضّح ميشيل كومي، أحدُ الصهاينة الذين عملوا بجدٍّ من أجل حشد الدعم للتصويت، ومدير مكتب الوكالة اليهوديّة في نيويورك، كيف تمكّنت الوكالة أخيرًا من تغيير رأي الرئيس ترومان، وقال في رسالة كتبها: "تحوّلت اليونان والفلبّين وهاييتي- وهي ثلاث دول تعتمد بالكامل على واشنطن- عن سياستها المعلنة [بشأن التقسيم]، وصارت بين ليلة وضحاها ضدّ التقسيم. فسعينا لتأخير إصدار القرار لكسب بعض الوقت . وفي ليلة عيد الشكر، وهو يوم عطلة رسميّة، انهالت على البيت الأبيض انتقاداتٌ عديدةٌ، واتّهمَتْ بعضُ الصحف دون مواربة عددًا من المسؤولين في وزارة الخارجيّة الأمريكيّة بالسعي لعملٍ تخريبيٍّ مقصود. فعلمنا أنّ الرئيس غضب لذلك وقرر أن يضمّ كاملَ دعمه للجهود الساعية لاستصدار القرار... ولم نحصلْ فعلاً على التأييد الكامل من الأمم المتّحدة إلاّ في الساعات الثمانية والأربعين الأخيرة قبيل التصويت، أي يومي الخميس والجمعة"[١٠].

وأعربَتِ الدولُ الأعضاءُ في الأممِ المتّحدةِ في الساعات الأخيرة من جلسة الجمعية العامّة عن موقفها من القضيّة، وأشارت إلى خيارها في التصويت. وقال رئيس الوفد الفلبّيني، الجنرال كارلوس روميولا في خطابه إنّ الفلبين ستصوّت ضدّ التقسيم، وشرَعَ يوضّحُ الأسبابَ، وقال: "بصرف النظر عن وزن الآراء التي جادل فيها هذا الطرفُ أو ذاك، فإنَّ الحكومة الفلبينيّة ترى أنَّ الحقوقَ التي منحتْها سلطةُ الانتداب- وإنْ أقرّتْها أي اتفاقيّة دوليّة لاحقًا- لن يبطلَ حقًّا تليدًا لشعبٍ يريد أن يقرّرَ مستقبلَه السياسيَّ، وأن يحافظَ على الوحدة الإقليميّة لأرضه الأمّ. وإنّنا لنرى في القضيّة جوهرًا أخلاقيًّا في المقام الأول. إنَّ مِحكَّ القضيةِ يتعلقُ باستعدادِ الأممِ المتّحدةِ لتتحمّل المسؤوليّةَ عن فرض سياسةٍ لا يخفى على أحد أنّها تتعارض مع المطامح الوطنيّة المشروعة لشعب فلسطين، وإنّ الحكومةَ الفلبينيّة تأبى على الأمم المتّحدة أن تقبلَ على نفسِها مثل هذه المسؤوليّة"(١١).

رجع روميولو إلى بلاده فورًا بعد خطابِه بأمرٍ من الرئيس الفلبينيّ رُكساس، الذي تلقّى "برقيّة جادّة اللهجة" تحذّرُ من مغبّةِ التصويتِ ضدَّ التقسيم، وأثرِها في العلاقات الفلبينيّة الأمريكيّة. وكان سلاح التهديد القابع بين سطور الرسالة يتعلق بحزمةٍ من المساعدات الماليّة التي كان الكونغرس يتهيّأ لإرسالها إلى الفلبين، وهي الدولةُ التي تقتاتُ على المساعدات الأمريكيّة لإعادة بناء اقتصادها الذي دمّرته الحروب، فكانت الحكمة هي في الإذعان لها والإحجام عن أيّ أمرٍ يزعج أمريكا. ولقطع الشكِّ باليقين، توصَّلَ الصهاينةُ السياسيّونَ إلى صديق يهوديّ للرئيس الفلبينيّ يعيش في إنجلترا،

وطلبوا إليه في منتصف الليلِ أن يتحدّثَ هاتفيًا مع الرئيس في العاصمة مانيلا ليمليَ عليه كيفَ يصوّت(١٢). ومنَحَتِ الفلبّينُ صوتَها في نهاية المطاف للتقسيم، مع أنّها أعلنت على الملأ أنّ سياسة التقسيم "تتعارض مع المطامح الوطنيّة المشروعة لشعب فلسطين" (١٣).

تكرّرَ المشهدُ مجدّدًا مع ليبيريا، الدولةِ الأفريقية الصغيرة، لمّا قرّرت أن تصوّت ضدّ التقسيم. على الرغم من أنّ الرئيس الأمريكيّ ترومَن قد حظر إجبار أيّ دولة في الأمم المتّحدة على التصويت، فإنّ الصهاينةَ هبّوا لفعل ما يلزم حيال ذلك، فرأى ديفيد نايلز أنّ اقتصادَ ليبريا خاضع لاستثمارات شركة فايرستون رابر، فطلب من صاحب الشركة، هارفي فايرستون الابن أن يهدّد الرئيس الليبيريّ بسحب استثماراته كافّة من بلاده إن هي لم تصوّت مع التقسيم(١٤). وخضع فايرستون لهذا المطلب لأنّ يهود أمريكا هدّدوا بمقاطعة إطاراته إن لم يفعل(١٥).

وتبقّتْ دولةٌ صغيرةٌ واحدةٌ اعترضَتْ بادئ الأمر على التقسيم، وهي دولة هاييتي، ولكنّ الأمور انقلبت لمّا تلقّى رئيس الدولة رسالةً من القنصل الأمريكي في هاييتي تخبره أنّ البيتَ الأبيضَ يطلب إليه "أن تَعْدِلَ دولتُه عن التصويتِ ضدّ التقسيمِ إن أرادَ الحفاظ على مصلحته." وهذا ما حصل(١٦).

كما لم تنجُ بعض الدول الكبرى من الضغوط الصهيونية، ومنها فرنسا على سبيل المثال، التي لم يكن موقفها واضحًا إن كانت مع التقسيم أو ضدّه، فهي ترتبط بعلاقاتٍ تاريخيّةٍ مع العرب في شمال أفريقيا، ولكنّها في الوقت ذاته ترتبط عاطفيًا بالقضيّة الصهيونيّة. (فقد أرسل وايزمَن مرّةً برقيّةً إلى

رئيس الوزراء الفرنسيّ السابق، ليون بلوم، يقول فيها: "أترغبُ فرنسا أن تغيبَ عن لحظة لن ينساها العالم أبدًا؟" فتدخّلَ بلوم وأدّى تدخّله إلى أنْ يقوم المصرفيُّ الأمريكيّ بيرنارد باروك بإخبار المندوب الفرنسي في وجهه أنَّ تصويتَ فرنسا ضدَّ التقسيم سيوقِفُ المساعدات الأمريكيّة لفرنسا، وهكذا صارت فرنسا مع التقسيم(١٧).

ومن الأدلّة العديدةِ الأخرى التي تبرهنُ على الجهود المضنية التي بُذِلَتْ للتلاعبِ بالتصويت لصالح الدولةِ اليهوديّة هو ما وردَ في بعض ملّفات وزارة الخارجيّة الأمريكيّة بأنَّ مندوبَ إحدى دول أمريكا اللاتينيّة قد تلقّى مبلغ ٧٥,٠٠٠ دولار نقدًا لتغيير رأيه، ورفضَ آخرُ رشوة بقيمة ٤٠,٠٠٠ دولارٍ أمريكي، ولكنّه تلقّى أمرًا من حكومته للتصويت مع التقسيم، فظنَّ السفيرُ الكوبيُّ المناصرُ للعرب أنَّ تلك الألوف الأربعين قد ذهبتْ للشخصِ الذي صوّت لصالح القرار(١٨).

تسرّبت أنباءُ هذه المحاولاتِ المسعورةِ من الصهاينة للتأثير في مسار التصويت إلى الأطراف التي تقفُ إلى جانب العرب الفلسطينيّين. فناشدَ المندوبُ اللبنانيُّ في الجمعيّة العامّة الأعضاءَ الذين التقى بهم وحدّثهم عن القضيّة، وحثّهم على التصويت حسبما يمليه عليهم ضميرُهم، وقال: "أيّها الأصدقاء، ألم تفكّروا بالسبلِ الديمقراطيّة؟ ألم تفكّروا بحقّ التصويت الذي هو حقّ مقدّس لكلّ وفد بيننا؟ إنْ نحنُ تنازلنا عن ذلك إلى النظام المستبدّ الذي ينزوي مع كلّ وفد في الغُرَفِ الفندقيّة وفي الأسرّةِ والأروقة والردهات، لتهديده بالعقوبات الاقتصاديّة، أو رشوته بالوعود لإرغامه على التصويت بطريقة أو بأخرى، ففكّروا بما ستكون عليه منظّمتنا هذه في المستقبل...

أليسَ خليقًا بنا أن نكون منظّمةً ديمقراطيّة؟ ألا يجدر أن نكونَ منظّمةً تستحق الاحترامَ في عين العالم؟ إنّنا على مفترق عظيم، وإنّـــي أتوسَّـــلُ إلـــيكم أن تتفكّروا للحظةٍ واحدة بالعواقب الجسام التي ستخلّفها هذه الحبائل إذا وقعنـــا في شراكها"[١٩].

احتجّ المندوب السوريّ كذلك وقال: "إنّكم ترون المدى الذي وصل إليه نفوذهم [اليهود] في هذه المنظّمة. فنسبة اليهود في الولايات المتّحدة واحد بين كلّ ثلاثين، أمّا في فلسطين فهم واحد لكلّ ثلاثة. إنّهم يعيشون في هذه الدولة الديمقراطية، ويبسطون نفوذهم على جميع المحافل." فهمَسَ بعض الصهاينة في القاعة وقالوا: "بل وصلَ نفوذهم أيضًا إلى قلبِ الأمم المتّحدة"، فاســتأنف المندوب السوريّ وقال: "وها هم بهمسهم يرهبون المــتكلم أثنــاءَ حديثــه. وإنَّ هذا دليلٌ على أنّهم يتحكّمون بغيرهم هنا، مع أنّهم واحد إلـــى ثلاثـــين في هذه الدولة"[٢٠].

استهجن كثيرٌ من المسؤولين في حكومة الولايات المتّحــدة الــضغوطَ المشتركة التي مارستها الإدارة الأمريكيّة مع الصهاينة، فكتب وزير الــدفاع الأمريكي جيمس فورستال، في مذكّراته "إنّ الطريقة التي اتُّبِعَتْ في إجبــار الدّولِ الأخرى في الجمعيّة العامّة وتهديدها لتَقِفُ على شــفا الفــضيحة"[٢١]. وكتب من بعده مسؤول أمريكيٌّ آخر، وهو سامنَر ويِلْز، النائب السابق لوزير الخارجيّة: "صدرت أوامرُ من البيتِ الأبيضِ إلى المسؤولين الأمريكيّين بأن يمارسوا جميعَ الضغوط مهما كان شكلها أو أسلوبها، سرًّا أو علانيةً، علـــى جميع الدول خارج العالم الإسلاميّ التي يُعتَقَدُ أنّها لم تحدّد رأيهـــا أو أنّهـــا تعارض التقسيم"[٢٢].

علم العربُ بأمر الحملة الصهيونيّة التي انطلقتْ على أشدّها، فحاول العرب على استحياء أن يردّوا على هذه الحملة بضدّها، إلا أنّه لم يتوفّرْ لديهم ما لدى اليهود من مصادر لا تنفذْ وعزيمةٍ لا تكلّ، وقد ظهر لي من الأمثلة القليلة التي عثرتُ عليها أنَّ قلوبَهم لم تكن مفعمةً بالحماسة لما يقومون به، وأنّ فرصَهم بتحقيق أيِّ شيءٍ كانتْ صِفرًا. ومن ذلك أنَّ مجموعةً من المندوبين العرب ذهبوا إلى خورخيه جارسيا جرانادوس، مندوب جواتيمالا إلى الأمم المتّحدة والداعم للصهاينة، وسألوه عمّا يمكن أن يفعلَه إن طلبت إليه حكومته أن يغيّر موقفه ويصوّت ضدّ التقسيم، فقال لهم: "أؤكّد لكم أنّ ذلك لن يحصل، ولكنْ إن أردتم أن تعرفوا ما سأفعل في تلك الحالة المستحيلة، فإنني سأستقيل قبل أن أتصرّف بخلاف ما أؤمن به." فقالوا له: "قد يلزمك إذن أن تقدّم استقالتك لأنّنا نضغط بشكل جاد على حكومتك"(٢٣).

ويقدّم لنا جيديّان رفائيل، أحدُ أعضاء وفد الوكالةِ اليهوديةِ الشباب مثالاً آخر (لا يمكن التوثّق من صحته) عن الضغوط العربية في مجلس الأمن، فقال: "أرسلت إحدى الدولِ الصغيرة مندوبةً دبلوماسية، فخرجتْ هذه الفتاة عن أطوارها السياسيةِ لما شدَهَها دبلوماسيٌّ عربيٌّ بوسامته ومعسول كلامه، وقيل إنّها عزمت على التصويت ضدّ التقسيم خلافَ ما أُمِرَت به، فنُقِلَت القضيةُ فورًا إلى وزير خارجية دولتها، فأرسلَ رجلاً ليكون مندوبًا جديدًا عوضًا عنها"(٢٤).

الناصرة: مدينة عربيّة ذات كثافة سكّانية عالية، وقد سيطرت إسرائيل عليها إبّان النكبة.

كان يوم السبت، التاسع والعشرون من تشرين الثاني من عـــام ١٩٤٧، ميقات التصويت على قرار التقسيم، فوُضِعَتْ أمامَ رئيس الجمعيةِ العامّة سلّةٌ فيها بطاقاتٌ بأسماءِ جميعِ الدولِ الأعضاءِ الستّةِ والخمسين، وكانت أول دولة تُسْحَبُ ورقتُها من السلّة هي جواتيمالا. وبدأ التصويت وانتهى، ولم تستغرق العمليةُ سوى ثلاثِ دقائقَ فقط، ولكنَّ أحد اليهود يقول عـــن تلـــك الـــدقائق: "بدت لي أطولَ من سنيِّ اليهود كلّها فـــي المنفـــى."(٢٥) وأظهـــرتْ نتـــائجُ التصويتِ أنّ القرارَ قد أيّده ثلاث وثلاثون دولة، وعارضه ثـــلاث عـــشرة، وامتنعت عشر دول عن التصويت.

بيد أنَّ الأصوات التي أيّدت التقسيم لم تزدْ عن العدد الضروري لاعتماد القرار إلا بصوتين فقط، ولو لم تقتنع الفلبّين وليبريا وهـــاييتي بالتـــصويت لصالحِ التقسيم لما اعتُمِدَ القرار.

فَعَلامَ اختلفتْ أصوات الدول في الجمعية العامّة حقًّا؟ وهـــل أدركـــتْ الدول المجتمعة في الأمم المتحدة حقيقةَ معنى التقسيم؟ يقول الكاتب الأمريكي ريتشَرد كورتِس: "كانت الخطّـــة مثـــالاً متقنًـــا علـــى التقـــسيم الـــسياسي الإستراتيجي، فهي تمنح ٥٦,٤ بالمئة من الأرض لليهود الذين لا يـــشكّلون سوى ٣٣ بالمئة من الـــسكّان، ويملكـــون أقـــلّ مـــن ســـتة بالمئـــة مـــن الأراضي...وسيشكّل العربُ قسمًا كبيرًا من المناطق اليهوديـــة حتـــى بعـــد التقسيم، وتلك وصفةٌ أكيدة لحدوث الاضطرابات. أمّا الأجزاء العربية فتكـــاد تخلو تمامًا من السكّان اليهود. وعلى الرغم من المعارضة التي أجمعَ عليهـــا الخبراء المختصون بالشرق الأوسط في وزارة الخارجية ووزارة الـــدفاع إلا أنَّ الرئيس ترومان لم يتورّع عن منح الخطّة دعمَ الولايات المتّحدة"(٢٦).

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٤٧ أمست فلسطين، تلكم الدولة العربية التي امتدت حدودها بين سوريا ومصر، وضمّت بين ربوعها مدنًا كحيفا ويافا، عكّا وصفد، طبرية والقدس، مطمورةً في الدرك الأسفل من النسيان، ووصل النبأ إلى كثيرٍ من الفلسطينيين الذين عاشوا فيها من قبل بأنّهم لم يعودوا فلسطينيّين، وأنّهم الآنَ سكّانُ دولةٍ جديدة تُدعى إسرائيل.

وفي القدس، كان إسحاق سعادة، أحد زعماء الهاجانة، يتابع أخبار التصويت في الأمم المتحدة وقال: "إن كان التصويت بالإيجاب، فإنَّ العربَ سيشنّونَ الحربَ ضدّنا، وإن كان التصويت بالسلب، فإننا من سيشنُّ الحربَ على العرب"[٢٧]. فكان التصويت بالإيجاب، إلا أنّ الهاجانة كانت على أهبة الاستعداد لشنّ حربها على العرب.

هوامش الفصل التاسع عشر

(1) Peter Partner, Arab Voices. BBC Publications, 1988, pp. 84-5.

(2) United Nations Division for Palestinian Rights, The Origins and Evolution of the Palestine Problem: 1917-1988, PART II 1947-1977, Unispal website, <http://domino.un.org/unispal.nsf/>

(3) <http://www.ou.org/torah/tt/5760/yitro60lbhyom.htm>

(4) Peter Grose, Israel in the Mind of America, Alfred A. Knopf, 1983, p. 250.

(5) Ibid., p. 248.

(6) Ibid.

(7) Ibid., p. 251.

(8) Ibid., p. 250

(9) Ibid., p. 242.

(10) Letter from Michael Comay, Jewish Agency New York office, quoted in Michael J. Cohen, Truman and Israel, University of California Press, 1990, p. 164.

(11) United Nations Division for Palestinian Rights, The Origins and Evolution of the Palestine Problem: 19'7-1988, PART II 1947-1977, Unispal website, <http://domino.un.org/unispal.nsf/>

(12) Peter Grose, Israel in the Mind of America, Alfred A. Knopf, 1983, P.252.

(13) Robert John and Sami Hadawi, The Palestine Diary, Vol. 2, New World Press, 1970, p. 250.

(14) Grose, Israel in the Mind of America, p. 252.

(15) Abraham Rabinovich, Jerusalem Post, 8 March 2002, quoted in <http://www.palestineremembered.com /Acre/ Palestine-Remembered/ Story780.html>

(16) Grose, Israel in the Mind of America, p. 252.

(17) Ibid., p. 253.

(18) Ibid., p. 251.

(19) United Nations Division for Palestinian Rights, The Origins and Evolution of the Palestine Problem: 1917-1988, PART II 1947-1977, Unispal website, <http://domino.un.org/unispal.nsf/>

(20) From summary of Robert John and Sami Hadawi, The Palestine Diary, 2 vols, New World Press, 1970, on <http://www.russgranata.com/palestinel.html

(21) Izzat Tannous, 111e Palestinians, I.G.T. Company, 1988, p. 431.

(22) Ibid.

(23) Jorge Garcia-Granados, The Birth of Israel, AlfredA. Knopf, 1949, PP.263-4.

(24) Rabinovich, Jerusalem Post, 8 March 2002, quoted <http://www.palestineremembered.com/Acre/Palestine-Remembered/Story780.html>

(25) Ibid.

(26) Richard H. Curtiss, A Changing Image, American Educational Trust, 1982, p. 27.

(27) Grose, Israel in the Mind of America, p. 256.

الفصل العشرون

نهاية التاريخ

يُقالُ إنَّ الفلسطينيّينَ لم يغتنموا يومًا أيَّ رياحٍ هبَّتْ عليهم، ولكن ما هي تلك الفرصةُ التي ذهبَتْ أدراجَ رياحِ عام ١٩٤٧؟ وما الذي كان يسعُهُم فعلُه للحيلولةِ دونَ وقوع أحداثِ النكبةِ الفلسطينية؟ يصعب أن نتصوّر تحوّلًا تاريخيًّا بديلًا لما حصل، يقبل به الفلسطينيّون صاغرين بقرار التقسيم، وهم قرابة ٥٠٠,٠٠٠ في مُدُنٍ وقرىً بأكملها، وأنْ يخرجوا من المنطقة التي مُنِحَت لليهود، ويسمحوا لأغرابِ الثقافةِ واللغةِ والدّين أن يتقلّدوا زمامَ أمرهم.

ولو امتلكَ العربُ الفلسطينيّون رؤيةً أبعدَ حينذاك، لاحتفظوا ربَّما بمزيدٍ من منازلِهم وأراضيهم، لكنَّ النَّظرَ البعيدَ الدقيقَ لا يحضرُنا دائمًا. وكان العديد من الناس طوال خمسين سنة من النشاط الصهيوني حتى عام ١٩٤٧ يهدّدون بإشعالِ المقاومةِ والعنفِ وسفْكِ الدماء إنْ لم تحفظْ حقوقُ سكّان فلسطين، لكنّها تهديداتٌ اطّرحَها من سمِعَها وأعرضَ عنها. ولو تنازل العرب، وخضعوا لهذا المصير، وقبلوا بأن يكونوا مواطنين في الدولة اليهوديّة، لكان في ذلك تقييدٌ كبيرٌ أمامَ توسُّعِ إسرائيلَ واستيلائها على الأراضي العربية وطرد مئات آلاف أخرى من الفلسطينيين. ولكنَّ اليهود لا يوقفُهُم شيءٌ، فقد رأينا من قبلُ كيف كانت نَظرةُ قادةِ الصهاينة إلى الأراضي التي شملتْها خطّة التقسيم؛ فهم يرونها نقطةَ انطلاقٍ للدولةِ اليهوديّة

وليستْ حدودًا نهائيةً لها. وهذا ما يشير إليه المؤرّخُ الإسرائيليُّ إيلان بابي، إذ يقول: "كان واضحًا للقيادةِ الصهيونيّة أنّه يستحيلُ تحقيق حلم الدولة اليهوديّة دون طردِ السكّان المحليّين واقتلاعِ جذورِهم"[١].

وربّما كانَ الرأيُ العالميُّ سيقفُ معارضًا لسياسةِ طرد الفلسطينيّين، وهم المسالمون القابلون بما فُرض عليهم، ولكنَّ الفلسطينيين ثاروا على التقسيم، ورأوا فيه ظلمًا لا بدّ من مقاومته. لكنّنا في المقابل رأينا كيف أنّ إسرائيل، فيما تجلّى من تاريخها، لا تأبه للرأي العالمي وأنه لا أثر له في أفعالها، ولم تكن قيادات الدولة اليهوديّة الجديدة لتتورَّعَ عنِ استخدامِ القوّةِ لتوسيع حدودِها وتغييرِ تركيبتِها السكّانية؛ لأنّه لو بقي نصف سكّان الدولة من العرب لما قامتِ الدولة اليهوديّة، وهي حلم الصهاينة الوحيد منذ خمسين عامًا.

استقبلَ اليهود قرار التقسيم الصادر في الأمم المتحدة في تشرين الثاني ١٩٤٧ بفرحةٍ عارمةٍ دفعتْهم للرقص في الشوارع، أمّا العرب فبُهِتوا وثارتْ ثائرتُهم، وأعلَنوا إضرابًا ثلاثةَ أيام، تخلّله الكثير من المناوشات والصدامات بين العرب واليهود، وأُعلن نبأُ مقتلِ ستّة من العرب وثمانية من اليهود في الثاني من كانون الأوّل، وقامت جماعاتٌ يهوديّةٌ بإضرامِ النيران في دار السينما التي يرتادها العرب في القدس- وكانت تدعى (سينما ريكس)- فردَّ العربُ بحرق محلاّت لليهود. وفي الثالث عشر من كانون الأوّل، قَتَلت عصاباتُ الإرجون ستّة عشر فلسطينيًّا على الأقلّ في هجماتهم، وجُرِحَ سبعة وستون آخرون في تفجيرات في القدس ويافا، ودُمِّرَ هناك مئةُ بيت فلسطينيّ على الأقلّ[٢].

وقّع عرب حيفا في نهاية شهر كانون الأوّل على هدنــة مــع الهاجانــة، وبدؤوا مغادرة المدينة بعد أن دبّ الرعب بينهم، ولم يبالوا بالنداءات التي أطلقها قادتُهم للمُصابَرةِ في المدينة وعدم الفرار منها. أمّا ما حصل بعد ذلك فيتحــدّث عنه بيني موريس، أستاذ التاريخ في جامعة بن جوريُن في إسرائيل، فيقول:

في صبيحة يوم ٣٠ كانون الأوّل هاجمَ مسلّحونَ من الإرجون حشدًا من العرب هائمين على وجوههم عند مدخل مصفاة النفط في حيفــا، ورمــوهم بالقنابل، فقُتِلَ منهم خمسةٌ وجُرِحَ خمسون، فما كان مــن عمّــال المــصفاة العرب، ومعهم أولئك الذين نجوا من الهجوم، إلا أن هاجموا عمّال المــصفاة اليهود بالعصي والحجارة والسكاكين.

ذُبح في عملية الإبادة هذه التي حدثت في غضون ساعة فقط، ٣٩ يهوديّا، وجُرِح أحد عشر منهم جروحًا خطيرة. فجاء الثأر [تنبّه لهذه الكلمة] من الهاجانة قويًّا ساحقًا، وكان ذلك عشيّةَ ٣١ كانون أول ١٩٤٧، والأوّل من كانون الثــاني ١٩٤٨، فشنّوا غارات على قريتي بلد الشيخ وهوسة اللتين كــان يقطــن بهمــا معظم عمّال المصفاة. ووجّه قادة الهجوم أوامرهم بقتــل "الــذكور البــالغين". ووصلت القوّات المهاجمة إلى وسط بلد الشيخ، وأطلقوا الرصاصَ على المنازل وهدموها، واعتقلوا الذكورَ البالغين، وأعدموهم رميًا بالرصاص. وتقول جمعيــة دراسات الهولوكوست والإبادة الجماعية (HGS): "اضطرت القوّات المهاجمة أن تتجاوز الحدود التي وُضعت لها في بعض الحالات، وأصابت بعــض النــساء والأطفال" بعدَ أن تعرّضت لإطلاق الرصاص من داخل المنازل[٣].

يتّضح مما سبقَ أنّ اليهودَ هم من بدؤوا سلسلة العنف، إلا أنّ مــوريس لا يرى ردّةَ فعل العرب "انتقامًا"، فالانتقام في رأيه هو ما قامت به عصابات

الهاجانة من قتل للرجال والنساء والأطفال، ويضيف أنّهم "اضطروا لتجاوز الحدود التي وضعت لهم" دون توضيح لمن اضطرهم لفعل ذلك، وتحت أيّ ظروف. ويصف موريس الهجمات التي يقوم بها العرب بأنها إبادة لليهود، لكنّ ما حصلَ ليس هجومًا تقودُه حكومةٌ بعينها ضدَّهم، وإنّما ينطبقُ مفهوم الإبادة على أعمال الذبح التي حصلت بموافقة رسميّة لعشرات المواطنين الأبرياء في بلد الشيخ وهوَسة، مع أنّ منهم من دافع عن اليهود في المصفاة وحموهم (حسبما أوردت لجنة الدفاع في المستوطنات الإسرائيلية).

تولّى قيادةَ حركة العنف اليهودي ثلاثة أطراف: قوات الهاجانة ومنظّمتان إرهابيتان هما: الإرجون وعصابة شتيرن، وكانت قوات الهاجانة تميّز نفسها عن المجموعات الإرهابية بأنّها أكثر تنظيمًا وأنها تتجنب العشوائية في هجماتها، إذ زعمت أنّها تستهدف "المجرمين" فقط. والواقع يفنّدُ هذا الزعم، فالهاجانة قد هاجمت غيرَ مرّةٍ أهدافًا مدنيّةً في "مناطقَ تسبّب العربُ فيها بالعنف". ويقول موريس: "وقد تلبّستْ قواتُ الهاجانة بالإرهاب أحيانًا، كما حصل في هجومها على فندق سميراميس في كانون الثاني ١٩٤٨"[٤]. وكانت حصيلةُ هذا الهجوم اثنين وعشرين قتيلًا من الرجال والنساء والأطفال.

وباتتْ هجَماتُ الهاجانة في صدر عام ١٩٤٨ على المدنيين الأبرياء أكثرَ تركيزًا، فراحوا يستهدفون السيارات والمشاةَ والقرى ردًّا على هجمات العرب على اليهود. ومثال هذا ما حصل بعد عشرة أيّام من قرار الأمم المتحدة، لمّا جاء أمر لأحد سرايا الهاجانة بمضايقة حركة السير على إحدى الطرق العربية وتعطيلها. فاستجابت السريّة بنصب كمين لعربتين، ورمتهما

بالزجاجات الحارقة، فجُرِحَ ستّةٌ من العرب، وعَلِقوا بين النيران فماتوا حرقًا. ويعتقد موريس أنّ قائد هذه الوحدة كان أرييل شارون، الذي لم يمنعْه ما فعلَ من أن يصبح رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد. يقول قائدُ الوحدة: "أوضح قائد تلك الوحدة أنَّ المشاركين في الكمين تذكّروا هجمات العرب على المواكب اليهودية وكان "الحقد" يطفح في صدورهم" [٥]. فيعلق موريس ويقول: "فسادَ اقتناعٌ بأنّ الردَّ العنيف الصارمَ كفيلٌ بصعقِ العرب والحدِّ من عنفهم.... لكنَّ الانتقام طالَ البريءَ مع المجرم، وغذّى مشاعرَ الغضب والحقد، وشجَّعَ المزيدَ من المجتمعات العربية على الاستجابة لنداءات الحسيني للحراك الوطني المسلّح بعد فترة من التردّد الكبير للدخول في حمأة هذا الصراع" [٦].

ورأى المندوبُ السامي البريطاني الذي لم تفتأ سلطته تتخلخلُ في فلسطين، أنَّ أفعال اليهود تقف وراء سلسلة العنف التي يدّعون أنّهم يحاولون وقفها، حتى إنّه وَصَفَ الهجماتِ اليهوديّةَ بأنّها "إهانة للحضارة" [٧]. وبدا أنّ بريطانيا تتجاهل أنّها ما زالت- ولو اسميًّا- هي الحاكمَ في البلاد، وظهرَ أنّها تركتْ الطرفين لتصفية القضيّة بينهما. وربّما أرادت الإدارة البريطانية بهذا أنْ تتجنّبَ تعريضَ مزيدٍ من البريطانيين للموت بعد مقتل العديد منهم في فلسطين. وباتت ساحة الإدارة البريطانيّة خاليةً من أيّ اتّهام بأنّها تعيق إقامة الوطن القومي اليهودي، غير أنّ ذلك لم يُثنِ الإرهابيّين اليهودَ عن مهاجمةِ قواتها بين الفينة والأخرى، فقُتِلَ أحد عشر ضابطًا بريطانيًا في هجوم بالقنابل شنّته عصابة الأرجون على نادي الضبّاط في القدس، وكان ذلك في شهر آذار، وأعلنت بريطانيا في شهر نيسان أنّها ستنسحب من فلسطين في الخامس عشر من شهر أيار.

* * *

ثمّة مشهد أخير في أحداث الدراما الفلسطينية في فلسطين، فلا يمكن بعدُ الجزم بأنّ دولة يهودية ستقوم في فلسطين قبل ١٩٤٨، فالثورة التي عمّت الدولَ العربية بجوار فلسطين دقتْ طبولَ حربٍ هدفُها منعُ التقسيم، لأنّ العرب لما أدركوا أنّ التقسيم واقعٌ لا محالة، قاموا بتجهيز جيوشهم لدخول الحرب في اليوم الذي ستغادر فيه القوّات البريطانية، وذلك ليضمنوا ألاّ توسّعَ هذه الدولةُ الجديدة حدودها أو تعتدي على المناطق المخصّصة للعرب وفق قرار التقسيم.

ومن الناحية المقابلة، كان اليهود غير راضين أصلًا بحدود دولتهم التي مُنِحَتْ لهم، وهم قلقون بعد ذلك على ضياع هويّة الدولة اليهودية بين مئات الآلاف من السكّان العرب الذين يضمن لهم قرار الأمم المتّحدة العيشَ في منازلهم وعدمَ إخراجهم منها. فانقدحت في أذهان اليهود من جديد أفكار "نقل السكّان" التي كانت قبلُ وديعةَ مذكّرات قادة الصهاينة وموضوعَ حديثهم ودوّنها تقرير بيل.

بلغ مجموع الفلسطينيين الذين غادروا بلادهم وبيوتهم بين عام ١٩٤٧ و١٩٤٩ قرابة ٧٠٠,٠٠٠ عربيّ فلسطيني، ولم يعودوا إليها أبدًا. وادّعت إسرائيل لسنوات عديدة أنّ مسألةَ التهجير الواسعة هذه لا علاقة لها بأيّ مخطط يهودي لطرد الفلسطينيين. فأوردت صحيفة التايمز البريطانية عام ١٩٦١ أنّ بن جوريُن "نفى في الكنيست البارحة أن تكون الحكومة قد طردت أيّ مواطن عربيّ منذ تأسيس دولة إسرائيل، وقال إنّ تنظيمية اليهود السريّة حتى قبل إعلان الدولة، قد أكّدت أنّ للعرب الحقّ في البقاء في مساكنهم، مشيرًا إلى أنّ الهجرةَ قد حصلت استجابةً لأوامر القادة العرب."[٨] بل إنّ

المصادر اليهودية الحديثة تقول إنّ بن جوريُن "حثّ العرب على البقاء في فلسطين، ووعدهم ألا يلحقَ بهمْ أيُّ أذى".[٩] ويقدّم لنا المؤرّخ اليهودي سيمحا فلابان تلخيصًا للموقف الإسرائيلي الرسميّ في هذا الشأن فيقول: "لا علاقة لإسرائيل بهجرة الفلسطينيين، بل إنّها في الواقع بذلت كلّ جهد لوقفها". ويقول إنّ هذا أمر "موجود في التاريخ الرسمي للصهيونية وفي جميع ما نشر في الحملات والمنشورات الإسرائيلية"[١٠].

وحيالك نسخة أمريكية حديثة من موقع إلكتروني توضّح سبب هجرة الفلسطينيين:

حين شنّت الجيوش العربية الستّة عدوانها عام ١٩٤٨ على الدولة اليهودية لتدميرها في يوم ميلادها الأول، وجّهت نداءً للسكّان العرب طلبوا منهم فيه أن يغادروا منازلهم كي لا يعيقوا تقدّمها، وذلك على أمل أن يعودوا إليها بعد "النصر المؤكّد" ويجنوا الغنائم من اليهود الذين سينتهي بهم المطاف كما زعموا في مياه البحر. إلا أنَّ هذا لم يحصل، وغادر أولاء العرب في جهلهم معرضين عن نداء اليهود لهم للبقاء في بيوتهم وعدم الذعر فأصبحوا لاجئين. أمَّا أولئك الذين لم يستجيبوا لتغرير العرب فهم منذ خمسين عامًا مواطنون في إسرائيل لهم من الحقوق والمزايا مثل ما لرفاقهم اليهود"[١١].

وإنّما هذا افتراءٌ بحتٌ يفنّده رأيُ علماء التاريخ اليهود والعرب وسواهم، الذين اعتمدوا في أحكامهم على السجلاّت الرسمية الإسرائيلية. فهجرة العرب كانت سببًا، ولم تكن نتيجة، لتحرّك الدول العربية المجاورة لفلسطين الخاضعةِ للانتداب. فهجرة أهلها بدأت قبل أن تعبر الجيوش العربية الحدود بأشهر عديدة، ولم يكن هدف هذه الجيوش تدمير إسرائيل في "يوم

ميلادها الأول"، ولكنّها تقدّمت نحو المناطق العربية لتعيد الأمور إلى نصابها وتحمي أهل فلسطين من الاعتداءات الإسرائيلية، وتوقفَ الطردَ المنظّمَ للسكان. ولم تقعِ الأبحاث المستمرّة منذ خمسين عامًا على أيّ شيءٍ يثبت ما ذكر من أمر النشرات الإذاعيّة العربية التي تخبر العرب أن يغادروا منازلهم، بل عُثِرَ على نشرة إذاعيّة واحدة تطلبُ منهمُ الثباتَ وعدمَ الهرب، إلا أن الضغوط العسكرية والسياسية أحاطت بهم لتخرجهم من أرضهم- وكان مصطلح "التطهير" هو المستخدم في السجلاّت الرسمية. ونطاق كتابنا هذا لا يتيح لنا الخوضَ في قضيّة عرب إسرائيل، ولكننا نشير إلى أنّهم لا يتمتّعون بكافّة "الحقوق والمزايا مثل ما لرفاقهم اليهود." فهم مواطنون من الدرجة الثانية في دولة عرقية بالتعريف.

أصبح حاييم وايزمان أولَ رئيس لإسرائيل، وهو الشخصية التي كانت على رأس كلّ التحركات التي انتهت بالسيطرة على فلسطين في أربعين سنة مضت، ولاسيّما تلك الجهود التي سعت لبيان ضرورة طرد الفلسطينيين. وقد قال مرّة يتهكّم ساخرًا من هجرة الفلسطينيين: "كانت [الهجرة] طريقة عجيبة لإخلاء الأرض، ألقت عن كاهل إسرائيل عناء هذه المهمّة."(١٢) وفي هذه العبارة تأكيدُ حرص إسرائيل الكبير على تفريغ فلسطين من عربها.

ولا بدّ أن نشكر بيني موريس وسواه من "المؤرّخين الجُدد"، الذين كشفوا لنا الحقيقة فيما يتعلق بهجرة الفلسطينيين. فموريس لا يشكّ البتةَ بأنّ السياسة التي اتبّعتها إسرائيل ورسمتها قيادة الهاجانة، تمثلت بطردِ السكّان بالقوة، وبدأت هذه السياسة في عام ١٩٤٧ لمّا كانت الأمم المتحدة لا تزال تتباحث أمر القضية الفلسطينية، واستمرّت لتصبح جزءًا من سياسة الحكومة الرسمية حتى بعد قيام دولة إسرائيل.

وكثفت قوّات الهاجانة وعصابات الإرجون وشتيرن من هجماتها على القوّات البريطانية في الأيّام الأخيرة للانتداب في فلسطين، ثمّ انتقلوا بعد ذلك لمهاجمة الأهداف العربية بقصد إنهاكها قبل الحرب التي كان الطرفان يستشرفانها. وفي شهر آب ١٩٤٧، أيْ قبلَ ثلاثة أشهر من إعلان قرار الأمم المتحدة، هاجمت قوات الهاجانة بيتًا في مزرعة وفجّرته على رءوس أهله، وهم عائلة عربية ثريّة قُتل منها اثنا عشر شخصًا من ضمنهم أمّ وستّة أطفال.(١٣) وكان هذا الهجوم بداية سلسلة من الهجمات المنهجيّة التي تتعمّد تدمير البيوت وقتل العرب وعائلاتهم إن هم أبدوا مقاومة ضدّ استيلاء اليهود على أرضهم.(١٤) ومع مضيِّ الأشهر أصبح معيار تعريض العرب للترهيب والقتل غير مرتبط باستهداف "المسلّحين" وأسرهم وحسب، بل أصبحت السياسةُ هي "تطهير" المناطق ذات الأغلبيّة العربيّة بأسْرها من الفلسطينيين. وبعدَ ساعاتٍ من إعلان قرار التقسيم، ظهرت أماراتٌ بأنّ العرب بدءوا يغادرون بيوتهم، وهم حتمًا قصدوا المغادرة لحين، ولم يطلبوا لجوءًا أبديًّا.

سادت حالة من الخوف، وتوقّع الجميعُ أنَّ حالة العنف لن تتوقف، ممّا حدا بالعائلات الفلسطينية الثرية في المناطق المجاورة للأحياء اليهودية في يافا والقدس على سبيل المثال، أن يجمعوا متاعهم، ويحزموا حقائبهم للانتقال إلى منطقة أكثر أمنًا، إلى أن تنتهي موجة العنف العاتية في البلاد؛ فالمدنيّون معرّضون للقتل العشوائي بأيّ لحظة، وبعض المناطق تزداد خطورة عن سواها ولا تصلح أبدًا مكانًا تقيم فيه الأسرة وتنعم فيه بالأمن. وارتأى العديد من أغنياء فلسطين ضرورة أخذ الحيطة والانتقال للعيش مؤقّتًا مع أقرباء أو أصدقاء لهم في فلسطين أو سوريا أو مصر.

ولم تفوّتِ القوّاتُ اليهوديّةُ وقادةُ الصهاينة الفرصة؛ فاستغلّوا حالة الهلع السائدة بين بعض العرب وعمدوا إلى زيادة نطاقها، فاقترح أحد قادة الهاجانة في تل أبيب تعطيل خزّان المياه في يافا، وهي المدينة المجاورة لتل أبيب، كي يضطرّ العرب لمغادرتها بحثًا عن الماء. وحين زار ديفيد بن جوريُن القدس في شهر شباط نظر حوله، فلم ير "الغرباء"- كما كان يصف العرب- وقال: "ما حصل في القدس قد يحصل في بقيّة أطراف الدولة، إن لم نَحِدْ عن يقيننا [نحن اليهود]... فإن استمرّت شعلة العزم متّقدة فينا فليس بعيدًا أن نرى الأمور قد تغيّرت في ستة أشهر أو ثمانية أو عشرة بعد الحرب... ولن تأتِ جميعُها بما نكرَه. ولا ريب أنّ تغييرًا كبيرًا سيطرأُ على تركيبة السكّان في الدولة"[١٥].

إنّ لكلّ عمليّة عسكريّة غرضين: الأوّل هو تحقيق الهدف العسكريّ، كوقف الهجمات التي تشنّها الميليشيّات العربيّة المسلّحة، ونذكر هنا أنّ المقاومة العربيّة للاعتداءات اليهودية كانت تابعة لجيش التحرير العربي، الذي كان ضعيفًا إلى حدّ كبير، تدعمه الجامعة العربية، والعديد من مجموعات المتطوّعين من العرب. أمّا الهدف الثاني فهو إرغام عامّة السكّان العرب على مغادرة بيوتهم وقراهم والابتعاد عنها لأطول مدّة، حتى يتاح لليهود تدميرها، وحرمانهم من حقّ العودة إليها، حتى إنّهم كانوا يلوّثون الآبار ويعطّلونها لضمان ذلك.

ويقدّم موريس عددًا من الأمثلة التي تُظهر كيف كان العرب يُطرَدون من منازلهم. وقد ظل الأمر في مبدئه محدودًا، ثمّ تدهورت الأوضاع بفظاعةٍ حتى أصبح طرد الفلسطينيين على أشدّه. فقد هاجمت الهاجانة قرية

(منصورة الخيط) في كانون الثاني ١٩٤٨، وحرقت المساكن وقتلت المواشي، وكانت الأوامر للوحدة المهاجمة تقضي بقتل كلّ من يقاوم. وقد تعرّضت قرية الحسينية في شمال فلسطين لهجوم في منتصف آذار بعد أن هاجم بعض العرب سيّارات على الطريق اليهودية، فدمّر كثير من المنازل، وقُتل العشراتُ من العرب، وكان منهم بعض الرجال العراقيين الذين ساعدوا في صدّ الهجمات اليهودية، وكثيرٌ من النساء والأطفال. كما أُعدِم مختارُ القرية، بعدَ أن أخذَ الأمان من القوّات اليهوديّة بأنّهم لن يلحقوا به أيّ ضرر(١٦). وفي الأيّام الأخيرة من شباط من ذلك العام، ركنتْ مجموعةٌ يهوديّة سيارةً مفخّخة في كراج، زعموا أنّه يستخدم لصناعة السلاح، فقُتِل وجرح عشرات العرب إثرَ ذلك. ولم تتورّعْ قوّات الهاجانة عن استخدام قذائف الهاون لمهاجمة الفلسطينيين المدنيين في بيوتهم، ففي الخامس من آذار- على سبيل المثال لا الحصر- قُتِلَ خمسة من عائلة واحدة، بينهم امرأة وطفلان لها. فأثارت مثل هذه الهجمات ذعرًا بين أهل المدينة، وصار يغادرها في كلّ يوم عشرات العائلات الفلسطينية.

ويتجلّى لنا في السلسلة المبكّرة من الهجمات اليهودية هدف ثالث، فالقوّات اليهودية- بالإضافة إلى ما تسعى إليه من تحقيق الأهداف العسكريّة وطرد العرب- كانت تأمل أن تنتشر أنباء وحشيّتهم في فلسطين كلّها ليتركَ أهلها بلادَهم بداعي الخوف، دون حاجة لطردِهم منها. ولم تسجّلْ في تلك المرحلة حالةٌ أفظع إرهابًا ممّا حصل في مجزرة دير ياسين في التاسع من نيسان ١٩٤٨، وتكاد لا تجد أحدًا، عدا من تبقّى من زمرة عصابات الإرجون وليهي، ينكر أنّ ما حدث في دير ياسين هو مجزرة ذُبِحَ فيها

مدنيّون أبرياءُ بدمٍ بارد. والغاية من وراء ذلك أن يعرفَ بقيّةُ العرب الفلسطينيين المصيرَ الذي ينتظر المدن والقرى التي يأبى أهلها الخروج منها.

قريةُ دير ياسين من القرى الصغيرة على أطراف القدس، ولم يكن لها أيّ شأن في حركة المقاومة ضدّ اليهود، بل إنّ أعيانَ القرية رفضوا طلب المتطوّعين العربِ الاستعانةَ برجال القرية لمحاربة اليهود، ومنعوهم من استخدام القرية لمهاجمة قاعدة يهوديّة قربَها، فردّ المتطوّعون العرب بقتل رؤوس الماشية فيها. ووقَّع أهلُها فوقَ ذلك على اتفاقٍ جيرانهم من اليهود للالتزام بعدم العدوان بينهم. فما الذي لزمَهم فعلُه فوق هذا كلّه ليصدقَ اليهودُ رغبتَهم بالسلمِ والأمن؟ كان الحكم في نهاية المطاف يشير إلى أنّهم عرب، يعيشون في أرض أرادها اليهود لأنفسهم.

في يومِ التاسع من نيسان، صبّحَ القريةَ مئةٌ وثلاثون يهوديًّا من الإرجون وشتيرن وهاجموا أهلها، تدعمهم الميليشيا اليهوديّة الرسميّة من قوّات الهاجانة بالمدافع الرشّاشة، فعاثوا في القريةِ تدميرًا لمساكنها، وتقتيلًا لسكّانها الذين حاولوا الفرار منها. فمنْ لم يتمكّنْ من الهرب- ومعظمهم من النساء والأطفال- سيق إلى ساحة قريبة وقتلَ هناك. وقال أحد شهود العيان اليهود: "استولى اليهود على القريةِ بقسوة كبيرة.. فأزهقت أرواح عددٍ كبيرٍ من العائلات، ولم يسلمِ النساءُ ولا الشيوخُ ولا الأطفال. وتحدّث بعض أفراد عصابة ليهي عن التصرّف الوحشيّ من مجنّدي الإرجون مع السجناء والقتلى وقالوا إنّ أفراد الإرجون اغتصبوا عددًا من الفتيات العربيات وقتلوهنّ بعد ذلك"(١٧).

ويقول يهوديٌّ عمل ضابط مخابرات في الهاجانة: "رأيت في مقلع الحجارة خمسة من العرب الذين طوّفوا بهم شوارع المدينة. كانوا قد ذبحوا، ووضعت كلّ جثة فوق الأخرى... ورأيت بكلتا عيني سفك دماء العائلات بنسائها وأطفالها وشيوخها، وكانت جثثهم تُلقى بعضها فوق بعض..كان المنشقّون عن الصفوف يعيثون في القرية فسادًا ويسرقون وينهبون كلّ شيء، كلّ منهم يتبخترُ في القرية ملطّخًا بالدماء، يفخر بعدد الأشخاص الذين قتلهم. كان أثرُ الجهل والغباء ظاهرًا عليهم مقارنة بجنودنا [أي جنود الهاجانة]... اجتمع في أحد البيوت في وسط القرية قرابة مئتي امرأة، وعدد من الأطفال الصغار، جلس النساء ساكنات لا يتكلمن، وعندما وصلت هناك قال ليّ "القائد" إنّهم كانوا يعتزمون قتلهم جميعهم، إلا أنّني علمت مساء ذلك اليوم أنّهم نُقلوا إلى قرية مصرارة، وأطلق سراحهنّ مع الأطفال هناك"[١٨].

وصف قائد المجزرة، مناحيم بيجن، الضحايا العربَ بأنّهم جنودٌ، وذلك في سياق روايته لأحداثها. وكان مزهوًّا يفخر بأنّ "العرب ولّوا أدبارهم مذعورين قبل أن يواجهوا القوّات اليهودية"[١٩]. وتنكر دوريس كاتز، إحدى مجنّدات الإرجون، أمرَ المجزرة من أساسها، وتقول: " إن دير ياسين قرية عربية قرب القدس استولت عليها قوّات الإرجون بأكملها، فكان ذلك مدعاة لصدور بعض التقارير المبالغة التي تتحدث عن مجزرة قُتِلَ فيها النساء والأطفال في هجوم وحشيٍّ واسع النطاق"[٢٠]. ثمّ كتبت بعد ذلك: "ولو افترضنا جدلًا صحّة هذه الاتّهامات، فلا بدّ أن نعلم أنّنا في عصر القنبلة الذرية، التي تُستخدَمُ لقتل عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال غير المحاربين، فإن عُدَّت هذه وسيلةً عسكريةً شُرّع استخدامها لأنّها أنقذت حياة الآلاف من الأمريكيين والبريطانيين، فإنّ أيَّ استنكار لما حدث في دير ياسين لا يعدو إذن عن كونه نفاقًا محضًا"[٢١].

يقول بيني موريس: "أضافت هذه المجزرة بالطريقة التي نُقل خبرها بواسطة الإذاعة العربية ضغطًا كبيرًا على القادة العرب لمساعدة الفلسطينيين فيما أصابهم، وأكّدت عزمهم على دخول فلسطين... إلا أنّ الأثرَ الأخطر لهذه المجزرة والتغطيةِ الإعلامية التي تبعتها هو تمكّنُ الذعر بين الفلسطينيين، وخروجهم بهذه الحالة من قراهم ومدنهم"(٢٢).

باتَ العربُ على مرّ العقود يردّدون قصّة مجزرة دير ياسين ليؤكّدوا كيفَ تعمّدت الميليشيّات اليهودية قتلَ المدنيين الأبرياء. أنكرتْ إسرائيلُ أمرَ المجزرة برمّتِه، وقالت إنّها تشويه إعلاميٌّ من العرب، لكنَّ الأدلّة التي تكشّفت تَحملُ حقائقَ لا يمكن إنكارُها بحال من الأحوال، ولم يكن في وسع من أراد التهوين من فظاعتها إلا أن يقولَ إنّها كانت حادثة مشئومة، غير أنها استثنائيةٌ، حدثتْ في معمعةِ القتال وثورته، وهذا أيضًا ادعاءٌ يفنّده الباحثون المعاصرون، الذين كشفوا عن مجازر أخرى لم يكن الهدف منها سوى بثّ الرعب بين الفلسطينيين. ويقول مدير سجلاّت الأرشيف الحربية الإسرائيلي السابق: "ارتكبت في كلّ قرية من القرى التي احتلّتها قوّاتنا أثناء حرب الاستقلال أفعالٌ هي جرائم حرب، وقد اشتمل ذلك على عمليات الذبح والمجازر والاغتصاب"(٢٣). أمّا يوري ميلستاين، مؤرّخ حرب الـ ٤٨، وهو مؤرّخ إسرائيلي مرموق، فيذهب أبعد من ذلك ويقول: "كانت نتيجة كلّ هجوم مجزرة ضدّ العرب"(٢٤).

ويصف ميرون بينفينيستي، النائب السابق لمحافظ القدس، بعضَ المجازر الأخرى التي حلّت بالقرى المجاورة لمدينة صفد ويقول: "هذه الأعمال الوحشيّة- التي كانت قبل خمسين عامًا تعدّ دعاية مغرضة من نسج أعداء إسرائيل، وكان إخبارها من جديد مثالًا على محاولة إعادة كتابة التاريخ على يد أصحاب المراجعات التاريخية، كانت تقع في ذلك الحين بعلم وزراء الحكومة الإسرائيلية والقادة العسكريين وحتى عامّة الناس. وقد شكّلت الحكومة لجانًا خاصةً، إلا أنّها لم تأتِ بشيء؛ لأنّ الجنود والضبّاط رفضوا الإدلاء بشهاداتهم ضدّ رفاقهم"(٢٥).

وكانت هذه العملياتُ جزءًا من خطّة يهوديّة لطرد العرب، وهذا ما يؤكّده المؤرّخ الإسرائيليّ إيلان بابي:

كانوا حريصين على عدم تدوينها، ولكنّها خطّة كانت تُعرف باسم "الخطة دال" (داليت بالعبرية)، وهي تكشف ما خفي من جهود الإبعاد المنظّم للفلسطينيين. وهي خطة وضعَ نواتَها مجموعةٌ من القوّات المسلّحة اليهوديّة في آذار ١٩٤٨، ورفعوا الخطّةَ على مبدأ مهمّ واحد: كلّ قرية أو ناحية عربية لا تعلن استسلامها للقوّات اليهوديّة ولا ترفع الراية البيضاء، تعرّضُ نفسَها للسحق والدمار، وسيطرَدُ منها أهلُها. وأعتقدُ أنّهم كانوا يعلمون جيّدًا أنّه لن يستسلم لهم من القرى سوى خمسة أو ستّة على الأكثر، ولِمَ يستسلمون؟ أيستسلمون بعد ما حصل في دير ياسين في نيسان، وبعد موجة الخوف التي عمّت المجتمع العربي؟ وهذا ما حصلَ بالفعل، فلم يرفعِ الرايةَ البيضاءَ سوى أربع قرى، وتعرضتِ البقيّة الصامدة لطردِ سكانها منها. وبقي أن أشير إلى مجموعة من الأحياء الفلسطينية الأخرى التي رفعت الراية

البيضاء، لكن من غير فائدة ترجى... وكلُ هذا واضح لا لبس فيه. وعلينا أن نذكّرَ بأنَ خطّةَ التقسيم التي أقرّتها الأمم المتحدة في تشرين الثاني ١٩٤٧ كانت كفيلة بأن يكون عدد العرب واليهود سواءً في الدولة اليهودية، لكنّ هذا يتعارض مع فكرة الدولة اليهوديّة، فحرص اليهود على طرد أكبر عدد ممكن من العرب، وهذا ما تمّ لهم (٢٦).

ومع اقترابِ موعد الخامس عشر من أيّار- وهو التاريخ المُقرَّر لتغادرَ بريطانيا فلسطين- تصاعدتْ حدّةُ عمليّات قوّاتِ الهاجانة للاستيلاء على ما يمكنُهمُ الاستيلاءُ عليه من القرى والمدن الفلسطينيّة، وأدّى هذا على حد قول موريس إلى "اختلال هائل بالتركيبة السكّانية، صعقَت به الدول العربية، وسبّب لها إحراجًا كبيرًا، إذ أكّدَ ذلك ضعفَ الفلسطينيين وعجزَ الدول العربية في ظلّ وجود الانتداب عن التدخّل، ودفعهم ذلك إلى الإقدام على الحرب بعد أن كانوا غير متحمّسين بشكل كبير لها. ولا توجد أدلّة تشير إلى أنّ الدول العربية، أو اللجنة العربية العليا، أرادت هجرة بهذا الحجم أو أنّهم وجّهوا أوامر أو أطلقوا نداءات على عواهنها تأمر بنزوح العرب الفلسطينيين"(٢٧).

لم تُقدِم الجيوشُ العربيةُ التي عزمت على دخول فلسطين على أيِّ هجومٍ عسكريٍّ في هذه المرحلة بالذات، بل آثرتِ الحفاظ على الجزء المخصّص للعرب، لكنّ قوات الهاجانة لم تأل جهدًا لتستولي على أكبر عدد من المدن العربية في فلسطين، فاستولوا على يافا في ٢٨ نيسان، واستولوا على الأحياء العربيّة في المدينة الجديدة في القدس في ٣٠ نيسان، ثمّ قبضوا

على بيسان في الثامن من أيّار، وتلتها صفد في اليوم العاشر، ثمّ عكّـا فـي الرابع عشر من أيّار ١٩٤٨. ولم يهاجم العرب في المقابل أيّ مدينة أعطيت لليهود وفق قرار التقسيم(٢٨).

أمّا مدينة طبريّة، مدينةُ العيش المشترك بين اليهود والعرب منذ أجيال طويلة، فشهدت قصفًا للحيّ العربي فيها بقذائف الهـاون، وحاولـتْ قـوّاتُ الهاجانة فصلَ المدينة عن المدن المجاورة، فاحتلّتْ قرية خربة ناصر الدين، وهي قرية على أحد التلال القريبة، وقتلوا فيها اثنين وعشرين من العـرب، بينهم نساء وأطفال، أمّا بقيّة سكّان القرية فهربوا إلى طبريّة حاملين معهـم نبأ المذبحة، فدبَّ الذعر بين العرب في المدينة. وجاء في مذكرات مـسئول في الصندوق الوطني اليهوديّ: "لا أجد تفسيرًا لما فعلته قـوّات الهاجانـة. لا أعلم إن كان ثمّة سبب للهجوم على العرب وقتل هذه الأعـداد الكبيـرة منهم. لقد ترك مشهد هروب النساء والأطفال من القرية مذعورين أثرًا سيّئًا في نفسي"(٢٩).

وكانت مدينة صفد هدفًا آخرَ لا يمكن للهاجانة إغفاله؛ فهي مدينة يعيش فيها عشرة آلاف عربي، يجاورهم فيها ألف وخمسمئة يهودي فقط، وكانـت مع هذا ضمن المناطق الخاضعة لحكمهم وفق خطّة تقسيم فلـسطين. وفـي السادس عشر من نيسان، أخلتِ القوّاتُ البريطانيةُ المدينةَ، ويروي لنـا مـا حصل بعد ذلك أحد الضبّاط الكبار في المنطقة، واسمه إيجال ألون:

رأينا لزامًا أن نطهّر منطقةَ الجليل الداخلية، وأن نُنشئَ نطاقًا يهوديًّـا متّحدًا في منطقة الجليل العليا. ونظرًا لاستمرار المعارك لمدّة طويلـة فإنّنـا

خسرنا الكثير من قوّاتنا، وواجهنا مصاعب جمّة في قطع الطرق على الاجتياح. فعمدنا في هذه الظروف للبحث عن وسائل تعفينا من اللجوء إلى القوة لطرد عشرات الآلاف من العرب المعادين لنا في منطقة الجليل، والذين لا يؤمن جانبهم في حال بدء الاجتياح من الخارج... فجمعت مخاتير اليهود ممن تربطهم علاقات جيّدة مع القرى العربية، وطلبت إليهم أن يسرّوا في آذان العرب أنَّ قواتٍ يهوديّةً ضخمةً وصلتْ الجليلَ، وهي عازمة على تطهير قرى الحولة، وأن ينصحوهم بصدق أن يغادروها قبل ألاّ يتاح لهم ذلك. وشاع الخبر... فاقتنعوا أنَّ الوقتَ حان لترك أرضهم، فنزح منهم عشرات الآلاف، وحقّقت هذه الإستراتيجيّة هدفَها، وأصبحنا قادرين على نشر جندنا بانتظار المواجهة مع الغزاة على الحدود، دون خوف على مؤخّرتنا [٣٠].

لم تكن هذه الإشاعاتُ المصطنعة بالتأكيد لتؤدّي الغرض منها لولا أنّ حصيلة الضحايا في العمليّات العسكريّة اليهودية كانت تتزايد بالفعل.

قضت الأوامرُ العسكرية بمهاجمة ثلاث قرى في الجليل، وطردِ أهلها منها وتدمير منازلهم. وحصلَ أنّ قسًّا كاثوليكيًا كان يؤدّي صلواته في الكنيسة وقت الهجوم، وهو يروي لنا ما سمعه: "حين فرغت من مباركة الخبز سمعت انفجارًا مدويًا في قرية الطابغة، فخرجنا مسرعين، ورأينا أعمدة الدخان تتصاعد في السماء، وشاهدنا المنازل تُقصَفُ وتُحْرَقُ واحدًا تلو الآخر، وامتدّت هذه العمليّاتُ إلى المناطق حول نهر الأردن. قُصِفَ كلُّ شيء في المكان، وأُضرِمَتِ النيرانُ في الخيام والأكواخ، واستمرّتِ التفجيرات طوال اليوم، وكنّا نرى الدخان والنار، ولمّا حلَّ المساء، رأينا "المنتصرين" عائدين بشاحنات مليئة بالماشية، بعد أن قتلوا ما عجزوا عن حمله معهم[٣١].

ولم يسلم السكّان في صفد نفسها من إرهاب الهاجانة، بعد أن تعرّضوا للقصف بقذائف الهاون التي سقطت إحداها في السوق، وأردت ثلاثة عشر عربيًا، أغلبهم من الأطفال. واستولى الجيشُ اليهوديُّ في الأول من أيّار على قريتين قرب صفد؛ خشية أن يستخدمهما العرب قواعد لهم، وأسَروا عشراتِ الرجال، وطردوا النساءَ والأطفالَ والشيوخَ الذين رفضوا مغادرة منازلهم، وتعرّض جميع من سُجن من الرجال للذبح بعد يوم أو يومين في واد صغير يفصل بين القرى وصفد.

نظرَ أهل صفد إلى الدمار والخراب في منطقة الوادي حولهم، ففهموا مغزى الرسالة: أن انجوا بأنفسكم قبل أن يحلّ بكم مثل ما حلّ بجيرانكم. فخرج من صفد آلاف اللاجئين، ومنهم عدد من أقاربي، وذهبوا يهرعون جهة سوريا ولبنان. لكنّ المشهد لم ينته، ولم تستسلم صفد لليهود إلا بعد عشرة أيّام، إذ اندلعت مواجهات بين الميليشيات العربية واليهودية، وبعث المقاتلون بطلب العون من القوّات العربية، فأتت تشقّ طريقها بين حشود المهاجرين. أمّا الجيش البريطاني، الذي لم يتبق له سوى عدّة أيّام لمغادرة البلاد، فلم يحرّك ساكنًا لإيقاف المذبحة اليهوديّة في صفد، وسقطت المدينة في الحادي عشر من أيّار.[٣٢] وطلب أعيان المجتمع اليهودي في صفد ضمانًا من الحكومة الإسرائيلية ألا يعود العرب إليها، وأن تجلب الحكومة آلاف اليهود ليسكنوا في بيوت العرب، وذلك لتأكيد بقاء المدينة بصبغة يهوديّة خالصة، فإن لم تفعل الحكومة ذلك فإنّهم سيلجؤون لهدم هذه البيوت، وإلا "عاد إليها العرب والحقدُ يملأ قلوبهم"[٣٣].

نزح عدد كبير من العرب إلى الدول المجاورة برًا وبحرًا بعد أن اندلعت الحرب بين اليهود والعرب.

كان حسيب صبّاغ في ٢٣ نيسان ١٩٤٨ يعيش ويعمل في حيفا وكانت أفواج العرب الفلسطينيين تغادر المدينة هربًا من مذابح اليهود الأخيرة. ويذكر حسيب أنّه رأى جورج معمّر، أحد أعضاء اللجنة الوطنية العربيّة في حيفا، يقف على شرفة قريبة. "بدا جورج شديد الغضب لرؤية سكّان حيفا

يغادرون، وكأنّي أمامه الآن أنظره يصرخ بالحشود مـن تحتـه، يناشـدهم ألاّ يغادروا. ركضت إليه لمّا رأيت ذلك، وقلت له بصوت عال: "هل تعـي حقًّا ما تفعله؟ اتركهم وشأنهم! أيسرّك أن يسمعوا قولـك، فيُقتَلـوا وتكـون الملامة عليك؟" فلم يصغ لما قلته، فسحبته إلى الأسفل، وصمتَ رغم أنفه".

أراد حسيبُ أن يذهب إلى بيته في صفد، ولم تزلْ فـي قبـضة المقـاتلين العرب، وكانَ يلزمُه ليصل إليها أن يتفادى القوّات اليهودية بأن يذهب شمالًا إلى بيروت، ويدخل المدينة نزولًا من لبنان. يقول حسيب: "كان لشركتنا شاحنات في حيفا، فدعوت من يرغب بالسفر إلى بيروت أن يصعد على ظهرهـا، فأخـذتِ الشاحناتُ حملَها بسرعة كبيرة، ورافقتنا القوّات البريطانيّة حتـى وصـلنا إلـى الحدود اللبنانية. وصلنا بيروت في الثالث والعشرين من نيسان، ومكثنـا فيهـا أسبوعين، ثمّ توجّهت وحدي إلى صفد. ولمّا وصلت الحدود في التاسع من أيّار، ذهلت بجموع الناس القادمة من ناحية صفد، ورأيت بينهم أخي منيرًا، وأختـي سعاد، وكانت مذعورة حافية القدمين ممزّقة الثياب."

غادة الكرمي، فلسطينية تحمل الجنسية البريطانية الآن، كانـت طفلـة في تلك الأيّام، هربت مع والديها من القدس، ونجوا بأنفسهم إلـى دمـشق، والتقت عائلتها هناك بالنازحين من صفد: "جاءَ أهل صفد بعد أن طُردوا من منازلهم في المطر والوحل والبرد، وتركوا وراءهم من سقط مـن الـشيوخ والضعفاء، وفُصِل الأطفال عن أهلهم. رأيناهم يصلون سوريا، الخوفُ فـي أعينهم، والإنهاكُ بلغ بهم مبلغًا عظيمًا. لم يجدوا سوى قليل من الخيام لتئوي بعضَهم، أما من بقيَ فمكث في المنازل أو المساجد أو على قارعة الطريـق أينما انتهت بهم طريقهم، وكثير منهم أصبحوا من أهل مخيّمات اللاجئين التي نعرفها اليوم"[٣٤].

يقول حسيب:

سقطت صفدُ فعدنا أدراجَنا إلى بيروت، وتفكّرتُ بحالنا هذه، ورأيت حاجةً ملحّة لتقديم المال لعائلتي، وكان لدينا الكثير من الأموال في بنك باركليز في حيفا، فقرّرت من فوري أن أرجع هناك، فركبت البحر من صور، وكانت الريح تعصفُ بالقارب المكتظّ بالمسافرين، والكلُّ يتقيأ على الآخر. توقّفت السفينةُ في الميناء قرب المستشفى الحكومي في العاشر من أيار، قبل خمسة أيّام من انتهاء الانتداب البريطاني. وصلْنا المدينةَ، ورأينا القوّات البريطانية وقوّات الهاجانة، فنظر رجال الهاجانة إلى هويّاتنا، وكان الانتداب لمّا يرحل بعد، فسمحوا لنا بالدخول.

ذهبت في اليوم التالي إلى بنك باركليز قبيل إغلاقه وسحبتُ ٢٠,٠٠٠ جنيه إسترليني نقدًا، وقفلت راجعًا إلى بيتي، وفي الطريق زرت مبنى البلدية، فرحّب بي أصدقاء لي من اليهود كانوا يعملون هناك، فحثوني على البقاء في المدينة، ومازحوني قائلين إنّهم يريدون منّي حمايتهم من الجيوش العربية. أخبرتهم أنّني قدمت لآخذ المال حتى أساعد عائلتي خلال هذه الظروف بعد سقوط صفد، ولا بدّ أن أعود إلى بيروت. غادرت حيفا من غير رجعة في الرابع عشر من أيار، ووصلت ومن معي في المركب إلى ميناء بيروت في يوم الخامس عشر، لكنّ رجال الأمن صعدوا إلى مركبنا، وسمحوا للأطفال والنساء فقط أن ينزلوا بيروت، أمّا الرجال فأُمِروا بالعودة من حيث أتوا، وكان ذلك أمرًا رسميًا، ويجب تنفيذه دون استثناء.

بدأتُ على الفور بإجراء اتّصالات برفاق لي في لبنان، فتمكّنتُ من الاتصال بحامد فرنجيّة، وكان وزيرَ الخارجية حينها. فأرسل كتابًا رسميًّا لقوّات الأمن، فاستلموه في الميناء، وجاء فيه أن يسمحوا لجميع من على ذلك المركب بدخول لبنان، فكنتَ أنا سببًا لعبور عشرات الرجال إلى بيروت في الخامس عشر من أيّار(٣٥).

غادرَ آخر جندي بريطاني أرض فلسطين بعد أربعة أيام من سقوط صفد، وأعلن اليهود قيام دولة إسرائيل. وبعبارة أحد المؤرّخين: "إنّ البريطانيين لم ينقلوا السُّلطةَ وإنّما تخلّوا عنها"(٣٦).

هوامش الفصل العشرين

(1) <http://msanews.mynet.net/MSANEWS/199912/ 19991205.0.html>, An Interview with Ilan Pappe, by Baudouin Loos.

(2) <http://sf.indymedia.org/news/2003/11/1662194.php>

(3) Benny Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, Cambridge University Press, 2004, pp. 101-2.

(4) Ibid., pp. 65-6

(5) Ibid., p. 72.

(6) Ibid., p. 85

(7) Ibid., p. 75

(8) The Times, 18 May 1961, quoted in Edward W. Said and Christopher Hitchens (eds), Blaming the Victims, Verso, 1998, p. 81.

(9) Joseph Katz, 'Origins of the Arab-Jewish Conflict', in <http://www.eretzyisroel.org/~peters/depopulated.html>

(10) Simha Flapan, The Birth of Israel, Pantheon Books, 1987, p. 84.

(11) <http://www.factsandlogic.org/>

(12) Nur Masalha, Expulsion of the Palestinians, Institute for Palestine Studies, 1992, p. 175.

(13) Walid Khalidi, Before their Diaspora, Institute for Palestine Studies, 1991, p. 252.

(14) Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, P.343.

(15) Ibid., p. 69.

(16) Ibid., p. 132.

(17) Ibid., p. 237.

(18) Ibid., p. 238.

(19) Menachem Begin, The Revolt, Henry Schuman, 1951, p. 165.

(20) Doris Katz, The Lady was a Terrorist, Shiloni Publishers, 1953, p. 96.

(21) Ibid., pp. 132-3.

(22) Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, PP.237-40.

(23) Quotes from Norman Finkelstein, Image and Reality of the Israel-Palestine Conflict, quoted in The Origin of the Palestine-Israel Conflict, 3rd edn (including Intifada 2000), published by Jews For Justice in the Middle East, <http://www.cactus48.com/truth.html>

(24) Ibid.

(25) Meron Benvenisti, Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land since 1948, University of California Press, 2000, pp. 152-3.

(26) <http://msimews.mynet.netlMSANEWS/199912/ 19991205.0.html>, an Interview with Han Pappe by Baudouin Loos, Brussels, 29 November 1999.

(27) Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, pp. 263-5.

(28) Henry Cattan, Palestine, The Arabs and Israel, 1969, quoted in The Origin of the Palestine-Israel Conflict, 3rd edn (including Intifada 2000), published by Jews For Justice in the Middle East, <http://www.cactus48.com/truth.html>

(29) Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, P.183.

(30) Ibid., p. 249.

(31) Ibid.

(32) Ibid., pp. 221-6.

(33) Ibid., p. 316.

(34) Ghada Karmi, Guardian, 19 October 2002.

(35) Mary-Jane Deeb and Mary E. King (eds), Hasib Sabbagh: From Palestinian Refugee to Citizen of the World, Middle East Institute, University Press of America, 1996, pp. 34-6.

(36) A. J. Sherman, Mandate Days, Thames and Hudson, 1997, p. 243.

الفصل الحادي والعشرون

ضياع فلسطين

ثمّة فرقٌ شاسعٌ بين صفد في عام ٢٠٠٤ وما كانت عليه عام ١٩٤٨ حين نزح منها سكّانُها العرب. زرتُ المدينة يوم السبت، في السادس عشر من تشرين الأول ٢٠٠٤، وكانت مهجورةً، ترَى في شوارعها من القطط أكثر ممّا ترى من الناس. فيوم السبتِ في مجتمع يهوديٍّ متديّن مثل صفد، يجعل المدينة مدينةَ أشباح لا مدينة بشر. قد تلمح من فينة لأخرى شخصًا مشتملاً بالسواد يعبر أحد الأزقّة. ويمكن للناظر أن يرى مشهدَ بحيرة طبريّة من بين بيوت المدينة، وترى من ناحية الشمال مرتفعات الجولان والحدود السوريّة، وعلى اليمين مدينة طبريّة.

وقفتُ على رأس التلّةِ-خارجَ حاميةٍ تركيّةٍ قديمةٍ استخدمها البريطانيون سجنًا وأصبحت الآن مركزًا يرتاده عامّة الناس. ورأيت من بُعدٍ رجلاً يتقدّم صوبي، يلبسُ قميصًا أحمر وبنطال جينز، ولا يضع قبّعة على رأسه. فتبيّن أنّه ديفيد، المرشد اليهوديّ الذي يرافقني، وهو من سكّان صفد، إلا أنّه يختلف عن معظم الإسرائيليين؛ فعائلته قد عاشت في فلسطين طوال أحد عشر جيلاً، تمامًا مثل عائلة صبّاغ. إضافة إلى أنّه رضِعَ أفكارَ أمّه، وهي اليهوديّة اليساريّة، والتي عاشت في المدينة لمّا كان خمسة أسداس السكّان من العرب،

ولها كثير من الأصدقاء المسيحيين والمسلمين. مشينا حول المدينة وأخبرني ديفيد قصصًا روتها له أمّه عن الأيّام التي خلتْ والأحداث التي جرتْ بين عام ١٩٤٧ و ١٩٤٨، وعمّا راعَها من مخطّطات الصهاينة للاستيلاء على فلسطين وسلبها من العرب الفلسطينيين.

بدأت صلَتي بهذا الرجلِ العجيبِ على شبكة الإنترنت، وأنا أتصفّحُ موقعًا إلكترونيًّا يقدم خدمة المحادثة المكتوبة للاستفسارات عن مدينة صفد، فوجدتُ بعضَ السيّاحِ الأمريكيين يسألونَ عن مكاتب تأجير السيارات وعن الطريق إلى صفد من مطار بن جوريُن، وقرأت سؤالاً أيضا مِنْ شخص يهوديّ، يستفسر معلوماتٍ عن عائلته. فردّ ديفيد على سؤاله وقال إنّ في جعبته الكثيرَ عن تاريخ العائلات الصفديّة وإنّه حاصل على درجة الماجستير في هذا الموضوع. فكتبت له فورًا أسأله إن كان يعلم أيّ شيء عن عائلتي، فأجاب بغضون ثوانٍ، وقال إنّه يعلم كلّ شيء عن عائلة صبّاغ في صفد منذ عام ١٢٦٧ "أيّام الظاهر بيبرس المملوكي"- حتى عام ١٩٤٨.

إنّ ديفيد قد عاش تاريخَ صفد وصارَ هذا التاريخُ جزءًا من تكوينه. فهو مدرّسٌ للتاريخ ومرشد سياحيٌّ، بيدَ أنّه توقّف عن التدريس في إحدى الكليّات المحلية لأنّه لم يُطِقْ ما رآه من التّمييز العنصريّ الذي يظهره اليهود المحلّيون تجاه العرب الذين أرادوا الدراسة هناك. كانت الحقائق تتدفّق من كلامه وأنا أطوف معه شوارع المدينة القديمة التي كانت تنقسم قديمًا إلى حيّ المسيحيين وحيّ المسلمين وحيّ اليهود. أمّا اليوم، فمعظم السكّان مهاجرونَ جدُد، وسمعتهم يتكلّمون الروسيّة في معظم الأحيان.

ما زالت المدينة تحتفظ بتلك البيوت الحجريّة الفخمة القديمة، بعـــضها لا يزال مهجورًا، و بعضها الآخر صار محالً للهــدايا أو معـــارضَ فنيّـــة. وقد أوضح لي ديفيد كيف بيعت هذه المنازل بأثمان بخسة بعد خروج العرب منها وحرمانهم من العودة إليها، وقد بلغ سعر المنزل الواحد إلى ١٠٠ دولار وقتذاك، أي ما يعادل ٨٠٠ دولار اليوم، واشتراها اليهود الذين ادّعوا أنّهـــم فنّانون ليتسنّى لهم جذبُ السياح إلى المنطقة. ويظهر ممّا وُضع فـــي هـــذه المنازل من أعمال فنيّة للعرض لتبدو بمظهر المعرض الفنـــيّ، أنّ مفهـــوم "الفنّان" قد توسّع مدلوله كثيرًا حتى صار يشمل أمورًا مثل هذه.

دخلنا أحد هذه البيوت وصار يقطنها رسّام روسي وزوجتـــه، ورأيـــت أعماله تغطّي الجدران المدهونة بالبياض في الغرفة الكبيـــرة البـــاردة ذات السقف المرتفع. كانت اللوحات رسومًا لصور تعبيريّة لا بأس بها، وبعضها مناظر للثلج الأبيض من بلاده، وعلّق صاحب المعرض أيضًا لوحاتٍ للسيّاح بألوان زاهية لمدينة صفد والأماكن التي حولها. ابتهج الرجـــل لمّـــا ولجنـــا المعرض، ثمّ انقبض حين أخبرناه أنّنا أردنا أن نعاين المبنى لأنّ ديفيد يعتقد أنّه أحد منازل بيت صبّاغ. حاولت التقاط صورة للمنـــزل، فقالـــت زوجـــة الرسّام محتدّة: "التصوير ممنوع!"

طفق ديفيد يخبرني أنّ المنزل مذكور في كتابٍ لمحمود عبّاس، المكنّى أبا مازن، والذي سيصبح فيما بعد رئيسًا لفلسطين. وُلد أبو مازن ونشأ فـــي صفد، وهو يذكر جيّدا هذا المنزل الذي يحتوي في إحدى غرفه على شـــجرة زيتون معمّرة، وهو متأكّد من أنّ جذل(*) الشجرة ما زال هناك. وبعثتْ هذه

(*) الجذل هو أصل جذع الشجرة بعد ذهاب الفرع (المترجم)

القصّةُ بعض الذكريات الأخرى عند ديفيد، فأخبرني كيف أنّ أبا مازن اتّصل به من رام الله إبّان معاهدة أوسلو للسلام، حين بدا في الأفق بصيص أمل بالسماح للفلسطينيين بزيارة إسرائيل، وسأله إن كان قادرًا على مرافقته ليدلّه على نواحي المدينة بعد أن غاب هو عنها خمسين سنة. فما كان منه إلا أن وافق على طلبه، غير أنّه أحجم عن ذلك حين ذاع الخبر، ووجدتْ زوجتُه قطّةً مقتولة على باب منزله مع ورقةٍ كُتِبَ عليها: "*هذا مصير أطفالك أيضًا إن زار أبو مازن صفد*". وقد زار أبو مازن المدينة عام ١٩٩٤ بهويّة مزوّرة.

وأخبرني ديفيد قصّة أخرى تظهر العداوة التي يضمرها المهاجرون الجدد للسكّان الأصليّين. "اتّصل بي من رام الله، أثناء مباحثات أوسلو، شخصٌ فلسطينيٌّ عاش في صفد، وأراد أن يعرف ماذا حلّ بمنزل عائلته. فتقصّيتُ له عمّا سأل، وتبيّن لي أنّ المنزل موجود ويسكنه محام. فسألني الرجل ثانية أن أجدَ له إن كان الرجلُ يرغب في بيع المنزل، فأبدى الرجل استعدادًا لذلك، واتفقنا على السعر وبيعَ المنزل. ولم يمضِ وقت طويل على انتشار نبأ البيع حتى أتت ليلة حُرِقَ فيها المنزل بظروف غامضة، ولم تعرف الشرطة الإسرائيليّة كيف حصل ذلك."

على الرغم من أنّ أجيالاً متعاقبة من بيت صبّاغ عاشت في صفد، فإنّ جدّيَ الأكبر قرّر أن ينتقل إلى مدينة طولكرم، وهي المدينة التي ترعرع فيها والدي وتعلّم. وعاش العديدُ من أبناء أعمام والدي في صفد، وأخذني ديفيد لمشاهدة منازلهم، وكانت داراتٍ راقيةً مبنيّةً من الحجر، منتظمة بشكل رأسي قرب سفح أحد التلال، وقد رُفِعَ على سطح إحداها كنيسةٌ وبرجٌ لجرسها، فرحت أنظر خلال شقوق إحدى البوّابات الخشبيّة، وكان منْ ورائها ساحةٌ جميلة ألقت أشجارُها بالظلال عليها.

جبنا المدينة الخاملة، وكان ديفيد يحدّد لي تلك العلاماتِ الدقيقــةَ التــي تكشف ما كانت عليه المدينة من قبل، كتلك اللافتات المعلّقة علــى أبــواب المتاجر في السوق الرئيس التي تحمل عبارات عربيّة مع تاريخ التأســيس، ورأينا،أيضا تحت سقيفة صدئة لإحدى البنايات، كتابة عربيّة تُظهر أنّ المكان كان في السابق مطعمًا عربيًا.

طوّفنا شوارع المدينة ذهابًا وإيابًا، ومررنا بمقبــرة عربيــةٍ يعــود تاريخها إلى القرن الرابع عشر، دُفن فيها أعلام المدينة من المسلمين في ذلك العصر، ووجدنا على مقربةٍ من المقبرة بقايا مسجد من القرن السادس عشر. بدا الخراب واضحًا في كلا المعلمين ورأينا القاذورات تملأ المقبرة. فالتاريخ الوحيد في إسرائيل الذي يستحقّ عناء التنقيب عنه- واختلاقه فــي بعــض الأحيان- هو التاريخ اليهوديّ، ولا ضرورة لحفظ أي آثــار ســوى الآثــار اليهوديّة. فالتخريب قد طال ذلك المسجد وتلك المقبرة حتى صارا بحاجة إلى ترميم كامل، تمامًا كما حصل لمسجد ظاهر العمر في طبريّة. أمّــا المبــاني اليهوديّة القديمة فأحسِنْ بالعناية التي تتلقّاهــا، مــع أنّ الحالــة الاقتــصاديّة متدهوّرةٌ في المدينة، وتزايدت البطالة فيها، حتى صــارت نــسبتها عــشرة بالمئة، وزاد الطين بلّةً ركودُ الحركة السياحية فيهاـ إلا أنّها تملــك ثمــانين مليون دولار، نصفُها مقدّم من الحكومة، مخصّصة لترميم المعابد اليهوديّــة وتجديد مستعمرة "الفنّانين" (في الحيّ العربيّ المسيحيّ القديم)، وترميم جميع المقابر المسيحيّة القديمة.

هنالك مقبرة مسيحيّة باتت غيرَ صالحةٍ للترميم على أحد التلال في طـرف المدينة، وسبق أن وُجِدَ في مدينة صفد خمس مقابر مسيحيّةٍ للعرب، خُرّبت أربـعٌ منها. أمّا الخامسة فدُفن فيها أجدادي وأقربائي، فطلبتُ إلى ديفيد أن نذهبَ ونزور قبورهم، فوجدْنا حائلاً عاليًا من الأسلاك الشائكة يطوّق المكان. وأخبرني ديفيد أنّ الأرض اشتراها صديق أحد أبناء أرييل شارون لتحويلها إلى حديقـة حيوانـات بريّة. كانتْ علامةُ الحياة الوحيدة التي رأيتها من بين الأسـلاك، نعّامـةً يغطّـي الطينُ ريشَها، تتجوّل في المقبرة، تنقر القبور وشواهدها.

أليف صبّاغ أمام أحد بيوت عائلة صبّاغ في صفد، وقد أزال اليهود الكتابة العربيّة على المدخل بعدما سلبوا المدينة.

عبرَ عمّي غسّان الحدود من صفد إلى سوريا، ولمّا أعلنَ اليهودُ قيامَ دولة إسرائيل، كان هو يعيش هناك. وأخبرني عمّي عن ليلة الرابع عشر من أيّار، الليلةِ التي لا يمكن نسيانُها أبدًا، وذلك يومٌ سلّمت فيه بريطانيا أخيرًا عهدةَ فلسطين إلى رَحَمَاتِ خطّة التقسيم الصادرة عن الأمم المتّحدة. وقال لي: "أذكر رجلاً حاذقًا جدًّا، صاحبَ متجر صغير، رحلَ إلى دمشق، حيث تجد فيها آنذاك آلاف الفلسطينيين، وأحضر معه خرائط كبيرة لفلسطين ليتابع سير القتال. فوضعَ قطعةَ زجاج على الطاولة فوق الخرائط، وأراد الجميع أن يعرف مكان الجيوش العربيّة الآن، كأنْ يحدّدوا مكانَ الجيش العراقيّ مثلاً وغيره. اشترى الرجل مذياعًا، فأصبح جميع من حضر يصغي للأنباء، ولم يكن في ذلك الحين سوى الإذاعة البريطانيّة (البي بي سي). تابعَ الجميع أخبار الرابع عشر من أيّار ١٩٤٨، وكانت الإعلانات تتوالى كلَّ لحظةٍ لتنبّهَ المستمعين إلى أنّ عيسى خليل صبّاغ سيتحدّث عند الساعة الثانية عشرة ليلاً، فكان الجميع في انتظارِ تلك الساعة مترقّبين ما يريد عيسى أن ينقله عند منتصف الليل. وأخيرًا سمعنا عيسى يقول: "ليكنِ اللهُ عونًا للعرب الآن. هذه لحظات تاريخيّة... انتهى حكم بريطانيا على فلسطين، فهي الآن دولةٌ حرّة... فلْيحيَ العرب ولتحيَ فلسطين." فانطلق التصفيق بين الجموع الحاضرة، وتوجّب عليّ أن يشرب الجميع القهوة على حسابي، وكلّفني ذلك كثيرًا حينها؛ فالقرش اللبنانيّ مقابل فنجان من القهوة وأنت لا تملك دخلاً، كان يساوي الكثير."

صدق عيسى لمّا قال: "ليكن اللهُ عونًا للعرب".

كان إلياس، ابن عمٍّ لوالدي، يعيش في حيفا لمّا أُعلن قيام دولة إسرائيل، فلم يترك حيلة إلا سلكها ليصل إلى أهله في دير حنّا ويرحل معهم من هناك إلى لبنان، لكنّه لم يوفّق في الوصول إلى أيّ شاحنة في حيفا، فالفوضى حلّت في شمال فلسطين، وكانت أعداد العرب النازحة هربًا من الهجمات اليهوديّة يصعب حصرها. قال لي إلياس: "ثمّ التقيتُ بصديق لي، وأخبرني عن قارب شحنٍ صغير ينقل الناس من حيفا إلى بيروت، فدفعت مبلغًا كبيرًا لصاحب المركب، وصعدت وليس في جيبي سوى بعض الجنيهات. انطلق القارب يحمل على ظهره عشرين مسافرًا، واستغرقتِ الرحلة يومًا ونصف اليوم لقطع المسافة إلى بيروت، وكانت ١٤٠ كم تقريبًا إلى الشمال. رفض طاقم القيادة في القارب المؤلّف من أربعة أشخاص تقديم الطعام للمسافرين الذين شعروا بجوع شديد، فدبّ شجارٌ بينهم، وتمكّنّا من الحصول على الطعام المتبقّي في مطبخ القارب كلّه. "نزل إلياس في بيروت، والتقى هناك بأخيه فايز، المتزوّج من عمتي تكلا . ووصل بعد ذلك غسّان وأمّه وأخوه وأخته.

أمضى غسّانُ بعضَ الوقت في سوريا بعد الخامس عشر من أيّار، غير أنّه لم يعملْ هناك ويقول: "لم يكن لنا مصدر دخل ولم أفكّرْ بالعمل حينها؛ لأنّنا كنّا ننتظر العودة إلى بيوتنا، ولا يرضى أحدٌ أن يوظّفك لشهرٍ أو شهرين أو ثلاثة." اجتمع شملُ غسان في النهاية مع أفراد عائلته في بيروت. وحصل ذلك لمّا ذهب أحد أصدقائه من سوريا إلى هناك، وفي طريق عودته رأى من نافذة الحافلة عبد الله، وهو ابن حنّا؛ شقيقِ خليل. فسأله عبد الله عن مكان غسّان، فكتب له عنوان غسّان على قصاصة من الورق، ورماها له من النافذة.

يقول غسّان: "طارت الورقة في الهواء، ولحقها عبد الله، ولم يدر صديقي أتَمَكّنَ من الإمساك بها أم لا، فلمّا وصل من سفره قال لي: "رأيت أحد أبناء عمّك"، ولم يعرفْ اسمه. تلقّينا بعد أسبوع رسالة مسجّلة من عبد الله، وأخبرني عن مكانهم في لبنان، فحصلت على تأشيرة دخول من الحكومة السورية، وقصدت لبنان، والتقيت هناك بعبد الله وجورجيت. وفي اليوم التالي وأنا أتناول طعام الإفطار، رأيت عمّي ميخائيل وابنه فايز في بيروت، وأخبراني أنّهم كانوا في قرية رميش. قلت لهم: "ما دام جميع أفراد العائلة في لبنان، فيجب أن أنتقل إلى لبنان.""

كان ميخائيل، أخو خليل، ووالدُ إلياس، لا يزال في فلسطين، ولمّا علم أنّ عائلته في بيروت حاول زيارتهم، لكنّ الحدود أغلقت بين دولة إسرائيل الجديدة وجيرانها العرب. يقول إلياس: "ارتكب [ميخائيل] مخاطرةً كادت تودي بحياته، إذ استعانَ بمجموعة تهرّب الأشخاص، يركبون الخيلَ ليلاً، وينامون في الكهوف نهارًا. كان رجلاً عظيمًا حكيمًا، وأرادَ البقاء معنا أسبوعًا فقط، وكان هدف رحلته أن يمدّنا بالمال إلى أن نجد عملاً نكسب منه رزقنا."

دخل المجتمع الفلسطينيّ مرحلة تقطّعت فيها أوصاله، فلا يوجد بقعة في فلسطين خارج سيطرة اليهود، أو خارج نطاق تهديد مخططاتهم التوسُّعيّة. وعانى العربُ الفلسطينيّون هجماتٍ متواصلةً من اليهود قبلَ إعلانِ دولةِ إسرائيلَ رسميًّا، إلا أنَّ الإعلانَ الرسميَّ لقيام دولة إسرائيل قد فجَّرَ الحربَ العربيّةَ الإسرائيليّةَ الأولى. ولما قرّرتِ الأممُ المتّحدةُ أن تجعلَ معظم

فلسطين دولةً يهودية، دخلت الجيوش العربيّة النظامية لمصر، وعبرَ الأردن وسوريا ولبنان والعراق إلى دولة فلسطين لحماية العرب الفلسطينيين ومهاجمة جيش دولة إسرائيل الذي مهّدَ بكلّ وضوح لعزمه على الاستيلاء على المناطق المخصّصة للعرب في خطّة التقسيم، وطردِ العرب الفلسطينيين من المناطق الخاضعة لسيطرتها.

وفي المدّة الواقعة بين ١٥ أيّار ١٩٤٨ حتى اتّفاق الهدنة الأخير في السابع من كانون ثاني ١٩٤٩، شنَّ الجيشُ الإسرائيليُّ حملاتٍ بالغةَ التنظيم، ضَربَ فيها الجيوشَ العربيةَ واحدًا تلو الآخر، ووسّع فعليًّا من سيطرته خارج الحدود التي منحت لليهود وفق خطّة التقسيم. ورافق هذه الهجماتِ العسكريّةَ استمرارَ الطرد المنظّم للعرب الفلسطينيين من المناطق الخاضعة للسيطرة الإسرائيليّة.

وقد اتخذتْ بعض الشخصيات الإسرائيليّة موقفًا معارضًا لتلك العملياتِ في ذلك الحين، ففي اجتماعٍ لمجلسِ الوزراء في السادس عشر من تموز، وقف وزير الزراعة أهارون زيسلينج، متكهّنًا بدقّة عجيبة وقال: "نحن نسير في طريق تتهدّم أمامه الآمال جميعُها. فلو أنّا عقدنا تحالفًا سلميًّا مع هذه القوّات، فإنّها قد تصبح حليفًا لنا في الشرق الأوسط... أما مئات الآلاف من العرب الذين سيُطرّدون من فلسطين، ويُتركون هائمين بين البلدان، حتى لو كان الخطأ خطأهم، فإنّهم سينشئون على كرهنا... إن قمتَ ببعض الأشياء في حمأة الحرب واحتدام المعركة فذاك شيءٌ مفهوم. أمّا أن تعود بعد شهرٍ من الزمن لتكرّرَ الفعلة ذاتها بدم بارد لأسباب سياسية وأمامَ أعين الناس فهذا شيء مختلفٌ تمامًا."[1]

لمّا اشتدّ وطيس القتال حاولت الأمم المتحدة أن تؤدّيَ دور الوسيط بين الطرفين، وأن تقدّم مقترحًا مهما كان شكله لإيجاد طريقة سلمية لنزع فتيل هذا النزاع. فأوكلتْ هذه المهمّةَ للكونت فولك برنادوت، رئيسِ منظّمة الصليب الأحمر السويدية، وعُقِدَتْ آمالٌ كبيرة على مقدرته على كسب ثقة اليهود والعرب على السواء، فهو الرجل الذي تفاوض مع هاينريك هيملر عام ١٩٤٥ ليخلي سراح ٢٠,٠٠٠ معتقل في معسكرات الاعتقال النازية، وكان من ضمنهم ٦,٥٠٠ يهودي.

تجسدَ أولُ نجاح لبرنادوت في إقناع الطرفين بتوقيع هدنةٍ في الحادي عشر من حزيران، مع أنّ الإسرائيليين خرقوا أحكامها واستغلّوها للتزوّد بالسلاح وتدريب مزيدٍ من الجنود.[٢] بل إنّ المقاتلين اليهودَ غير النظاميين قالوا دون مواربة: "لن يكون مقاتلو الحرية من أجل إسرائيل [ليهي] ملزمين بأيّ اتفاقٍ لوقف لإطلاق النار، في أيٍّ مكان وفي أيّ زمان"[٣]. بيد أنّ مسؤولين إسرائيليين رفيعي المستوى أخبروا برنادوت في أول زيارة له لإسرائيل، أنّهم يتحمّلون المسؤولية كاملةً عن أيّ فعلٍ ترتكبه عصاباتُ شتيرن والإرجون"[٤] وتبيّن أنَّ ذلكَ محضُ كذبٍ وادّعاء. وصحيحٌ أن العرب خرقوا الهدنةَ من جانبهم، إلاّ أنَّ الإسرائيليين فعلوا ذلك على نطاق أوسع. فلم تصمدِ الهدنةُ إلا أيّامًا معدودة، ثمّ استؤنف القتال من جديد.

عمل برنادوت وفريق صغير من الأمم المتحدة للتوصّل إلى مجموعة من المقترحات التي تحقّق تسوية دائمة بين الطرفين، وأطلعوا عليها الطرفين بحذر شديد. فكان الرفض الإسرائيلي في وجه كلّ ما من شأنه كبح طموحاتهم في الاستيلاء على أكبر جزء من فلسطين. واعترضوا بشدة

بالتحديد على اقتراح ينصّ على أن تكون القدس مدينة عربية، مع وجود ضمانات لحريّة الأديان في المدينة، وعدّ الإسرائيليون إعطاء العرب سلطة على القدس إجحافًا في حقهم؛ لأنّ فيها ١٠٠,٠٠٠ يهودي مقابل ٦٥,٠٠٠ من العرب فقط. فقال لهم برنادوت: "إن أردنا التعامل بهذا المبدأ فإنّ الأساس الذي قامت عليه إسرائيل أصلاً واهنٌ كبيت العنكبوت؛ لأنّ المكان الوحيد في هذه الدولة الذي يضمّ أغلبية من اليهود هي العاصمة تل أبيب"(٥).

استولى القلق على برنادوت حيال مشكلة اللاجئين المتفاقمة، وأراد الحصولَ على ضمانات من الإسرائيليين للسماح للفلسطينيين بالعودة إلى منازلهم بعد الحرب، وصعق الرجلُ لمّا زار مخيّمًا للاجئين في رام الله، ويقول:

رأيتُ كثيرًا من مخيّمات اللاجئين من قبل، لكنَّ عيني لم تبصرْ منظرًا بهذه الفظاعة التي رأيتها هنا في رام الله. كانت سيارتنا تشق صفوف جماعات اللاجئين الهائجة، التي تطوّقنا وتصرخ بصخب أهل المشرق يطلبون طعامًا، ويريدون العودة إلى منازلهم. أرعبتني وجوهُ ذلك البحر البشري الهائج في مأساته. أذكرُ ممّا رأيت مشهد مجموعة من الرجال كبار السنّ، إذ علَتِ القذارةُ هيئاتِهم وأقامَ القنوط في أعينهم وطال شعر لحاهم حتى تجعّد، ورأيتهم تشرئبُّ أعناقهم الهزيلةُ عند السيّارة، يحملون بأيديهم كِسَرًا من الخبز لا أتصوّر أنّ شخصًا في الدنيا يمكن أن يأكلَها إلاّ إن جارت عليه الأيّام، لكنَّ ذلك الفتاتَ هو قوتُهم. لم يكن خطر الأوبئة في هذا المخيّم قريبًا من الوقوع، ولو حدث شيء من هذا القبيل لعمَّ في أرجاء فلسطين. لكنَّ الشتاء ليس ببعيد، ومع حلول تشرين الأول سيبدأ موسم الأمطار والبرد، ولا أعرف ما الذي ستؤول إليه الأمور حينها؟(٦)

رفضَ الإسرائيليون حقَّ العودة للاّجئين، فهم لم يطـــردوهم إلاّ لتكـــون إسرائيل دولة بأكبر نسبة ممكنة من اليهود، فلمَ يسمحون للعرب بالعودة بعد أن تخلّصوا منهم؟ وفي كلّ يوم كانـــت تـــزداد إحَـــنُ الإســـرائيليين تجـــاه برنادوت، وتأجّجت أكثرَ ما يكون عند الإرجون وليهي، وتناســـوا فـــضلَ الرجلِ في تلك الاتّفاقية الإنسانية التي عقدها هو مع هيملر، والتي أنقذت حياةَ الكثير من ضحايا معسكرات الاعتقال، وراحوا يشيّعون حوله اتهامات تدعي "صداقته" مع النازيين.

وُضِعتْ خطّةٌ لقتل برنادوت تحت إشراف رئيس وزراء لإسرائيل في المستقبل، وهو إسحاق شامير، لأنّ اليهود رأوه عدوًّا لهم، وكان الرجل قـــد أتمّ آخر التعديلات في السادس عشر من أيلول على تقريـــر أعـــدَّه للأمـــم المتحدة، يقول فيه: "لم يكنْ بالإمكان التوصّلُ لتسوية عادلةٍ وكاملة، مـــا دام العرب الفلسطينيون قد سُلِبوا حقَّهم في العودةْ. وفي ذلك اعتداء على المبادئ الأساسية لإنصاف الضحايا الأبرياء في هذا الصراع إن هم حُرمـــوا حـــقَّ العودة لبيوتهم، واستمرّ في الوقت ذاته تدفّق المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وإنَّ وجودهم يعني على أقلّ تقدير، أنّهم سيحلّون بشكل دائم محلَّ من نـــزح من العرب."(٧) وصلت في اليوم الذي أعقب تسليم التقرير فرقة من أربعـــة رجال من عصابة شتيرن في سيّارة جيب إلى أحد شوارع القدس، وانتظروا قدوم سيّارة برنادوت، ولمّا وصل موكب الأمم المتحدة سدّت الفرقة علـــيهم الطريق، وكانت سيّارة برنادوت الرسميّة تتوسّط الموكب، فأطلق اثنان من الرجال النار على إطارات السيّارات في الموكب، ووجّه الثالث رصاصـــاته نحو سيّارة برنادوت، وأرداه قتيلاً.

كتب رئيس الجامعة العبريّة في القدس، يهودا ماجنِس، مقالاً في جريدة النيويورك تايمز يرثي فيه برنادوت، فيقول: "لم يكن لرجل غير الكونت برنادوت أن يصلَ إلى تلك المرحلة التي اقترب فيها من تحقيق التفاهم بين اليهود والعرب... وكانت جهوده وحدَه في دفع عجلة السلام والمصالحة في فلسطين أعظم من جهود غيره مجتمعين"(٨).

ينتمي أطفال المهاجرين الفلسطينيين لجيل عاش في المخيّمات طوال حياته، وحرموا العودة إلى منازل أهاليهم في فلسطين.

تسارعت وتيرة طرد الفلسطينيين من بيوتهم في تموز ١٩٤٨. وقد شعر سكّان اللّدّ والرملة في إحدى فترات الهدوء التي تبعت الهدنة أنّهم بعيدون عن هجمات اليهود إلى حدّ ما، وكانت أعداد السكّان في المدينتين مجتمعتين بين خمسين إلى سبعين ألف مواطن. وتقع المدينتان خارجَ المناطق المخصّصة لليهود وفق قرار التقسيم، وهما قريبتان من الضفة الغربية ذات التركيز العربي الكبير، ولهذه الظروف انتقل آلاف المهاجرين من المناطق

التي خضعت لسيطرة اليهود إلى اللد والرملة وما حولهما، ونشأ عن تـدفّق هذه الأعداد الكبيرة مشكلات في العمل والطعام والسكن.

أراد الإسرائيليون أنفسُهم التوغّل بعد هاتين المدينتين لتضع يد سيطرتها على أكبر مساحة من الأراضي، وتعيّن عليهم اتّخاذ قرار بشأن التعامل مع السكّان فيهما، فأتى الجواب من إسحاق رابين، قائد لواء في جيش الدفاع الإسرائيلي، وقال: "لا يسعنا بالتأكيد أن نترك أهل اللدّ بسلاحهم وبطبيعتهم العدائية من وراء ظهورنا، لأنّ في ذلك تهديدًا لخطّ الإمداد الواصل إلى يفتاش، وهو اللواء الذي سيتقدّم جهة الشرق. ولم يكنْ ذلك ليصعب عليهم طبعًا، فلم نسمعْ مثلاً أن جيش ألمانيا قد طرد من فرنسا سكانَها جميعًا لمّا احتلها، بل التزم الناس مساكنهم وعاشوا بوجود قوّة معادية محتلّة. ويبدو أنّ لطرد الفلسطينيين من مدنهم هدفين اثنين، فهو إبعادٌ للسكّان "بسلاحهم وطبيعتهم العدائية" (مع أنّه يستحيل أن يكون خمسون ألفًا بأكملهم مسلّحين) ويعني أيضا استئصال خمسين ألف عربي من الأرض التي يُراد لها أن تكون دولة يهوديّة موسّعة.

وجه إيجال ألون، وهو أحد القادة العسكريين، سؤالاً إلى بن جوريُن وقال: "ما الذي سنفعله مع السكّان؟ فأشار بيده إشارة تعني كما يقول رابين: "اطردوهم!" ويتابع رابين: "فجلست أنا وألون نتشاور في الأمر، فوجدت أنّ الأمر يحتّم علينا أن نطرد السكّان." ثم أقرّ بعدها وقال: "إنّ لكلمة "الطرد" هذه وقعًا قاسيًا، وقد كانت هذه العملية أصعب ما نقوم به من الناحية النفسية"[٩].

بدأ الجيشُ الإسرائيليُ عمليّاتِه في اللدّ في التاسع من تمّوز، وكان الهدف من هذه العمليات كما يقول بيني موريس "إحداث الهلع بين المدنيّين وإرغامهم على النزوح." وحقّقت العملية هدفها بعد أن دمجت بين القصف والتفجير، وأتبعت ذلك بغارات أرضية، يقودها موشيه دايان.

وأخذ الجنود بعد انتهاء العملية يصفون ما حدث فقال أحدهم:

استدرت بعربة الجيب، ووقفت قربَ من مدخل أحدِ البيوت، ورأيت قبالتَه فتاةً عربية تقف وتصرخ، وتبكي من الجزَع والارتياع. كانت ثيابها ممزّقةً مضرَّجةً بالدماء، وهي مصابة بكلّ تأكيد. ورأيتُ جثثَ أسرتِها من حولها، وما زالوا يتحرّكون بأنفاسهم الأخيرة قبل أن ينهيَ الموتُ صراعَهم مع الألم. وكان إلى جانبِها حزمةٌ من الخرق البالية، ورأيت أمّها تمدّ يدها من البيت تحاولُ أن تسحبَها إلى الداخل، لكنّ الفتاة تسمّرت ولم تعِ شيئًا... هل أطلقتُ النار عليها؟ ... لِمَ أفكِّرُ بهذه الطريقة؟ نحن في خضمّ المعركة وفي غمرة الاستيلاء على المدينة. العدوّ يتربّص في كلّ زاوية، الكلُّ عدوٌّ لك. اقتلْ! دمِّرْ! اذبحْ!، وإلاّ عرّضتَ نفسك أنتَ للقتل، وخسرتَ المدينة. ما هي تلك المشاعر التي يبعثها في قلبِكَ منظر تلك الفتاة الوحيدة؟ تابعْ إطلاق النار! تقدّمْ إلى الأمام!... من أين تأتي هذه الرغبة بسفح الدم؟ لا أفهم شيئًا من هذا؟ ألمقتلِ صاحبٍ أو إصابته نسيتَ إنسانيَّتَك، ورحتَ تقتلُ وتدمِّر؟ نعم! ... سأقتل كلّ من ينتمي لمعسكر العدوّ: رجلاً كان أو امرأةً أو شيخًا أو طفلاً، ولن يثنيني عن ذلك شيء[١٠].

أجلى الإسرائيليّونَ من المدينتين آلافَ النّاس من أهلها وممن أوى إليها، وهذا جزءٌ من سياسة "تطهير المنطقة" التي تبنّتها إسرائيل، وينقل لنا موريس شهادات بعض اليهود الذين عاصروا نزوح الفلسطينيين:

سار عدد كبير من السكّان خلفَ بعضهم.. النساءُ يحملن أثقالاً من الأكياس والحقائب على رءوسهنّ، والأمّهات يجررن أطفالهن من خلفهن... وكنّا نسمع بشكل متقطّع صوت الطلقات التحذيريّة من جيش الدفاع الإسرائيلي، وقد ينظر إليك أحدُ الفتيةِ شزرًا كأنّه يقول بلسان حاله: "لم نستسلم.. سنعود لنقاتلكم"... بدتِ المدينة وكأنّها تعرَّضت للإبادة الجماعيّة. [وهذه العبارة في محلّها هذه المرّة].

وينقل لنا جنديّ إسرائيليّ انطباعاته الحيّة ممّا رأى من عطش المهاجرين وجوعهم، وكيف "تاه الأطفال" وكيف سقط أحد الأطفال في بئر وغرق فيه دون أن يلتفت أحد إليه في غمرة التدافع على الماء. ويصوّر لنا جنديّ آخر الآثار التي خلّفتها صفوف النازحين بمسيرهم البطيء والتي "تبدأ بأدوات المنزل المتناثرة، وبعض الأثاث، وفي النهاية ترى جثث الرجال والنساء والأطفال مبعثرة على طول الطريق". فقد مات كثيرٌ منهم في الطريق جهةَ الشرق- فمنهم من قضى بالإرهاق وغيرهم قضى بالجفاف والمرض- قبل أن يصلوا إلى مثابة يرتاحون فيها عند رام الله أو قربها. ويقول قائد الجيش العربيّ آنذاك جون كلوب(*): "لن يعلم أحدٌ كمْ من الأطفال مات"(١١).

(*) المعروف باسم "كلوب باشا" الذي تولى قيادة الجيش العربي الأردني حتى عام ١٩٥٦. (المترجم)

وقال رابين في إقرارٍ آخرَ له: "كانت المعاناة عظيمة"، إلا أنّه يتحـدّث هنا عن معاناة رجاله، لا عن معاناة الفلسطينيين الذين طردوهم من منازلهم. "كانوا جنودًا من بينهم خرّيجون في حركة الشباب، غُرِسَت في صدورهم قيمُ الإنسانية والأخوّة بين الشعوب، فخالفتْ عملياتُ التهجير تلك المفاهيمَ التـي تعلّموها، ورفضَ بعضهم المشاركة في هذه الأعمال. ولزِمَنا القيامُ بحمـلاتٍ ترويجيّةٍ لأوقات طويلة من أجل أن نخلّصَ هـؤلاء الـشباب مـن قلقهـم، و نوضّح لهم الأسـبابَ التـي تـدفعُنا لمثـل هـذه العمليـات بقـسوتها وشراستها"[١٢].

* * *

تُعَدُّ مدينةُ الناصرة اليوم أكبرَ مدينة عربية في إسرائيل، غير أنّها كادت ألا تكون كذلك فيما سبق. ففي تموز ١٩٤٨ علم أهل الناصرة بأمر تهجيـر الفلسطينيين من اللّد والرملة، وظنّوا أنّ ذلك سيطولهم أيضًا، وكان ظهـور مئات النازحين القادمين من المدن والقرى باتجاه الغرب نذيرًا بالسوء.

وورد في مذكّرات عزمي عودة، ابن أحد النجّارين فـي الناصـرة، وصفٌ لأحداث شهر تموز عام ١٩٤٨ يقول فيه:

قَدِمَ ما يزيد عن ٢,٥٠٠ شخصٍ إلى قرية صفوريّة، التي لا تبعدُ سوى ستّة أميال عن الناصرة، بحثًا عن ملجأ يثوون إليه، فقُصِفَت قريةُ صـفوريّة في الخامس عشرْ من تموز ١٩٤٨، بعد أن حامتْ ثلاثُ طائراتٍ إسـرائيليّةٍ فوقَها، وألقَتْ براميلَ مملوءةً بالمواد المتفجّرة والشظايا الفلزيّـة والمـسامير

والزجاج. ارتجَّتِ القرية بأسرها، وتحطّم زجاج النوافذ، وتهشّمت الأبــواب، وسقطَ العديد من المدنيين الأبرياء. استمرّ التفجير والقصف المدفعي في اليوم التالي، أي في السادس عشر من تموز، فطفق المدنيّون يتدفّقون إلى الناصرة. استولى الإسرائيليون على القرية مع غروب الشمس، وباتت خاوية من أهلها. ثمّ أحاطَ الجنود الإسرائيليون بمدينــة الناصــرةِ مــن جنوبهــا، وغربهــا، وشمالها (١٣).

فقد ٧٥٠،٠٠٠ فلسطيني بيوتهم وممتلكاتهم وأموالهم نتيجة سياسة "التطهير العرقــي" التــي نفذتها الإدارة اليهودية جيوشها عام ١٩٤٧ و ١٩٤٨.

احتمتْ عائلة عودة بدَيرٍ على مقربة من المدينة هربًــا مــن المذبحــة المنتظرة، فمكثوا ليلتَهم هناك، يطْرُقُ أسماعَهم دويُّ الهجمات الإســرائيلية، وخرج أبو عودة مع الصباح عائدًا إلى المدينة لينظر ماذا حصل.

جلسنا جميعنا في سرَب(*) الدير، وقد أهمّنا ما يمكن أن يقع لأبي من مكروه، ولزمت خيالي تلك الصورة التي أذاقتني العذاب، والتي سمعتها مرةً عن أفعال الجنود اليهود المتوّحشين المسعورين الأشرار في دير ياسين، وسواها من القرى والمدن العربية. تصورّتُ أبي يسبح في دمه، لا يملك عن نفسه دفعًا، بعد طعنةٍ من جنديّ يهوديّ أردته. واستحضرت تلك الخيالات في ذهني، وكأنّها حاضرة أمامي، فكان ذلك عذابًا لا ينتهي. وشعرت بالدقائق تحبوا ببطء شديد، فكانت الدقيقة تطول وتطولُ كأنّها ساعةٌ. وتملّكني شعورٌ بأنَّ رأسي سينفجر، فأنا في هذا الجزء السفليّ من الدير عاجزٌ عن فعل أيّ شيء أو تغيير أيّ شيء، فاعتصرني إحساس باليأسِ والشعور بالهزيمة، وكأني ضُرِبتُ وفشلت.

أفقتُ من تلك الغفلة على جلَبَةٍ حولي، وإذ بصوت والدي يطلب إلينا أن نتحرّك جميعًا بسرعة، ونتبعه لنرجع إلى البيت، فنهضنا على الفور وتبعناه بعد أن شكرنا الراهبات ومن في الدير. وصلنا البيت فوجدنا الفوضى عمّت أركانَه، فالجنود اليهود سرقوا كلَّ نفيس فيه، وحطّموا بقيّة الأثاث في المنزل. وكانت رؤيةُ المنزل على هذه الحالة صدمةً كبيرة لأمّي لم تقوَ على احتمالها، وكادت أن تنهارَ لهولِ ما رأتْ، لكنّها جثتْ على ركبتيها وقبّلتِ الأرضَ وشكرت الله لأنّنا جميعنا بخير. وهكذا كان سقوط مدينة الناصرة في يد اليهود، في السابع عشر من تموز ١٩٤٨، وبدأت حياة جديدة فيها في ظلّ مستعمر جديد(١٤).

(*) وهو مكان في الدير يكون تحت الأرض (المترجم)

مرّت عقودٌ بعد ذلك، وجاء الكاتب بيريز كِيدرون- الذي طُلِبَ إليه يومًا أن يكتبَ مذكِّرات بِن دونكلمان، قائد اللواء الذي وكل إليه أمر طرد القــوّات العربيّة من منطقة الجليل- ليرويَ لنا كيف بقيَ سكّان الناصرة العرب فيها، دون أن يُطردوا منها كما حصل في بقية المــدن. فالــذي حــصلَ هــو أنَّ دونكلمان وصل إلى الناصرة من الطريق الخلفيِّ غير المحميّ، ولم يواجه أي مقاومة تُذكر قبل أن تستسلمَ المدينة. وقال وجهاء المدينة إنّهم لــن يقــاوموا الجيش الإسرائيلي إنْ وعَدَ دونكلمان وجنوده ألاّ يــؤذوا المــدنيين، ووقّــع الطرفان اتفاقيّةً بهذا الشأن.

وبعد مضيّ يومين على الاتّفاقية تلقى دونكلمان من قائده المباشر، حاييم لاسكوف، أمرًا بطرد جميع السكّان، وهم خمسة عشر ألف عربي تقريبًا من المسلمين والمسيحيين. فيقول دونلكمان في المــسوّدة الأصــليّة لمذكّراتــه: "صدَمَني ذلك وأرعبَني، وأخبرتُ لاسكوف أنّني لن أقدمَ على فعلٍ كهذا لأنّنا قطعنا وعودًا بالحفاظ على سكّان المدينة، ولا طائلَ من هــذا التــصرّف إلا الضرر. وذكّرتُه أننا قبل يوم فقط، كنّا أنا وهو ممثّلَين للجيش الإســرائيلي، ووقّعنا وثيقةَ الاستسلام على أن نتعهّد بألاّ نقدمَ على أيّ عملٍ يُلحِــقُ الأذى بالمدينة أو أهلِها. فلمّا رأى حاييم رفضي لاتّباع أمره غادر وانصرف."

وصلتِ الأوامر بعد اثنتي عشرة ساعة لدونكلمان بأن ينسحبَ بلوائه من الناصرة ليسمح لوحدة أخرى بالتقدّم، وسُحِبَ منْهُ منصب القائدِ العسكريِّ على المدينة. يقول دونكلمان: "كان واضحًا أنَّ هذه الأوامر قد أتت ردًّا على رفــضي لأمر الطرد، وعلى الرغم من انسحابي من الناصرة، فإنَّه نتج عن رفضي بعضُ

التأثير، إذ يبدو أنّ القائد الأعلى أعاد النظر بالأمر وانتهى إلى أنّ طردَ أهالي الناصرة قرارٌ خاطئ. ولم أسمَعْ بعد ذلك عن أيّ حديث حول خطط لطرد سكّان المدينة العرب، وهم لا يزالون يقطنون بها منذ ذلك الحين."

لم تظهر هذه القصّة إلا بعد سنوات عدّة، وأصرَّ دونكلمان على عدم نشرها في النسخةِ الأخيرة من مذكّراته، غيرَ أنّ كِيدرون احتفظَ بنسخةٍ من المسوَّدة، ونشرَ هو هذه القصةَ بعد مدة لأنّه تفاجئَ بها. لم يكنِ الجيش الإسرائيلي للأسف، يضمُّ كثيرًا من الضباط من أمثال دونكلمان، لأنَّ الأشهر التي تلت شهدتْ "تطهير" عدد من المدن والقرى من السكّان العرب.

أعدّ بيني موريس دراسته المشهورة حول مشكلة المهاجرين الفلسطينيين، بعنوان (نظرة جديدة على ميلاد مشكلة المهاجر الفلسطيني (٢٠٠٤)، وعرض فيها قصصًا موثّقة تروي لنا مشاهد الطرد والمذابح والاغتصاب، والتي كانت الحكومة الإسرائيلية على مدى سنوات تنكرها وتصفها بأنّها حملات مغرضة من منظّمة التحرير الفلسطينية. وقد سُئلَ موريس في إحدى المقابلات الصحفيّة عن عدد المذابح التي ارتكبتها إسرائيل في عام ١٩٤٨، فأجاب بإيجاز:

أربعٌ وعشرون مذبحة. كان يقتل في بعض الأحيان أربعة أشخاص أو خمسة وقد يصل الرقم أحيانًا أخرى إلى سبعين أو ثمانين أو مئة. ووقعت العديد من حوادث القتل التعسّفي، فقُتل مرّة رجلان كبيران في السنّ كانا يسيران يومًا في أحد الحقول، وقُتلت امرأة بعد أن وجدوها في قرية مهجورة. وهنالك بعض الحالات حصلت على سبيل المثال في قرية الدوايمة

[في الخليل]، إذ دخلها رتل عسكري يطلق النار سفاحًا ويقتل أيّ شيء يتحرّك. ووقعت أشدّ الحوادث سفكًا في صلْحة (٧٠-٨٠ قتيلاً) ودير ياسين (١٠٠-١١٠ قتلى) واللّد (٢٥٠ قتيلاً) والدوايمة (مئات القتلى) و قرية أبو غوشة كذلك التي ربما وصل عدد القتلى فيها إلى سبعين قتيلاً. وليس ثمّة دليل يقطع بحدوث مجزرة واسعة النطاق في الطنطورة، ولكن ارتكبت فيها العديد من جرائم الحرب. وحصلت في يافا مذبحة لم يعلم بأمرها أحد حتى الآن، ومثل ذلك حصل لعرب المواصي(*) في الشمال.

ارتكبت نصف هذه المجازر ضمن "عملية حِيرام" (Hiram Operation) [في المنطقة الشمالية في تشرين أول ١٩٤٨]، وكانت في صفصف، وصلحة، والجِش، وعِيلبون، وعرب المواصي، ودير الأسد، ومجد الكروم، وسعسع. وتركّزت عمليات إعدام الناس في عملية حِيرام بصورة كبيرة غير مألوفة، إذ يُجبر الأشخاص على الاصطفاف بانتظام عند حائط أو بئر ليصار بعد ذلك إلى إعدامهم. ولم تقع هذه العمليات جزافًا، بل كانت نهجًا متّبعًا. ويَظهرُ أنّ عددًا من الضبّاط الذين تلقّوا أوامرَ بطرد السكّانِ أدركوا أنّ هذه الأوامر تتيح لهم القيام بهذه الأعمال التي تجعل الناس يفرّون إلى الطرقات رغمًا عنهم، ولم يُلاحَق أيٌّ منهم لأعمال القتل التي ارتكبوها، فبِن جوريُن قد أطبقَ على القضيّة، وأحكم الغطاءَ عليها كي لا يُلاحَقَ الضبّاط المسؤولون عن المذابح(١٥).

(*) وهم سكان مدينة المواصي البدوية قرب الساحل الجنوبي لقطاع غزة (المترجم)

والغريب أنّ موريس الذي قدّم الكثير في السنوات الأخيرة ليؤكّد صدقَ قصص المعاناة التي رواها الفلسطينيون على مرِّ عقود طويلة، ظهر في مقابلة صحفيّة ليدافعَ عن طردِ ٧٠٠,٠٠٠ فلسطينيٍّ من بيوتهم، فقال: "إنّ المجتمع الذي يرغب بتدميرك يدفعُك إلى تدميره... وإنْ كان الخيارُ بين أن تدمِّر أو أن تُدمَّر، فمن الأفضل أن تُدمِّر".

فكان جواب الصحفيّ: " ثمّة شيء مروّع في الطريقة الهادئة التي قلت بها هذا".

فردّ عليه موريس: "إن كنتَ تنتظرُ مني أنْ أنفجرَ بالبكاء، فأعتذرُ لخيبة ظنّك، فلنْ أفعلَ هذا. هنالك ظروف في التاريخ تجعلُ التطهيرَ العرقيَّ مُسوَّغًا، وإنّي أدركُ أنّ الكلمةَ مرفوضةٌ إطلاقًا في القرن الحادي والعشرين، ولكن حين يكون الخيار بين التطهير العرقي والإبادة الجماعية –أي قتل شعبك عن بكرة أبيه– فإنّي أفضّل التطهير العرقي"(١٦).

لا يمكن أن أتصوّر أفراد عائلتي: أعمامي وخالاتي وأعمامَ والدي وأخوالَه وأبناءَهم أُناسًا يمكن أن يرتكبوا جرائم إبادةٍ جماعية، ولا يمكنني بحال أن أصف المقاومةَ التي أبداها الفلسطينيون أمام سيطرة يهود أوروبا، وضدَّ طردهم من بيوتهم بأنّها إبادةٌ جماعية. وقد كانت إسرائيل في النصف الثاني من عام ١٩٤٨، حين انتهت من عمليات التهجير القسريّ، آمنةَ الجانب من خطر الجيوشِ العربيةِ العاجزةِ التي افتقرت إلى التنسيق المشترك، وكانوا أقلَّ عتادًا في أغلب المعدّات العسكرية، أمّا إسرائيل فتسلّمت سفنًا كاملةً محمّلةً بالأسلحة من أوروبا وأمريكا، وهذا ما يؤكّده أستاذ العلاقات الدولية في كلّية سانت أنتوني في جامعة أكسفورد، آفي شليم، إذ

يقول: "تفوّقَ جيشُ الدفاع الإسرائيلي في كلّ مرحلة من مراحل الحرب عدديًا على كلّ الجيوش العربية المجتمعة ضدّه، وبلغ معدّل التفوّق الإسرائيلي عند نهاية الحرب الضعف تقريبًا"(١٧).

لا يزال العديد من الإسرائيليين وغيرهم ممن يقتصر اطّلاعُهم على المصادر الصهيونية، يجهلون كيف خسر الفلسطينيون أرضَهم، وأمّا من يعرف حقيقة القصّة من الإسرائيليين فيدعو إلى ترويج الخرافات التي ابتُدعت عن ميلاد دولة إسرائيل، وهذا ما جاء في مقالتَين لكاتبين إسرائيليين، يقتبس منهما آفي شليم ويعلّق قائلاً: "يودّون أن تستمرَّ كتبُ التاريخ في المدارس في عرض جانب البطولة لتأسيس إسرائيل، وكأنّهم يقولون إنّه يلزَمُ في التعليم أن نكذبَ لما فيه صالحُ الدولة، وكأنَّ الوطنية قد أضحَتْ على ما يبدو ملاذًا أخيرًا للأنذال"(١٨). وليس ذاكَ إلا رجعَ صدىً لتعليقٍ نطق به إسحاق شامير يوما على الملأ وقال: "إنّ لنا مندوحةً في الكذب إن كانَ فيه مصلحةُ أرض إسرائيل"(١٩).

* * *

زار الروائي آرثر كيستلر فلسطين وتجوّل في أرجائها في شهر تموز ١٩٤٨، وكتب عن أحداث هذه الرحلة، ولاحظ ببعض الموضوعية تلك النوائبَ التي حلّت في فلسطين أثناء الحرب، ثمّ ما لبث أن زلّ وتحوّل إلى العنصريّة ضدّ العرب:

لا يزال العرب يسكنون بعض القرى على طول الطريق [الساحلي]، بل رأيتُ بعضهم يعمل في الحقول، ورأيت امرأة عربيّة هزيلة تبيع البرتقال

للجنود لليهود من سلّة تحملها على ظهرها. كانت الحرب لهـا أمًّـا تعيسـة كهيكوبا، وكانت هي للحرب أمًّا تعيسة كهيكوبا أيضًا(*). بيد أنّ ذلك لم يـدم طويلاً، فبعض الشباب العرب اتّخذوا من هذه القرى مكانًا ليقنصوا الشاحنات اليهودية على الطريق، فما كان من الجيش اليهودي إلا أن جمع أهل القـرى معًا، وفجّرَ بيوتَهم بالديناميت، ووُضِعَ الرجالُ منهمْ في معسكراتِ الاعتقال، أمّا الشيوخُ فأخذَ كلٌّ منهم فرشةً ومغلاةَ قهوة نحاسية، وركِبَ كلٌّ منهم على حماره، أمّا العجوزُ فستأخذ بخطام الحمار الذي يركبـه زوجهـا المعتمـرِ بكوفيّته لتسير هي أمامه، وهو مستغرق بالتفكّر بالفرصة التي ضاعت عليه ليغتصب أصغرَ حفيداته(٢٠).

وهنالك من اليهود كذلك من كتب بهذه الصبغة العنصرية عمّا شـاهدوه من حياة العرب في فلسطين، ونذكر منهم هذه المرّة دوريس كـاتز، وهـي عضو في عصابة الإرجون، ووُصِفَت في مقدّمـة كتابهـا (الـسّيدة كانـت إرهابيّة) بأنّها "امرأة مرهفة الحس ذات ثقافة عالية". وهي التي كانت ضمن مجموعة من الإرجون حين اغتصبوا معًا قرية اليهودية(**) العربية:

كانت هذه القرية بعين العربي هي الأكبرَ والأغنى في البلاد كلِّها، لكنّها بالمعايير الأوروبية ليست سوى صفٍّ من الزرائب الطينيّة بُنِيتْ على غيـر نظام على امتداد الشوارع الملتويةِ شديدةِ الانحدار التي مُهِّدَت كيفما اتفـق، ولا ترى فيها سوى بعض البيوت المبنيّة من الحجر هنا وهناك لبعض أعيان

(*) هيكوبا (Hecuba): ملكة جاء ذكرها في الأساطير اليونانية، بات ذكرها مقرونًا بـالأم التعيسة، لأنها فجعت بمقتل ابنها غدرًا في إحدى الحروب. (المترجم)

(**) كانت تسمى هذه القرية باسم اليهودية، ثم سميت في عام ١٩٣٢ بقرية العباسـية. تبعد هذه القرية مسافة ١٣ كم شرق يافا. (المترجم)

القرية الذين يحتفظون بلا شكّ بالكثير من الماشية في مكان ما. أمّا بيوتهم من الداخل فمفروشة بأفخر أنواع السجّاد والستائر وفيها بأفخم الأثاث. ويبدو أنّهم كانوا يستعيضون عن عدم امتلاكهم للحمّامات والمغاسل باستخدامهم المفرط للعطور الثمينة التي يبتاعونها "باللتر"، إن لم يكن "بالجالون"– هذا إنِ افترضنا أنّ لعبوات العطر خاصتهم أيَّ مقياس أصلاً[٢١].

وكتب جوزيف ڤايتز نهاية عام ١٩٤٨، وهو أحد أعضاء الصندوق الوطني اليهودي، وممّن ضغطوا بشدّة من أجل اعتماد سياسة تهجير السكّان العرب، حكاية في مذكّراته عن أرض تمنّى هو ورفاقه الصهاينة لعقود طويلة الحصول عليها، وهي الآن "مطهّرة" من معظم سكّانها العرب:

تتجلّى أرضُ الجليل أمامي ببهائها، ببقعها وحظائرها المنزوية عن الأنظار، بثغرها ذي الابتسامة القرمزية، ونعومتها الخضرة وانفرادها المنعزل. لم أرها هكذا من قبل، فقد كانت قبل تضجّ بالرجال والوحوش، وكانت الغلبة دومًا للوحوش. ودرجت القطعان الكثيرة فيها على الهبوط من المرتفعات إلى الوديان نحو ينابيع الماء، وتصدر الأجراس المعلّقة عليها صوتًا متقطّعًا، يغيب في الوديان، ويضيع بين شقوق الصخور، وكأنَّ صوتها سيستمرُّ للأبد. وكان الرعاة يسيرون خلف مواشيهم، كأنّهم شخصيّات من العصور القديمة، يغنّون بجذل ويسوقون الماعز نحو الأشجار والأعشاب لتقضم منها بنَهَم من شدة الجوع. بيد أنّ هذه الصورة تلاشت ولا وجود لها الآن. فالسكون قد حطَّ على الجبال جميعِها، وله خيوط خفيّة تمتدّ عبر القرية الخاوية.

قريةٌ خاويةٌ! عــن أيِّ شـــيء رهيــب تتحــدّث؟ أنفــاسٌ متحجّــرة! أنفاسٌ تحولت إلى همسات متحجّرة في أفران خمدت نيرانها! مرآة مهــشّمة، وقرْط من التين المجفّف العفن، وكلبٌ أعجَف، ذيلُه ضامر، وأذناه متهــدّلتان وعيناه شاحبتان.

في الوقت ذاته- وفي اللحظة ذاتها- يخامر القلبَ شعورٌ مختلف ينبــع من أعماق بدائية، فهو شعور بالنصر والسيطرة، وشعور بالانتقــام ونهايــة المعاناة. وتختفي فجأة تلك الهمسات، وتــرى المنــازل الــشاغرة جــاهزة ليستوطن بها إخواننا اليهود بعد تشرّد استمرّ جيلاً بعد جيل، وليــستقرّ بهــا المهاجرون من شعبك ممّن طوّحت بهم المعاناة والأسى. وهكذا أخيرًا وجدوا سقفًا يأوون تحته. تلكم هي حربنا(٢٢).

راودَ ڤايتز أملٌ بأنَّ الحرب قد أوشكت على الانتهــاء، وأنّ "الهمــسات المتحجّرة في أفران خمدت نيرانُهــا" ستتلاشـــى إلـــى الــصمت، غيــر أنّ الصهيونيّةَ التي سيطرتْ على تفكيره وأفعاله، هو وأصحابه، قــد تــركتهم مخدوعين، وزرعتْ فيهم فكرةً مُضللةً تقول إنَّ الاستيلاء على أرض فلسطين من العرب الفلسطينيين سيتكلّل بقيام دولة إسرائيل اليهودية التي تنعم بالسلام. وها قد مضت أكثر من خمسين سنة والتاريخ يشهد أنّهم كانوا أبعدَ ما يكون عن الصواب.

هوامش الفصل الحادي والعشرين

(1) Nur Masalha, Expulsion of the Palestinians, Institute for Palestine Studies, 1992, p. 191.

(2) Ted Schwarz, Walking with the Damned, Paragon House, 1992, p. 284.

(3) Kati Marton, A Death in Jerusalem, Arcade Publishing, 1996, p. 139.

(4) Ibid., p. 148.

(5) Bernardotte in letter of 23 July 1948, to brother Karl, quoted in Marton, A Death in Jerusalem, p. 160.

(6) Marton, A Death in Jerusalem, p. 190.

(7) Benny Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, Cambridge University Press, 2004, pp. 331-2.

(8) Quoted ill Marton, A Death in Jerusalem, p. 228

(9) Quoted in ibid., p. 162.

(10) Quoted in Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, pp. 425-6.

(11) Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited, PP.431-2.

(12) Quoted in Marton, A Death in Jerusalem, p. 162.

(13) Azmi S. Audeh, Carpenter from Nazareth. Audeh Publishers, 1997, pp.106-11.

(14) Ibid.

(15) Ha'aretz magazine (www.haaretz.com). 9 January 2004

(16) Ibid.

(17) Avi Shlaim, The Iron Wall, W. W. Norton, 2000, p. 35

(18) Avi Shlaim, private offprint

(19) Akiva Eldar, Ha'aretz magazine, 24 November zccg

(20) Arthur Koestler, Promise and Fulfilment: Palestine 1917-1949, Macmillan, 1949, pp. 199-200.

(21) Doris Katz, The Lady was a Terrorist, Shiloni Publishers, 1953, p. 108

(22) Diary of Josef Weitz, quoted in Meron Benvenisti, Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land since 1948, University of California Press, 2000, pp. 155-6.

خاتمة الكتاب

جلستُ يومَ العشرين من تـشرين الأول ٢٠٠٤ إلـى طاولـةٍ طويلـة في بنايةٍ وسط رام الله، وتحدّثتُ معَ ياسر عرفات، قصيرِ القامـة شـاحبِ الوجه، يحدّقُ بعينين واسعتين من خلف النظّارة الداكنة، ويجلسُ أمامَ جـدارٍ تغطّيه الهدايا التي قدّمَها إليه الزوّارُ من مختلف الأقطار، وكان مـن بينهـا مجسَّمٌ لحمامةِ السّلام، ومجسَّم برونزيٌّ لحصانين يقفان على أقدامهما الخلفيّة، ومجسَّم لصقر، ومجسَّم آخرُ لصليب، معَ أنّه مسلم. رأيتُ على الطاولةِ كومةً كبيرةً من الأوراق، وعددًا أكبرَ من الوثائق المبعثرة حول مِقْرأةٍ أمامَه. وكان حينَها في مرحلةِ نَقَهٍ من نوبة "زكام" حسْب الروايةِ الرسميّة، على رغـم أنَّ الشائعاتِ انتشرتْ ذلك الأسبوع بأنّه يعاني مرضًا أخطرَ من الزّكام بكثير.

رافقني في تلك الجلسة اثنان من أصدقائي، وهما دبلوماسيٌّ فلـسطينيٌّ وزوجُه، وكنّا نحن أولَ من يزورُ عرفات منذ أيّام، وعوضًا عـن التقبيـل التقليديِّ على الخدود، صافحَنا عرفاتُ، واكتفى بتقبيلنا على الكتف، حرصًـا منه على ألاّ تنتقلَ عدوى "الزكام" إلينا. شعرتُ بيديه الطريّتين، ولحظْتُ تغيّرَ لون بشرته في بعض البقع، ولاحظت أيضًا علامات بسيطة للرعـشة التـي كانت عرضًا لمرض باركِنسون.

لمّا سألتُ عرفات إن كان يتذكّرُ والدي، أجاب: "أكيدْ أكيدْ." وسألني هو عن ابن عمّي حسيب في لندن، الذي أصابتْه نوبةٌ قلبيّةٌ مؤخّرًا. أمّا صديقي الفلسطينيّ وزوجته فاطمأنّا على صحّته، وقدّما له صندوقًا من الشوكولا البلجيكيّة، وأخبراه بعضَ الأخبار السياسية من أوروبا. وبينا نحن نتبادل أطراف الحديث، خرجَ عرفات فجأةً عن الموضوع، وقال: "هل تعلمون أنّ أفضل الرخام يأتي من بيت جالا [وهي قريةٌ قرب بيت لحم]، رخامُها هو الأفضل في العالم؟" مضتْ ثلاثةَ أسابيع، وجاء الحادي عشر من تشرين الثاني، وتُوفّي عرفات، ودُفِنَ بعدَ أيّام بين مظاهر الحزن الشديدة في قبر يحيط به الرخام، غير أنّه من رخام الخليل، وليس من بيت جالا.

عاصرَ عرفات في رحلة عملِه الطويلة تغيّرَ نظرةِ العالمِ إلى الفلسطينيّين من مجموعةِ من اللاجئين في الخمسينيات، لا يكاد أحد يعترف بها، إلى شعبٍ له تاريخُه وهويّتُه الوطنيّة وحقوقه المشروعة. وجاء هذا الاعتراف في جزءٍ منه بفضل عرفات نفسه، وفي جزء آخر بسبب المعاملة التي يتلقّاها الفلسطينيون على يد إسرائيل.

* * *

لكنّي جعلتُ القلمَ يقفُ في هذا التاريخ الشخصي لفلسطين عند عام ١٩٤٨، وهو العام الأخير الذي أشرقتْ فيه شمسُ فلسطين الحقيقية- أي تلك المنطقةُ التي عَرِفَها أهلُها باسم فلسطين منذ مئات السنين. وقد نزلتْ بعد تلك السنة العديد من الحوادث الجسام، وزادت معها معاناة العرب الفلسطينيين الذين عاشوا بالأمس في مدن فلسطين وقراها، وهم الآن يسكنون المخيّمات في الأردنّ ولُبْنان وغزّةَ والضفّة الغربية.

اقترحَ بن جوريُن بعد مرور أربعة أشهر على تأسيس دولـــة إســـرائيل شنَّ حملةٍ عسكريةٍ كبيرةٍ للاستيلاءِ على الضّفة الغربية، وكانت تابعة للأردنّ في ذلك الحين، إلا أنَّ الحكمةَ السياسية تراءت للمسؤولين الإسرائيليين على غير عادة، وصوّتَ ستّة من الوزراء ضدَّ الخطّة، وعجز بن جـــوريُن عـــن الحصول على أغلبية، ووَصَفَ هذا القرارَ بأنّه سببُ "المـــصائب للأجيـــال القادمة".(١)

استمرّت الدول العربية المحيطة بإسرائيل فـــي هـــذه الأثنـــاءِ بتـــشديد ضغطها- على الجبهتين العسكرية والدبلوماسية- لإجبـــارِ إســـرائيلَ علـــى التراجعِ عنْ ظلمها الذي أوقعتْه بالفلسطينيين. وقدْ أصابَ كلَّ دولة مـــن دول الطوق- وهي مصر والأردن وسوريا- سهمٌ من عُدوانية إسرائيل وهمجيتها، بالإضافة إلى أنّها ملزمةٌ بالتأهّبِ لتحمّل مسؤوليّاتها تجاه العرب الفلسطينيين الذين يقاسون الأمرّين في إسرائيل. هاجمتْ إسرائيل عام ١٩٥٦ غزّة (لمّـــا كانتْ تابعةً لمصر)، واتّجهتْ نحوَ قناة السويس بالتحـــالف مـــع بريطانيـــا وفرنسا، اللتين اشتدَّ حنقُهما على جمال عبد الناصر بعد تأميمه القناة. إلا أنَّ هبّةَ الغضبِ الدولية أوقفتِ الاعتداء، وأرغمتْ إسرائيلَ وبريطانيا وفرنـــسا على سحب قوّاتها. بيدَ أنّ الحكومةَ الإسرائيليةَ لمّا يجفَّ دمعها بعـــدُ علـــى تضييع فرصة غزو الضفة الغربية عام ١٩٤٨، واستمرَّ التوتّر يتراكم بـــين إسرائيل وجيرانها العرب.

بدأتْ حربُ الأيّامِ الستّة عام ١٩٦٧ بقصفٍ جويٍّ إســـرائيليٍّ اســـتباقيٍّ على الأسطول الجويِّ المصريِّ وقواعدِ الجيش، واحتلتْ إسرائيل قطاعَ غزّةَ وسيناء، وهاجمتِ الأردن، فتحقّقَ لها ما راودَها قبل سنوات، وسيطرت على

القدس والضفّة الغربية، ثمّ توغّلت في الأرض السوريّة، لتنتزع مرتفعات الجولان من سوريا. وازداد المَصدورُ همًّا إلى همّه، إذ انضمّ بعد هذه الحوادثِ ٢٧٥،٠٠٠ فلسطيني إلى تعدادِ اللاجئين. وما برحت إسرائيلُ منذُ ذلكَ الحينَ إلى وقتنا هذا تُمسِك بخناق فلسطين والفلسطينيين، على الرغم من الإعلان عن عدم شرعيّة الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينيّة والاستمرار في خرق القانون الدولي فيما يتعلّق بمعاملتها للمدنيّين في المناطق المحتلّة.

تلكمُ الأحداث- بدءًا من عام ١٩٤٨ إلى وقتنا الحاضر- هي صورٌ تتكرّرُ بأسماءٍ وألوان مختلفة لما نعرفه عن الإسرائيليين والفلسطينيين هذه الأيّام، ومنذ ذلك الحين حتّى يومنا هذا وفصول رواية الصراع العربي الإسرائيلي تستحوذُ على اهتمام العالم، وصارتِ القضيّةُ الأساسيّةُ هي "مَن فَعَلَ ومن تَرَكَ" في فلك دولة إسرائيل، والأدهى من ذلك أنّ محورَ الاهتمامِ قد انحرفَ عن التفكير بخطيئة الظلم الأصلية الكبرى: ألا وهي استيلاء الصهاينة على فلسطين.

وهذا هو عينُ ما يريده المدافعونَ عن إسرائيل، فهم يدّعون أنّ ما حصلَ قبلَ خمسين سنةٍ أو مئة قد فاتَ وماتَ، وأنّ الوقتَ قد حانَ في نظرهم إلى أن يتّخِذَ الفلسطينيّون كلّ ما سبق ظِهْرِيًّا، وأنْ يوَطّنوا أنفسَهم على العيشِ معَ واقعٍ يقولُ إنّ إسرائيلَ موجودةٌ وأنْ لا رجعةَ إلى الوراء، وأنه لا يمكنُ الآن "رمي اليهود في البحر"، كما يَظنُّ بعضُ العرب، وأنّ الحياةَ قاسيةٌ ولا بدَّ أن يتقبّلَ الفلسطينيون خسائرهم وينظروا إلى المستقبل.

تملك ريموندا الطويل، الصحفيّة والناشطة الفلسطينيّة، التي ولدت في عكّا، وتعيش الآن في الضفّة الغربية، جوابًا عن هذه الادّعاءات كلّها. فهي

تقدّمُ لنا حوارًا أجرته مع جنديٍّ إسرائيليٍّ في مكتب الحاكم العسكريّ في رام الله، بعد قرابة ثلاثين عامًا من استيلاء إسرائيل على فلسطين:

"قال الجندي: "أنتم الفلسطينيّين، عليكمْ أن تُعلنوا استسلامكم وأن تُذعِنوا للواقع، فأنتم قد انتهيتم."

فردّتْ وقالتْ: "ماذا تقصد بقولك "انتهيتم" ؟ أتقول إنّ علينا الاستسلام؟ وأن نقبل بالواقع؟ وهل استسلم اليهود لمّا كانوا في الغيتوهات؟ وهل تـــراهم "أذعنوا للواقع"؟ لا، لم يفعلوا ذلك. ولن نرضى نحن بذلك أيضًا. أنت تقـــول إنّه لا يحبّنا أحدٌ، ولا يقف إلى صفّنا أحدٌ، ولكن قلْ لي من ذا الـــذي أحـــبَّ شعبَكم؟ ومن ذا الذي وقفَ في صفّ اليهود؟ لا أحد! لكنّ اليهود كافحوا حتى في الأوقات التي كان الجميع يتكالب فيها عليهم. إذن، نحن الفلسطينيّين نفكرُ مثلما يفكّرُ اليهود. نحنُ لا نريدُ أنْ نكون الضحيّة، إنما نريد أن نكون قادرين على الدفاع عن أنفسنا. العالم بأسره أنكرَ مرّةً وجودَ الشّعبِ اليهودي- ولكنّه موجود. أنا أحترمُ نضالَكم لحماية حياتِكم وحفظ كرامتكم ولا بدّ أن تحترموا فينا الشيءَ ذاتَه"(٢).

أليسَ الصهاينةُ هم الذين أصرّوا على إعادةِ رســمِ خارطـــة الـــشرق الأوسط في القرن العشرين كما كانت عليه- على حدّ زعمهم- قبـــل ثلاثـــة آلاف سنة؟ وإن كان تاريخ العهد القديم هو العصا التي توكّأ عليها الصهاينةُ للحصولِ على فلسطين، فلا ريب أنّ الفلسطينيين يملكون عهدًا قديمًا وجديدًا يجعلهم ينشطون إلى استرجاعِ الأرضِ التي كانتْ طيلـــةَ القـــرونِ القليلـــةِ الماضية ملكًا لهم. ولكنَّ المحزنَ أنَّ خرافاتَ العهدِ القديمِ قد كانت في دوائر السياسة الغربية بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٤٨ هي الصدقُ، أمّا الحقائق فكانتْ نسيًا منسيًّا.

قاسى اليهودُ صنوفَ الاضطهادِ في العديدِ من الأقطارِ على مرِّ القرون، وانتهت مأساتُهم بفظائع مخيّماتِ الاعتقال النازيّة، وظلَّ الصهاينةُ يقولونَ إنّهم لن ينجو من الاضطهاد ما داموا مشرّدين بلا دولة تلمّ شعثَهم، وبلا هويّة وطنية تميّزُهم. بيدَ أنَّ ذلك لا يسوّغُ حرمانَ شعب آخرَ من حقوقِه. وإن كان الاضطهادُ هو حجتَهم للحصول على دولة لهم، فإنّ الفلسطينيّين الآن يتقلّبون على جمرِ الاضطهاد على يد إسرائيل. وتبقى الحقيقةُ التي تكذّرُ على الصهاينة هي أنَّ اليهودَ الذين اختاروا العيشَ في بريطانيا أو أمريكا أو أوروبا لا يرونَ ضرورة العيش في دولة يهوديّةٍ خالصةٍ كي يكونوا في مأمن من الاضطهاد.

يقول الكاتب الفلسطيني عفيف صافية:

لو كنتُ يهوديًّا أو غجريًّا لكان الهولوكوست لي أفظعَ حادثةٍ في التاريخ. لو كنتُ أفريقيًّا أسودَ لكانت هيَ العبوديّةَ والفصلَ العنصريّ، ولو كنتُ أحدَ الهنود الحُمْر لكان اكتشافَ الرحّالة والمستعمرين الأوروبيين للعالمِ الجديد الذي ترتّب عليه إبادة شبه كاملة لهم، ولو كنت أرمنيًّا لكانتِ المذابحَ العثمانيةَ التركية. أمّا وإني فلسطينيٌّ فإنّها النكبةُ. إنّ معاناة الشعوب لا تتباين، ولا يملك الحكمة من يضع ترتيبًا هرميًا للمعاناة، بل حريٌّ بالإنسانيّةِ أن تنظر إلى كلِّ ما ذكرناه آنفًا على أنّه بغيضٌ أخلاقيًا ومرفوض سياسيًّا. وقد بدأت البشريّة بشكل متزايد تعتنقُ الفكرةَ التي تؤكّد أنَّ النوعَ البشريَّ واحدٌ، وليس أنواعًا مختلفةً من الرجال والنساء(٣).

لكنّ المؤسفَ أنَّ الحكوماتِ الإسرائيلية المتعاقبةَ وعددًا كبيرًا من الإسرائيليين يعتقدون أنّ العرب الفلسطينيين "أنواعٌ مختلفة من الرجال

والنساء"، وقد نتج عن هذا استمرارُ الظلمِ في تعاملهم مع الفلسطينيين داخل إسرائيل وخارجَها. وما فَتِأتْ إسرائيلُ بعد عام ١٩٤٨ تتّبع السياسةَ ذاتها التي انتهجتها أثناء الحرب العربية الإسرائيلية، والتي تستهدفُ طردَ أكبرِ عددٍ ممكنٍ منَ العرب من المناطق التي خضعتْ لسيطرتِهم، ولم تفترْ لحظةً عن محاولة الاستيلاء على مزيد من الأراضي التي خصّصت للعرب الفلسطينيين.

تبرّأ الصهاينةُ كذلك من ذنبِهم تجاهَ مشكلةَ اللاجئين الفلسطينيين، بل أنكرَ الإسرائيليون على رءوس الأشهادِ أنّهم من وراء المشكلة، فلم يشغلوا بالَهم بالبحثِ عن حلٍّ لها، واستمرّ ذلك حتى كشف الحقائق بيني موريس وغيرُه من المؤرّخين الإسرائيليين. ولا شكَّ أنّ الرؤساءَ الأوائلَ لإسرائيل كانوا مدركين لما اقترفوه هم أنفسهم وهم جنودٌ قبل عدّة سنوات من تولّيهم السلطةَ، ولكنّهم تمكّنوا على مدى ثلاثين سنة أو أكثر من إقناع العالم وكثيرًا من الإسرائيليين كذلك، أنَّ العربَ الفلسطينيّين هم الذين اختاروا أن يكونوا لاجئين.

هذه حالٌ يندى لها الجبين، لكنَّ الأسوأ أنّني التقيت ببعضِ اليهود، ورأيتُ أنّهم لا يعرفون من أين أتى اللاجئون الفلسطينيّون أصلاً. فقد كنت في حفل غداء في لندن قبل سنوات، دعاني إليه أصدقاءُ لي يهودٌ، والمدعوّون جميعُهم يهود، إلاّ أنا وزوجتي. فتطرّقتْ إحدى الضيوف، وكانت امرأةً لطيفةً في منتصف عمرها، إلى قضية اللاجئين الفلسطينيين، ولم تكن تعلم أنّني فلسطيني، وكان ما يزعجها هو أنَّ أعداء الساميّة يستغلّون قضيّةَ

اللاجئين الفلسطينيين، وقالتْ: "إنّه لظلمٌ أن يستغلَّ الناس قضيّةَ اللاجئين الفلسطينيّين لينالوا من إسرائيل. فلمْ يكنْ أحدٌ يعلمُ بأمرهم أصلاً قبل قيام الدولة الإسرائيلية." أطرقتُ شيئًا كي أتمكّنَ من إدراك عمقِ جهلِ هذه المرأة، فهي تَظنّ على ما يبدو أنّ اللاجئين الفلسطينيين كانوا موجودين دائمًا كوجود الفقراء، ولمّا خرجتْ إسرائيلُ إلى حيّز الوجود صار هؤلاء اللاجئون شوكة توكِز في خاصرتِها.

ترتبطُ كلمة "اللاجئين" هذه الأيّام بكلّ ما يثير التعاطف معهم، فكلّما ذُكِرَ اللاجئون الفلسطينيّون تنبعث في الذهن صورةُ الحزنِ والحرمانِ والفاقة. وكلّما أسمع عن قصص عائلتي أثناء الهجرة الأولى من صفد مثلاً، أتخيّل جماعةً من الناس يختلفون كثيرًا عن غيرهم. أولئك الناس، منهم سعاد، أختُ حسيب، التي مُزّقت ثيابُها أثناء رحلة النزوح- على الرغم من أنّها بنتُ المدينة الفلسطينية المزدهرة- ومنهمُ المحامون والأطبّاءُ، والتجّارُ والمعلّمون، والقهوجيّةُ ومعاونوهم، ومنهم الأطفال، والمتزوّجون في سن الشباب، والشيبُ من الرجال والنساء، وأصبحوا جميعَهم بلا مأوىً ولا وطن، وافتقروا كلُّهم، ودخلَ اليهودُ من بعدهم يستحوذون على بيوتِ الفلسطينيّين، وينهبون ما تحويه من أثاث وجواهرَ ونقودٍ وقطع تذكاريّة عزيزة. وإن كان يصعب على الناس في بريطانيا أو أوروبا أو أمريكا أن يتخيّلوا معنى أنْ تكونَ فلسطينيًّا، فإن الإنسانيةَ لا تحتاجُ منهم إلا أن يتخيّلوا طبيعة الشعور لمّا يُرْغَمُ أحدُهم على الخروج من بيته في سويعات معدودة، تاركًا خلفَه كلَّ شيء لا يمكنه حمله، وأن يمشيَ أميالاً عديدةً إلى دولة أخرى، وألاّ يرجع أبدًا.

وعلى الرغم من ذلك كلّه، تمكّن الملايين من أبناء اللاجئين وأحفادهم من أن يستقرّوا في بلاد جديدة، وأن يزرعوا غراسهم في مجتمعاتٍ مختلفة، بنجاحٍ عظيمٍ في معظمِ الأحيان. فسعادُ، التي مشتْ من صفد إلى بيروتَ في صِغَرِها، توفيَتْ وهي على مرمى حجرٍ من قصر كنسنجتون في لندن، في منزل أخيها حسيب، الذي جنى ثروةً كبيرةً من شركته التي بدأها في حيفا عام ١٩٤٥. ومنهم والدي الذي وافته المنيّةُ بعد مسيرةِ عملٍ ناجحةٍ في السلكِ الدبلوماسيِّ الأمريكيّ، وأنا كذلك حقّقتُ نجاحًا في عملي كاتبًا ومنتجًا تلفزيونيًا. أمّا أبناءُ عمومتي وأبناؤهم فمنهم الآن الأطبّاء، والمهندسون والمخطّطون، وعلماء النفس، والمعلّمون في أوروبا وأمريكا وأستراليا... ولكنّي أقصدُ مما سلفَ مغزى آخر.

لمّا بدأتْ دولةُ إسرائيل الجديدةُ تؤسّسُ كيانَها، اكتشفتْ مستاءةً أنّ فيها نسبةً ضئيلةً من العرب الفلسطينيين (وهم عشرةٌ بالمئة من السكّان الأصليّين)، من بينهم بعض أفراد عائلتي، كعمّتي جورجيت، المعلّمة التي تزوّجتْ من ابن عمّها عبد الله وبقيتْ في حيفا، فنشأ ابنُها في إسرائيل، وتزوّجَ من فتاةٍ يهودية. وعلى الرغم من أنّ إسرائيلَ توصفُ عادة بأنّها "الديمقراطيةُ الوحيدةُ في الشرق الأوسط" فإن النزعةَ التي يمتلكها معظم الإسرائيليين تجاه العرب الفلسطينيين لا يمكن أن توصف إلا بالعنصريّة.

إنّ العرب واليهود غصنان من جذر الساميّة، وهذه الحقيقة تجرّنا إلى الحديث عن العداء اليهودي للساميّة، والمتمثّل بمقتهم للعرب. فالمرشدة اليهودية التي رافقتني في قلعةِ عكّا، ووصَفَتْ أحدَ ضحايا الإرهاب اليهودي بأنّه مجرّد "شخص عربي"، كانت معاديةً للساميّة. وقد تكرّر المشهد في شهر أيلول عام ٢٠٠٣ مع ضابطة الهجرة الشابّةِ في منطقةِ القادمين لمّا سافرت إلى إسرائيل وأبدتْ لِيَ مظاهرَ التعصّب ذاتها.

أمسكَتْ جواز سفري البريطانيّ، ولاحظتْ أنّ اسمي غيرَ إنجليزي فحسبت أنّي يهوديّ.

سألتني: "أين ستقيمُ في إسرائيل؟"

أجبتُها: "في فندقِ أميريكان كولوني في القدس".

فتعجَّبَتْ من ذلك وقالت: "لكنَّ هذا فندقٌ عربي(*) لماذا ستنزلُ فيه؟ ما العيبُ في أيِّ فندقٍ يهوديٍّ في القدس؟"

قلت لها: "أنزلُ فيه لأنّي أحبُّه."

فقالت بنبرةِ اشمئزاز في صوتها: "أتحبُّ العربَ؟"

تصوّرْ لو حصلَ هذا الموقفُ مع ضابط هجرةٍ بريطانيٍّ وزائرٍ يهوديٍّ وقال له: "لكنَّ هذا فندقٌ يهودي، لماذا تنزل فيه؟ ما العيب في أيِّ فندق بريطانيٍّ في لندنْ؟"

"أنزل فيه لأنّي أحبّه"

"أتحبَّ اليهود؟؟"

يصفُ كاتبٌ يهوديٌّ معاصرٌ الطريقةَ الإسرائيليّةَ في التعاملِ مع الفلسطينيين على هذا النحو: "حسنًا، نحن عانينا، وأنتم عانيتم، فلنناقشِ الأمرَ"، لكنّه يتابع ويقول: "لكنّا نقول: "كلا، ليس الأمر أنّنا "عانينا، وأنتم عانيتم، فلنناقشِ الأمرَ" بل إنَّ القضيّةَ هي "أنّنا عانينا، وأنّنا تسبّبنا بمعاناتكم، فلنناقش الآن الأمرَ" (٤).

(*) هو في الحقيقة فندق تملكه شركة سويدية، لكن معظم العاملين فيه من العرب.

هنالك حقيقةٌ واحدةٌ لا تتغيّرُ وراء هذا الموقِف، وهي أنَّ الخطوةَ الكبرى التي يمكن لإسرائيل أن تخطوها للمضيّ قدمًا في عملية السلام هي أن تعتذرَ عما فعلَتْ. إنّ السيطرةَ الصهيونيّةَ على فلسطينَ وطردَ سكّانها العربِ منها لَظلمٌ صارخٌ للفلسطينيّين، أنزله في ساحتِهم أناسٌ أصبَحوا هم الحكومةَ والمواطنين في إسرائيل. إنّ ما يؤجّجُ غضبَ الفلسطينيّين ويؤذيهم بمقدار ما حاق بهم من أصنافِ العذاب من فقدان منازلهم وتدميرها، وذبحِ أقاربهم، وقلعِ أشجار الزيتونِ من أراضيهم، والاعتداءِ المستمرّ على حريّاتهم المدنيّة، هوَ أنَّ إسرائيلَ لن تُقِرَّ بالظلمِ الذي أوقعتْهُ بهم.

إنّ قولَهم "إنّه لا يمكنُنا أن نقبل المسؤوليّة التاريخية عن هذه المشكلة" يطرح سؤالاً في المقابل: "مسؤوليةُ منْ هي إذن؟" هنالك العديدُ من كتبِ التاريخِ التي كُتِبتْ عن دولةِ إسرائيلَ وفلسطين والتي تخصّص مساحةً أكبرَ مما خصصتُه أنا لتحديد "أخطاء العرب" قبل عام ١٩٤٨ وبعده، والقصد من ذلك هو تحويل بعضِ اللوم في حقيقة ضياع فلسطين، وإلقاؤه على العرب الفلسطينيين أنفسهم. فقد حدّثونا عن أعمال العنف التي ارتكبها بعض العرب، وإحجامِهم عن المشاركة في العديد من المجالسِ التشريعيّة، ورفضِهم أيَّ شكلٍ من أشكالِ التقسيم، والمحادثات التي أجراها بعض قادتهم مع النازيين، وضعفِ مقدراتهم العسكرية، وغير ذلك الكثير.

وهذه حقائق إنّما الهدف من عرضها خلقُ ثِقَلٍ يوازي حجمَ الظلمِ الذي تضمّنه إعلانُ بلفور والانتدابُ البريطاني. ويجادلُ البعضُ ويقول إنَّ العربَ الفلسطينيّين لو فعلوا كيتَ و كيتَ لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه اليوم، ولذا يجب عليهمْ أن يتحمّلوا جزءًا من الملامة على مصيرِهم. ومَثَلُ هذه الحجّةِ

في ضعفِها مَثَلُ رجلٍ انهالَ اللصوصُ عليه بالضرب ثم عَدَّه الناسُ مسئولاً عن إصاباتِه لأنَّه قاومَهم، ولذا يجبُ أن يحصلَ اللصوصُ على حُكْمٍ مُخفَّف، لأنّه لو أعطاهم مِحفظتَه بعد اللكمة الأولى على وجهه لما اضطرّوا إلى كسر ذراعيه وقدميه.

إنّ الفلسطينيّين لم يفعلوا شيئًا ليستحقّوا هذا المصير؛ أهُم من قتلوا أنفسَهم وخرجوا من ديارهم؟ أهم من أرغموا يهودَ أوروبا على أن يأتوا بأفواجِهم إلى فلسطين، وأن يشتروا منهم أراضيهم عنوة؟ أهُم من ضغطَ على الحكومة البريطانية لتمنحَ سواهم أرضًا ليستْ لهم؟

لا يخفى على أحد أنَّ عددًا قليلاً من السياسيّين الإسرائيليّين الرابضين على الحكم اليوم كانوا قد شاركوا فعليًّا في احتلال فلسطين. (أمّا شارون فشارك في ذلك كغيره من رؤساء الوزراء الإسرائيليين الأوائل). أمّا الإسرائيليونَ الذين يعيشون اليومَ في المنازل الفارهةِ التي كانت من قبلُ لإحدى العائلات العربية ليسوا مسؤولين عن سرقة المنزل في المقام الأول، لكنَّ عليهم أن يُقرّوا على الأقلّ بأنَّ سكّانَه الأصليّين خرجوا منه لا عنِ اختيارٍ منهم، بل لأنّهم طُرِدوا منه بوحشيّة، وحُرِموا من العودةِ إليه.

كلُّ شخصٍ عاقلٍ ينتفضُ ويثورُ إنْ سَمِعَ شخصًا يحاول تحويلَ اللّوم عن ألمانيا النازيّة عندما أبادتْ ستّةَ ملايين يهوديّ. لكنَّ ألمانيا الحديثةَ قد بَذَلَتْ جهودًا جادّةً، وقدَّمَتْ تعويضاتٍ ماليّةً كبيرةً، في اعترافٍ منها بمسؤوليّتها عمّا حصل لليهود. وقد حان الوقت لكي تقومَ دولةُ إسرائيلَ بمثل ذلك مع العرب الفلسطينيّين، وأن تؤوبَ إلى تفعيلِ الحوارِ الملتزم بالصدقِ وتبنّي العقليّة المنفتحة لرؤية السبيل نحو إنهاءِ هذا الظلمِ الصارخ الذي لا تمحوه الأيام.

هوامش الخاتمة

(1) Avi Shlaim, The Iron Wall, W. W. Norton, 2000, p. 38.

(2) Raymonda Hawa Taweel,My Home, My Prison, Holt, Rinehart and Winston, 1979, pp. 3-4'

(3) Afif Safieh, On Palestinian Diplomacy, Palestinian Delegation to the UK and the Vatican, 2004, p. 21.

(4) Paul Eisen.http://www.nonprofitnet.ca/wao/wao.php?show&720

المؤلف فى سطور:

كارل صبّاغ

كاتب بريطاني من أصل فلسطيني، نجل أحد أهم المذيعين العرب في إذاعة البي بي سي في حقبة الأربعينيات من القرن العشرين. ولد عام ١٩٤٢ في بريطانيا لأمٍّ إنجليزية وعمل في مجال الكتابة والعمل الصحفي والإنتاج التلفزيوني. يكتب في صحف ومجلات عالمية مثل الصندي تايمز والجارديان، وكتب عدة كتب منها (Rum Affair) و(Riemann Hypothesis) و (Power into Art). وهو يعيش حاليًّا في إنجلترا.

المترجم فى سطور:

محمد سعد الدين زيدان

مترجم شاب حصل على شهادة بكالوريوس اللغة الإنجليزية من الجامعة الأردنية عام ٢٠٠٨، وهو يتابع الدراسات العليا في الجامعة ذاتها. نشر عددا من المقالات المترجمة وترجم كتاب فلسطين: تاريخ شخصي، للكاتب الفلسطيني البريطاني كارل صباغ.

وهو يعمل حالياً على ترجمة كتاب (موت اللغة) للمؤلف البريطاني ديفيد كريستال.

المراجع فـى سطـور:

محمد شاهين :

أستاذ الأدب الإنجليزى والأدب المقارن بالجامعة الأردنية مـن كتبـه بالإنجليزية التى نشرتها دار النشر ماكميلان – لندن : "الدوائى مردث".

"القصة العربية القصيرة" (ط. أولى ١٩٨٩، ط. ثانية).

"فورستر وسياسة الاستعمار".

"إليوت فى العربية" (مطبعة جامعة مين – أمريكا).

"پاوند فى العربية" (مطبعة جامعة مين – أمريكا).

قان بنشر العديد من الأبحاث بالإنجليزية والعربية فى مجالات عالمية مـن كتبه بالعربية:

إدوارد سعيد: رواية للأجيال.

إدوارد سعيد: مقالات وحوارات.

تأثير إليوت فى العربية: السياب – صلاح عبد الصبور – محمود درويش.

الأسطورة فى الأدب.

أفاق الزاوية.

التصحيح اللغوي: حـــامد أحــمد

الإشـــراف الفني: حســـن كـــامل